الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

محمد مظلوم

الفِتَنُ البَغْدادِيّة

فُقَهاءُ ٱلمارِيْنِز وَأَهْلُ ٱلشِّقاقِ



ابوعلي الكردي

التكوين

دراسات


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الفِتَنُ البَغْدَادِيَّة

فُقَهَاءُ المَارِيْنَ وَأَهْلُ الشِّقَاقِ



- الفتن البغدادية – فقهاء المارينز وأهل الشقاق
- محمد مظلوم
- الإخراج الداخلي: طالب الداوود
- الطبعة الثانية: 2009

ISBN 978-9933-429-15-7



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية
تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989
ص . ب : 11418
WWW.ATTAKWIN.COM
INFO@ATTAKWIN.COM
taakwen@yahoo. com

محمد مظلوم

الفِتَنُ البَغْدَادِيَّة

فُقَهَاءُ المَارِيْنْزِ وَأَهْلُ الشِّقَاقِ

دار التكوين

المحتويات:

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

ملحق:

(وزلزلتْ بغدادُ مراراً فيْ هذهِ السنةِ وزادتْ دجلةُ زيادةً كبيـــرةً غَرِقَ بِسببها خَلقٌ كثيـــر وقيلَ لعضد الدولة: إنَّ أهلَ بغدادَ قدْ قلُّـــوا كثيـــراً بـــسببِ الطّاعون، وما وَقَعَ بيْنَهُمُ من الفِتَنِ بسببِ " الرَّفْضِ والسُّنَّة"، وأصابَهمُ حَريقٌ وَغَرقٌ، فقال: إنّما يُهيِّجُ الشرَّ بين الناسِ، هؤلاءُ القُصَّاصُ والوُعَّاظ.)

ابن كثيـــر البداية والنهاية:

أحداث سنة 367هـــ.

(رَفَعتِ الفتنَةُ أحيادَها، وجمعتْ للشرِّ أجنادَها، وأعلَتْ قواعدَها، وأطالـــتْ سواعِدَها، نيـــرانُ الفتنةِ تشتعلُ اشتعالاً وراياتُ الْهَرَجِ تَخفقُ يميناً وشمـــالاً، أضحتْ تلكَ البلادُ وهي نارٌ تتلظى، وناسٌ يأكلُ بعضُهم بعضاً، في كـــلِّ دارٍ صرخَةٌ، وفي كلِّ دَربٍ نعرةٌ، وفي كلِّ زاويةٍ ظالمٌ لا يُنـــصِفُ، ومظلـــومٌ لا يُنْصَفُ، فالنَّهارُ ليلٌ بالدُخانِ، والليلُ نَهارٌ بالنيـــران.)

أبو منصور الثعالبي: لباب الآداب

باب السلطانيات وما يقع في فتونها.

المقدمة

يُمكنُ وصفُ هذا الكتاب بأنّه الجزءُ الثالث من شهادةٍ شخصية للإمساكِ بلحظة تاريخية غاية في التعقيد والتداخل في تاريخٍ العـــراقِ المعاصر، فبعد كُتاب "ربيع الجنـــرالات ونيـــروز الحلاجين 2003 " وكتاب "عراق الكولونيالية الجديدة - من ملحمة كلكـــامش إلى خرائط كولومبس2005 يأتي " الفتن البغدادية — فقهاء المارينـــــز وأهل الشقاق"

وإذا كان الكتاب الأوَّل قد تحدَّث عن العراق المطمور تحت نـــار الحرب وخرابها، إذْ كُتب خلال الفترة ما بين التحضيـــر للـــهجوم الأميـــركي على العراق، حتى يوم التاسع مـــن نيـــسان/ أبـــريل 2003، اليوم الذي بدا في نعوتـــه الكثيـــرة ملتبـــساً في أذهـــان الكثيـــرين، فإن الكتاب الثاني تحدَّث عن العراق المكشوف تحـــت الاحتلال، محاولاً تعزيـــز الفكرة السابقة عـــن أنَّ الجنـــرالات لا يُمكنُ أن يأتوا بـــربيع الحريَّة، لكنْ فقط بدماء الضحايا: حلاَّجـــي تلك اللحظة التاريخية الملتبسة.

أما هذا الكتاب فيتَّصلُ مع ما سبق في كونه يتحدَّثُ عن العراق وهو في أتون الفتنة محاولاً أن يـــرصدَ الوقائعَ التي أعادتْ تهييجهـــا بعد سقوط الدكتاتورية.

على أن اللافتَ تعاقبُ ثلاثة سفراء "للولايات المتحدة" على العراق خلال هذه الفترة، بصيغة المندوب السامي الموروثة من عهد تحوّل الاحتلال البريطاني، إلى انتداب ووصاية، تحت تسمية ما سمي الاستقلال.

فبعد أن غادرَ بريمر العراق، حل نغروبونتي، ولم تتبدل الأوضاع كثيراً في عهده البسيط، إلا في تلك الانتخابات " الناقصة" في كانون الثاني 2005، ليأتي بعده زلماي خليل زادة الذي سيشكّلُ وجودُهُ في العراق، عهداً جديداً من عهود "التحولات الممسوخة " للاحتلال بينما يدخلُ العراقُ، واحدةً من أخطر مراحل تاريخه الحديث.

وكما في الكتابين السابقين، لم أشأْ وأنا أرصدُ هذه المرحلة أن أذهبَ نحو صرامة التحليل السياسي الخالص المعزول عن الماضي، بل إلى تفكيك اللحظة وتقليبها في الحاضن الاجتماعي ومقاربتها بأمثلة وشواهدَ من التاريخ القريب والبعيد لكي يمكن إضاءة مناطق اللاوعي الجمعي التي تجعل منها حاسمةً ومفصليةً في تشكيل المستقبل.

وخلالَ مراجعتي لما كُتب عن العراق بعد الاحتلال البريطاني عام 1917، خاصة ما كتبهُ بعض مسؤولي إدارة الاحتلال آنذاك، من كتبٍ ورسائلَ ومذكرات، لاحظتُ أنها تصلح أن تكون مجالاً مهما في هذا السياق خاصة وأن تلك الكتب والمذكرات المنشورة ركّزتْ على تحليل البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمع العراقي بنظرة ذات نزعة استشراقية وشهادات واستشارات محلية لم تكن دقيقةً في

الكثيـــر منها، وهي ستكون دليلاً لاحقاً يبني عليـــه الأميـــــركان وشركاؤهم البـــريطانيون صورةً مجتزأةً عن الثقافة والمجتمع العراقيين.

لذلك فأن قراءة نقدية جديدة لما كتبه المؤثرون في صناعة اللحظة والفكرة والحدث آنذاك كالمستر أرنولد ولسون والمس بيل وسواهما، ستكون ذات فائدة جمة في مقاربة راهن البلاد، وتقديم شهادة ثقافية إزاء ما يجري قبل أن تتمَّ مصادرتُها بمذكرات إضافية لمسؤولين جدد صنعوا المأزق السياسي للبلاد.

ومع هذا الاجتزاء في صياغة الصورة من جانب "الأغيار" فإن ما كتبه الأسلاف كالمؤرخ عباس العزاوي في "موسوعة تاريخ العـــراق بين احتلالين" والدكتور علي الوردي في "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق" قدمَ منحى آخر يضيء جوانب مهمة لقراءة الحاضر، لذلك ركّزتُ في هذا السياق على إضاءة واقع اللحظة التي ســـرعان مـــا تُصبحُ تاريـــخاً، ومن المهمِّ أن تتحوَّلَ إلى عِبَـــرة، لكنـــها، ويـــا للأسف، بقيتْ (عابـــرةً) كما هو الشأنُ دائماً.

لكنني، هنا، لن أكونَ مؤرخاً حيادياً، وإنما سأقدمُ شهادة شخصية في الأدب السياسي تنحاز "للعبـــرة المهملة" وتسعى إلى نقد "الثقافة السياسية" التي أمسكت بالماضي فضيعته، وتمسك اليوم بالراهن فتعيدُ تبديدَه، وذلك من خلال مقاربة مفاصل حيوية في نسق تلك الثقافة.

وإذ أضعُ حدَّي " الفتنة" بين ما جاء به المارينـــز" وما اهتاج من كوامن " الطوائف" فليست ثمة مسافة نوعية بين "فقهاء المارينـــــز" و" أهل الشقاق" في هذه "الأساطيـــر الجديدة" مثلما لا توجد مثل

هذه المسافة ما بين فتـــن بغداد في تاريخها سواء في بدايات القـــرن الماضي أو في ثنايا القرون الغابـــرة.

بعد هذا لن يكونَ السؤالُ عن تاريخ "فقهاء المارينـــز" منفـــصلاً عن جذره الطبيعي المتمثل بحشد من "النخبة المجتلبة" المسوّقة لأحلام جيوش الإمبـــراطوريات والمنساقة لها، تماماً مثلما كانت هناك ثقافةٌ تسوِّقُ للدكتاتورية وتخضعُ لسلطانِها، ولا غرابةَ بعد ذلك أن نجـــدَ كلَّ هذا الإعلام الذي يـــزوِّر نفسَه بالتقسيط قبل أي شيء آخـــر، فأية متابعة لماكينته العمياء ستكشف عن هذا النسخ المفرط بالتخلي عن طروحاته في كل آن تبعاً لإيقاع خطـــاب كولونيـــالي عميـــق التأثيـــر. لن نكون بحاجة للتذكيـــر بحرب (الاستيلاء على عقـــول البشر) التي لخصها كتاب "الحرب الباردة الثقافيـــة- المخابـــرات المركزية الأمريكية وعالم الفنـــون والآداب" للباحثـــة البـــريطانية فرانسيس ستونـــر سوندرز، للتدليل على أن طلائـــع المارينـــز لم تسبقها في الواقع سوى تلك "المواعظ المـــاكرة" المودعـــة في ثنايـــا خطاب " الأساطيـــر الجديدة".

سيبدو كتاب سوندرز من قَبيل التاريخ وبقايا تـــراث الحـــرب الباردة، إذا ما قورن بكثافة الجهد الإعلامي الحالي في العـــراق بعـــد الاحتلال، ولكي لا نصبَّ في المقدمة ما يمكن أن يجد سياقه في متن الكتاب، نشيـــر إلى تقريـــر نشرته جريدة لوس أنجلـــوس تـــايمز في الثلاثين من تشرين الثاني / نوفمبـــر 2005، تحت "عنوان الجـــيش

الأميـركي يموِّل عمليات سرية لنـشر التقاريـر في الـصحافة العراقية"(1).

الواقع أن تـاريخ المارينـز، هـو نفـسه تـاريخ التوسـع "للإمبـراطورية الأميـركية" من معارك الاسـتقلال إلى حـروب الاحتلال فقد نشأ تشكيل المارينـز تعبيـراً مبكراً عن نشوء تلـك الإمبـراطورية، وارتبط بفكرة توسُّعها نحو ما بعد البحار فالمارينـز "بحارة ومشاة" في الوقت نفسه يسلكون الماء ليمشوا في نهاية الأمـر

(1) كاتبا التقريـر : مارك مازيتي وبورزو دراغاهي واجها في بغداد ثلاثـة مـن مديـري أو محرري تلك الصحف وهي المدى والمؤتمر والدستور، الذين حـاولوا إنكار الموضوع ابتداء، وبعد أن واجهاهم بعنوانات بعض تلك المقالات المنـشورة، يصفها التقاريـر بالعشرات، وتاريخها والمبالغ المدفوعة عنها، وبأنهم جرى توظيفهم في حملة نفسية عسكرية سرية قامت بها "القوات الخاصة للعمليات الإعلاميـة" في العراق بالتعاون مع مجموعة لنكولن ذات المتعهدين العراقيين، تراوحت أجوبتهم بين الاعتراف بإنهم أميـركيو الولاء فعلاً، كلؤي البلداوي رئيس تحريـر "المؤتمر" أو إنهم كانوا يضعون في ترويسة الصفحة التي تنشر فيها تلك المقالات عبارة" خدمات إعلانية" لتمييـزها عن باقي المقالات، كما جاء في جواب رئيس تحريـر جريـدة الدستور باسم الشيخ. لكن اللافت كان رد مديـر تحريـر المدى عبـد الزهـرة زكي التي وصفها التقريـر بانها صحيفة متميـزة وتكثر من نشر " الشعر" إذ قال "إنهم حزينون ويجب أن يحققوا مع قسم الإعلان الذي نشر تلك المقالات!" لكنَّـهُ أردف كان يجب أن نطلب من الأمريكان أموالاً أكثر خاصة وإن الجريـدة تعـاني ضائقةً مالية.

على أرض ما، رحلة كولومبس المعكوسة هذه المرة، تحتاج إلى فقهاء وكشّافة ومستطلعينَ يعرفون الأرضَ الأخرى جيداً.

فمنذ الحرب على الهنود الحمر إلى الحرب المكسيكية وحروب القوميات في أميركا إلى حرب الطوائف في العراق، مُروراً بالحرب الكورية والإنزال في لبنان عام 1958 "على خلفية ثورة 14 تموز في العراق" إلى إنزالها الثاني في بيروت صيف عام 1982، اكتسبتْ "كشافة" المارينز سمة نمطية في الذاكرة لفرض ثقافة القوة على العالم وقمع حركات التحرر، ونزعات التمرُّد "البربري" من أميركا الجنوبية إلى أوربا وأفريقيا وآسيا، لكنَّها تعرضت ذات يوم للاهتزاز في ربيع 1975 بهزيمة مدوية في فنوم بنه عندما تحددت مهمتهم بإخلاء المواطنين الأمريكان وأعوانهم من " الكشافة" في " الهند الصينية".

مع القرن الحادي والعشرين، أو ما صار يعرف اليوم بعالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، أضحى المارينز عنواناً عريضاً لمرحلة جديدة من إدارة الصراع ما بعد الحرب الباردة وأسس لثقافة "حريات بلا حُدود في عالم يسودهُ إرهاب بلا هوية".

ولم يعد "الكشّافةُ" مجرَّدَ دلائلِ استطلاعٍ، بل أصبحوا فقهاء العقيدة الجديدة.

إنها الثقافةُ التي تجعلُ من الخطاب الطائفي في المنطقة وكأنَّهُ المتنُ الأساسيُّ الْمُضمرُ من تاريخها، وهي الثقافةُ التي تؤدِّي اليوم إلى ظهور "المثقف الطائفي" أو تعيدُ إحياءَ هاجس قديم فيه، ليس ذلك

المثقف الذي ينتمي للطائفة كثقافة أقلّويّة ذات سمات محليّة وطقوس وذاكرة، بل الذي يحتمي بالطائفة كجماعة بشرية، يلوذُ بها ليحقّــقَ حُضُورَهُ داخلَ الهويّات الضيّقة، ولا بأسَ أنْ نــشيــر إلى التحــوُّل السلبيِّ من "ثقافة الطائفة" بوصفها عنصراً محلياً في التكوين الثقــافي للفرد، وبين " طائفية الثقافة" التي تقومُ على إنكار الآخر والتغليــب والإلغاء. " الثقافة الطائفية" هنا ليست سوى امتداد لثقافات الهويات الضيّقة القبليّة، والحزبية والمناطقية. وبإزاء مصطلح "مثقف الــسلطة" الذي ترعْرَعَ في أحضان الحقبة المنصرمة فإنَّ عَدداً من مُربّي الثقافــة الطائفية ودعاتِها في العراق الجديد،كانوا هم أنفسُهُم مروّجي تلــك الثقافة المهزومة.

نعم من شأن المثقف أنْ ينتصرَ للثقافة المقهورة أياً كانت سماتُها، لكن ليس بوصفها هويةً نهائيةً بل بكونها انحيــازاً طبيعيــاً لثقافــة المهمشين والمقهورين والمطرودين من متون التواريخ.

وفي مقابل هذا الاندغامِ الضيّقِ، بــرزتْ "طائفةٌ" أخرى أو قــل طوائفُ متعددةٌ، وسَّعتْ مفهوم الهوية بتطرُّف، بل مزقته تماماً لتندرجَ في نسقِ العالم الجديد القائم على التماثل والانصياع لنموذج القــوة بوصفها إمبــراطورية الهويات.

وسط هذا التمزُّق، أين يُمكن تقصّي التنشئة الجديدة للفتنة؟

إنها تنشأ اليوم، وعلى حدٍّ سواء: في قفص الدكتاتور، وفي مشهد الاحتلال اليومي، وفي معارك الأضرحة على جانبي بغداد، وكــذلك في المنافي التي لا يبدو أنها ستنتهي، إذ ثمة فتنة تعــشش في الخــارج

أيضاً، صقورها وأوكارها من زمنين مختلفين لكنهم يتواطأون علـى تهييجها بين وارث ووريث، هذا هو ما يفرقهم وما يجمعهم ربما.

وبعد. فإنّ هذه الفصولَ المبثوثةَ في كتابات ذات عنـاوينَ تبـدو متعدِّدةً، ما هي في الواقع إلا رصدٌ متَّصلٌ للحظة المَتدفّقة وتوثيقٌ لمـا هو مُوثّقٌ أصلاً في الذاكرة، ولكنَّها الذاكرة التي لا تريـدُ أن تبقـى محايدةً أو شخصيةً تماماً، خاصةً وهي في مواجهة ماكينـة إعلاميـة رهيبة مضادة، ولكي لا يبدو تاريخ العراق في المستقبل البعيد مشوشاً بضجيج أبواق الكشافة، والفرق الإعلامية السرية، تنـزع هـذه الذاكرة إلى العلانية والمواجهة عندما يكون كل شيء مـائلاً نحـو الانـزواء والكتمان.

الفصل الأول

قفص الدكتاتور والذّاكرة المحتلة

صدام وبــريمر، في المشهد الأخيــر. الحاكم المخلوع شاعراً!

سلّم بول بــريمر الثالث الحاكم المدني للعراق، ورقــة الـــسيادة، للياور وعلاوي بحضور نائبيهما، في مظروف جلدي ذي لون أزرق داكن يشبه ألوان البدلات الرسمية لهكذا مناسبات، إنه بــــروتوكول شائع اليوم في ثقافة العولمة التي لا ينبغي إغفال ما تحدثه من إحـــلال مثل هذا البـــروتوكول على سبيل المثال وتنحية الكثيـــر مما يمكن أن يعد اليوم في ذمة الفولكلور المحلي ويجعله مهجوراً في منطقة مظلمة، لكن المهم في بـــروتوكول كهذا أنه يجعل من بلاد محتلـــة، دولـــة مستقلة، بورقة ليس إلا، على الرغم من أن المحتلين أنفسهم لم يحملوا معهم مثل تلك الورقة، أو تأشيـــرة دخول عندما دخلوا البلاد، لقد لاح السيفُ أصدقَ إنباء من الكتب، بيد أن هذه الورقة قـــد تعيـــدُ الاعتبارَ للكتب والكتابة، خلاف ما أراد أبو تمام في قصيدته الملحمية مجلجلة الصور الحربية عن معركة عمورية.

وثيقةُ السيادة في المظروف الجلدي الأزرق، تناقلتها الأيدي الـــتي تقاطعت للمصافحة، والقوات الأميـــركية تجوب شـــوارع المـــدن العراقية بدورياها، وبـــريمر ينتقل بأفكاره نحو أميـــركا البعيدة.

لعلَّ صباح السيادة، في الثامن والعشرين من حزيــران / يونيــو 2004 من الصباحات القليلة التي لم يفقْ فيهــا العراقيــون علــى تفجيــر سيارة مفخخة أو مواجهات مسلحة في شوارع العاصــمة وبقية مدن العراق، فهو صباح مر بسلام تقريباً، عندما سلم بــريمر صك السيادة لعلاوي والياور بوساطة رئيس القضاء العراقي، لكــن بقية الساعات لن تكون بالضرورة كتلك اللحظــة التاريخيــة الــتي اختارها الأميــركان للإعلان عن تسليم السيادة للحكومة المؤقتة.

ومع هذا فإن الاحتفال بعودة السيادة لم يكن احتفالاً بأي مــن معاني الاحتفال، بل كان إجراء مرتبكاً صمم على عجل وبدا فيــه كلُّ واحد من الحاضرين لا يــدري كيــف ستــسيــر الأمــور البــروتوكولية، تقديم موعد التسليم ثماني وأربعين ساعة لدواع أمنية كما قيل، أسهم في تشكيل مشهد الارتباك، بينما كــان العراقيــون الذين اعتادوا أن تأتي القرارات المصيــرية المتعلقة بمستقبل بلادهــم هكذا دائماً خارج المواعيد، وخارج منطق الأحــداث، وخــارج التوقعات أيضاً.

فالأخبارُ العاجلةُ تتواردُ من العراق وقد أضحى الصورة الفضائية للعالم الشمولي!

فكلُّ شيء في البلاد صار نوعاً من الخبــر العاجل على شاشات العالم الفضائية ووسائل إعلامه المختلفة، ومثلما ظل الــدم العراقــي عاجلاً في الأخبار اليومية وأحياناً على مدار الساعة، فإن التعجيــل بالإعلان عن نقل السيادة قبل موعدها بثمان وأربعين ساعة يعيد أمام العراقيين صورة البيت الأثيــر لأبي العلاء المعري:

«تقفون والفلكُ المدبـــر ساخرٌ

وتقدّرون فتضحك الأقدار»

الضحكُ يصوغُهُ هذه المرة «بول بـــريمر الثالث» كآخر مشهد له قبل أن يطيـــر إلى دياره، وهو ضحكٌ قـــد لا يـــستجيب لنظريـــة بـــرغسون واشتراطاته لقوانين الفكاهة «ولكنَّهُ ضـــحك كالبكـــا» على تعبيـــر المتنبي، ضحك بدا فيه الحاكم المدني للعـــراق، يـــسلم السلطة ويبارك من يتسلمها من بعده، مشهد لا يتكرر كثيـــراً في بلداننا.

لكنَّهُ تسليم للسلطة وليس للسيادة، الأميـــركان أنفسهم يـــرون هذا الفارق النوعي بين الحدين.

السلطة المحتلة، السلطة التي جرى تـــداولها بـــالاحتلال دائمـــاً، بالعسكرتاريا الخارجية والداخلية لن تخرج اليوم عن هذا التاريخ من التوصيف.

ومرةً أخرى تجري الاستعانة بالعلم القديم، محل الخلاف الأقل من علم مجلس الحكم، ثماني عشرة نسخة منه ظهرت هذه المرة خلـــف الرئاسة ونوابها وهي تؤدي القسم.

فالحديثُ اليوم يجري عن عودة للسيادة أكثر من الحـــديث عـــن عراق جديد.

ويبدو أن نوستالجيا الماضي تجسدت بعلم لم يكن بديلـــه بـــأكثر قبولاً منه، النسخ الثماني عشرة من العلم القديم، أريد لهـــا، علـــى الأغلب، أن تشيـــر إلى عدد المحافظات التي يتألف منـــها العـــراق،

وعلى الرغم من أن ثمة ثلاث محافظات كردية ترفض حتى الآن رفع العلم بصورته القديمة، فإن المضي قدماً في مناطق أبعد لتأويل العدد ثمانية عشر وعلاقته بنقل السيادة، سيقود إلى تأويل طريف قد يشير إلى سن الرشد للبلاد الخارجة من فكرة الاحتلال سيئة الصيت إلى مفهوم السيادة الملتبسة.

لكنَّهُ من جانب أخر عددٌ يحمل أولى النذر لمعالم الفتنة إذا ما كان التأويل حقيقياً، لماذا ثمة نسخ متعددة للأعلام على الطريقة الفيدرالية الأميركية، وليست نسخة واحدة كما اعتاد العراقيون. أهي بيارق الطوائف التي ستحمل بعد حين لأمر لا تسرُّ عواقبه؟

ثمة دلالةٌ مضافةٌ في توقيت الإعلان عن نقل السيادة أو تقديم الموعد الذي كان مقرر في الثلاثين من حزيران / يونيو، فقد سبقت صورة هذه المراسيم المرتبكة في بغداد، تصريحات من اسطنبول حيث يعقد مؤتمر دول الناتو.

هوشيار زيباري، أول وزير خارجية عراقي يحضر مؤتمر الحلف، كان أول من أعلن نبأ هذا التعديل في التوقيت حين عبر عن «اعتقاده» بأن موعد تسليم السيادة قد يقدم يومين، موعد تسليم السيادة البديل، جاء من مكان آخر إذن، أجندة الناتو هي واحدة من الضرورات لتقديم الموعد، ضرورة تتداخل مع رغبة الحلف في تطويع الشرق بقوسه المنحني ربما في مسعى بعيد المدى لضم العراق في مرحلة لاحقة، ضمن مشروع خطط تصاغ على مهل بيد أن تمرير عناصرها يجري على عجل كضرورات، لا كاستحقاقات.

الناتو في العراق، يضع مسماراً أولياً، فهو يتدخل في تقديم موعد السيادة، وفي تدريب القوات العراقية، وفي القوة متعددة الجنــسية، تسمية تالية لمرحلة قادمة، وأميــركا في العراق بالناتو خيــر منــها بسمعتها السيئة وبكلمة الاحتلال البغيضة.

الحدثان اللذان رافقا هذا الإعلان، كانا مصنوعين بعناية أكثر من مناسبة تسليم السيادة نفسها، أخبار عاجلة أخرى، بلا يقين وليست حمراء هذه المرة، عن سقوط الأردني أبو مصعب الزرقاوي في أيدي الأميــركان، وسيناريو محكم عن تسليم صدام وأعوانــه للعــراقيين لمحاكمتهم. الحدث الأول سرعان ما سقط بعجالة أيــضاً، شــائعة أخرى في بلد الشائعات، إذ ليس الزرقاوي سوى ورقة أخرى لم يجر تسلمها مع السيادة، ربما لأنها ورقة خارجية ولعلها ســتبقى طليقــة حتى يحين موعدها الموعود وظرفها التاريخي المنشود.

أما صدام رمز السيادة المفقودة، منذ العام 1991، عندما خرجت ثلث مساحة العراق عن سلطته، وعندما أجبــر على ترك قــصوره الرئاسية وغرف نومه ليتجول فيها الخبــراء والجواسيس من المفتشين الدوليين بعُددهم وعديدهم، فهو الورقة الإضافية التي يجري تسليمها لسد النقص الحاصل في مفهوم السيادة، الدكتاتور المهــزوم الــذي شغلت صورته مساحة ورقة الآس في حزمة أوراق المطلوبين، هــو ورقة الآس الجديدة في لعبة السيادة، وفي لعبة العدالة الفوقيــة الــتي يجري تنفيذها في العراق.

ومثلما جرى استخدام صدام عنصراً فعالاً في الوصفة الــسحرية لتحريــر العراق أو احتلاله، يبدو اليوم عنصراً لم يفقد شــيئاً مــن فعاليته في تركيبة عودة الــسيادة للعــراقيين، فأسيــــر «حــرب

التحريـــر» يصبح اليوم واحداً من رموز السيادة العراقية المنقولـــة، بصفحاتها المتعددة والمتناقضة أيضاً.

الساعاتُ الثماني والأربعون التي قدمت، علـــى موعـــد تـــسليم السلطة، لم تلغِ الدلالة القوية ليوم الثلاثين من حزيـــــران/ يونيـــو، فصدام هو بطل الموعد الجديد، رمز السيادة المفقودة، يعود معتقلاً في يوم السيادة العائدة!

أما تاريخُ الثلاثين من حزيـــران / يونيو نفسه، فقد بقي الموعـــد الوعد للعراقيين، فالمحاذيـــر الأمنية لتسليم صدام والأحد عشر متهماً من أعوانه، ليست بمستوى المحاذيـــر الأمنية لتسليم الـــسيادة كمـــا يـــرى الأميـــركان، والانفلات المحتمل لن يذهب أبعد من البكـــاء على صدام أو التشفي به.

فمشهد اعتقاله يلخِّصُ في جانب واضح منـــه ثنائيـــة الـــسلطة السيادة، أو قل السيادة المزعومة والسيادة الواقعية أو السيادة بالمفهوم القانوني وتلك التي على الأرض، فصدام يسلم «قانونيـــاً وقـــضائياً» للعراقيين، لكنَّهُ سيبقى تحت حراسة أو قل حماية أميـــركية إلى أمـــد غيـــر معلوم، وينهض السؤال الأبـــرز ملتصقاً بصدام من جديـــد، هل كان الدكتاتور رمزاً للسيادة أم رمزاً للسلطة؟

صدام وأحد عشر من أبـــرز أركانه يمثلون أمام القضاء العراقي، إثنا عشر رجلاً من أعتى القساة يجسدون انهيار الـــسلطة في أبـــــرز تعبيـــر عن السيادة الجديدة، السلطة مقابل السيادة مرة أخرى.

إنها لعبة التسميات، بلاغة لتصويـــر الفعل في مـــشهد مختلـــف، السياسيون قادرون على ابتكار التسميات وتصديـــرها بحلة أخرى،

تزيينها بشكل ما لتبدو مقبولة ومتلائمة مع خطاب المرحلـــة، الأدب السياسي وحده يشهد تحديثاً بلاغياً نوعياً، فقوّات الاحتلال تـــصبح بعد تسليم السيادة «قوات متعددة الجنـــسيات» المحـــاربون ذاتهـــم يتحولون تحت حرارة شمس تموز / يوليو في العراق، إلى ظلال هـــذه التسمية ليكتسبوا صفة أخرى، حتى دون أن يستبدلوا خوذ الحـــرب بقبعات ملوّنة، فقد قرأ بـــريمر بنفسه وثيقـــة الـــسيادة، أو صـــكّ الانتداب الجديد، وغادر وحده تاركاً خلفه جيشاً جراراً يـــرعى سيادة البلد الذي احتله. مجلس الحكم تجري غربلته، لتتمخض عـــن هذه الغربلة حكومة مؤقتة راهناً، قد تستمرُّ حكومةً منتخبةً في الآجل المنظور، الجيش العراقي يُعاد تشكيله بخـــرائط وتـــسميات جديـــدة وبدلات ذات ألوان أخرى، ليصبح «جيش الدفاع المدني» و«الحرس الوطني» و «لواء الفلوجة» بيارق وأعلام وشارات متعـــددة، ولأن الناس يفهمون البعد السيئ لقانون الطوارئ، أو الأحكام العرفية، فإنّ تسمية «قانون الدفاع عن السلامة الوطنيـــة» ســـتبدو مستـــساغة كمفهوم لتعطيل بقية القوانين المعطلة أصلاً.

طار بـــريمر «البغدادي» إذن بمجرد أن خسر وظيفته. لعلّه أسرعَ في الطيـــران إلى دياره ليتفرغ لكتابة مذكراته مضمّناً إياها أســـخن الفصول عن تجربته في حكم العراق لعام كامل، فـــصول ســـتنافس مذكرات الرؤساء، بلا شك، وتضاف إلى مذكرات المـــس بيـــل أو «خاتون العراق» كما يسميها البغداديون.«1»

«1» صدرت هذه المذكرات فعلاً في وقت لاحق تحت عنوان:

My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope

لكن انشغال الأميــركيين الطويل، بحياة بيل كلنتون تلك الــذي ضمنها في مذكراته التي صدرت مؤخراً وحقّقت أعلى نسبة مبيعات لكتاب في العالم بعد هذه الفترة القصيــرة من صدوره، قد يعكــس المزاج الأميــركي في الاهتمام بحياة كلنتون في هذه المرحلة أكثر من اهتمامه بتجربة بــريمر الثالث الساخنة في العراق، بيد ان بــريمر قد يستفيد من درس فضائح الرئيس فلا يغفل أهمية وجــود «مونيكــا لوينسكي» أخرى ستكون أكثر إثارة داخل فصول كتابه هذه المــرة فدرس كلنتون والمليون نسخة من «حياته» سيضعها بــريمر نــصب عينيه وهو يكتب مذكّراته.

مثل بــريمر دون إرادة منه على الأغلب، مرحلة الاحتلال، الــتي وصفت بها الحقبة الأميــركية الماضية في العراق، وترك البلاد غيــر مأسوف عليه.

على أن الاحتلال نفسه لم يكن بغيضاً بين العراقيين إلى الحدِّ الذي أعترف به الرئيس بوش نفسه بأنه أبغض كلمة ممكن أنْ يتجرَّعهــا سمعاً أو لفظاً أيُّ شعب في العالم، فيوم التاسع من نيسان / أبـــريل نفسه وهو التاريخ الرسمي والعملي لاحتلال العراق، وجد بين أعضاء مجلس الحكم من ينادي لتسميته يوماً وطنياً في العراق، لكن هــؤلاء

" سنتي في العراق - الكفاح من أجل مستقبل منشود " والمس بيل هــي «الآنــسة غروترود بيل) التي عملت سكرتيرة للمندوب السامي البــريطاني للعــراق بعــد احتلاله في عام 1917، ولعبت دوراً أساسياً في الحياة السياسية وتوفيت ببغداد عام 1926 وهي في الثامنة والخمسين، وقد ألفت بضعة كتب عن العراق، لعل أهمهــا مذكراتها التي ترجمها جعفر الخياط.

بالذات، ذهبوا إلى منافيهم من جديد، تاركين الوطن نهباً لأيامٍ أخرى يتداولها الناس أو تتداولهم.

اليوم، سيجد الثامن والعشرون من حزيــران / يونيو من يــريده أن يصبح اليوم الوطني البديل، لكن الأمور لم تتغيــــر كثيـــراً في الفترة الممتدة ما بعد التاسع من نيسان / أبـــريل وحتى اليوم.

لقد حمل بول بــريمر بُغْضَ الكلمة وحدَهُ ورحل، لكنَّهُ لم يحمل معه سوى هذا البغض، وبهذا المعنى بـــدا وكأنـــه الرمـــز الأفـــصح للاحتلال، مثلما كان صدام رمزاً أبشعَ للقتل والمقابـــر والجماعيـــة والكوارث المتجذرة إلى مدى طويل في العراق.

غيـــر أن وصايا بــريمر الثالث أو مـــساميــره الكثيـــرة في الهيكل المتداعي للدولة العراقية، تمثلت في ما يقارب المائة قرار لا يبدو الفكاك من سطوتها سهلاً، فنموذج دولة بــريمر لن ينتهي بمجـــرد ركوبه لطائرة السي 130، بلا مودِّعين تقريباً. لكنَّه سيبقى بـــذوراً على الأرض لأمد طويل وستمارس قراراته الشهيـــرة، في القـــانون المدني، والإعلام والأمن والمحاصصات الإثنية والاجتماعية، ســـطوة ستبدو كالوصايا التي يتنافس على تأويلها المتنافـــسون وقـــد تقـــود الخائضين بها إلى أبعد وأخطر من شرف المنافسة.

ألقى بــريمر خطبته الأخيـــرة للشعب العراقي، وأنهاها بأبيـــات شعرية وجدانية، ليقول في خلاصتها أنه عاشق للعراق، وأن الفـــراق والوداع لم يكونا إلا اضطراراً وليسا اختياراً، لقـــد تمثـــل بـــــريمر الثالث، بالأبيات الشهيـــرة لابن زريق البغدادي، لكنَّـــهُ لم يبـــدأ القصيدة من مستهلها، بل اختار أكثر الأبيات تأثيـــراً على الآخـــر،

وتعبيــراً عن لواعج داخلية قرأها بعربية متعثرة مما حدا بالمترجم إلى إعادة قراءها لتكون مفهومة، قد يكون من المهمِّ الإشارة إلى أن ابن زريق البغدادي، ليس بغدادياً بالمعنى التقليدي للنسبة، فهو بغــدادي بالإقامة وليس بالتحدُّر، أو بالوفادة لا بالولادة، أنــه مــن أولئــك الوافدين الذين حملوا لقب البغدادي على نحو المجاز، لأن الأندلــسي الغريب قال قصيدته بنوع من الندم على تركه البلاد وتعبيــراً عــن نوع من الحنين لها. هل حقاً أن سنة بــريمر في العراق كانت حقبــة عشق تستحقُّ أن تتحدر الدموع لأجلها، هل كان ذا هوى كرخيٍّ كما يشاع؟ أم أن اختياره لأبيات ابن زريق جاء على وفق قاعــدة بلاغية تخوض في المقام ومقتضى الحال، وتنحت من واقــع المقــام مقالاً؟

إنْ يكن الحاكم الأميــركي عاشقاً فهو عاشق من طرف واحد، يقرأ قصيدته لنفسه، فقد رحل بسرية مثلما جاء، لم يكن في توديعه في المطار سوى «بــرهم صالح» نائب رئيس الوزراء في الحكومــة المؤقتة التي نصبها بــريمر نفسه، بـرهم صالح «الكــرديُّ العراقــيُّ البغدادي»!

مرة أخرى يحضر الشعر أغنيةً للوداع. فيلجأ بــريمر الثالــث إلى «وحيدة» ابن زريق، لكن لماذا يختار أحــد «شــعراء الواحــدة» ليشاركه في قصيدته الوحيدة؟

أية كناية حملها تمثله بهذه الأبيات:

أســـتودعُ اللهَ في بغــدادَ لـــيْ قَمَــراً
بـــالكرْخِ مِـــنْ فَلَـــكِ الأزرارِ مطلعُـــهُ

ودعتـــه وبـــودي لـــو يـــودِّعُني
صفـــــوُ الحيـــاة وأنّـــي لا أودعُـــهُ
وَكـــمْ تـــشَفّعَ بِـــيْ الا افـــارِقَهُ
وللـــضـــروراتِ حـــالٌ لا تـــشفِّعُهُ
وكم تشبّثَ بِي يوَمَ الرّحيـــلِ ضُـــحىً
وأدْمُعـــي مُـــســـتهلاتٌ وادمُعُـــهُ

لا أدري إذا ما تجنَّبَ بـــريمر الثالث، بيتاً ملتصقاً بهذه الأبيـــات التي قرأها بصعوبة، فصورة العاشق طغت على شخصية ابن زريـــق البغدادي حتى أطَّرتْها بإطار عَريض بينما غيَّب ابن زريـــق الطـــامح والمغامر والرحالة الغامض.

ألهذا أغفل «البغدادي الجديد» هذا البيت الذي يعقب الأبيـــات السابقة مباشرة:

«أُعْطِيتُ مُلكاً فلـــمْ أحـــسنْ سياســـتَهُ
وكلُّ منْ لا يسوسُ الْمُلـــكَ يَخلعُـــهُ»

يختلط ما هو شخصي بما هو سياسي في الخطاب الأخيـــر لبـــول بـــريمر، لنكتشف كم هي المسافة ملتبسة وهلامية ما بين الـــشغف بالسلطة، والشعور بالواجب المهني، عندما يتعلق الأمر بالـــشرق، ألم يطلق الكثيـــرون عليه لقب: دكتاتور العراق الجديد؟ لعلـــها متعـــة إضافية وجدها بـــريمر الثالث سيداً في قصر على ضفاف حكمـــت منها الخلافة العباسية إمبـــراطوريتها، وها هو يودِّعها بأبيات مـــن

الشعر العمودي، تماماً كما فعل صدام عندما ألقى قصيدة أخيرة، قصيدة من البحر البسيط، البحر ذاته الذي جاءت على إيقاعه القصيدتان: قصيدة صدام الحربية التي يتدفّقُ منها الدمُ والنارلا والهزيمة معاً، وقصيدة بريمر البغدادي الغزلية التي تدمع كلماتُها هزيمة من نوع آخر!

فما بين قصيدة صدام المجهولة: «أطلق لها السيف لا خوف ولا وجلُ» وقصيدة بريمر الثالث المنحولة أو قل المنسوبة لابن زريق البغدادي، ثمة مختتمُ الكلام.

فكلاهما جعل مِن الشعر كلامَهُ الأخير على منبر الحكم، وهما يشدَّان الرحالَ إلى عالمين مختلفين، صدام إلى حفرته ومن ثم معتقلِه، وبريمر إلى دياره مُتقاعداً، متذكراً زمانَ الوصل في بغداد! التقى الغرضان الشعريان فَي غرض واحد، حماسياتُ صدام في قصيدته الأخيرة، وتغزُّلُ بريمر المنطوي على كنايات عدة في استعارته لتفجُّع صوت ابن زريق الأندلسي البغدادي، يصبَّان في بحيرة الرثاء الأخيرة، البحيرة المختلطة بأغراض شتّى ودموع شتى.

خاطب صدام العراقيين بقصيدته تلك، و لم يطلق طلقة واحدة و لم يرفعْ سيفاً في وجه أعدائه بلِ رفع يديه وتلعثم بعبارات الاستسلامِ، ولأنهم كانوا يعرفون ذلك سلفاً، فقد حرفوا قصيدته تلك فوراً، وكيفوها لتعبر عن واقعِهم المزري:

«أسلقْ لها البيض لا زيـــتُ ولا بَـــصَلُ.
واسلقْ لها البيض لا شُــغْلُ ولاْ عَمَـــلُ»

واليوم ربما سينسج العراقيون قصيدة أخرى تعارض وحيدة ابـــن زريق التي أيقظها بـــريمر الثالث من رقادها لتعبـــر عن أحواله ليلـــة الرحيل.

فهل غادر بـــريمر الثالث بغداد، وهو يحمل إحـــساساً داخليـــاً بالخلع؟

كثيـــرون كانوا يتوقّعون أن يكون الحاكم المدني الأميـــــركي للعراق، سعيداً في العودة إلى موطنه، وإلى أسرته ليقصَّ في شيخوخته قصصاً لأحفاده، لكنَّهُ بدا كمن يودع شيئاً آخر في بغـــداد، هـــل للسلطة كلُّ هذه الفتنة ولها أن تترك «في القلب» كل هذا الشغف؟ أم أن للمنطقة الخضراء على ضفاف دجلة سحراً من لون آخر، وقـــد تركت لوناً منه في الشعور الداخلي لبـــريمر ولوناً آخر في ذاكرتـــه، هل مثّلَ الخطرُ اليوميُّ الذي عاشه جزءاً من المغامرة التي تجعل للحياة جدوى وطعماً آخر غيـــر حياة الدعة والترف والخلود إلى الراحة؟

ربما لهذا أكد بـــريمر في «خطبة الوداع» أنه وداع علـــى أمـــل «فحفيدته صوفيا ذات السنتين ستأتي إلى بغداد يوماً لتتعرف علـــى عجائب هذا البلد!» لعله أراد أن يقول لها إن جـــدَّك حكـــم بلـــد العجائب هذا ذات يوم، وعاش بين عجائبه الكثيـــــرة والمتداخلـــة وسطر أعجوبته الشخصية كذلك. أعجوبته التي قد تفتح باباً علـــى

مستقبل خطير قد لا تقي من تفاعلات خطورته كل الأعاجيب السابقة ولا الأساطير القديمة.

الأرث الكولونيالي الذي خلفه بريمر الثالث وهو يودع قمره في بغداد سيضاف، بلا شك، إلى أرث هجين من منازع شتى في بلاد النهرين.

من هنا فإن قمر بريمر المجازي ربما سيبقى دائراً في سمائه الأخيرة ولياليه الأميركية، وسيكون على هوليوود، ومؤرخي الكولونيالية، متابعة سيرة هذا القمر وانعكاسه على صفحات دجلة من جانب الكرخ مثلما تابعت قمر لورنس في صحراء العرب قبل قرن من الزمان.

خريفُ التموزيين الْجُدد.

نحن الآن عبرنا حزيران السيادة، وبدأ شهر آخر بلا بريمـــر، ولأن ملايين العراقيين، او نصف الشعب العراقي على الأقل من مواليد 1 تموز، فلتموز التقويم وتموز الإرث معنى آخر هذه الأيام.

فما بين تموز الأسطورة في الزمن المثيولوجي للتراث الحـــضاري لوادي النهرين، وتموز الشهر الساخن، في الزمن الـــسياسي للدولـــة العراقية الحديثة أكثر من صلة، ليس بالضرورة صلة تفاعلية متحاورة، بل صلة تنازع قوية تظهر تجلياتها في مجاورة النقائض لبعضها أحياناً، ودحضها إلى زمنها الآخر غالباً.

فتموز المثيولوجيا يمثل واحداً من ابـــرز طقوس الخصب والموت في حضارات المنطقة، ويشكل في أساطيـــر موته وانبعاثه واحدة من أقدم المعتقدات التي تمثل نموذجاً بدئياً لحركـــة الطبيعـــة والإنـــسان وتجددهما، غيـــر أن هذه الدورة غيـــر المكتملة والناقصة عل الدوام، كانت في الأساس طقساً مغلق المحيط تمّ لمرة واحدة كمـــا يـــرى العديد من الباحثين في هذه الطقوس وبينهم فراس الـــسواح، لكـــن تجددها وتمثلها الدائم يشكل نوعاً من تكرار الأســـطورة وتكييفهـــا زمنياً، من المثيولوجيا إلى الطقس.

بيد أن تسرب هذه الطقوس إلى البنية السياسية في العراق ربما حمل المزيد من موارد التأويل الراهن في قضية الخصوبة والعنف من جهة،

والموت وجائحاته والنـــزاعات متعددة المآرب في الجهة المقابلـــة في دائرة متحركة ومثيـــرة وقاسية حقاً.

فعندما أطلق الناقد جبـــرا إبـــراهيم جبـــرا، تـــسمية الـــشعراء التموزيين على عدد من شعراء العراق وبلاد الشام[1] كانت البنيـــة التموزية السياسية لم تشكل بعد في العراق، وعندما تشكلت تلـــك البنية أصبحت هي البنية المهيمنة في الثقافة العراقية خاصة والعربيـــة عموماً، بنية «الثورة» بالدم والتغييـــر بالدبابات، وليس في الشعر أو بأي فنون الأدب، تشكلت البنية التموزية الجديدة، إذن على تقويض لبنية مجتمع مدني كادت تستقر بتقاليد بدأت تتكون ببطء ورويـــة، وبهذا لم يتح لتموز الميثيولوجيا المشتركة في الهلال الخصيب أن يستمر بل انكفأ ليخلي الطريق أمام سطوة البطش والمـــضي إلى التـــسلط، كترجيع قوي لهتافات الإيديولوجيات السياسية، والمشاريع التي تقوم على تغييـــر البنى الفوقية في المجتمع دون تجديـــد بنـــاه الأساســـية الأخرى.

ربما مثل مقتل إنطوان سعادة الذي أعدم في شهر تموز / يوليـــو وجرى اغتيال رياض الصلح على خلفية إعدامه بعد سنتين في شـــهر تموز أيضاً[2]! مرحلة فاصلة تجسد هذه الهوة بين التمـــوزيين، فقـــد

([1]) أطلق جبـــرا هذا المصطلح في سياق توصيف ثقافي - في ضمن دراسة له نـــشرها أولاً في أحد أعداد مجلة شعر عندما كانت تصدر في بيروت وهو المقيم في بغداد.

([2]) أعدم إنطوان سعادة، مؤسس الحزب القومي السوري الاجتماعي، فجر الثامن من تموز 1949، بينما اغتيل رياض الصلح، رئيس الوزراء اللبناني، في السادس عشر من تموز 1951، خلال زيارته للعاصمة الأردنية عمان، على يد ثلاثة من أعـــضاء الحزب القومي السوري على خلفية الثأر لإعدام زعيمهم.

تراجع المشروع الجمالي الحضاري للبلاد وللأمـــة عمومـــاً لـــصالح مشاريع القسوة والبطش، وتعثرت بوادر أوليـــة لفكـــرة صـــراع الحضارات من خلال حوار رموزها إلى فكرة صراع داخلي مفترض مع قوى تأخذ أشكالاً عدة وحسب متطلبات كل مرحلة.

في التاريخ السياسي للدولة العراقية تحول الطقس التموزي الزمني إلى مفهوم «الثورة» مستمداً هذا المفهوم من التـــاريخ الـــسياسي في العالم الجديد، ولعل أول مفهوم للثورة التي تنقل البلاد من عهـــد إلى آخر وتتكلل بعرس دموي وهي «ثورة الرابع عشر من تموز يوليو عام 1958» حاولت الاستفادة من هذه المصادفة الزمنية مـــع ذكـــرى الثورة الفرنسية لإضفاء نوع من السمة الإنسانية لمفهـــوم ثـــورات الشعوب، ودمج طموحات الجنـــرالات بقاعدة شـــعبية ونـــزعة «جماهيـــرية» نحو التحرر كحاجة واستحقاق حتمي.

وراحت تتبنى تاريخ الاستقلال والثورات قريبها وبعيدها كجـــزء من بـــركات شهر تموز علـــى الـــشعوب المـــستعبدة والمقهـــورة، وحتميتها التاريخية في الوصول إلى الاســـتقلال والحريـــة، لتنـــسب التموزية السياسية إلى مثيلاتها في المزامنة هنا وهناك: تاريخ استقلال الجزائر، ثورة تموز / يوليو في مـــصر، وحـــتى عيـــد الاســـتقلال الأميـــركي.

في فجر الرابع عشر من تموز يوليو عام 1958، استيقظ النـــاس على طقس تموزي جديد، قتل فيه جميع أفراد العائلة الملكية، حـــين دارت على أجسادهم رحى العالم السفلي، رجالاً ونـــساء، ملكـــاً ووصياً حيث لم يكن ثمة ولي عهد أخر في ذلك الحين.

أمراء وخدم قضوا في قصر الرحاب الذي لم يعد يتسع للملك وجنرالات، إضافة إلى رئيس الوزراء نوري السعيد، وسحلت جثثهم في شوارع العاصمة وعبرت ضفتي النهر ذهاباً وإياباً في طقس تموزي جديد، سيؤرخ الكثير من العراقيين له بوصفه بداية لطقس العنف الذي سيتكرر كالشعائر التموزية القديمة في وادي الرافدين.

حلت التظاهرات التموزية محل الشعائر، لتتكرر في شهر تموز بحمى تتصاعد ولا تنقطع، وتؤسس لتراث من التنكيل في دورة جديدة.

وبينما انطمر المفهوم التموزي القديم في اللاوعي الجمعي للعراقيين، فإنه تمثل في الوعي السياسي الزائف طقساً لخصوبة من نوع آخر، خصوبة الدم المتوارث في انقلابات وثورات مزعومة.

وإذا كان تموز الطقس، قد حل بديلاً ومكملاً نوعياً لتموز الأسطورة في حضارات وادي الرافدين المتعاقبة فإن تموز الشهر الميلادي، متمثلاً بطقوس الاستيلاء، المتعاقب هو الآخر، على السلطة والصراع من أجلها، قد حل بديلاً لا نوعياً ولا تفاعلياً لتموز القديم.

إنها محنة تموز في العالم السفلي عالم «الثورات وحمى السلطة والانقلابات والصراعات الدموية»

بيد أن تموز الأسطورة كان قد تحول إلى جزء من بنية المعتقد الشعبي، متسللاً ليس في مسرب اللاوعي الجمعي فحسب، بل بتوثيقات اجتماعية ينقل جانباً منها ابن النديم في كتاب «الفهرست» فهو يتحدث عن عيد في منتصف شهر تموز يسمى «عيد البوقات»

أي النساء الباكيات على ما يسميه ابن النديم «تاوز» الـــذي، قتـــل وطحنت عظامه في الرحى ثم ذريت في الريح ولا تأكل النساء شيئاً مطحوناً في رحى بل تأكلنَ حنطة مبلولة وحمصا وتمراً وزبيباً ومـــا أشبه» ولا يخفى التصاق هذا العيد بتموز البابلي، بل هو عيد لا تزال بعض مناطقِ العراق تمارسه بنوع من الفولكلور المتـــوراث وغيـــــر المفسر غالباً.

وفي تحقيق صموئيل نوح كريمر وديانا ولكشتاين لمختارات مـــن الأشعار السومرية[1] ثمة محاورة رائعة بين إنانا السومرية، النمـــوذج البدئي لعشتار البابلية، وبين أخيها الإله أوتو حول مفاضلة حواريـــة تتعلق بـــزوج المستقبل، كانت تلك المحاورة تدور على المباهلة بـــين صفات كل من الراعي والفلاح.

فالراعي في مضمون تلك المحاورة «قشدته شهية وحليبه غزيـــر، على الرغم من أن ملابسه رثة وصوفه خشن» بينما الفلاح يـــزرع الكتان لكي تصنع الملابس ويجلب الشعيـــر إلى المائدة، كان الفلاح كما هو واضح معادلاً للخصب هو الآخر، فإنانا بحاجـــة إلى مـــن يحرث رحمها ليخصبه، لكن ديموزي حسم القضية بـــرمتها عنـــدما قال لها «الثور هو من يحرث الحقل، وأنا سأحرث رحمك» لينتـــهي حوار المباهلة الذكورية بالمفاضلة الرمزية عند هذه الحدود ويتـــزوج ديموزي إنانا، ويتقدم لها بحليبه الغزيـــر، لتبدأ واحدة مـــن أجمـــل الفصول الشعرية الإيـــروتيكية الأخاذة، بينما يـــرجع الفلاح خائباً

([1]) قام بترجمتها عن الإنكليزية علي الشوك في كتاب حمل عنوان «مـــن روائـــع الشعر السومري) وصدر عن دار الجمل- كولونيا 1992.

مرة أخرى، تماماً كما تقبل الإله في الكتاب المقدس نــذر الراعــي وقرابينه، وفضله على حنطة الفلاح وشعيــره.

لكن قرابين تموز هذه المرة لا تتنافس عليها قرابين الراعي أو نذور الفلاح، لا الأكباش ولا الحبوب، بل سيكون البشر أنفسهم قــرابين متاحة للتموزيين الجدد، أما إنانا المزدانة بقلائــدها وحليهــا فهــي السلطة التي يتنافس عليها الرعاة والفلاحون والمهنيــون، كلــهم في ثياب الجنــرالات أو «الغالا» الجديدة، عفاريت العالم السفلي.»

تجدد الطقوس التموزية بصيغتها العنفية الدموية الجديدة، لم يتأخر كثيــراً ففي الذكرى الأولى للثورة التي أطاحت بالملكية، وأقامــت الجمهورية، تحولت تظاهرات سياسية في مدينة كركوك إلى مــسرح للعنف العرقي، مأخوذة بحمى الذكرى وبدلالة دمها الساخن، كانت واحدة من اكبــر المجازر في ذلك الوقت عندما سقط العشرات من الضحايا أكثرهم من التركمان وسحلت جثــث عــدد منــهم في الشوارع تمثلاً بالنموذج البدئي لطقوس السحل العراقي، ولعل مــن المفارقات أن نشيــر هنا إلى أن أول ضحية في تلك المجــزرة كــان مواطناً تركمانياً يديــر مقهى يحمل اسم «مقهى 14 تموز» ومــن الواضح أنه لم يكن يعرف المصيــر المــشؤوم لــيس للــذكرى أو للمقهى بل لليوم الذي ستسحل فيه جثته في شوارع بغداد وتقطــع بالسكاكين إرباً جرياً على تقاليد الشعائر التموزية المستحدثة.

عشر سنوات مرت على تموز قاسم وضباطه الأحــرار، لم تهــدأ خلالها مواسم العنف، ليحين تموز البعث في السابع عشر من تمــوز 1968، بعد تجربة شباطية متعثرة لم تدم سوى بضعة أشهر و لم تكن كافية لاكتمال الحمل حتى! لكنّها كانت درساً تعلمه البعثيــون، في

تموزهم، لكي يسارعوا إلى ابتلاع حلفائهم في الشهر نفسه، فلم يمض سوى ثلاثة عشر يوماً فقط على تسلمهم السلطة، حتى قام صـــدام بنفسه، كبيـــر العفاريت في العالم السفلي، بتنفيذ الفصل الـــذي لم يكن موقعه يؤهله لتنفيذه في انقلاب 1963، فكان أكثـــر النـــاس تأثيـــراً في نجاح انقلابهم وتسلم القصر الجمهوري بأسرع ما يمكـــن «مديـــر الاستخبارات عبد الرزاق النايف، وأمر الحرس الجمهوري إبـــراهيم الداوود» هم وجبة الابتلاع الأولى، عندما خيـــرا بـــين الهرب بجلديهما أو سلخها عند بوابة القصر الذي دخلـــوه بيـــسر، ليصبح طريق دباباتهم إلى القصر أول علامة على طريق تسمى بوابـــة تموز، لكن اختيارهما السلامة في المنفى، خلف أثراً مـــن الندامـــة في القصر، فأرسل صدام من يقتل أحدهما «عبد الـــرزاق النـــايف» في لندن، ليلزم صنوه الصمت الطويل قبل أن يتحـــدث بعـــد خمـــسة وثلاثين عاماً من تلك الحادثة، وعلى وجه التحديد بعد سقوط الصنم في ساحة الفردوس[1].

سيبدو تتبع أسماء من طحنتهم رحى تموز الجديد، كالبحـــث في ذاريات الرمل عن ملامحهم، فدوران الرحى كان دائماً وقطبها دائباً لا يتوقف، لكن يكفي هنا أن نشيـــر إلا أن من بين أربعـــة عـــشر عضواً في ما سمي «مجلس قيادة الثورة» الذين أعلنت أسماؤهم بعـــد انقلاب 17 تموز 1968 ونقحت بـــزيادة عدد من الأعضاء بعد أقل

(1) أجرى غسان شربل حواراً مع الداوود نشر على حلقات في جريدة الحياة الـــتي يرأس تحريرها ابتداء من 8 حزيران /يونيو 2003، وكأن الداوود كان ينتظر سقوط النظام فقط، ليتكلم مما أثار تساؤلات حول طبيعة شهادته ومصداقيتها.

من شهرين، لم يبق من هؤلاء في تموز اليوم إلا ثلاثة هـم صـدام، وعزت الدوري وطه الجزراوي، بينما قتل البقية، إما بتصفية مباشرة، أو بعزلهم حتى الموت، أو قتلوا في صراعات داخلية. ناهيك عن العديد من الوزراء وأعضاء القيادة الآخرين وهم بالعشرات، قتل أغلبهم بأيدي رفاقهم، ولهذا سنرى أن قائمة المطلوبين من رموز السلطة التموزية في العراق والمعروضين الآن للمحاكمة، تتضمن بتشكيلها الأساسي بدائل داخلية من هؤلاء التموزيين، فأغلبهم هم من شارك في قتل رفاق الدرب في حفلات إعدام جماعية، فأوجد نوعاً من الضد النوعي داخل الحلقة الحاكمة، أو القتل برصاص العشيرة كما يسميها الكاتب حسن العلوي، فالبعثي السامرائي يقتله بعثي سامرائي ويرتقي درجة حزبية على جسده، والبعثي الكبيسي يقتله بعثي كبيسي آخر ويحل محله، وتمتد قائمة الإحلال والحلول[1].

([1]) كتب حسن العلوي، المنشقُّ عن قطار التموزيين بعد تلك المجزرة، في جريدة المؤتمر التي رأس تحريرها في الفترة التي سبقت الإحتلال الأميركي للعراق بقليل عموداً على الصفحة الأخيرة من الجريدة تحت عنوان « قادمون على حمار الطالبان أو قطار الأميركان» كما نشر كتاباً في العام 2005 بعنوان «العراق الأميركي» يرى فيه أن العراق مر بأطوار «شكلت حدوده ووجوده وموقعه في الجغرافية الدولية، وأفاضت عليه من سماتها السياسية الكثير، فهناك العراق البابلي والعراق السومري والعراق الأموي والعراق العباسي والعراق العثماني والعراق الملكي واليوم وبعد «دخول القوات الأميركية بغداد، هناك العراق الأميركي»الذي يضفي عليه نعتاً آخر«عراق أمريكي شيعي في مقابل عراق بريطاني سني!»

قتل صدام في يوم واحد أكثر من عشرين من أبـــرز أعـضاء القيادة والكادر المتقدم، إضافة إلى العشرات من الكادر الوســط في حزب البعث. في طقس تموزي آخر، ترافق مع انتقال السلطة مـن التموزي القديم احمد حسن البكر إلى التموزي الجديد صدام حسين، مع أنهما ينحدران من صحراء واحدة، ومنشأ مماثل ونذور وقرابين لا تختلف كثيــراً.

فبعد مسرحية بدت أكثر إحكامـاً مـن مـسرحية محاكمتـه الأخيــرة، وببث تلفزيوني داخلي واسع، جمع صدام رفاق الــدرب في يوم تسلمه السلطة في 16 تموز عام 1979، ليعلن عن مـؤامرة يقودُها الرفاق ضده، ومن بين مسيل دموعه بصمت علـى خيانـة الرفاق، وبجهش بالبكاء علانية في مشهد لافت، رفع صدام عينيـة ليشيــر إلى اقتيادهم نحو منصة الإعدام وانتدب عددا ممن انضموا إلى مسيــرة تموز لاحقاً لكي يقيموا طقوس العنف وأعراس الدم بتوجيه بنادقهم نحو صدور رفاقهم، بل أن ثمة شهادات تسربت لاحقاً عـن وقائع تلك الحفلة أشارت إلى اشتراك محمد بـرزان التكريتي النجل الأكبـر للأخ غيــر الشقيق لصدام، وكان وقتها صبياً لم يتجــاوز الثانية عشرة، أو أقل من ذلك، في ذلك الطقس الدموي مما جعــل والدته تهلل فرحاً لدى عودته إلى الدار، فقد أنجــز دوره الطقــسي وصار رجلاً اشتد عوده وبلغ مبلغ الرجل بخصوبة الدم الذي يــريقه من أجساد الآخرين، حتى قبل أن يــريق ماء ذكورتــه وخـصوبته الطبيعية.

أنجز صدام حفلة تصفية العشرات من تموزييه، ليلقي في اليوم التالي خطابه الرئاسي الأول، ويقول فيه: «سأكون فارساً بين الفرسان وليس الفارس الوحيد، وراية بين الرايات وليس الراية الوحيدة!»

إذن كانت الولادة الثانية للتموزيين الجدد، الذين تمتح دلاؤهم من آبار الدم العراقي، وليس من بئر أخرى في صحراء حياتهم.

وكانت رحى العالم السفلي تطبق على أعداد كبيرة من التموزيين أنفسهم ومن العراقيين جميعاً في طقوس الطحن التي تدير قطبها العفاريت لترضي نهم وجوع آلهة السلطة في أزمنة الكوارث والسنين العجاف، وقحط النفوس، ومحارق الحروب.

لم يزاحم مفردة تموز مقرونة بكل إنجاز مزعوم وتاريخية لا تدانيها أخرى، إلا مفردتان أخريان تعاقبتا على تنحية تموز بشطريه الجمهوري الوطني، والانقلابي المشبوه، هما: القادسية، وصدام، إلا أن المفردتين الأخيرتين سرعان ما تقاربتا في سياق مقصود لربط البطولة الفردية بحاضن تاريخي، حتى تفاعلتا في تشكيل جملة شهيرة هي: «قادسية صدام» قبل أن تتراجع الإضافة لصالح المضاف إليه، التاريخ لصالح بطل الحاضر، ليبقى اسم صدام مكتفياً بذاته، الجملة الوحيدة لتفسير كل ما يجري في العراق على أنه مكرمة.

فخلالَ السبعينات، لم يكنْ ثَمةَ منْ مفردةٍ مُعبرةٍ عن حضور قوي، أكثر من تموز، مهرجانات فنية وأدبية جميعها كانت مقترنة بتموز، ولو جمعت «ديوان تموز» الذي نظم مطولاته الشعراء والمتشاعرون على حدٍّ سواء متغنين بأمجاد ثورته التي لا تقفُ عند حدٍّ، لفاقت، بحجمها لا غير، أناشيدَ تموز الأسطورة من كلِّ

العصور بالتأكيد، عمران ينـــز ع أسماءه السابقة ويـــرتدي حلة تموز الجديدة وتسميته، وحجر أساس لكل شيء يبدأ على بـــركة اســـم تموز، بطولات ومسابقات رياضية ترصد لها إمكانيات عالية تحمـــل الاسم ذاته، بل ان أكبـــر أنجاز كان النظام السابق يعمل عليه، وهو إنشاء مفاعل نووي صغيـــر، حمل هذا الاسم، فكان «مفاعل تمـــوز النووي» الذي أنشأ بالاشتراك مع أحفاد التموزيين الفرنسيين.

بيد أن صقور إسرائيل سرعان ما لاحقوا المفاعل الذي فشلوا في منعه من الوصول من باريس إلى بغداد ليدمروه في عمليـــة جويـــة استفادت من غطاء الحرب العراقية الإيـــرانية، لتقضي على «تموز» في جنوب شرق بغداد، في عملية حملت اسماً حركياً ذا دلالـــة هـــو «بابل» لكأن صقور إسرائيل كانوا يتذرعون بالتوارة، متكئين هـــم أيضاً على حاضنهم «فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذ هناك نسوة يبكين على تموز«[1]».»

ولعل فكرة سفر حزقيال هذه القائمة على التحذيـــر من تكـــرار الخطيئة، والتبشيـــر بوعد آخر تمثلت في العودة إلى بابل من جهـــة أخرى، لكن ليس على طريق السبي القديم، بل لتأكيد موت تمـــوز القديم، ولإحياء حلقات نواح جديدة على تموز آخر.

وما أن بدأت الحرب ضد إيـــران، ووصفت بأنها حرب عربيـــة فارسية، إسلامية مجوسية! وحرب المشروع القومي ضـــد المـــشروع الطائفي، حتى انطلقت قريحة الصحافة لتستعيد صورة الحرب القديمة بين العرب والفرس، أو بالأصح حرب المسلمين لفـــتح العـــراق، في

«[1]» الإصحاح الثامن، الآية الرابعة عشرة، من سفر حزقيال.

عهد الخلافة الثانية، حتى كانت القادسية هي المفردة السحرية التي أضاءت كلّ شيء في العراق، فصار أدب القادسية الثانية، ومهرجانات القادسية الثانية وأسابيع القادسية الثقافية، وسرعان ما تغير التوصيف التراتبي، إلى توصيف خاص، لتصبح القادسية الثانية «قادسية صدام» نموذجاً بدئياً آخر وليست امتداداً، لتلك التي وقعت بين المسلمين وغير المسلمين.

عندها بدأ اسم تموز يتراجع مقابل تقدم اسم صدام على كلّ شيء، حتى القادسية نفسها كانت مجرد مرحلة في طريق التقدم ذاك، بدأ اسم صدام نفسه يتناسل في ألقاب وأسماء وتوصيفات بلغت التسعة والتسعين وصارت تعلق خريطة نوعية تشبه شجرة النسب لاسم صدام «الإبن التموزي الوحيد» المتناسل عن نفسه.

كان هذا التقدم، تقدم اسم صدام على تموز وعلى كلّ ما عداه، يترافق مع طريق اختزال صدام لحزبه بشخصه أو هو كناية مضمرة عن حقيقة ذاك التقدم بالذات، منذ أن حل بديلاً ووريثاً للبكر على غير إرادة عدد من «رفاقه في الحزب» وعلى جثثهم أيضاً.

التظاهرات التي نراها مترافقة مع جلسات محاكمة صدام، تأييداً للتموزي في قفصه، والتي تنحصر في بعض المدن العراقية، تتجدد في تموز الأخير أو الخريف الأخير للتموزيين، فهذه المناطق التي جرت فيها التظاهرات لها تموزها الذي تنوح عليه، متمثلاً بموت السلطة، وربما كانت لغة صدام المكابرة حافزاً إضافياً لهم للحلم مرة أخرى بعودة المفقودة وأحياء الفاني وبعثه، وعودة تموز، بخصبه ووفرة ضرع أغنامه إلى قراهم، بينما لا ينعكس هذا الخصب إلا

ضرعاً من الدم متدفقاً في أغلب بقية المدن العراقية، هذا هو الموســـم التموزي الجديد.

من المهم هنا أن نشيـــر إلى أن صدام والأحد عشر متهماً مـــن أبـــرز معاونيه الذين جرى تقديمهم في الوجبة الأولى للمحاكمـــة، ينتمي أغلبهم إلى منطقة جغرافية ضيقة، فبينهم واحد شيعي هو من أكثر المتهمين بسحق انتفاضة محافظات الجنوب التي يتحدر منـــها، وبالذات مدينة الناصرية، وهو محمد حمزة الزبيدي[1]، وواحد كلداني مسيحي هو طارق عزيـــز، وواحد كردي ظل عـــضواً في القيـــادة القومية لحزب البعث وهو طه الجزراوي. وكلاهما يتحدر من أقضية محافظة الموصل، أما البقية فجميعهم يتحدرون من منطقة جغرافيـــة محدودة بل ان نصفهم من قرية واحدة ومن عشيـــرة واحدة.

ربما سيجعلنا هذا التصنيف نفهم قليلاً، لماذا تركـــزت الـــشعائر التموزية الأخيـــرة التي رافقت وأعقبـــت ظهـــور صـــدام علـــى الفضائيات في مساحة ضيقة ومحددة، وما له من اثر في تجديد عـــودة الخصوبة إلى الصحراء القاسية التي عادت إلى النـــواح مـــن جديـــد بانتظار وعد جدبت مواسمه، وبقيت منه أوهام العودة.

تموز يبدأ أول أيامه هذا العام، وقد سيق تموزيو الموت، ليواجهوا التاريخ مرة أخرى، تاريخ جرائمهم في العالم الـــسفلي تماماً،عـــالم المقابـــر الجماعية ومدافن الحروب، والمعتقلات، العالم الذي لم يعد سفلياً بعد أن نبّ على وجه الأرض مرة أخرى.

---

[1] توفي محمد حمزة الزبيدي في مستشفى أميركي داخل المعتقل في الثاني من كانون الأول 2005.

طابور التموزيين المكبلين، وهم يمثلون أمام محاكم علنية، لا تشبه بالتأكيد قوافل ضحاياهم الذين سيقوا إلى المقاصل أو قتلوا في الشوارع أو دفنوا زرافات ووحداناً في مقابر جماعية، وعلى الرغم من كونها عدالة ممسرحة تنقصها الحبكة الإغريقية، لكنّها بالتأكيد ليست كمسرحيات المحاكم الخاصة التي كان يقيمها هؤلاء أحياناً، ولا يقيمونها غالباً، لضحاياهم.

الجيل التموزي الذي يشيد الجمال من الأسطورة، الذي أعلنه جبرا كمن يرثيه مبكراً، أنطمر كالأساطير القديمة، والجيل التموزي السياسي في العراق، في خريفه الآن، تهوي أوراقه من الشجرة المقدسة إلى الأرض لتتفاعل مع ضحاياها وتعيد تخصيبها من جديد، تموزاً آخر سيكون من قبيل الحل الكارثي أن يجد في يوم الاستقلال الأميركي مرجعاً ونموذجاً قاسياً آخر. عن كيفية نيل الشعوب والأمم لاستقلالها بعد حروب أهلية، وليس بإيقاظ الأساطير القديمة بنواح وشعائر.

الدراما المعقدة.

منذ صورته على ورقة آس البستوني في ورق اللعب الذي وزعته القوات الأميـــركية بالتزامن مع بدء عملياها لاحتلال العراق واهتزاز آخر صورة رمزية لصدام عبـــر سقوط تمثاله بدبابة تابعة للقـــوات الأميـــركية في ساحة الفردوس يوم التاسع من نيـــسان / أبـــــريل 2003، مروراً بصورته «التاريخية» الشعثاء خارجاً من الحفرة علـــى يد القوات الأميـــركية التي ادعت أها عثرت عليه فيها! وصولاً إلى صورته عبـــر جلستين من المحاكمة، وأكثر من جلسة تحقيق عقدت حتى الآن، يمكن رصد نمو دراما صناعة البطل وتحطيمه وربما إعـــادة سبكه في العرض الأميـــركي المركب لسيـــرة حكامنا في الـــشرق «على غيـــر زجاج أبي العلاء البشري الذي لا يعاد له سبك»

لو قتل صدام في بغداد يوم التاسع من نيسان / أبـــريل أو حـــتى قبله أو بعده بأيام، لأنجزت الصورة التراجيدية «للبطل» التي حرص صدام على تخيلها عن نفسه وعن مسيـــرته، ودأب الكثيــــــر مـــن المعجبين به على رسمها له. لو قتل لاكتملت دائرة تلك الصورة حتى طغت عما سواها، ولما عادت في حاجة إلى إعادة التفكيك، عبـــــر تفتيت البـــرونـــز وصهره في مصانع الخردة قبل أن يـــسبك مـــن جديد من خلال جلسات التحقيق والمحاكمة.

حتى أكثر المعجبين بشخصية صدام، كان قد صدم حقاً بصورة بطله الذي ينهار أحد أضخم تماثيله وسط بغداد، ولاحقاً بصورته مستخرجاً كقطعة آثارية من حفرة العنكبوت، بيد أن محاكمته اليوم تأتي لا لتعيد صياغة تلك الصورة فحسب، بل وقبلها لتعيد تحفيز وجدان الشارع العربي، الممعن في هزيمته والمشدود نحو صورة صدام القديمة، على إعادة اكتشاف صورة «بطله» من جديد ورسمها وحتى ترميم تماثيله من جديد.

من المهم إذن إعادة تفريغ الشحنة العاطفية المصاحبة لمعاودة ظهور صدام ثانية في دراما بطيئة في قاعة الحكمة، وفي الجانب المرضي من الوجدان العربي على هيئة «الممانع والعصي على الكسر» حتى لكأننا حين نعود نحو تلك التخوم القديمة سنبدو كمن يخوض مواجهة دائمة مع الصورة الزائفة للبطل، لكأننا من وجهة نظر أخرى، ورثة دون كيشوت الحزانى : أبطال لا تقل معاركنا زيفاً عن شبحية من نحاربهم.

لم ينتحر صدام كما فعل هتلر الذي رفض الانسحاب من عاصمة الرايخ الثالث بعد أن صارت مقر قيادته تحت مدى الأسلحة الميدانية للجيش الأحمر، رافضاً الذهاب إلى بافاريا عاصمة بديلة، وهو ما فعله صدام عند سقوط بغداد. لم يقتل على أيدي «الغزاة» كما هو حال ابنيه وحفيده. ربما سيشابه مصيره مصير «بول بوت» مع فارق بسيط لكنَّهُ جوهري ويتعلق ببنية الدراما نفسها، فزعيم الخمير الحمر المتحول من حضن الشيوعية وهي في خريفها، إلى ربيع الغابات المجاورة لثكنات «الأمبريالية» على الحدود التايلندية. مات بين المعسكرين قبل أن يقدم إلى المحاكمة وأصبحت محاكمته

وإدانته بقتل مليون ونصف المليون مواطن كمبودي أمــراً في ذمــة التاريخ، فيما تحول ما تبقى من ميــراث ضحاياه وبقاياهم البــشرية إلى متحف للجماجم في «فنوم بنه». قضى بول بوت عقدين مــن الزمن وهو يحلم بالعودة، حتى عاد إلى ربه في نهاية الرحلة، واليوم لن يفارق صدام «حلم» أي دكتاتور في هزيمته، بل انه أحال أحد أسماء حزبه التي تعددت بعد التاسع من نيسان / أبــــريل، إلى «حــزب العودة» كان ذلك قبل أن يعتقل في حفرتــه، أو مزرعتــه، ولعلــه يــرى في فكرة « العودة » بعد اعتقاله أوسع من كناية عن مجــرد حلم بالعودة للسلطة، ذلك أن العودة بالنسبة له اليوم تعني بشكل ما «عودة» إلى الحياة أو ربما من الموت حتف أنفه، وهو يــراه أحيانــاً أقرب حتى من أرنبة الأنف التي يصعب النظر إليها مع كــلّ هــذا القرب!

تحت هذا الوهم يحاول الدكتاتور نسج حلمه في الخــلاص مــن الاعتقال، لذا فهو يعود إلى تكرار بثّ معلومته القديمة، عن المكــان الذي توجد فيه المحكمة : بناية التصنيع العسكري في المنطقة الخضراء، وهو معتقل في مكان آخر «حيث اضطر إلى صعود طابقين قبــل أن يصل المحكمة» إحداثيات لا يمكن التغاضي عنها بوصــفها عناصــر الحلم للدكتاتور وسط كوابيسه، لكن قذائف الهاون التي تسقط عادة بعيداً عن هذه الإحداثيات قد تجعل من حلم الــدكتاتور كابوســاً طويلاً لا تعلل منه إلا بسهر الليل بين حبــر ودواة!

ولع صدام «الطفولي» بالورقة والقلم الذي بدا وكأنه نوع مــن الهوس والتوثين، وهو يصرخ في قاعة المحكمة بأن حقــه الأهــم في الورقة والقلم قد جرد منه، ظهر واضحاً عندما رأيناه منشغلاً بهمــا

عن المشهد بـــرمته، ليكشف عن مفارقة لا تتناسب مع شغف صدام المعهود بالأسلحة: سيوفاً ومسدسات وبنادق، يوم كان على وجـــه الأرض وتحت الشمس، لكن ليس له الآن، وهو في قبوه، سوى القلم والورقة على ما يبدو.

تنتهي التراجيديا بالموت عادة، الموت بأي من أشكاله ومسمياته، مع حقيقته المطلقة الوحيدة، أما في حالة صدام فإن الموت لا ينـــهي التراجيديا ولا يصل بها إلى ذرويتها، بل يغذيها بنقيضها لتنشأ معهـــا هذه الدراما المعقدة.

قد يكون من اللافت أن تخيم أجواء الموت بتعدد أسبابه، لـــيس على مشهد المحاكمة لتحقنها بجرعة مضافة فحسب، بل على مجمـــل المشهد المحيط بالنهايات والمصيـــر المحتوم لرجال صدام.

من المفترض أن صدام والسبعة من أتباعه يواجهون عقوبة الموت، إذا ما أدينوا بارتكاب مجزرة الدجيل، أي بتسببهم في موت عشرات الأشخاص قبل أكثر من عشرين عاماً، لكننا سنـــــــرى الجميـــع في الواقع، أو في هذه الدراما المعقدة يواجهون الموت بأسبابه المتعـــددة، وكأنه شأن عادي وعابـــر ربما، عندما لا يتعلق بالعقوبة، أو يتصل بقصاص، لكنَّهُ شأن غيـــر عادي، وأمر جلل لكل الأطراف، عندما يتعلق بالعقوبة ويتصل بالثأر، ألم يقف الجميع، متـــهمون وضـــحايا وشهود وقضاة وادعاء وهيئة دفاع، لقراءة الفاتحة، بـــروح رياضية، على أحد محامي الدفاع الذي قتل قبل فترة، ليعود الجميع إلى شأنهم الذي قدموا من أجله لإحياء الدراما من جديد، وليبـــدأوا المبـــاراة بالركض وراء الكرة بعد انقضاء دقيقة الحداد تلك؟

الموت بشكله وطريقته لا بذاته أو بحقيقته المطلقة، هو، إذن، ما يوقّع خواتيم الحكايات التراجيدية عادة. لكن أختامه تكشفت هذه المرة عن دمغات جديدة في قضية صدام وسبعة ممن معه، الذين بدوا في المحاكمة يشبهون أهل الكهف بشيء ما، غير العدد وحده.

قبل سقوط النظام ظل جميع أركان النظام محجبين أو قل متنكرين تحت ثياب الخاكي، وصبغة الشعر الأسود التي لا تظهر اشتعال الرأس تحت البيريه العسكرية، واليوم تصبح الدشداشة والعقال ووقار الشيب حجاباً تنكرياً من نوع آخر ليحيل الجلادين الذين لا يعرف مثيل لبطشهم، إلى رجال كبار في السن يستحقون الشفقة، وهم الذين ظلوا يظهرون كالفتيان وسط دوامة الموت متعدد الأسباب التي كانت تحيط بالعراقيين من مختلف الأسباب. لكأنهم تحرروا من الزي الموحد الذي دأبوا على ارتدائه وهاهم بوجوههم وقد بدت كأنها مرممّة، بعد سنتين من الاعتقال، يعودون في لحظات الشيخوخة إلى ما يلبسه عادة أي شيخ قروي في العراق. لكنَّهُم وهم يخلعون ملابس الخاكي مرة واحدة وإلى الأبد، يخلعون معه أبيات السموأل عن قدر «السادة وعلية القوم» في اختيار شكل موهم وموسمه :

وإنـا لقـوم لا نـرى القتلَ سُـبةً
إذا مـا رأتـهُ عـامرٌ وسـلولُ
وما مـاتَ منّـا سـيّدٌ حتـفَ أنفـه
ولا طـلَّ منّـا حيـثُ كـانَ قتيـلُ

إذا سيِّدٌ منَّا مضى قامَ سيِّدٌ
قؤولٌ لما قال الكرامُ فعولُ

لن تصلح قصيدة السموأل وهي أقدم قصيدة في مدح «القتل» إزاء «الموت» لا نشيد فتوة ولا أغنية لسادة القوم، إنها فقط نشيد «وطني» سابق لتحشيد الناس في المحارق.

فالموت «حتف الأنف» قاربه صدام خطابياً ليس إكثر. فحينما نهض داخل قفصه في جلسة 28 /11/ 2005، افتتح كلامه بآية من سورة آل عمران دون أن يصل إلى إنجاز المعنى في الآية اللاحقة «أمْ حسبتُم أنْ تدخلوا الْجنَّةَ ولَمَّا يَعلمُ اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين*» و لم يذهب إلى الآية التي تليها رغم ارتباطها بسابقتها «ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون*»

قد لا يبدو مهماً إذا ما كان صدام يختار طريقه إلى الجنة كونه مجاهداً أو صابراً، مع أنه يعلم أن ليس له الآن على الأقل سوى الطريق الثاني: القتل صبراً. لكنَّهُ يعلم أيضاً أنه وبقية أعوانه سواء في قفص المحكمة أم في المعتقل، ينظرون إلى الموت من حولهم ويستعينون عليه بهذه النظرة نحو بعضهم البعض، فيما يطيح هو بأترابهم واحداً واحداً، لكن ليس في حومة الوغى كما كان يتردد في خطبهم، قبل أن يحضر الموت بمعداته الأميركية.

فمع إعلان نبأ بقي مشوشاً وغير مؤكد، عن موت عزة الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة، يعني أن واحداً من أبرز قيادات النظام السابق لقي مصيره حتف أنفه، بعد أن نجح في النأي

بوجهه عن أعين الأميـــركان وطالبيه من ضحايا العراق، مع أن بيان البعث الذي نعاه، لم ينس التشديد في رثائه على أن «المجاهد» مات في حومة الوغى.

مات الدوري بسرطان الدم، وإن لم يكن الخبـــر مؤكداً، فـــإن الدوري لا يبدو أنه سيقتل بيد الأميـــركان على أية حـــال، فهـــذا المرض الذي رافقه طيلة فترة وجوده في القيادة أطاح به طريداً.

هل أراد قدر الدوري مع هذا المرض الكاسر، أن يقول إنه يطارد الطغاة طويلاً في السراء ويطيح بهم سريعاً في الضراء، وهل سقط عزة الدوري «ملك السباتي» في أوراق اللعـــب الأميـــــركية، بقـــدرة السرطان بعد أن ظل لأكثر من عامين طريد الأميـــركان.

لكن الدوري الذي طبعت صورته على ورقة «الشايب» في تلك القائمة لم يكن بـــرأي أحد رفاقه القدامى في حزب البعث ســـوى ممول للحركات السلفية المتشددة والجماعات التكفيـــرية في العراق، كان إعلان وفاته، بـــرأي نعيم حداد العضو السابق للقيادة القطرية في حزب البعث، مناسبة جيدة لتجديد قيادة البعث الـــذي أحالـــه الدوري إلى مجاميع متنافرة من «المجاهدين»

لكن دورياً آخر، لا يحمل سوى ورقة الإثنتين من « الـــديناري» في قائمة المطلوبين الخمسة والخمسين سرعان ما وقع تحت بـــــراثن السرطان هو الآخر، وهو في معتقل الأميـــركان، فتوفي عادل عبـــد الله الدوري العام الماضي في معتقله حتف أنفه.

بيد أن هذا التكشف الواسع للسرطان بما يقربه من الوباء الـــذي يفتك بالسادة «حتف أنوفهم» يكشف في الواقع خلاصة حقبـــة لا يتاح إزاءها تاريخياً إلا هذا التعبيـــر التراجيدي.

هدى عماش أو«السيدة انثراكس» كما سماها الأميـــــركان في أساطيــر أسلحة الدمار الشامل، لا تزال رهينة أكثر مــن محـبس، ليست «الفوبيا» إلا واحدة منها بعد أن طلــب محاموهــا إطــلاق سراحها لأنها مصابة بالسرطان وهي التي لم توجه لها تهمة حتى الآن على الرغم من توصيفها في ورقة الخمسة من «الكوبا » خبيــرة في أسلحة الدمار الشامل تقدم على وصفها كقيادية في حزب البعث.

وإذ لا شماتة في المرض ولا في الموت، فإن استمرار محاكمة صدام وأعوانه في مشهد بات لا يثيــر الكثيــر من الاهتمام لدى العراقيين إزاء ما يواجهونه من موت يومي على مدار الساعة، بدا أبعــد ممــا ينبغي أن يكون عليه مشهد كهذا، جلادو الأمس يظهرون وكــأنهم مسلوبو الحقوق ومرضى يثيــرون الشفقة وأجداد وآباء يــستعينون بحراسهم، ويتكئون على قضبان القفص للوصول إلى حيث الراحــة: كرسي الاتهام أمام القاضي، بينما يذرف شيخ ربما جاوز الــسبعين دمعة ويمسح أخرى بيد مرتجفة، طالباً أن يــرى ابنه ليوصيه. هــذه المشاهد العاطفية لها انفعالات قد تكون متناقضة في مجتمع كــالمجتمع العراقي سمته الأساسية هذا التناقض ليس في مجمل نسيجه الجماعي بل وحتى داخل تركيبة الشخصية الواحدة فيه، كما رأى الدكتور علي الوردي مرة.

قاعة المحكمة، أو قبضة العدالة الأميــركية لا تمتلك الكثيــر من الأدلة، أو هكذا أظهرت حتى الآن، على تجريم القتلــة، في قــضية الدجيل وهي عنوان المحكمة في هذه المرحلة، لا يتوفر شاهد الإثبات الرئيسي في القضية في قاعة المحكمة، لكنَّهُ انتزع إفادتــه الأخيـــرة كالوصية، التي لا يمكن إعادة استجوابه عنها، وهو تحــت مخالــب السرطان الجاثم عليه في أحد مستشفيات بغداد.

وضاح الشيخ خليل ضابط المخابـــرات المسؤول عن التحقيقات في قضية الدجيل التي وقعت في العام 1982، ومديـــر الأدلة الجنائية في جهاز المخابـــرات الذي كان يـــرأسه بـــرزان، لم يحـــضر إلى المحكمة في جلستها الأولى لأنــــه أسيـــــر الـــسرطان، والمتــــهمون الحاضرون كانوا كمن يستنجدون بغيابه.

وضاح الشيخ لم يحضر الجلسة الأخيـــرة أيضاً فقد توفي ما بـــين الجلستين، بينما حضرت صورته وهو أشبه ما يكون في حساب يوم القيامة، بينما تجري تلاوة إفادته الأخيـــرة أمامه وأمام المحكمة أيضاً.

بـــرزان التكريتي الذي تمكن السرطان مـــن عظامـــه حـــسب تقاريـــر الأطباء سيجد في مخالب المرض الخبيث فرصـــة أخيــــرة للهروب من مواجهة عظام الضحايا في المقابـــر الجماعية، ألم يحـــتج في المحاكمة الأخيـــرة بأن عدم إخراجه للعلاج حتى الآن هو قتـــل بطيء. المسؤولون العراقيون الحاليون لا يمانعون في خروجـــه مـــن المعتقل، جلال الطالباني الرئيس الحالي الذي أكد في أكثر من مناسبة أنه لن يوقع على قرار بإعدام صدام أو أي مـــن أعوانـــه تحـــت أي ظرف، وكذلك إبـــراهيم الجعفري رئيس الحكومة، وربما غيـــرهم من رموز «العهد الجديد» يسلمون بأن الموت بالسرطان لن يكلفهم التوقيع بحبـــر الإعدام، الموت بالسرطان، حتف الأنف، يتكفل بحمل الأعباء عن الجميع.

تحت بـــراثن المرض ومخالب السرطان على وجه التحديد، يواجه طغاة الأمس حكمة أخرى أبلغ بالتأكيد مـــن سُـــرفات الـــدبابات الأميـــركية التي أزاحتهم عن موقع الجلادين، ووضـــعتهم في هـــذا الموضع، أو بالأحرى حرثت أرض الوباء من حولهم لتظهر خـــواتم الحكاية، من حولهم أشجاراً لها «طلع كرؤوس الشياطين»

بيد أن تراجيديا المرض القاتل الذي لا يمهل كثيراً، والعدالة البطيئة التي يراد لها أن تكون درساً أميركياً طويلاً، جعل العراقيين ينظرون إلى العدالة بالتعلل، فالمرض الذي قد يصيبهم مثلما يصيب ملايين البشر، يصبح نوعاً من العدالة عندما يأتي على الطغاة وهم في سجونهم، على الأقل هذا ما يتعلل به العراقيون في ليالي شتاء أطول محاكمة لعراقي حتى الآن.

هؤلاء «السادة» الذين لا ينفكون يتساقطون حتف أنوفهم معتقلين أو طريدين أو حتى طليقين، لا يزال يسقط من حولهم الكثير من الضحايا في دراما المحاكمة قتلى: شهوداً ومحامين.

ومع هذا فهم يرون في مرض عضال يصيبهم، عدالة ما يسلمون بها، بل يتسلحون بها في مواجهة عدالة القانون، أنهم ينتظرون مرافعة تدفع التهمة شكلياً، وتشكك في مشروعية المحكمة، أو على الأقل تنقلها إلى مكان آخر أكثر أماناً، وأكثر ملاءمة لموت المرء حتف أنفه، أما الشهود الذين سيحضرون في الجلسة القادمة فسيدلون شهاداتهم من وراء حجاب، أو مقنعين، لأنهم ببساطة يريدون الموت حتف أنفهم لا على عجل، محامو الدفاع تخلف الكثير منهم حتى الآن قتلاً أو هرباً أو خشية من قتل، لأنهم ينون الموت بعيداً عن هذه التراجيديا، بقية المطلوبين الخمسة والخمسين الذين ينتظرون تهمهم القادمة ينتظرون كذلك الزائر الأخير الذي سيقودهم من أنوفهم نحو هاويته، قبل أن يضيق جلادهم حبل المشتقة على أعناقهم.

إنها دراما معقدة حقاً: وما ماتَ منَّا سيِّدٌ حتفَ أنفه!

العارُ المشترك مغسولاً بدم المرأة.

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يُراقَ على جوانبِهِ الدَّمُ

هذا «الشرف الرفيع» في بيت المتنبي، الذي يعد أكثر شاعر عربي حمل قيم البداوة بمعناها التوصيفي، وليس بالحكم المعياري السلبي لمفهوم البداوة، وهو المعنى الذي يبدو اليوم شديد الالتباس، لم يجر إسناده، لدى أغلب المتحدثين في مجالس العشائر في العراق وهم يتمثلون به بفخر، سوى إلى مدلوله النفعي متحصناً بالمرأة، ومتشبثاً بفكرة العفة الجسدية لفتيات العائلة والفخذ والقبيلة، فهي عنوان الشرف الأبرز، هكذا يجري تفسير القيم الدينية أيضاً، لكنَّهُ شرف يجري توجيه طقوسه الأضحوية باتجاه واحد، اتجاه جنساني يضع القرابين النوعية في بلداننا في سياق معادلة قسرية وقسمة ضيزى.

وإذا كان المتنبي شاغل الناس بمستوى أشعاره التي تفيض حكمة غامضة، فإن المرأة شغلت الأمم بغموض من مستويات أخرى.

فبينما قامت واحدة من أكبر الحروب الأسطورية بسبب امرأة، أو هكذا أراد أعمى الإغريق أن يرى بإلياذته، فإن الشرف لم

يلتصق بمفهوم العفة الجنسية لهيلين نفسها، فلم تكن هيلين إلا معادلاً للشرف الإسبارطي الجمعي المثلوم على يد أحد صبيان طروادة الساحرين.

هبة مينلاوس وجموع الإسبارطيين وعموم الإغريق جاءت من أجل استعادة وجه هيلين المسروق، ليس لإلحاق الأذى به، بل لتأكيد طهرانيته.

لكن هيلين نفسها، سبب الحرب الملحمية الطويلة، وحرق المدن ومقتل أبناء الآلهة، كانت شاهداً على عودة الشرف وترميم الثلم، ورمزاً لهذا كله، فبقيت على قيد الحياة دون أن نعرف أنها قُتلت.

وفي العراق، فإن أكثر من خمسة وثلاثين عاماً من القمع الذي طال الجميع، وثلاث حروب كبرى خلال ربع قرن، وثلاثة عشر عاماً من الحصار الاقتصادي القاسي، كانت بمثابة الوباء الكامن في جسد المجتمع العراقي، وباء لن يظهر من خلاله وجه ملكة إسبارطة، إلا بوصفه تكثيفاً حياً لهذا الوباء الذي يجري اليوم اختزاله بازدياد جرائم الشرف في المجتمع العراقي الذي لم يركن إلى أسطورته ولا لنظم مدنيته المتعثرة، ولا لدياناته بل انكفأ إلى أكثر نقطة ظلامية في تاريخه.

وربما عند هذه النقطة المظلمة بالذات «جرائم الشرف في العراق» يقف الإعلام الغربي باهتمام، ليشير إلى تفشي هذه الظاهرة[1]

---

(1) أفردت صحيفة التايم «19 – 26 تموز 2004» مقالاً موسعاً، عن جرائم الشرف وغسل العار في العراق، وكأنّها استكشاف جديد لتقاليد مجهولة لمجتمع كان بحاجة ماسة، "للتحرير الأميركي" حقاً!.

ليعبــر عن تظهيــر لوقائع موجودة أصلاً ومتوطنة في ثنايا النــسيج الاجتماعي العام، وكأنها بنية قارة لثقافة لا يمكن زحزحتها بسهولة. وجزء مخيف من بناء المجتمع ونواميسه، لكنَّها النواميسُ التي لا تهتــز على الرغم من فظاعتها، ويجري عقلنتها بل وتشريعها، مع أنها تقوم في أحيان كثيــرة على مجرد الظن ليس إلا. إنها نواميس متجذرة في القاع العميق وحاضنة أخرى لفتن المدينة.

في الطفولة كنا نقطع بضعة كيلومترات سيــراً علــى الأقــدام، لنصل المدرسة، وفي تلك المسافة التي كانت تبدو لنا مترامية الأطرف ومهجورة، كان ثمة مدافن صغيــرة لمجهولي الهوية، وللأطفال الصغار الذين يقضون دون الحاجة إلى نقلــهم إلى مقابــــر الأســلاف في النجف أو في سواها من المقابــر المجاورة للأضرحة المقدسة، أو لعدم القدرة على تحمل تكاليف الدفن الباهظة.

في الطريق بين مدينة الثورة «الصدر حالياً» ومنطقــة الــشماعية حيث المدرسة ومستشفى المجــانين المجــاور وســجن الإصــلاحية للقاصرين، صادفنا لثلاث مرات في سنة واحدة، أسراباً هائلــة مــن الذباب تحوم حول منخفض جرت تسميته لاحقاً بوادي الزانيــات، حيث أصبح هذا المنخفض الترابي المكان النموذجي، لإلقاء جثــث القتيلات الملفوفة ببطانيات رثة، وعلى بعد أمتار من ذلك المنخفض، ثمة فردة من حذاء نسائي، وكف مقطوعة، من الرسغ تمامــاً، وثمــة بــريق خافت لخاتم يلمع من بين بقع الدم المتجمِّد، لا يــزال يعطي الأصابع الناعمة سحراً وغموضاً لشخصية الفتاة التي قُطِعَ كَفُّها دلالة على أنَّها «ناهبة» أي هاربة مع عشيق لها واصلَ الهرب بمفرده بعــد ذلك.

سنعلم لاحقاً بعد العودة من المدرسة أن الـــشرطة حـــضرت إلى مكان الحادث، وأن الأمر يتعلق بجريمة «غسل العار» فيما كان بـــين التلاميذ من يبدي إعجاباً بشجاعة من قاموا بهذه الفعلة.

في المنـــزل سألت والدتي عن هذا المصطلح الغريب «غسل العار» فراحت تروي لي تراثاً مرعباً من القصص الغريبة عن هذا المـــصطلح الجديد على ذهن صبي في السابعة.

لكن بعد هذه الحادثة ببضع سنوات وتحديداً في المرحلة المتوسطة، كان أحد زملائنا في المدرسة، بطلاً لواحدة من وقائع «غسل العار»، فالأمر يتعلق بجريمة كان القانون العراقي يحاسب عليها قبل أكثر من ثلاثين سنة، ولأن القانون نفسه، يُسقط جانباً من تبعات تلك الجريمة عن مرتكبيها من القاصرين، فإن العوائل «بعد أن تنتهي من غـــسل عارها» عادة ما تستخدم يد البن الأصغر القاصر عادة، حقيقـــة أو مجازاً مشاركاً أو مدعياً المشاركة، كذريعة تتحمل تبعات الحكم عن تلك الجريمة، إذ لا يقضي الفتى القاصر سوى بضعة أشهر في ســـجن الإصلاحية ليخرج بعدها وقد حمل وزر الرجال، ورفع رأس العائلـــة والعشيـــرة قليلاً، ثم ما تبـــرح العائلة أن تغادر الحي إلى مكان آخر لا يعرف أنها مغتسلة للتو من عار ذي رائحة تتحرك عبـــر الأمكنة ولا تنحسر.

والواقع أن «العار» مفردة يعبـــر جذرُها اللغوي عن نوع مـــن العيب، وهي مأخوذة من العور، كما تؤكد معظم المعاجم، ربما لهذا تقف حدود العقوبة عند طرف واحد دون سواه، المرأة دون الرجل. فهي العين العوراء في وجه العائلة، أما الرجل فيبقى العين الأخـــرى التي ترى وقد تبكي.

كانت هذه «المغاسل» الدموية تقع عند أطرف المدن عادة، وفي مدينة الثورة التي يجري البحث اليوم عن بؤر جديدة ومن نوع آخر للفتن فيها، كانت كلٌ من منطقة الأورفلي الواقعة بـــين «الثـــورة والشماعية» وكذلك منطقة «خلف السدة» و «كسرة وعطـــش» هي الحزام الأمثل لقتل الضحايا من «الزانيات» من مختلف منـــاطق بغداد، لكن هذا لم يمنع أن تتم واحدة من الجـــرائم تحـــت أنظـــار الجميع، وفي وضح النهار، عندما كان عدد مـــن رجـــال العائلـــة يطاردون شابة في زقاق الحي بسكاكينهم وهي تصرخ وتدور كالثور الهائج بينما تسدد لها الطعنات من كلٌ جانب لتسقط في محيط مـــن الدم وسط بـــركة حمراء، تعلن لمنٍ يعرف، ولمن لا يعرف أن الـــدم غَسَلَ «العار» والشرف الرفيع ظلّ رفيعاً بفعل مسارب الدم المتخثر في الزقاق.

لا يتكفل الزوج عادة بغسل «العار» الذي لحقــه مـــن الخيانـــة الزوجية، بل يترك لعائلة الزوجة هذا العـــبء، أو هـــذا الـــشرف، فيكتفي بدفعها إلى أهلها ليتخلصوا من «عارهم» من عينهم العوراء ربما!

وبدلاً من أن تنتقل القوانين الوضعية والتـــشريعات الـــسماوية، بالمجتمعات الأهلية إلى درجة أخرى في سلّم المدنية، فـــإن القـــوانين والقرارات المتعددة لما يسمى مجلس قيادة الثورة في العراق، كانـــت تعيد المجتمع العراقي إلى مسافات بعيدة منحدرة، في الـــسلّم المـــدني تقربه من شرائع الغاب، لتصبح الدولة بـــرمتها صورة مصغرة عـــن نموذج العشيـــرة، بنواميسها وتقاليدها وأحكامها، التي تدحض إلى حد بعيد حتى ثوابت الأحكام الشرعية في الفقه الإسلامي. ولا يمكن

إعفاء الكثيــر من رجال الدين من التواطؤ مع السلطة في هذا المجال، من هنا فإن تشريع القانون الخاص بعدم تجريم المتهم بارتكاب «جريمة شرف» إذا كان الأمر يتعلق بــزوجته أو أخته أو أمه أو ابنته، جعل من الجريمة قضية عائلية داخلية، لا رقابة لأية مؤسسة مدنية عليهــا. فكان القانون المعروف بقانون «رقم 111» والذي مر كغيــره من قرارات مجلس قيادة الثورة، دون أن ينال شجباً ولا اســتهجاناً ولا نقداً من قبل المجتمع الدولي، ومنظماته الأهلية، وتجمعاته الإنــسانية والحقوقية ولا حتى أدنى اهتمام يذكر، فدفن تحت سقف هذا القرار سيء الصيت المئات من الضحايا دون أن يجــري تحقيــق نــــزيه وموضوعي في حقيقة الجرم المرتكب بحق الضحايا. مثلنا دفنت جرائم الزنا بالمحارم تحت سقف الحفاظ على رفعة الشرف.

لقد حاول النظام السابق، إحكام دائرة قهر المرأة العراقية عبــــر خليط غيــر متجانس، ومتناقض في أغلب الأحوال من ذرائع دينية مزعومة، وقيم أخلاقية فاسدة، وتركات عشائرية بائدة، فجاء قــرار منع المرأة من السفر إلى خارج العراق إلا بصحبة محرم «زوج أو أخ أو أب تحديداً» ليلغي حقاً طبيعياً لها قبل أن يكون تــشريعاً مــدنياً مكفولاً ابتداء، ويحجب عنها بالتالي الحق بالحياة بقرار يقوم علــى التمييــز الجنساني، ستكون لها عواقب سلبية على طبيعة التجــانس المجتمعي في البلد.

و لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أضحت الدولة نفسها ولي الدم والعار المتحصل من الزنا. فكانت حملات عدي الشهيــرة في خريف العام 2000، ضد النساء المتهمات بممارسة الدعارة، لتحصد رؤوس أكثر من مائتي امرأة، تحت سيوف ميليشات فدائيي صــدام،علقت

رؤوسهن على مداخل البنايات عبـــرة للنساء، وتعويذة ضد الزنــا وتذكرة بالعفة[1].

يتذكر العراقيون اليوم أن هؤلاء «الفدائيين» الذين بتروا ألـــسنة الناس، وجدعوا أنوفهم وصلموا آذانهم وقطعوا رؤوسهم وأيـــديهم وحتى طرقهم، لم يقطعوا الطريق أمام دبابات المحتلين، بل قطعوه هرباً نحو قراهم تاركين بغداد التي طالما هتفوا باسم شرفها والدفاع عنه.

بيد أن هذا التقليد العشائري البـــربـــري، لم يكـــن محكومـــاً بالشرط البيئي، والمحيط الأهلي، بل أضحى مترســـخاً في النفـــوس، لينتقل معها بتقليده المقيت إلى بيئة أخرى، ففي دول أوربا ثمة قصص كثيـــرة صارت مادة روائية لكتابات متعددة الجنسيات عن جـــرائم غسل «العار المتنقل» لعراقيين من شتى القوميات، فقد كان ثمة ريادة لأول جرائم الشرف في البلدان الاسكندنافية.

هكذا هو حال المرأة في العراق يوم دخلته دبابات المارينـــز، بعد سنوات الحصار ولكن ليس بحثاً عن هيلين هذه المرة.

(1) قامت هذه الحملة التي قادها " عدي" الابن البكر لصدام، في سياقين: الأول ما عرف بـــ "الحملة الإيمانية" التي سعى صدام من ورائها إلى نقل ثقافة المجتمع العراقي من ثقافة علمانية متطلعة، وحياة سياسية ذات إيديولوجيات أرضية، إلى نزعـــات لبشر من ورثة "رسالة سماوية" مستفيداً من التأثيرات السلبية للحروب وللحـــصار الاقتصادي، أما السياق الآخر فهو يتعلق " بغيرة وطنية مزعومة" تمثلت في الثأر من مضمون ما أشيع عن شريط إباحي انتشر في العراق وتظهر فيها امرأة عراقية وهـــي تلوح بسروالها الداخلي، لتقول هذا هو العلم العراقي الجديد.!

فخلال التسعينات نزلت المرأة العراقية إلى ليل الأرصفة، وليس بينهن بالتأكيد «ماجدات صدام» بل «الخايبات»[1] من العراقيات، مناوبات ليليات في المستشفيات، وآذانات في الدوائر، بائعات للشاي والمياه في شارع الليل العراقي الطويل، في كراجات النهضة والعلاوي، وهما كراجا المنطقتين الشمالية والجنوبية من العراق الموزعان على رصافة بغداد وكرخها، حيث لا يسافر منهما في أحيان كثيرة إلا الجنود لجبهات الحروب.

ليلاً فليلاً، صارت الطبقة الفقيرة هي المادة الأساسية لعالمي البغاء المتواتر والزنا العابر، أمهات في متوسط العمر، وصبايا في مقتبله، تدفعهن الحاجة أكثر من طلب اللذة للممارسة هذه المهن المزدوجة، بيد أن نماذج أخرى للمرأة العراقية كن ضحايا من نوع آخر، بمجرد قصة حب، أو رؤيتها تصحب شخصاً غريباً في الشارع، أو حتى وشاية لكاره أو عاشق مرفوض، ستكون دليلاً لن يرقى إليه الشك بسهولة عن تحقق واقعة الزنا.

وفي منتدى حوار في الأعظمية وفي مقهى الشابندر في شارع المتنبي، كانت «ينار محمد» العائدة إلى بغداد من المنفى الغربي، وإحدى الناشطات في مجال حرية المرأة، تطلق الآراء ضد الاحتلال الأميركي للعراق، وضد الرجال الذين ينتهكون حياة المرأة

(1) الخايبة: مصطلح في العامية العراقية مشتق من الخيبة كما هو واضح ويعني المرأة التي لا حظوة لها ولا نفوذ، وفي حروب العراق كان الفقراء الذين يقتلون فيها تطلق عليهم تسمية: أولاد الخايبات حتى زاحم هذا المصطلح، المصطلح الأول وحلّ محله تقريباً.

وحريتها على حد سواء، كانت آراؤها في الجانب الثاني لا تخلو من راديكالية واضحة، يتبناها الحزب الذي تنتمي إليه «الحزب الشيوعي العمالي» خاصة ما يتعلق بحرية المرأة في المساكنة واختيار الــشريك الجنسي، وعندما نبهتها بشكل عابــر في المقهى، إلى أن ما تحتاجــه المرأة العراقية، في هذه المرحلة هو أقل من ذلك بكثيــر وخطوة على الطريق، وأن الطموح لا يعدو عن كونه شعاراً في هذه المرحلة، فهي تقتل على الظن وليس على الفعل، أكدت، بكلام عابــر أيــضاً لا يخلو من أصرار، أنها تكافح من أجل الشعار.

بعد بضعة أسابيع، تلقت ينار محمد تهديــداً بالقتــل، لا لرأيهــا المناهض للاحتلال، وإنما من إحــدى المنظمــات الأصــولية الــتي اعتبــرتها مرتدة عن الإسلام ودعتها للتوبة، على الرغم من أنهــا لم تبد سوى رأي، لكنَّهُ رأي، كان كفيلاً بان يجعــل تلــك المنظمــة تنتفض غضباً ووعيداً ضد السيدة، أكثر من انتفاضها ضد المحتل.

لا أدري إذا ما عادت ينار محمد إلى منفاها الغربي بعــد ذلــك التهديد، لكن الأغلب أن «سيوف الشرف» قد أكلت من لحم بنات جنسها الكثيــر منذ ذلك الوقت، مثلما أكلت منه نيــران المحــتلين وأنياب المغتصبين على الجهتين.

مع انهيار البنى المؤسساتية للدولة عقب الاحــتلال الأميــــركي للعراق، بدأت سائر البنى الاجتماعية المحملة بأرضة الانهيار والآيلــة للزوال أصلاً، تذهب إلى انهيارها هي الأخرى متماثلة ومنسجمة مع تقوض البنى المؤسساتية، ثمة إحصائيات أوليــة نــشرتها تقاريــــر لمنظمات أهلية عراقية تشيــر إلى أن هناك المئــات مــن الفتيــات العراقيات خطفن أو جرى بيعهن في أسواق النخاسة الــتي بــدأت

تزدهر، وجرى تصديـــر العشرات منهن إلى دول مجاورة، لقاء مبالغ لا تتجاوز في كثيـــر من الأحيان الخمسمائة دولار، الكثيـــر مـــن الفتيات اللواتي كنِ تواقات للهرب من جحيم الرعب والقهر والفقر، لم يترددن كثيـــراً في قبول أية إشارة عابـــرة من شاب أو كهـــل، يعدهن بعبور الحدود نحو عالم جديد. لكن الأكثر منـــهن وجـــدن أنفسهن بعد فترة وحيدات أمام سراب الوعد فصرن بين نارين: نار العودة إلى العائلة التي أعدت حفلة الشرف الدامية، ونار البقـــاء في عالم غريب وجدن أنفسهن فيه وقد تحولن إلى جوار وبضائع كثـــر عرضها وكثر طلبها كذلك.

الكثيـــرات فضلن الانتقال إلى محافظات أخرى، ليتـــوارين عـــن أنظار الأسرة والعشيـــرة، بيد أنه بعد مـــرور العـــام الأول علـــى الاحتلال ومع اعتياد الناس على الواقع الجديد، سيـــرت العديد من العشائر فرقة كشافتها للبحث عن هيلين الضائعة، ولكن ليس مـــن أجل عودتها وإحراق المدن التي هربت إليها بل لاستدراجها وقتلـــها بعلانية تحفظ رفعة الشرف.

وفي مجتمع تصل فيه نسبة الإناث إلى الذكور لأكثر مـــن ستـــين بالمائة، فإن الأقلية الذكورية لن تستطيع أن تقود الأكثرية الأنثوية إلا تحت ظلال سيوف الشرف.

فقد أضحى العراق بلد الأرامل والعـــوانس، بفعـــل الحـــروب والهروب الجماعي بين الشباب من الذكور فيما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للإناث.

ولأن «العار» قد لا تفضحه غالباً، إلا نمو البـــذرة العابـــــرة في أحشاء الضحية، فإن ظاهرة جديدة بـــدأت تستـــشري في المـــدن العراقية، وهي ظاهرة العيادات السرية لحالات الإجهـــاض غيــــر القانوني، التي راحت تنمو متوازية مع تفشي ظاهرة القتـــل بـــسبب العلاقات الجنسية خارج السقف الشرعي، ربما لتـــضيف أضـــحية جديدة في السلم الانتقائي لطبيعة الجريمة.

ويشكل غياب الأمن واحدة من الأسباب، التي أسهمت في تفشي ظواهر الاختطاف والاغتصاب الجنسي، في العديد من مدن العراق، ومع هذا فإن نشيد الشرف سيفجر الدم في العروق مرة أخرى ليس باتجاه المغتصب، بل باتجاه الضحية، وثمة العشرات من هذه الحالات يجري فيها طمس هوية الرقم الصعب في المعادلة فيما ينوب الـــرقم الآخر السهل عن طرفيها.

ومع أن ثمة حالات «مستترة» من الاغتصاب الداخلي في الأسرة أو زنا المحارم، إلا أن المرأة هي في العادة من يدفع الثمن دون الطرف الآخر.

وبينما يعد الزنا في الشريعة الإسلامية واحـــداً مـــن الأبـــواب الخطيـــرة في الفقه الإسلامي لتعلقه بالحدود الإلهية، فإن ثمة محددات لا تقل خطورة قد وضعت قبل تنفيذ الأحكام الشرعية، وعلى قاعدة ادرأوا الحدود بالشبهات[1] فإن «عقوبة الزنا» فرقـــت بـــين فعـــل

---

(1) على الرغم من إن هذا الحديث النبوي يقوم على قاعدة «الأصل بـــراءة الذمة» إلا إن الأخذ بالشبهات هو الأصل والقاعدة في الشروع بارتكاب جرائم كهـــذه يجري تشريعها بالباطل، وكأنها ركن في أحكام تشريعية إلهية.

«الخيانة الزوجية» وفعل «الخطيئة» بحدود جرى تمييـــزها بالمحـــصن والمحصنة «المتزوج المتزوجة» وغيـــر المحصن، لكنها لم تفرق بين زنا الرجل وزنا المرأة بيد أن الأعراف العشائرية أحدثت هذا الخرق ليس في بنية الشريعة فحسب، بل في بنية المجتمع وطبيعة الجريمة نفسها.

فثمة أحاديث متواترة عن رجل جاء إلى الرسول محمد وقال لـــه: لقد زنيت، وأنا استحق الحد الذي جاء في الكتاب، فـــأعرض عنـــه الرسول لأكثر من ثلاث مرات كأنه لم يسمعه، فألح عليه الرجل من كلّ الجهات وأمام الناس، وعندما أقيم عليه الحد بعد ذلـــك، ذكـــر بعضهم أنه كان يتألم وحاول الفرار من الرجم، فـــوبخهم الرســـول «هلا تركتموه لعله يتوب فيتوب عليه، يا هذا ويا هذان لو ســـترته بثوبك كان خيـــراً»

وفي صورة لافتة من «تراث الرجم» أن رجلاً زنى بامرأة فـــأقيم عليهما حد الرجم معاً، فكان يتلقى الحجارة عن صاحبته، ويقيهـــا بنفسه حتى مات قبلها[1].

فإذا كان الزنا واقعة مشتركة، فإن العقوبة لا تكون كـــذلك في جرائم الشرف، فمن أين تسلل هذا الامتياز الذكوري الذي يتجاوز

[1] مسند أحمد " الإمام أحمد بن حنبل المروزي البغدادي 164 – 241 هجريـــة." الجزء الأول ص 261 طبعة دار صادر- بيروت وفي حديث آخر: تزوج رجل امرأة من الأنصار فدخل بها فبات عندها فلما أصبح قال: ما وجدتها عذراء، فرفع شأنهما إلى الرسول فدعا الجارية فسألها فقالت: بلى قد كنت عذراء، فأمر بهما الرســـول فتلاعنا وأعطاها المهر.

حتى حق الدين نفسه. يعمل الرجل في النخاسة بينما تدفع النـــساء ضريبة الدناسة.

الواضح أن الأمكنة المنقطعة بعيداً عن النظم المدنية، والمنعزلة عن التواصل الاجتماعي، كانت الحاضنة الرئيسية لهذا التقليد المتوحش، وقد انتقلت إلى المدن العراقية بشكل مكثف خلال السبعينات، لتبلغ ذروتها في التسعينات، مما يستدعي فحص الجوانب الأخرى التي يجري الحديث عنها كثيـــراً دون تشخيصها مباشرة، واقصد الآثار الجانبية للحروب وما تخلفه من عنف بشري يستشري ليصبح تقليداً معتاداً.

وإذا كانت الحرب والحصار الذي دام سنوات أكثر من عجاف، لاستعادة هيلين الهاربة أو المختطفة، قد جعلت منها قيمـــة رمزيـــة للإرث والجمال المستعاد، فإن حروب العراق وحصارها، جعلت من عشتار ليس بغياً مقدساً في مضاجع الآلهة، بل ضحية داميـــة علـــى مذبح الدناسة، بقيم ما أنـــزل الله بها من سلطان بل رعتها شياطين الحروب والكوارث والأوبئة النفسية المتراكمة عبـــر الأزمنة.

والواقع أن ممارسة الدعارة في العراق، تفشت بـــصورة واضـــحة خلال سنوات التسعينات متزامنة مع تلك «الحملة الإيمانيـــة» الـــتي أطلقها صدام، كوجه آخر لواقع اجتماعي أفرزته سنوات الحصار.

فالواقع الاجتماعي لم يحصن الأسرة، بل لم يشكلها كمؤســـسة نوعية، فلم تسفر تلك الفترة إلا عن زيجات قليلة، أكثرهـــا غيـــر متكافئة وينقصها الاختيار، في مجتمع بدأت دائرة تواصله بـــالانغلاق عبـــر أكثر من ثلاثة عقود بعد أن كان قبل أكثر من نصف قـــرن نموذجاً للانفتاح الاجتماعي المتوازن في المنطقة.

لم يعد الاغتصاب اغتصاباً داخلياً، فحسب، بل ثمة تقارير نقلت لي جانباً منها سيدة عراقية تعمل في مركز رصد الاحتلال ببغداد، عن أن العديد من السجينات لأسباب أمنية في المعتقلات التي تديرها القوات الأميركية في العراق قد تعرضن لعمليات اغتصاب، وأن ما ظهر من هذه الحالات لا يشكل إلا نسبة ضئيلة من واقع الأمر ذلك أن التكتم على مثل هذه الوقائع هو الراجح لأن مجرد إعلانها يعني إعلان وفاة الضحية دون سواها، وثمة تقارير أخرى عن أن إحدى السيدات التي جرى اعتقالها في سجن أبي غريب، قد هربت رسائل سرية إلى عشيرتها تدعوهم إلى قصف سجن أبي غريب بالذي فيه لقتلها تخلصاً من عار الاغتصاب.

هذا النوع من الاغتصاب لا يعلن الكثير منه، فثمة سجينات قتلن بعد مرور فترة قصيرة على إطلاقهن لأنهنَّ حملنَ من مغتصبيهنَّ في السجون، سواء من الشرطة العسكرية الأميركية أو حتى من المحققين العراقيين أو أولئك الذين يتكلمون العربية.

ربما ستصبح رواية الفرنسي يان غيفليك «العرس الوحشي» مرجعية أدبية وتأويلية لدى العراقيين في هذه المرحلة، وسيعاد اكتشافها من جديد، فهذه الرواية التي صدرت ترجمتها العربية عن دار المأمون بغداد أواسط الثمانينات تتحدث عن جندي أميركي في إحدى الوحدات التي كانت تخدم في فرنسا، وقبل أن تغادر وحدته عائدة إلى الوطن بيوم بواحد، اصطحب صديقته الصغيرة في رحلة توديعية، لكنَّهُ مال بعربته العسكرية نحو مكان منعزل ينتظره فيه إثنان من زملائه في الوحدة، ليجري اغتصاب الصبية بالتتابع من قبل الجنود الثلاثة الذين يغادرون فرنسا مباشرة، تاركين بذرة ملعونة

وغريبة وملتبسة في أحشاء الصبية الشقراء، لكن محاولات الـــتخلص من الجنين لم تفلح حتى يأتي المولود دون أن تعرف حتى الأم من هو أبوه من بين المغتصبين الثلاثة. حيث تتأمل الأم صورته فلا تفلـــح في نسبته. وتحاول قتله مرات عدة دون أن تنجح فتعامله بقسوة مفرطة ليعيش فصامياً معزولا ومشرداً، لتنتهي الرواية بان يقوم الابن بقتـــل والدته خنقاً في البحر كطريقـــة وحيـــدة لمعاتقهـــا للمـــرة الأولى والأخيـــرة.

وربما سيخلف الاحتلال الأميـــركي أدباً روائياً مماثلاً قد ينطوي على بنى حكائية أكثر إثارة من العرس الوحشي لغيفليك.

عشرات النساء قتلن خلال عام واحد من الاحتلال، اختلطـــت مبـــررات قتلهن وتداخلت فيها دوافع الشرف الوطني، بحمية الثـــأر للشرف الشخصي، و«غسل العار» الذي لحق بالأسرة، عاملات في التنظيف وطباخات في الثكنات العسكرية ومترجمات، نساء مسنات وشابات متعلمات قتلن في حمى الالتباس هذه.

وعندما داعبت المجندة الأميـــركية ليندي إيغلاند، أعضاء الرجال العراقيين في سجن أبي غريب، وأجبـــرهم على الاستمناء أمامهـــا، كان الأمر يتعلق، بأداء واجب بالنسبة لها، وبـــسوء معاملـــة مـــن السجان ضد سجينه بالنسبة للأخلاق الأميـــركية، لكنَّ عدداً مـــن السجينات العراقيات، اللواتي أطلق سراحهن ذهبن فوراً إلى المسلخة بإرادهن أحياناً، ليستجبن لقانون «العـــار»، ويغتـــسلن في حمامـــه الدموي.

ثمة قراءات متعددة الطبقات لظهور مثل هذه الجرائم على السطح فالقوانين اليوم شبه معطلة في العراق، والاحتلال أوجد مساحة واسعة للتنفيس عن طبقات العنف المتلاطمة الموج في أعماق المقهورين، مثلما أوجد غياب الدكتاتورية مسافة لم تنضج بعد لحرية شخصية تتلخص اليوم في صورها الأبشع: الفوضى.

لن يكون توفر السلاح إلا نوعاً من نوافل التعليل فيما يتعلق بتفسير ظاهرة ازدياد جرائم الشرف و «غسل العار» في عراق اليوم، فالذبح والقطع هي العقيدة الفلولكورية الملازمة لمثل هذه الجرائم، والسيف والسكين والطبر[1]، هي الأسلحة التقليدية لتأصيل تلك العقيدة، لكن يمكننا فقط أن نضيف أن جرائم الشرف وقد استفادت من توفر الأسلحة النارية بكثافة، فأنها جعلت من الأمر يبدو وكأنه جزء من الحرب الملتبسة والمتعددة الوجوه في العراق، بعد أن كانت مجرد نزوع شخصي يسعى إلى التخفي، والممارسة السرية، ربما جعلت الحرب من ضحايا هذه الجرائم جزءاً من طبيعتها الدموية، فالحروب لا تقف عند دوافع بعينها، ولا تتجه نحو هدف محدد وواحد، لكنَّها مناسبة دموية لشتى الغرائز، تريد الحرب أن تتخلص من فحولتها الطاغية والمتوحشة، إلى توحش من نوع آخر تتدخل فيه الأنثى عنصراً في المحرقة، ويأتي مفهوم «الشرف» ليصبح موسماً نموذجياً لتلك المحرقة.

وما بين راديكالية الشرف الوطني وحمية الشرف العائلي، تتزايد أعداد النساء المقتولات بجريرة مركبة هذه المرة، فالعشائرية

([1]) الطبر مفردة عامية تعني: البلطة.

والأصولية وحتى الثورية، تتسابق لتبـــريـــر الجريمة، مــــرة بالزنـــا الخطيئة، وأخرى بممارسة الدعارة، وثالثة بتهمة التعاون مع المحتل، أو لتاريخها كوكيلة أمنية لدى أجهزة النظام السابق، وتبقى الكـــف المقطوعة من الرسغ، أو السبابة المبتورة علامة ملتبسة وناقصة علـــى جريمة عنوانها: الشرف.

لكن إذا كانت النساء فتنة الرجال الخالدة، فلماذا تموت ربة الفتنة ولا يجنُّ المفتون؟

الماجدات والخائبات في مواسم الحروب.

ربما كان من المناسب تعقب صورة المرأة في إطار آخر، أسهم إلى حد ما في تغذية الفتن البغدادية من جوانبها المتعددة، وإن بدا مفارقاً بالمستوى لا في الطبيعة، ذلك أن الجذور العميقة تكاد تلتقي هناك في التراب الغامض الذي تطلع منه غابات التأويل وتنـشط في ظلالهـا حكايات متعددة الأوجه.

ولهذا يستلزم فحصَ الخطاب التعبوي السائد في العراق في حقبـة الدكتاتورية وتحليله بوصفه مادة أصلية، لظهور «حكايات» جديدة حقاً، يستلزم مزيداً من الجهد والرصد، ليس بقصد إضاءة ظلام تلك الجذور فحسب وإنما أيضاً لأعادة كشف ما أصبح مكشوفاً ومعروفاً ومتشكلاً في أذهان الكثيـرين، بل من أجل تفسيـر الكثيـر مـن الظواهر التي تبدو، في هذه اللحظة من الزمن، ملتبسة ومحيـرة في عراق يدعي الجميع انه يـريد له أن يكون جديداً، لكنَّهُ في واقـع الحال يستعصي على التجدد، على الأقل راهناً أو حتى في المـستقبل القريب.

ذلك أن الإرث يصدم الزمن ويجابهه بقوة، وبنية المجتمع لم تتشكل بتقاليد مدنية قارة ومتطورة تطوراً طبيعياً ونوعياً بل جرى تكييفهـا وفق نواميس عشائرية متخلفة وفي أحسن الأحوال حزبية عقائديـة جامدة وذات توجه أحادي وقاهر.

وحروب العراق التي جعلت مئات الآلاف بل الملايين من رجاله وقوداً لها، تركت رماداً أقسى في نفوس نسائه وانعكست بوضــوح على ملامحهنَّ، فكأنَّ كلَّ امرأةٍ عراقيةٍ اليوم تفيقُ على صورها مترمدة في المرآة.

ومن هنا تبدو صورة المرأة العراقية مشروخة في ثنائية «الماجدة / الخائبة» بوصفها واحدة من إفرازات تلك الحقبة ومما تركته الحروب من ويلات لا مرئية غيــر تلك التي ظهرت للعيان وعلــى شــريط الأحداث.

فالماجدات لقب أطلقه صدام على العراقيات، لكنَّهُ خــص بــه النساء اللواتي كن مستجيبات نموذجيــات لدعواتــه في التــضحية بأبنائهنَّ وحليهنَّ وكلّ ما يملكْنَ على حد سواء، من أجــل مجــده الشخصي كصانع وحيد للمجد.

وعلى الرغم من أن تراثنا العربي يؤكد، في مجمل مراجعه الــتي لا تخلو من التشديد على المجد كإحدى المناقب العليا، أن المجد يخــتص بتوريثه الآباء دون الأمهات، ويمنحونه للأبناء، ليصبحوا مــن ذوي الرفعة في النسب والكرم والسؤدد، إلا أن صدام أوجد لهــذا المجــد السليل صفة نوعية التصقت به كمبتكر لهذا المصطلح، تماماً كما هي مصطلحاته التي نعرف والتي أضحت اليوم تصلح أن تكون مادة أولية غنية لتقصي مراحل هشم البنية الأساسية للمجتمع العراقي قبــل أن تنهار دولته الملفقة.

من المعروف أن صدام أطلق لقب الماجدة على العراقيات لــيس توصيفاً عاماً بل تمييــز لبعضهن عــن بعــض، الماجــدات عــن

«الخايبات» كما يسمي عموم العراقيين أمهاتهم المسحوقات والثكالى اللواتي فقدن أبنائهن في الحروب وعلى منصات الإعدام أو أضعنهم في المنافي والشتات.

فالماجدات هن نساء صدام وجواريه مؤسساته الإعلامية وشويعراته، وأديباته وفدائياتها وجاسوساته، فقد أطلق هذه التسمية، على اللواتي هتفنَ باسمه ودبجن المقالات في تخوين الشعب العراقي بكل أعراقه وقومياته وطوائفه، وكتبن التقارير بدسيسة الأنثى الشريرة ضد أقرب الناس، أما أولاد «الخايبة» فهم مادة نموذجية للمحرقة التي يهتف حيال استعارها «الأشاوس والماجدات» على حد سواء.

فيما أصبحت زوجة الشهيد وأمه وأخته وابنته، الأيامى واليتامى والثكالى والأرامل بمعجم الحزن الذي لا ينتهي، مادة أخرى ضرورية للخروج بمصطلح صدام إلى ثقل جديد في الحرب الإعلامية الداخلية.

بيد أنه كان من الجانب الآخر يسنُّ القوانين لانتهاك شخصية المرأة ومن بينها قرار خاص بإسقاط الجرم عن المتهم بقتل شقيقته أو زوجته أو ابنته أو أمه لغسل العار، وآخر يحرم سفر المرأة خارج العراق إلا بصحبة محرم، ويقدم في التوازي مع ذلك المحاضرات اليومية من على شاشة التلفزيون بضرورة بقاء المرأة في المنزل للإنجاب والإطعام بدل الذهاب إلى العمل «والتبختر» بين الرجال، فيما كان العراق يعاني أبشع حصار عرفه طيلة تاريخه.

وهو في السياق المتناقض ذاته لم يراع «الأخلاق العربية» التي يتغنى بها في تعامله مع النساء المناهضات لحكمه، أو زوجات المتهمين

بعدم الولاء له أو أمهاتهم أو أخواتهم وبناتهم، قائمـة الـشيوعيات المعدومات والمنتميات لحزب الدعوة، وسواهن تطول إلى درجـة لا يمكن معها أن نتصور أن بلداً آخر، في المنطقة على الأقل، جرى فيه إعدام ما يصل ولو إلى جزء قليل من هذا العدد طيلة تاريخه.

ولعل قضية إعدام بنت الهدى «آمنة الصدر» مع شقيقها محمـد باقر الصدر في نيسان / أبـريل عام 1980، واحدة من نماذج عدة في هذا السياق.

صورة الماجدة تعدت إطارها العراقـي لتحتـضن «ماجـدات عربيات» في الشعر والفن بما في ذلك : فن الإيقاع بالمناوئين للسلطة وهم منفيون.

المطربة العربية الخليجية التي غنت كلمات لأحد شعراء القادسـية «أم الشهيد أتكول حنيت إدية، يا ريت عندي للوطن مـن الولـد مية!» كانت ترتدي البدلة العسكرية وتقـف بجـسمها الجـسيم والمترهل، لترسم صورة الماجدة كما أراد لها الـدكتاتور بـصياغة عربية، لكن عمتي «فاطمة» التي لم اعرف لملابـسها لونـاً غيـر الأسود، لم تقل هذا الكلام بالتأكيد، عندما فقدت أبنها البكـر في «القادسية» أو عندما فقد الذي يليه عينه اليمنى في الحرب ذاتها، بل انها عندما فقدت الثالث، انهارت عند وصول الجنازة إلى باب الـدار ملفوفة بالعلم العراقي بمستطيلاته الثلاث التي تشبه ثلاثـة أجـساد فقدتها وثلاث نجمات كناية مأساوية عن ثلاثتهم، مزقت علم الوطن من على السيارة وحملت سكين المطبخ أو تلك التي كانت ستستخدم لذبح أول خروف للعزاء، وانتفضت متعثرة في الشارع صـارخة :

سأذهب بنفسي لأقتل صدام ما دام ليس هناك من يستطيع إيقافه عن قتل أولادي.

وعلى الرغم من أن عمَّتي « فاطمة» كانت تعرف بأنها أم التوائم لأنّها تلد الذكور توائم، إلا أنها فقدت الأصغر بعد سنوات من انتهاء القادسية، فقدنه بطريقة أخرى هذه المرة فقد فضل أن ينتحر ببندقية كلاشينكوف فوق سطح الدار، وحسم الأمر بنفسه حتى لا يعـــود ملفوفاً بالعلم في «أم المعارك» فكفى أمُّهُ مجداً كـــلّ مـــا ســـبق في «القادسية».

والقصة الأخرى التي تروى عن حرب صدام لاحتلال الكويـــت، تتعلق بالمرأة أيضاً وهي كانت أبـــرز عبارة قالها صدام في التحقيـــق الأولي عند أول ظهور له بعد القبض عليه، أنه ذهب للكويت لأنهم أرادوا إهانة العراق من خلال «ماجداته»

وقصة أسلحة الدمار الشامل ترتبط بالمرأة كذلك، والأســـطورة أيضاً تماماً كما ترتبط حرب طروادة بهيلين ملكة إسبارطة في إليـــاذة هوميـــروس، لنتذكر جيداً أن الولايات المتحدة التي لم تثـــر هـــذه القضية عندما استخدمت الأسلحة الكيمياوية في الحـــرب العراقيـــة الإيـــرانية أو في ضرب المدن العراقية، كادت تطوي هذه الـــصفحة التي فتحتها بعد حرب عاصفة الصحراء، نهائياً، لولا فـــرار حـــسين كامل صهر صدام، إلى الأردن عام 1995، مع ابنتي الرئيس، وعندما أقنعت الأم بناها بالعودة إلى العراق ليصبحن «ماجـــدات» بقتـــل أزواجهنَّ من أجل أن يبقى مجد آل «المجيد» لم تطو الـــصفحة الـــتي أعاد فتحها هروب زوجي ابنتي صدام مع زوجتيهما.

وعندما بدأت ما عرفت بأزمة المفتشين الدوليين في العراق، كانت المرأة تسكن في التفاصيل أيضاً، ودائماً ثمة ما يحيط بها من معضلات، ففي رفض سلطات النظام السابق السماح لفرق التفتـيش الدوليـة بمقابلة العلماء المعنيين، كان اسم رحاب طه العزاوي، من بين أهـم أسماء العلماء المطلوبين في قضية التحقق من عدم امـتلاك العـراق لأسلحة دمار شامل، وشكلت مع هدى عماش ثنائيـاً خطيـراً بالنسبة للولايات المتحدة التي كانت تمضي قدماً بالتخطيط لحـرب ستكون المرأة العراقية واحدة من شخصانيتها وموادها أيضاً، حتى أنها اعتبـرت مجرد ظهور هدى عماش في اجتماع تقليـدي للقيـادة القطرية بحضور صدام دليلاً على إمكانية استخدام صدام لأسـلحة الدمار الشامل في أية حرب محتملة مع الولايـات المتحـدة أو مـع الجيـران.

تمثل هدى صالح عماش، جيل أبناء المسؤولين الـذين وجـدوا أنفسهم في موقع المسؤولية بالتوارث، فوالدها هو صـالح مهـدي عماش، الذي كان من أبـرز المسؤولين بعـد انقـلاب 17 تمـوز 1968، عندما كانت هدى في عمر المراهقة وكان الكنية الداخليـة البارزة لعماش في أوساط الحزب والتي طغت على اسمه بين البعثيين، هي الرفيق «أبو هدى» قبل أن يجري تهميشه بالتدريج حيث انتـهى به الأمر سفيـراً في موسكو، قبل أن يقضي في العراق، حيث أشيع كما هي العادة دائماً، أنه توفي في ظروف غامضة.

ومع أنها أكملت دراستها العليا في اختصاص الأحياء المجهريـة في الجامعات الأميـركية، حيث أمضت ثمانيـة أعـوام في الولايـات المتحدة، كشأن أبناء المسؤولين الذين تجتذبهم الجامعات الأميـركية

وتحتضنهم بعناية، إلا أنها أضحت في ما بعد في نظر الإدارة الأميركية ووكالة الاستخبارات المركزية مجرد السيدة أنثراكس، لاعتقادهم أنها المسؤولة عند إنتاج وتطوير هذا النوع من السلاح البايولوجي، ربما هذا في الظاهر فحسب، فدراسة هدى عماش في اختصاصات حساسة لدى الولايات المتحدة قبل حرب الثماني سنوات مع إيران وخلالها، واستخدام الأسلحة الجرثومية والكيمياوية في النصف الثاني من تلك الحرب أي بعد عودتها من دراستها في أميركا، قد يعطي احتمالاً آخر، لسبب احتفاظ الولايات المتحدة بالسيدتين إنثراكس والدكتورة جراثيم معاً، رهن الاعتقال على الرغم من نهاية الحكاية الأصلية لأساطير امتلاك العراق أسلحة دمار شامل.

أيضاً ثمة حقيقة أخرى قد تدفع بقضية استمرار اعتقال الدكتورتين المتخرجتين من جامعات أميركا، ألا وهي البحوث المثيرة التي قدمتها هدى عماش أمام الرأي العام، في وقت أضحى فيه الحصار الاقتصادي وآثار حرب عاصفة الصحراء يشكلان وطأة قوية تجعل منهما قضية أخلاقية تدين المجتمع الدولي بأسره، فنشرت تلك البحوث حول أثر استخدام اليورانيوم المنضب من قبل الولايات المتحدة في عاصفة الصحراء وخطورته على الإنسان والبيئة، فكان بحثاها الاختصاصيان «تأثير تلوث حرب الخليج في مجال انتشار الأمراض المعدية في العراق» و «التلوث الالكتروني والكيمياوي والميكروبي الناتج عن الحرب وتأثيراته على البيئة والصحة» يضمان مادة أساسية لا تنقصها الدقة في ما يتعلق بقضية أثارت ما أثارت من ردود أفعال دولية.

في جانب آخر من المشهد كانت هدى عمـــاش أو الـــدكتورة أنثراكس، التي عملت عميدة لكلية العلوم بجامعة بغـــداد، تبـــدو في صورة المرأة العصرية، والنموذج من خلال تمكنها من اختـــصاصها الذي لا تعوزه ثقافة عامة جيدة، وإجادتها للغة الإنكليـــزية بطلاقة، إلا أنها سرعان ما اندرجت ضمن نموذج الماجدة الـــتي يـــريدها صدام، حيث ظهرت على غيـــر سابق إنذار وهي ترتدي الحجاب، مكملاً لارتدائها البدلة العسكرية التي كانت واجب فـــرض علـــى أعضاء القيادة القطرية بلا استثناء، لكنَّ أحداً لا يستطيع أن يؤكد إذا ما كان ارتداؤها للحجاب، هو استجابة للحملة الإيمانية المزعومـــة التي أطلقها صدام، أم أن ارتداءها الحجاب هو نوع من تكملة الزي التقليدي لأعضاء القيادة مع مراعاة الخصوصية النسوية بالتعويض عن ارتداء البيـــريه العسكرية التي كان يـــرتديها الرجـــال، بالحجـــاب الذي وضعته السيدة أنثراكس على رأسها.

غيـــر أن الصفة الأهم لهدى صالح عماش، أنها كانت المرأة الأولى التي تشغل منصب عضو قيادة قطرية في بعث العراق، عندما انتخبت في العام 2001. بعد أن نحت جانباً منافستها منال الآلوسي، رئيسة اتحاد نساء العراق، التي لم تستبدل هذا المنصب طيلة ثلاثة عقود، بعد أن أثبتت لصدام أنها أفضل من يحمل الصفة التي يـــريدها للماجدة، وقد كشفت الوثائق التي عثر عليها بعد سقوط النظـــام طبيعـــة دور الماجدات واتحادهن في تنظيم ليالي السهر الملونة للرفاق طيلة سنوات الحرب والحصار.

لا أحد يعرف مصيـــر منال الآلوسي اليـــوم لكـــن مـــصيـــر «الدكتورة» ظل غامضاً في سجن أبي غريب، فيما تتأجج فتن مـــن

نوع آخر في اختطاف نساء أوربيات دون تمييز غالباً من أجل المطالبة بإطلاق سراح النساء من أبي غريب، على أن شهادة بختيار أمين وزير حقوق الإنسان في حكومة علاوي وزوج مسؤولة أخرى هي صفية السهيل المعينة سفيرة للعراق في القاهرة، هي الوحيدة التي رشحت حتى الآن عندما قال إن هدى عماش تعاني في زنزانتها الانفرادية من فوبيا متصاعدة وقد ملأت جدران الزنزانة بصور الأطفال. هل سيكون من نافل القول إن هدى عماش تذكرت في زنزانتها الانفرادية تلك جوهر شخصيتها المبددة في زحمة العلم والعمل بأنها سيدة وأم في مطلق الأحوال؟

وعلى عكس هدى عماش ذات الطلعة الارستقراطية المميزة في هيئتها وحركاتها، كانت الدكتور رحاب العزاوي، تبدو عصرية بصيغة أخرى بقصة شعرها الكلاسيكية وملامحها وهيئتها الجادة التي تدل على انشغال مهني وجدية واضحة، على الرغم من كونها زوجة أحد المسؤولين من الصف الثاني في القيادة وهو عامر رشيد الذي عمل في مجالات التصنيع العسكري ووزارة النفط، وكان المسؤول عن إدارة عمل فرق التفتيش عن الأسلحة المحرمة في العراق.

بيد أن ما يجمعها بهدى عماش ليس تقاسمها لأظرف صفتين أطلقتهما وكالة المخابرات المركزية الأميركية عليهما، بل في كونهما عادتا من الولايات المتحدة في السنة ذاتها بعد دراستهما لاختصاصيهما هناك، لتعود معهما العلاقة الدبلوماسية المقطوعة بين العراق والولايات المتحدة بعد ذلك بقليل، والحرب مشتعلة على الحدود لكنْ بالأسلحة التقليدية في تلك المرحلة فحسب.

إنهما امرأتان مكتظتان بالأسرار، هكذا يمكن تلخيص الأمر بالنسبة للأميركان، وهم يرفضون إطلاق سراحهما على الرغم من تصريحات عدة من قبل مسؤولين في الحكومة العراقية المؤقتة، وصلت إلى حد تحديد اليوم الذي سيطلق سراحهما فيه بيد أن السيد نغرو بونتي السفير الأميركي في بغداد قال لا، الأمر لا يتعلق بهاتين السيدتين.

وعلى إيقاع هذه «اللا» القوية خطفت الرهينتان الإيطاليتان سيمونا وسيمونا، وكاد رأساهما يقطعان في الفلوجة لكنَّهما ظهرتا في أول مشهد بعد إطلاق سراحهما وهما تغطيان رأسيهما محجبتين ومبرقعتين، في صورة تقريبية أكثف بمسافة واضحة مما ظهرت عليه هدى عماش بعد عضوية القيادة القطرية.

وعلى إيقاع هذه «اللا» وتلاوين سرٍّ لا يزال أسودَ، قتل الرهائن البريطانيون الثلاثة، وقتلت ماركريت حسن، وخطف وقتل رهائن ذكور آخرون، بينما بقيت هدى ورحاب طرفاً في لعبة غامضة فليستا ممن يتهمون بجرائم ضد الشعب العراقي، وهما لم تقدما للمحاكمة و لم توجه لهما تهم محددة، ومع هذا فثمة مسؤولون وضباط مخابرات متهمون بجرائم بشعة ضد العراقيين، لا يزالون طليقين، فماذا أرادت الولايات المتحدة أن تقول باستمرار اعتقالهما فترة طويلة دون توجيه التهم لهما، هل أرادت أن تقول إن اختصاصهما الذي درستاه قبل ربع قرن، هو جزء من منحة قدمتها لنظام صدام خلال حرب البوابة الشرقية، وحان ميقات استحقاقها الآن أم ينبغي طيها بطريقة ما؟ أم أرادت أن تقول إن أساطير

التسلح المحظور لا تزال قائمة، ودليلها الوحيد كان يجب أن يبقى رهن الاعتقال.

سيدة أخرى قد يكون في مقتلها ما يفسر جانباً آخر من طبيعة العلاقة الملتبسة التي ربطت نظام صدام بالولايات المتحدة، وقد يضع مزيداً من الشبهات عن آثار تلك العلاقة وذيولها التي لا تزال تتفاعل اليوم، حتى بعد سقوط النظام.

فدكتورة أخرى هي عقيلة الهاشمي، كانت من ابرز الشخصيات النسائية في وزارة الخارجية العراقية قبل سقوط النظام، وهي أول مسؤول من النظام السابق يجد مكانه جاهزاً وبسرعة في العهد الجديد، فقد كانت ابرز من سير عمل وزارة الخارجية بعد سقوط النظام مباشرة تحت صفة لجنة المتابعة لكنَّها اغتيلت بعد فترة وجيزة من اختيارها في مجلس الحكم الذي شكله الحكام المدني الأميركي للعراق بول بريمر.

ربما على وفق هذه الثنائية المانوية القاسية جري قتل سناء عبد السلام عارف، إبنة الرئيس العراقي الأسبق الذي تحالف مع البعثيين ضد زميله في ثورة 14 تموز 1958، وابنة أخ الرئيس الأسبق كذلك، الذي كان أول رئيس يسلم الحكم لحزب البعث، دون إراقة الدماء، وارتضى أن يعيش لبعض الوقت في المنفى قبل أن يعود للعراق، ويظهر أحياناً مع جمع المتبرعين بالأموال لقادسية صدام من راتبه كمهيب ركن متقاعد! وربما على وفق هذه الثنائية أيضاً اغتيل ابن سلامة الخفاجي عضو مجلس الحكم السابق أو هذه الصحفية أو تلك الرفيقة أو تلك الفنانة، إنه إرث ثقيل فعلاً لا يمكن الفكاك من وطأته القاسية بسهولة إذا لا تزال المرأة العراقية تنظر إلى

صورها في المرأة مشروخة ولا تزال الحرب دائرة، لكنَّها حرب غريبة على الأقل لا تشبه تلك التي قال عنها شاعر المرأة في العصر الأموي عمر بن أبي ربيعة:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا
وعلَى الغانياتِ جرُّ الذيول

أو لعلها هياج لا يسمع فيه حتى الحديث النبوي «رفقاً بالقوارير» عندما كان عبد الله بن رواحة يحدو بقافلة للرجال من مسلمين، وكان أفضل من يجيد الحداء، فاندفع أحدهم برحل النساء بقوة ليلحق به فاهتاجت الأبل، وكان فيها كثير من النساء فقال له الرسول: رويدك رفقاً بالقوارير: يعني النساء.

فيدرالية الهواتف المحمولة.

الهواتف المحمولة، واحدة من الأسلحة المهمة الـــتي ســـاهمت في احتلال العراق، وإسقاط نظام صدام.

ليس هذا من قبيل الداعية الترويجية، أو الترويعية من إثـــر تقنيـــة الاتصالات في الحروب الحديثة، فهذا ما لمسناه حقاً خلال عملية غزو العراق من قبل الولايات المتحدة، و لم تكن تلك الهواتـــف الـــتي لا تعتمد في تقنيتها على محاكاة البنية التحتية للعراق في نمط اتـــصالاتها، وإنما عن طريق الأقمار الصناعية التي تغطي المنطقة، لم تكن إلا نوعاً من أسلحة غيـــر تقليدية لغزو جديد، ومن مقاومته في الآن نفـــسه، إنها واحدة من التجليات المتعددة لفلسفة العولمة في مجـــال حـــرب الاتصالات.

في وقت ما، في أواخر ساعات بثه قبل أن يتم التشويش نهائياً على إشارته الفضائية، أظهر تلفزيون العراق عدداً من «الجواسيس» ممـــن كانوا يستخدمون هواتف «الثريا» قال إنهم كانوا يوفرون إحداثيات نموذجية للطائرات الأميـــركية لقصف أهداف محددة داخل العـــراق عن طريق ما يعرف «بنظام ماجلان» الموجود في الجهاز والذي يحدد الهدف المتواجد فيه ليـــرسله عبـــر الأقمار الصناعية إلى الطيـــارين الأميـــركيين.

وعبـــر نظام الإحداثيات هذا الذي يعيد إشكالية الرحلة المتنازع عليها بين الملاح العربي ابن ماجد والمستكشف البـــرتغالي فرديناند ماجلان، سقط صدام واحتلت بغداد.

إياد علاوي أول رئيس للـــوزراء للعـــراق في ظـــل الاحـــتلال الأميـــركي أكد شيئاً من هذا الواقع عندما قال في أحد لقاءاتـــه إن نظام صدام كان متداعياً إلى الدرجة التي لم تكلفنا فيه عملية إسقاطه سوى عدد من هواتف الثريا أدخلناها للعراق!

وميلشيات الأحزاب التي سارعت إلى دخول العراق، فور سقوط العاصمة كان الهواتف المحمولة علامتها الفارقة وامتيازها الفائق وليس السلاح الذي كان متوفراً لدى جميع العراقيين تقريباً بل هذه التقنيـــة المميـــزة التي لا يعرفها المقيمون في البلاد.

يومها شاعت أخبار كثيـــرة عن اختراقات واختراقات مـــضادة لمنظومة «الثريا» خاصة وأن الطرفين العراقي وكـــذلك الـــصحفيين المرافقين للجيش لأميـــركي استخدما تلـــك المنظومـــة في تنـــسيق عملياتهم وتحركاتهم.

وما أن أنجز الغزو في ظل انقطاع كامل للاتصالات الهاتفيـــة في العراق، حتى تحولت تلك الهواتف إلى مصدر وحيد للتواصل بين هذا البلد والعالم الخارجي، وعلى الصعيد الشعبي بلغت كلفـــة الدقيقـــة الواحدة للاتصال أكثر من عشر دولارات، وكان شراء جهاز مـــن هذا النوع يعني دخولاً مبكراً لعالم الاستثمار، حيث تجد زحمـــة في طرقات بغداد وطوابيـــر من البشر تقف عند شخص يديـــر مكتباً

للاتصالات الدولية على رصيف أحد شوارع الكــرادة أو شـــارع فلسطين أو منطقة الغديـــر.

كان ذلك إيذاناً ببداية عصر جديد للاتصالات في البلد الذي ظل محروماً من تقنية الاتصال الخليوي ربما من بين بضعة بلدان في العالم.

لعل هذا الواقع بدا محرضاً حيوياً للمستثمرين على فـــتح ملـــف الهواتف الخليوية في العراق، قبل أي ملف آخر في عمليـــة تحـــديث العراق، واستدراج العروض لإنشاء تلك المنظومة في زمـــن قياســـي يمكن أن يوصف بأنه يثيـــر الريبة، في ظل انقطاع التيار الكهربائي، وتلوث المياه وشحة الوقود، وفي ظل فوضى عارمة لم تتـــرك شـــيئاً يسيـــر بشكل طبيعي، ومخاطر لم تسمح بدق حجر إعمار واضـــح في البلاد، فخلال أشهر ستة ارتفعت أبـــراج التقويـــة لـــشركات الهاتف المحمول بمختلف مناطق البلاد في وقت ظلّ فيه كـــل شـــيء يتهاوى، لكنّها أبـــراج ليست موحدة بل جري تشييدها على وفق تحديدات جغرافية معينة كانت هي الدلالة الأبـــرز للطبيعة الفيدرالية التي يجري تصميمها للعراق.

بيد أن هذه الخطوات أضحت واحدة من بين أبــــرز ملفـــات الفساد المبكرة في عراق ما بعد صـــدام، فبينمـــا اســـتفادت تلـــك الشركات من البنية التحتية للاتصالات في البلاد، لإنجاز مشاريعها، فإنها تعاملت بجشع لا يخلو من ابتزاز واضح للمـــشتركين التـــواقين لاستخدام هذه التقنية في وقت لم يجر فيه أي جهد لتأهيل الاتصالات الأرضية في العراق «هل كانت بحاجة إلى تأهيل حقاً؟»

ثلاثة شركات تولت تسويق خدمة الهواتف المحمولة في العــراق، وفق جغرافيا تعتمد التوزيع الطائفي والعرقي والمناطقي، لتعكس إلى حد بعيد صورة المستقبل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في هذا البلد القابل لاحتمالات شتى.

فشركة عراقنا «أراسكوم تيليكوم» التي يملكها رجــل الأعمــال المصري نجيب ساويــرس، وهي أول شركة للهواتف المحمولة تبــدأ عملها في العراق، فازت بعقد مشاريع الهاتف المحمــول في بغــداد ومحيطها بعد بضعة أشهر من الاحتلال.

وعلى الرغم من الشبهات التي رافقت عملية مــشروع الهــاتف الخليوي في البلاد بــرمته، فإن مفردات التعامل اليومي معه تعــزز مزيداً من تلك الريبة، فحين تحاول أن تستخدم هــاتف «عراقنــا» للاتصال بصديق في البصرة أو ميسان في الجنوب، أو في الموصــل أو أربيل في الشمال مثلاً فلا تستطيع، يقول لك زبــائن «عراقنــا» إن الشبكة لا تصل إلى هناك حيث شبكة أخرى مختلفة تغطي المنطقــة ولا يمكن التواصل معها، إذن هذه هي حدود «عراقنــا الجديــد» ضميــر الجماعة المتصل يتحول إلى فاصلة تاريخية، تلخص مغــزى أبعد، وفي وقت تستطيع فيه أن تتصل بأي مكان في العــالم عبــر المحيطات لم يعد بمقدورك أن تتواصل مع أصدقائك أو أقاربــك في شمال البلاد أو جنوبها، اللجوء إلى الهواتف الأرضــية هنــا يجعلــك كالمستجيــر من الرمضاء بالنار، أو كاللاهث وراء زمــن لم يعــد موجوداً، مما يجعل الغربة مركبة بعناصر جديدة، فلا تكاد خطــوط الهاتف في هذه الحالة تعبــر نحو الجانب الآخر من دجلة في وســط بغداد، بل لا تصل حتى إلى حي مجاور، ناهيك عن عــدم إمكانيــة

الاتصال من الهاتف الثابت بأي من الهواتف الجوالة أو الخطوط الخارجية على الرغم من توفر البنية التحتية لذلك، الأمر الذي جعل الناس تنظر إلى مشاريع الهواتف المحمولة بوصفها صفقة مشبوهة تهدف إلى استرجاع ما تمتعوا به من زيادة في الرواتب خلال السنتين الأخيرتين بصيغة استهلاكية تحت شعار الرفاهية، يعزز هذا الاعتقاد ما اتخذته تلك الشركات من إجراءات خلال المراحل الأولى من تشغيل خدمتها عبر فرض شراء جهاز الهاتف مع الخط من الشركة نفسها لتحقق بذلك ربحاً أضافياً وسريعاً في غياب أية رقابة للدولة التي لا تكاد تنهض على قدميها.

الذين تحتم أعمالهم تواصلاً على امتداد جغرافيا المناطق الثلاث ليس أمامهم من حل تواصلي، سوى عولمة الاتصال، عبر هاتف الثريا بتكاليفه الباهظة أو الجمع بين ثلاثة هواتف للشبكات «أعرف رجلاً يدير أعمالاً تجارية في العراق يحمل ثلاثة أجهزة لثلاثة خطوط للتواصل مع أعماله في أنحاء البلاد.»

في الواقع العراقي الحالي فإن الحديث عن بضعة ملايين من المشتركين لدى الشركات الثلاثة، يعني أننا نتحدث عن تجارة جديدة في العراق، ربما لا تضاهيها اليوم إلا تجارة النفط.

أما منطقة كردستان التي تتمتع أساساً ومنذ العام 1991، باستقلالية تامة عن شبكة الاتصالات العراقية وبمفتاح رقمي دولي، مرتبط بعدد من الدول المحيطة كتركيا، وعبر مقاسم تحويلية تصل إلى الولايات المتحدة، فإنها اختارت شركات يملكها مستثمرون أكراد، إضافة إلى شركة «آسيا سيل» التي تعود أسهمها لمستثمرين خليجيين.

كان النداء للاتصال من كردستان ببقية مدن العراق مثلاً يكلف أكثر من سعره بالدقيقة الواحدة عما تكلفه تعرفة المكالمة نفسها إلى كلٍّ من أميـــركا أو أستراليا، بفعل طبيعة الربط عبـــــر خطـــوط وسيطة لغياب التواصل آنذاك، أما اليوم فإن الاتصال ببغداد عبـــــر «عراقنا» : غيـــر ممكن حالياً... هذه هي الرسالة التي يتلقـــاه مـــن يجرب الاتصال بعراقنا الفيدرالي.

في بداية الثمانينات وعلى الرغم من اســـتعار الحـــرب العراقيـــة الإيـــرانية تمتع العراقيون بوجود منظومة اتصال هـــاتفي متقدمـــة، جعلت موظفي وعمال الخدمات في وزارة المواصلات يجولون علـــى البيوت في المناطق النائية لإنشاء خط هاتفي، حتى دون أن تتوفر لدى بعضهم أجهزة هاتف بعد، كانت تلك الخدمة المميـــزة تعود بأسبابها إلى وفرة الخطوط بعد ربط العراق عبـــر شبكة متقدمة أنـــشأتها في ذلك الوقت شركة «الكاتال الفرنسية» لكن ربع قرن من الحـــروب والحصار وإهمال أعمال الصيانة جعلت من تلك الشبكة المتقدمة شيئاً من التاريخ الذهبي الذي ضاع بـــريقه تحت تراكم صدأ الـــسنوات العجاف.

وفي الجنوب تسعى محافظات «البصرة والعمارة والناصـــرية» إلى إعداد مشروع فيدراليتها السياسية الجغرافية تحت تسمية إقليم سومر، مستفيدة من الفقرة «ج» من المادة الثانية والخمسين من قانون إدارة الدولة الانتقالية التي تتيح لأية ثلاث محافظات أن تنشئ إقليماً خاصاً بها مع التأكيد إن قانون إدارة الدولة نفسه أو ما صار يعرف بقانون بـــريمر يقوم أساساً على النظر إلى عراق المستقبل بوصـــفه عراقـــاً فيدرالياً، منطلقاً من إقرار واقع موجود على الأرض في كردســـتان،

ومتجهاً إلى النظر إلى العراق بوصفه مجموعة من الأقاليم المتمتعة باستقلالية الأنظمة والقوانين والمجالس المحلية، وعلى الرغم من تعثر مشروع «إقليم سومر» والنظر إليه بكثير من التشكيك ومن مستويات مختلفة حتى الآن إلا أن أزمنة الهواتف المحمولة تكفلت بتحقيق سبق على الأرض بجعل هذا المشروع واقعاً حقيقياً من خلال استقلالها بشركة خاصة زحفت من الجنوب القديم «الكويت» عبر شركة الأثير لتستأثر بعقد شبكة اتصالات لتلك المحافظات، شبكة لا يمكن «لعراقنا» المصرية أن تدخل على خطها، ولا «لآسيا سيل الشمالية» أن تخترقها، مع إنها بدأت تزحف إلى بغداد بأبراجها الخاصة مزاحمة «عراقنا» التي لا تتمتع بسمعة طيبة لدى زبائنها الذين فاقوا المليون، خاصة أولئك الذين تمتد صلاتهم أبعد من أبراج عراقنا نحو مناطق فدرالية الأثير.

وإذا كان الدولار قد أصبح عملة رائجة في السوق العراقية تنافس عملة «بريمر» التي طردت بدورها عملة صدام من خلال طبعات جديدة، فإن شركات الهواتف النقالة برمجت نفسها على سعر الدولار حيث تباع البطاقات بالدولار، وتحسب الدقائق بالسنتات، الأمر الذي جعل كثير من العراقيين يعرفون ربما للمرة الأولى إن للدولار فئةً اسمها السنت، وصار بعض ظرفاء الأدب يطلق على رسالة الهاتف التي تذكره مع كلّ مكالمة بالرصيد المتبقي اسم «السوناتات الأميركية!»

وفي زمن هذه «السوناتات» تكاد محلات أجهزة الهاتف الخليوي في العراق تطغى على الصورة النمطية لمدينة بغداد بكونها مدينة مقاهي، حتى أن مكاتب الاستنساخ التي ازدهرت خلال فترة الحصار

الاقتصادي وأسست لمرحلة ثقافية عرفت بثقافة الاستنساخ عبــر تصويــر الكتب التي لا تدخل البلاد وبيعها بأسعار زهيدة، تحــول معظمها اليوم إلى مكاتب لترويج أجهزة الموبايل وخطوطه ونغماته، بل انها استفادت من رموز العهد الجديد لتطلقه على أسماء الأجهــزة فهذا جهاز إياد علاوي، لأنه ضخم في الجزء العلوي وذلك جهــاز بــريمر لأنه رشيق.. ألخ

الحد الآخر لهذا السلاح المحمول، لم يتوقف عنــد حــدود «أم المعارك» بل ترعرع مع أبنائها وبناتها، خلال السنتين الأخيــرتين، فكان قاعدة استمكان جديدة تعد نموذجية في حرب العصابات التي تخوضها المقاومة، وفي عمليات الخطف متعددة الغايات، وفي مهرجان العبوات الناسفة في كلّ مكان في العراق، مثلما أصبح هو بالــذات مجال رزق قطاع الطرق وعمليات السلب.

في العراق اليوم، دون أي مكان آخر من العالم، لا ينظر للــهاتف الخليوي إلا بوصفه جزءاً من مكتسبات الحملة الأميــركية الأمــر الذي يدفعنا، بقوة، إلى مقارنته بمطابع نابليون في حملته على مــصر والأبعاد التنويــرية التي صحبت تلك الحملة، لنكتشف المسافة غيــر المتشابهة أو غيــر المرئية حتى الآن بين الاحــتلالين، أو ربمــا بــين الحضارة الفرنسية والقوة الأميــركية، أو بين احــتلال في عــصر الحرف والحبــر والورق، وآخر في عصر التقنية الرقمية.

لكن التغييــر الأميــركي نحو «الحرية» في أرض الرافــدين لــه وجه واضح حتى الآن وجه يتعلق بالفضاء والأثيــر البعيــد، هــو الهواتف المحمولة والفضائيات التي أضحت متاحة في كــلّ بيــت في العراق تقريباً، حرية تلتبس بالفوضى وبتقاطع المصالح، وتعزز الصورة

القائمة عن طبيعة مشروعها في العراق، فعلى الأرض لا شـــيء مـــن هبات العم سام غيـــر شوارع مكتظة بالقتل اليومي واليـــأس مـــن المستقبل.

في حمى التنافس بين شركات الهاتف المحمول الثلاث في العـــراق، شمالاً وجنوباً ووسطاً، ثمة ترقب لدى النـــاس أن يـــصبح اشـــتباك الأبـــراج العالية وتداخلها بداية لحوار جدوى اقتصادية تستدعي من المستثمرين جميعاً أن يبحثوا عن صيغة توحيدية، ويحققوا «الكارتـــل المنتظر» عبـــر توافقات تنهي التنافس وتحقق الاحتكار من جانـــب، وتجعل الاتصال ممكناً بين شبكات الهاتف الثلاث من جانب آخـــر، عندها فقط سيقدم الاحتكاريون الجدد، مقاربة عملية قـــد يفهـــم العراقيون معها المعنى الإيجابي للفيدرالية بعد أن عجزت كلُّ أدبيـــات الأحزاب العراقية عن تقديمها لهم على أنه اتحاد، وليس مجرد استيلاد ملل ونحل، وجغرافيا جديدة لأرض قديمة.

صورة القائد والحفلة التنكرية لأمراء الطوائف

قد يكون من المثيـــر للمرارة في النفوس حقاً أن لا تستطيع النظر إلى قضية العراق اليوم إلا عبـــر ثنائية مزدوجـــة الطـــرفين مركبـــة المقدمات، متناقضة في حديها، فهو إما أن يكون موحداً تحت سيف الدكتاتور، أو ممزقاً تحت الرايات الملونة لشعارات: الحرية بالاحتلال والديمقراطية بالطائفية.

لماذا يبقى كلٌّ من حدي القضية مركباً هكذا ومتلازماً مع صفات نقيضة لمحمولها ومتناقضة مع حدها الآخر، وإلا كيف يمكن أن تكون العلامة على وحدة البلد هي الدكتاتورية، وأن تكون الكنايـــة عـــن الحرية هي الاحتلال والاستعارة الصريحة للديمقراطية هـــي جغرافيـــا الطوائف؟

قد تعطي نظرة إلى الشاشة العراقية بين هذين الحـــدين صـــورة تقريبية لجانب من هذا الواقع في حياة العراقيين، وهم يشاهدون فيلم «الوحدة» الطويل في سجن أبشع دكتاتورية عرفها العراق، ليتحولوا اليوم إلى مسلسلات الديمقراطية معبـــراً عنـــها بجيـــوش الطوائـــف الإعلامية.

فمع صعود الدكتاتورية إحتل صدام كلَّ شيء تقريباً ليس بصورته الثابتة أعلى الصفحة الأولى في طبعات الصحف التي جعلت من نسخها أشبه بطبعة موحدة فحسب، بل في صورته المتحركة على شاشة التلفزيون التي كانت له وحده تقريباً بشخصه واهتماماته اليومية بخطبه وجولاته ولقاءاته التي تمتد ساعات وساعات، أو «بمآثره» معبراً عنها بالحروب وأغاني المديح والتمجيد التي يمكن وصف صدام معها بأنه رائد حقيقي وبطل قرين ودائمي لأولى إرهاصات الفيديو كليب العربي في مرحلته الأولى، أكثر من عشرين مشهداً سريعاً له تظهر في أغنية لا تتجاوز مدها بضع دقائق، حركاته تتغير بلقطات سريعة بين الرقص الكردي والدبكة العربية والتصويب بالبندقية والمسدس وفي فمه السيكار الكوبي، أو صورته يقطع النهر سباحة، ويركب الخيول البيضاء والعربات المذهبة في ساحة الاحتفالات، أو عند حديثه على الهاتف ببدلته العسكرية، أو مقبلاً الأطفال بزيه المدني أو يضع العقال على رؤوس شيوخ العشائر بالزي العربي، أو يصلي في أكثر من مسجد وضريح، مشاهد لا يتاح الكثير منها في الواقع للأبطال القرينين في المشاهد الحالية للفيديو كليب العربي.

تحت تأثير هذا المشهد المتكرر على الشاشة، شاعت في العراق خلال الثمانينات نكتة تلفزيونية طريفة، تتخلص في أن أحد العاملين في إحدى ورشات تصليح التلفزيونات في العراق توصل إلى حل نموذجي وبراءة اختراع للقضاء نهائياً على الأعطال في أجهزة التلفزيونات، فقد فوجئ الزبائن، الذين جاءوا لاستلام تلفزيوناتهم بعد تصليحها المفترض، بصورة كبيرة لصدام تحتل مساحة شاشات

أجهزهم بأحجامها المختلفة، ولما سألوا المهندس عن معنى ذلك، قال لهم كمن وجد الحل السحري: وهل تستطيعون أن تشاهدوا شـــيئاً على التلفزيون غيـــر صورة صدام؟ لذلك اختصرت لكم القـــضية فاكتفيت بتصليح الصوت ووضعت الصورة المناسبة له.

عاد التلفزيون العراقي مع صـــدام إذن إلى عـــصر الراديـــو، إلى الصوت لكنَّهُ الصوت الواحد المجرد هذه المرة من المساحة التخييليـــة لشكل الصورة وطبيعتها، فصورة صدام هي أفـــق تلـــك المـــساحة وفضاؤها ليس إلا.

وفي عودته هذه فإن هوية التلفزيون العراقي بوصفه صاحب أول بث في الشرق الأوسط أضحت نوعاً من التوثيق لمرحلـــة ماضـــية وليست مرحلة تمهد لتطور فن الصورة التلفزيونية في العراق وتجـــدد هويته.

فمن المعروف أن تلفزيون العراق بدأ بثه خلال العهـــد الملكـــي وتحديداً في ربيع العام 1956، وله تاريخه الرائد في مجالات الـــدراما والمنوعات والبـــرامج والأنشطة الرياضية، حتى شـــهد أول عمليـــة إعدام لرئيس دولة عندما جرى إعدام عبد الكريم قاسم في شـــباط / فبـــرايـــر 1963، في استوديو الموسيقى، بمبنى الإذاعة والتلفزيـــون، وليجرى بث عملية الإعدام لاحقاً كما لو أن إشارة نوعية ظهـــرت لتقول للناس إن ازيـــز الرصاص، هو البديل لأنغام الموسيقى، ومن ثم لتنفتح مرحلة مريـــرة أخرى في حقبة السبعينات وتتحـــول معهـــا شاشة الترفيه إلى قاعة محكمة لعرض المجرمين ومنبـــراً للخطـــب الثورية، وقراءة البيان الأول لكل انقلاب أو تمـــرد عـــسكري، أو القضاء على المؤامرات المزعومة.

مع بدء عصر الفضائيات في العالم، كان على الدكتاتورية في العراق، أن تجد «حلاً داخلياً» تستثمر فيه هذا التعدد الفادح وتسخره في تعزيز أحاديتها وتغنيه بالتنوع الذي يساعد على ترسيخها داخلياً، الحل كان قريباً جداً، ومتوفراً في التناسل الطبيعي للدكتاتور، فأنشأ عدي «تلفزيون الشباب» الذي صار يقدم مجتزآت مختارة من الفضائيات العربية والعالمية، وهي تصور صدام بطلاً قومياً، و لم تجهد «شاشة تلفزيون الشباب» كثيراً في البحث عن مثل هذه المختارات فكثير من الفضائيات العربية كانت تقدم في الواقع أفكاراً نموذجية في هذا السياق لم ينجح حتى تلفزيون صدام نفسه في صناعتها أو الترويج لها.

وبانتشار الصحون اللاقطة في العراق بعد الاحتلال صار العراقيون يرون الصورة المقطوعة أو قل الدرامية للبطل القومي على الشاشات العربية بل وعلى الشاشة المحلية كذلك، ويتابعون في الوقت نفسه صورة «العراق العظيم» وهو في دراما جديدة تقوده إلى أشلاء على إيقاع أشلاء الضحايا الذين تضيق بهم الشاشة يومياً.

لكن انتشار الصحون اللاقطة في العراق لم يمنع انتشاراً موازياً للقنوات التلفزيونية الأرضية، في سابقة لم يشهدها أي بلد عربي آخر، وربما حتى في العالم، بل ان ثمة حكمة جديدة في العراق رافقت انتشار هذه القنوات مفادها أن قناةً أرضيةً واحدةً أكثرُ نفعاً من قمر صناعي يضم عشرات المحطات الفضائية، ذلك أن المحطة الفضائية تستوجب إنتاج برامج خاصة لا يمكن معها قرصنة البرامج من محطات أخرى بينما المحطة الأرضية يمكنها أن تنتخب أي برنامج تريده لتعرضه على شاشتها، دون ملاحقة تتعلق بحقوق الملكية.

غيـــر أن واقع الحال في المحطات التلفزيونية المحلية يشيـــر إلى أنها تحولت إلى منابـــر جديدة للطوائف والملل، ولسان حال للأحـــزاب والشخصيات وأصحاب المشاريع، والمستثمرين العرب والأجانب في شتى المجالات.

عشرات الملايين من الدولارات يجري ضخها في العراق، لـــيس لإعادة الإعمار أو لتحسين مستوى دخل الفـــرد، بـــل لتعزيـــــز ديماغوجيا الإعلام الحزبي والطائفي.

وإلى جانب الصحون اللاقطة تنتشر على سطوح المنازل في العراق الهوائيات الصغيـــرة ذات المحركات التي يجري توجيهها من الأسفل بواسطة أجهزة التحكم نحو الجهات النموذجيـــة لاســـتقبال البـــث الأرضي من شتى الجهات، ويحرص العديد من العراقيين الذي وجدوا في المحطات الأرضية تعويضاً، أو حتى إضافة للقنوات الفضائية، على تحديث البحث اليومي للعثور على محطات جديدة، وغالباً ما يجدون أن قناة جديدة دخلت في الخدمة غيـــر معنيين بخلفيتها، بل بما تقدمه من ترفيه.

وإلى جانب المحطات الأميـــركية التي تبث ارضياً وفضائياً كقناة الحرة الممولة من الحكومة الأميـــركية، يجري أحياناً التقاط محطـــات أخرى ارضياً بصورة غيـــر مفهومة للبعض، ربما بسبب شـــبكات التقوية المنتشرة، وبينها محطات فوكس نيوز القريبة من وزارة الدفاع الأميـــركية.

أما المحطات الإيـــرانية الأرضية الصريحة التي تبث مـــن داخـــل إيـــران، فهي الأكثر رواجاً حتى الآن، لأسباب عدة منها ما يتعلـــق

بنوع من التنفيس عن مكبوت أمتد لأكثر من ربع قرن منذ انتــصار الثورة الإيــرانية، بسبب توجهات السلطة السابقة بتوصيف متابعــة الإذاعة والتلفزيونات الإيــرانية آنذاك خيانة وطنية، كثيــــراً مــا قادت المتهمين بها إلى مقصلة الإعدام على خلفية لاتهــام بالاتــصال بالعدو، يشاهد العراقيون هذه القنوات اليوم ربما من أجل البحث عن السبب في إعدام الكثيــرين ممن عرفوهم أو ربما لينسوا هذا السبب إلى الأبد، ومن الأسباب الأخرى التي تدعو العراقيين لمتابعة القنوات الأرضية الإيــرانية توفر قنوات رياضية متخصــصة تنقــل جميــع مباريات كرة القدم العالمية، غيــر خاضعة لأي تشفيــر، أو حقوق حصرية عادة ما يحرم بسببها مشاهدو القنوات الفضائية المفتوحة، من متابعة تلك المباريات، إضافة إلى وجود عدد من المحطــات باللغــة العربية تبدو وكأنها موجهة للعراق.

أمام هذا الموج الإعلامي الإقليمي، وتزايد أعــداد المــستثمرين الإعلاميين في العراق، ظهر توجه لدى «سلطة الائتلاف» لتنظــيم إدارة الإعلام المرئي والمسموع فجاء إنشاء «الهيئة الوطنية للاتصالات والإعلام»[1] بقرار من الحاكم الأميــركي للعراق بــول بــــريمر وبموافقة من مجلس الحكم وتحت إشراف «خبــــراء الاتــصالات

([1]) هيئة انشأها بول بــريمر الثالث «المدير الإداري لسلطة الائتلاف المؤقتة) كما جاء في توقيع الأمرين رقم 65 و 66 في 20 آذار 2004، وقبل ذلك كانت قــد أنشئت شبكة الإعلام العراقية «I.M.N) والتي تضم جريدة الــصباح وتلفزيــون العراقية وإذاعة بغداد، تحت إشراف الممثل الإعلامي لقوات التحــالف الأميركــي البــريطاني في احتلال العراق: سايمون هاسلوك.

وصناعة الإعلام في بــريطانيا ومن هيئة الاتــصالات الفدراليــة في الولايات المتحدة لتكون مهمتــها تنظــيم الخــدمات الإعلاميــة والاتصالات والمعلومات في العراق، وإصدار التــراخيص الخاصــة بإطلاق محطات الراديو وقنوات التلفزيون.»

وبميــزانية أولية مخصصة قدرت بأكثر من خمسة وعشرين مليون دولار، إضافة إلى ما يدخل إلى ميــزانيتها من مصادر متعددة أخرى وذلك من خلال أجور التراخيص التي تفرضها على شركات الهواتف الخلوية وهيئات البث المرئي والمسموع، باشرت الهيئة عملها، وعلى الرغم من توصيفها لنفسها بالوطنية إلا أن الهيئة في الواقــع لا تتبــع الدولة العراقية ولا تحصل على ميــزانيتها من الحكومة.

وما بين طلبات الترخيص التي تتلقاها هذه الهيئة بشكل لافــت، والتي تقوم بنشرها دورياً، وبين إشارات البثّ التلفزيوني التي انطلقت فعــلاً على شاشة التلفزيون المفتوح والمتاح والمباح، تتشكّل صورة مشوشة فعلاً لدى المشاهد العراقي، أمام هذا الزخم الصوري الهادر في وجهه، بلغات شتى ولهجات عدة، والأمر هنا لا يتعلق بالتعــدُّد المتنوع والتنافس الطبيعي لكسب عيون جديدة، على وفــق هــدي البيت الشعري الشهيــر للشاب الظريف التلمساني:

داريتُ أهلَك في هــواكَ وهُــم عــدى
ولأجلِ عيــنٍ ألــفُ عيــــنٍ تُكــرمُ

لكن ربما بتحريف القافية في البيت أو تركها مرسلة لكي يتحول الكرم، إلى أي شيء آخر غيــر معناه ربما حتى بالجناس البلاغي، بل

إلى كرم من نوع آخر يذكرنا بالمثل الشهير «الأعور في بلد العميان ملك»

ثمة زبد كثير ومضر في واقع الأمر، في هذا التعدد غير الطبيعي بل المريب، للمحطات الأرضية التي تخلق شحنات متنافرة لا يبدو أن العراقيين مهيئين لتقبلها سريعاً وبهذه الجرعات المكثفة.

مع هذا :

أزحْ عنْ صدرِك الزَبَدَا
وَدَعْهُ يبثُ ما وَجَدَا

كما يقول الجواهري، وأزح عن أسماء ومسميات القنوات التلفزيونية الجديدة في العراق، ليتبين ما خلف هذا الحفل التنكري المنوع من بشاعة في التعصب الطائفي والقومي والتنافس الإقليمي والدولي على شاشات المحطات التلفزيونية الأرضية في العراق.

أزح أسماء المحطات من قبيل الحرية، السلام، العهد الجديد، الرافدين، النهرين، الغدير، المسار، المشرق، الشرقية، الرشيد، الفيحاء، الحرة، الفرات، المربد، النخيل، الجنوب، وتمعن في الحيثيات التي أوردها مقدمو طلبات الترخيص للهيئة التي نشرتها كما هي، عن مصادر تمويلها. ستجد: المرجعية الدينية للسيد علي السيستاني، قوات بدر، إرساليات العهد الجديد للمعمدانية حول العالم، هادي المدرسي، الحكومة الأميركية، القوات الأميركية، الحكومة البريطانية، مستشار الأمن القومي موفق الربيعي، حزب الدعوة،

المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، الحـــزب الإســـلامي في العراق، الأكراد، الأحزاب التركمانية والآشورية.

وفي التدقيق في مصادر التمويل تلك، سنلمس الفرق الواضح بين طريقة صياغة هذا البند بين المحطات التي تعلن بوضوح أنهـــا تمـــول مباشرة من قبل الحكومة الأميـــركية أو الحكومة البـــريطانية كمـــا هو الحال في قنوات IBB بغداد الفضائية التي تحصل علـــى التمويـــل المالي من حكومة الولايات المتحدة، أو المربد الممولة من الحكومـــة البـــريطانية: قسم التطويـــر العالمي، وبين المحطات التي تتلطى تحت مصادر تمويل لا يمكن بأي حال الركون إلى مصداقيتها وحجاباتهـــا الهشة، من قبيل: الأموال الشخصية لمذيع ســـابق، أو التبـــــرعات والهبات من المواطنين، أو من الأموال الشخصية لصاحب دار نـــشر صغيـــرة أصدرت بضعة كتب قبل أن تتوقف بـــسبب صـــعوبات مالية. أو تلك التي لا تخلو من طرافة حيث تشيـــر إلى أن مـــصادر تمويلها تأتي من ريع بيع الكتب لأحد رجال الدين!

بيد أن أخطر فقرة ترد في مصادر تمويل بعـــض المحطـــات ذات الطبيعة الدينية، وهي تشكل الأغلبية الساحقة، تتعلق بأموال الحقوق الشرعية أي نسبة الخمس والزكاة، ومكمن خطورتها يتصل بتوجيـــه هذه الأموال التي من المفترض أنها واجب شرعي يقدمه الميـــسورون إلى المعسورين والمعوزين، عبـــر وساطة تتمتع بالثقة، لا أن يـــــزج بها في حمى التنافس على احتلال الصورة على الشاشة، في وقـــت لا يـــزال الكثيـــر من الرعية في عداد من تحـــقّ علـــيهم الـــصدقات والهبات الإنسانية، لا الدينية المتمثلة بالحقوق الشرعية فحسب.

ونتابع على الشاشة في بغداد محطات جديدة تبدأ بثها وما عاد المواطن يسأل لمن تعود، فهناك تلفزيون المشرق الذي يموله الشيخ نهرو محمد عبد الكريم وهو أحد شيوخ طريقة صوفية معروفة في العراق خاصة في شماله باسم الطريقة الكسنزانية التي تتبع الطريقة القادرية المعروفة بين مدارس التصوف، لكن زهد التصوف لم يمنع شيخ الطريقة من الدخول إلى الشاشة، وإلى الحياة السياسية عبر تسييس التصوف بصحيفة وقناة تلفزيونية، وتجمع رأسه الشيخ نهرو نفسه ودخل به انتخابات الثلاثين من كانون الثاني / يناير 2005 تحت اسم : قائمة تجمع الوحدة الوطنية العراقي،خرجت خالية الوفاض في الانتخابات الأخيرة فأطلقت تلفزيونها بعد ذلك ربما لتحقق الانتخابات القادمة زخماً افتقدته في المرة الماضية.

حتى موظفو المفوضية العليا المخولة من قبل الأمم المتحدة للإشراف على تلك الانتخابات، وجدوا لأنفسهم أدواراً تالية في هذا العرس التلفزيوني الكبير، فعبد الحسين الهنداوي رئيس المفوضية العليا المستقلة للانتخابات في العراق هو أحد أعضاء الهيئة الوطنية للاتصالات والإعلام التي تمنح تراخيص البث الإذاعي والتلفزيوني أما فريد آيار الناطق الرسمي باسم المفوضية نفسها فهو من بين العشرات ممن قدموا طلباً لترخيص محطة تلفزيونية باسم «ستار تي في» تبث من بغداد.

فيما تحاول القنوات التابعة للأقليات العرقية في العراق، إيجاد مكان لها وسط هذا التشابك بالتأكيد على برامجها السياسية في تبني حقوقها القومية، وإعادة أحياء لغاتها الأم وتراثها القومي كتابة

وتخاطباً، ينطبق هذا التوجه على كلٍّ مـــن قنـــاة «تـــوركمن الي» وتلفزيون آشور.

صحفيون وصحفيات صغار لم يعرفـــوا في أوســـاط الـــصحافة والإعلام قدموا طلبات عديدة مماثلة أو أطلقوها بالفعل بينها محطـــة مهتمة بالمرأة العراقية اختارت له اسم الملكة الآشورية «سميـــراميس» وبتمويل من «أحد الأمراء العرب» كمـــا جـــاء في نـــص طلـــب الترخيص.

أما نجيب سايـــروس مالك شركة عراقنا للهاتف المحمول، فأطلق أكثر من قناة تلفزيونية ومحطة إذاعية بينها راديو وتلفزيون هو وقنـــاة النهرين التي عرفت بأنها أول من نقلت مباريات الـــدوري العراقـــي لكرة القدم بعد الاحتلال.

لقد جعل صدام من الشعب العراقي كله من حصته ومـــشاهديه، يغنون له ويـــرددون اسمه فحسب، مباشرة أو بكنيـــات وألقـــاب وأوصاف شتى، هكذا أرادهم موحدين في تعدده هو. واليوم فـــإن ورثة صدام الجدد كلٌّ يـــريد أن يغني مواله لتسمعه ملته، ومع هذا لا ينفكّون يتحدثون عن رفض تسييس الإعلام، ربما لأنهم يعتقدون أن الطائفية ليست من السياسة بشيء، هذا ما أرادوه إذن من تحويل الأحادية في النظر إلى التحديق في مساحة متشابكة، لكنـــهم هـــم أنفسهم في الواقع لا ينظرون إلى تلك المساحة الـــشاسعة إلا بعـــين واحدة، ضيقة حوصاء على الأغلب.

الفصل الثاني

معارك بيـــن الأضرحة

الرعية المسلحة والمرجعية المريضة.

فتنة أخرى قائمة ومَنْ يُفترض بأهم يسهرون على نومها كـانوا نياماً!

فمهما قيل عن أن توقيت تدهور صحة السيستاني لم يكن مرتبطاً بتدهور الأوضاع في النجف خلال شهر آب / اغسطس 2004، وعموم المحافظات الجنوبية في العراق، فإن الأحداث نفسها فرضت هذا الربط سواء جاء بالمصادفة، أو جرى تدبيره بعناية شيطانية!

ليس غياب السيستاني وحده هو من وضع علامات الاستفهام الخطيرة إزاء ما يجري، فثمة غيابات بالجملة للمرجعيات الروحية والدينية والسياسية والاجتماعية على حد سواء.

فالمراجع الدينية (العظمى) متعددة في عراق اليوم، والتعدد هنا ليس تنوعاً في الدرجات وفي طبيعة الأتباع، بل هو تنوع حتى في التعدد العرقي لأصول هذه المرجعيات، ومع أن لا أهمية حاسمة لهذا التحدر العرقي في تاريخ المرجعية، لكن الأمر هنا متداخل بين فكرة الوطن، بالمفهوم السياسي حيث تمور بها أحداث العراق اليوم، وبين فكرة المقلدين والأتباع وهي هنا أبعد من مفهوم الوطن بل وتقف أحياناً على طرفين متناقضين في (الصراع الوطني)

بيد أن هذا التنوع العرقي عادة ما جرى إخضاعه لحسابات التنافس على المرجعية، وكانت قضية تجديد الإقامات السنوية لممثلي الحوزة من غير العراقيين، ورقة ضغط ومحلّ جذب وشدٍ بين

السلطة والمرجعية، إذ كانت الأخيرة تلجأ إلى تحديد وجود (الأجانب) المنخرطين في الحوزة، وتضغط باتجاه المرجع الأعلى لتقليص هذا العدد، ولعل واحداً من الأسباب التي خلطت بها أجهزة السلطة دوافع محاولات الاغتيالات المتكررة التي تعرض لها عدد من المراجع خلال التسعينات، هي ما أثارته قضية تحديد هذه الإقامات وحصرها بمراجع معينة، وعلماء دين محددين، وتفسير عمليات الاغتيالات تلك بدوافع تنافسية وصراعات داخلية مفترضة.

هذه المراجع بتعددها تكاد تكون كلها غائبة اليوم، أو مغيَّبة إنْ شئتَ أن لا تطلق التهم جزافاً، غياباً مركباً سواء عن فكرة الوطن أو حتى فكرة الأتباع والمقلدين، غياباً يأخذ أشكالاً شتى فقد طار السيد السيستاني على (بساط الريح) إلى لندن للعلاج، برحلة شبه سرية من بغداد إلى بيروت ومن ثم إلا لندن، وبرحلة أكثر سرية من النجف إلى بغداد، حيث أشار أتباعه إلى أنه سلك طريقاً وعرة نحو مطار بغداد، فيما أكد آخرون ممن يمعنون في التشكيك بدوافع الرحلة عموماً إلى أن مروحية أميركية تولَّتْ نقلَهُ من النجف إلى بغداد، وبعيداً عن أجواء المشككين والمدافعين عن الرحلة فإن الرحلة بحدِّ ذاتها أثارت في النهاية، بتوقيتها وطبيعتها، جواً آخر وتركت فراغاً قوياً ليس في النجف والعراق بل تعدى صوت الريح في تجاويفه الحدود الإقليمية.

السيد علي الحسيني السيستاني المولود في مشهد الإيرانية في العام 1930 هجرية، والمنسوب إلى سيستان حيث أكثرية (بلوشية) وليس فارسية، والمقيم في النجف منذ العام 1951، كان العمامة الأولى في البلاد، التي تقود (قيادة روحية، حيث ليس ثمة التزام

متجسد في مشروعه الفقهي بفكرة ولاية الفقيه) الجماعة الأوضح في الشارع عندما دخلته القوات الأميــركية، بيد أن أحداث نيــسان / أبــريل 2004، قلبت المعادلة كثيــراً، عندما بدا أن مقتدى الصدر قادر على قيادة هذا الشارع نحو مسار آخر فوضــع السيــستاني في موضع ليس بالسهل فيما القوات الأميــركية تتجه نحــو النجــف، الخطوط الافتراضية الحمراء التي وضعها بدت هــشة أمــام تقــدم الدبابات نحو مرقد الإمام علي ومقابــر وادي السلام. الدماء الــتي أريقت على ذلك الطريق كانت هي الأحمر الوحيد، وانقلب الشارع العراقي في تشابك الخطوط الحمراء، في مدنه المقدسة، ليطلق تسمية أخرى على السيد السيستاني، لتفسيــر سكوته فأضــحت تــسمية (السيكتاني) هي التسمية التي عبــرت عن بلاغة محلية أخرى أكثــر تشدداً باتجاه (الحوزة الصامتة) وعمقت انقسام الــشارع وانقلابــه أحياناً نحو جهة الصدر.

غاب السيستاني، حتى قبل أن يسافر، غيبته تلك الخطوط الحمــر التي رسمت من دماء القتلى في الأمكنة المقدســة، وغــاب دوره في احتدام الاصطدام بيــن مقتدى الصدر والأميــركان.

غاب و لم يكن غيابه إلا كناية عن غيابات أخرى متعددة الصيغ.

فثمة معلومات متزامنة ترددت عن وجود السيد محمــد ســعيد الحكيم في ألمانيا، بيد أن نفياً صدر من مكتبه بيــروت، جاء لينفــي السفر المزعوم، لكنَّهُ نفي أكد من جهة أخرى غياباً متعددة الأطراف عن الأحداث، وثمة معلومات أخرى عن ســفر بــشيــر النجفــي (المولود في باكستان) إلى قم الإيــرانية، واعتكاف محمد إســحاق الفياض (الأفغاني المولد) بعد تعرضه للمضايقات من أطراف عدة.

ربما بسبب هذا العراء الواسع توجه عدد من الشخصيات والتنظيمات المتعاطفة مع تيار الصدر بنداء إلى السيد محمد حسين فضل الله، للتصدي لواقع النجف العاري، مستنهضين فيه مولده النجفي وحوزويته وتسامحه.

المراجع الأربعة الكبار بغياهم متعدد الصيغ هذا، ليس العراء الوحيد الذي وجد أبناء المدن الفقيرة والمحرومة أنفسهم فيه، فالأطراف السياسية التي مشت نحو مناصب الحكومة المؤقتة في عريهم الواضح، انزوت هي الأخرى تحت الأغطية والأحداث.

لم نكد نسمع صوت إبراهيم الإشيقر (الجعفري) إلا متلعثماً من مدينة الضباب، التي قيل إنه رتب فيه سريراً أبيض للسيد السيستاني في أحد مشافي لندن.

والجعفري، نائب الرئيس عن الكوتة الشيعية، يواجه حقاً مأزق المضيق الصعب بين فكرة (الدعوة) التي تخمرت تجربته في راديكاليتها، وبين واقع (السلطة) التي خلطت فيه (النائب بالداعي)

أما أحمد الجلبي (الشيعي العلماني) الذي يبحث عن دور دون أن تكون خلفه قاعدة اجتماعية واضحة بعد أن فقد ماركة التصنيع. وتسرب أعوانه ومن قدموا مع مؤتمره في وظائف رسمية بدت لهم مكاسب، أو عادوا من حيث أتوا أو إلى الكتل الاجتماعية التي ينتمون إليها، وجد نفسه هو بالذات بلا غطاء، فغطاء الحليف الأميركي سحب منه بالتدريج من خلال مذكرات التوقيف المتكررة له ولمساعديه وآل بيته! ولعل دوره في التنويم الوقتي «لفتنة» نيسان، ومعقلها الأساسي في معارك النجف بالذات لاح نوعاً من

الدور البديل الذي تصور أنه سيمنحه القاعدة التي يفتقر لها, لكـــن بيـــنه وبيـــن مثل هذا الدور مذكرة اعتقال عند الحـــدود وســـؤال عريض عن رحلته إلى الشرق.

ربما لهذا أبدى إياد علاوي في مؤتمره الصحفي الذي أعلن فيه عزم حكومته على سحق المسلحين أو استسلامهم، استغراباً مقصوداً من بيان (البيت الشيعي) وتساءل عن مصدره، لأنه يعلم تماماً أن هـــذا (البيت) أضحى فارغاً من ممثليه ربما باستثناء مستشاره للأمن القومي (موفق الربيعي) الذي كان إلى جانبه خلال المؤتمر، أما علاوي نفسه فينظر إليه على أنه شيعي من خارج البيت.

إذ لا يمكن للبيت الشيعي أن ينكفئ في المنطقة الخـــضراء، أو في شارع الزيتون أو في ظلمات أقبية وسراديب النجف، إنه ينبغـــي أن يقوم في عراء المدن المكشوفة للفقر والأوبئة وغـــارات المروحيـــات الأميـــركية.

ومن أجل هذا لم يكن من حقّ علاوي أن يطلق على هذه الكتلة الاجتماعية الواسعة توصيف مجموعة من اللصوص والخارجين علـــى القانون، وبان أغلبهم من المطلق سراحهم من سجن أبي غريب سيء الصيت، ألم يكن نـــزلاء هذا السجن هم المادة الحيويـــة لبيانـــات حركة الوفاق التي يـــرأسها علاوي، وبقيـــة أطـــراف المعارضـــة بوصفهم شهود القمع والإرهاب الذي يتعرض له الشعب العراقـــي على يد الدكتاتور؟ ألم تجرِ صياغة خطاب الحرية الجديـــد مـــن دم هؤلاء وأمثالهم!

بيد أن أحداث نيسان/ أبـريل 2004 لا تشبه أحداث آب العام نفسه وإن بدت كذلك، فالصدر كان يتمتع قبل هذه الشهور الأربعة الفاصلة بغطاء ولو جزئي من قبل المرجعية في النجف، لكنَّهُ ما بيـن الربيع والصيف انحسر عنه هذا الغطاء الرقيق والدعم الجزئي، إذ جاء تخلي كاظم الحائري عن إسناد وكالته في النجف للسيد مقتـدى الصدر واحدة من مظاهر العري المزدوج، تحـت شمـس قاسـية، فالحائري المقيم في (قم) أضحى هو أيضاً بلا امتداد واضح بعـد أن تخلى عن مقلديه.

وما بيـن معارك النجف في الربيع وفي الصيف، أكثر من تبـاين على مختلف المستويات.

فبيـنما كانت أحداث النجف النيسانية مرتبطة بموعـد تـسليم السيادة، ارتبطت أحداث الصيف بسخونة التحضيـر للانتخابـات الموعودة والتصقت بواحد من أهم استحقاقاتها المرحلية وهو عقـد (المؤتمر الوطني) الذي ما بـرح متعثراً حتى قبل الاصطدام الأخيـر بالتيار الصدري.

وإذ اتسمت أحداث نيسان / أبـريل بشمولية أكبـر، عنـدما انطلق شعار (من الفلوجة للكوفة هذا الوطن ما نعوفه) فإن الأمـر اختلف بعد تلك الشهور الأربعة وما أعقبها من تفاعلات وتحالفات، فجغرافيا نفوذ الصدر في مناطق الفرات الأوسط والجنـوب، هـي وحدها من تتلقى ضربات (متعددة الجنسيات) أو تمتص انـدفاعاتها هنا وهناك، ولا بد من الإشارة، إلى أن الهجوم على النجف، جـاء بعد أن أعلن إياد علاوي أنه التقى (قيادات المقاومة وشيوخ العشائر في مناطق ما عرف (بالمثلث السني المزعوم) وخلال هذه المرحلة أيضاً

حرص علاوي على عزل تيار الصدر عن محيطه الحيوي، فقام عــدد من مساعديه بجولات على عشائر منطقة الفرات الأوسط وعــشائر الجنوب لتعبئتهم باتجاه (خطته الأمنية) بالأموال والوعود والمناصب، لتجريد تيار الصدر من أهم حلقات قوتها ودعمه التقليدي.

وفي الوقت نفسه فإن ثمة حصاراً جري لمدينتي سامراء والفلوجة، تمهيداً لمرحلة (أمنية لاحقة) على ما كان يبدو في حينها.

وبيـــنما كان الصدر هو المطلوب في حملة نيـــسان / أبـــــريل بموجب مذكرة التوقيف لاتهامه بمقتل مجيد الخوئي، وكانت القوات المحتلة هي من تمسك بتلك الورقة التي سرعان مـــا ســقطت، فـــإن المطلوب مع معارك النجف الصيفية هو تجريد جيش المهـــدي مـــن سلاحه في بلد يكاد يكون أغلب شبابه منخرطين في ميلشيا معينـــة، أو عاطلين بانتظار تجنيدهم كأيد مقاتلـــة في أي تنظـــيم، ورئـــيس الوزراء نفسه أول من بدا تجنيد الميليشيات حال دخولـــه الـــبلاد، في سياق حركة الوفاق الوطني التي يــــرأسها قبل أن يذيبها في قـــانون حل الميليشيات ودمجها بقوات الشرطة والاستخبارات وأفواج الحرس الوطني وحتى الوزارات المدنية.

يتضح من هذا إنها حرب حكومة علاوي، وهي حرب (سياسية) في الدرجة الأولى، أو هي انقلاب مبكر من نوع غيـــــر مـــألوف لفرض سلطته كأمر حتمي لا بديل عنه، بعد أن فرضها في المرحلـــة السابقة كأمر واقع لا مناص منه.

فقد بدأت الحكومة بالملف الأمـــني، وبنـــت أجهـــزة الأمـــن والمخابـــرات التقليدية وبعدد وافر من عناصر النظام السابق خاصـــة

أولئك المهتمين بالملف الإيـراني وطرق نفوذه في العراق، واهتمـت بأجهزة القمع على حساب حل المشكلات الأساسية في حياة الناس، مستفيدة من درس صدام على ما يبدو في أن تجعل المواطنين خائفين دائماً خيـراً لك من أن تجعلهم آمنين.

فقد حلت حكومة علاوي جدلية بيـزنطة في ثنائيـة الأمـن وتحسين الوضع الاقتصادي بأن اختارت خياراً واحداً، تعتقـد انـه الأربح لأنه سيوفر لها، أوراقاً إضافية في شطب الخصوم الـسياسيين، القضية هنا تتعلق بتمكين المؤقت لان يصبح واقعاً، ودفع الممكنـات إلى ممكناتها فحسب، أو إقصائها إلى أقصى ما يمكـن، اسـتحقاق الانتخابات بصيغتها الحالية لا تخدم حكومة عـلاوي إن أرادت أن تستمر (ديمقراطياً) وإنجازه الموعود بحل المشكلات المتفاقمة مع تراجع النشاطات الشركات الأجنبية نتيجة الوضع الأمني المتردي لن يجـد طريقه للتحقق، وثمة بضعة أشهر ،بضعة لا غيـر، علـى الموعـد الموعود، الذي تشيـر وقائع الأرض إلى أنه يتراجع ولا يقترب.

فيما أثبت تيار الصدر أنه اكتسب خلال تلك الفترة شـيئاً مـن التطور التنظيمي، ليس الجانب العسكري الذي أسفر عـن إسـقاط الطائرات المروحية إلا واحداً من تجلياتها، ولا التنسيق بيـن المـدن التي تتواجد فيها قواعد التيار، إلا منها، فهو اثبت كـذلك قـدرة معقولة في توجيه الصراع وجهـة سياسـية سـواء بالتوقيـت أو بالأهداف.

ويبدو هذا التيار من بيـن أكثر التيارات الملتبـسة (للمقاومـة) وضوحاً لهذا لا تختفي وجوه كثيـر من قيادته أو مقاتليه ومسؤوليه خلف الأقنعة والأكياس السود، ولعل هذا ما كلفه خسائر واضـحة

في الاغتيالات والاعتقالات من خلال اختراقات عدة، بيـــد أننـــا لم نسمع عن سيارات مفخخة ولا أشرطة ذبح ولا رهائن مدنيين تجري المساومة عليهم، وهنا سمة إضافية قد تجعل من إفراط الأميــــركان وحكومة علاوي في استخدام العنف ضده أمراً سيكسبه مزيداً مـــن التعاطف الداخلي وحتى الخارجي، في وقت يخـــسر الأميــــركان والحكومة معاً، ليس التعاطف وحده بل المصداقية التي لم يبق كــــلام كثيـــر بصددها.

شيئاً فشيئاً جرى تجريد الصدر من دريئاته المختلفة، فبعد أحداث نيسان / أبـــريل 2004 أو ما سمي بانتفاضة التيار الـــصدري الأولى ضد الاحتلال والتي أشعلت أغلب مدن العراق ضد البـــــريطانيين والأميـــركيين وبقية حلفائهما، كان واضحاً إن الأمـــر يحتـــاج إلى هدنة.

والعرب تفرق بيـــن الهدنة والصلح، فهي سكون لعلة وليـــست صلحاً تاماً، بل ان ابن الأثيـــر ذهب إلى أبعد من ذلك حين شبهها بدخان الحطب لما تحمله من فساد باطن خلـــف صــــلاح ظـــاهر[1] ويـــرى حديث نبوي عن الفتن : «يكون بعدها هدنة على دخـــن وجماعة على أقذاء» أي لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه.

الهدنة إذن لا تنهي الحروب ولا تخمد الفتن، لكنّها تنيمها قلـــيلاً لتدبيـــر أمر أكثر إحكاماً ودهاءً.

([1]) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (المحدِّث) المبارك بن محمد الجزري 544 – 606 هجرية طبعة المكتبة العلمية – بيروت.

واضحٌ أن الفتنة التي نامت بضعة أشهر تحت رماد الهدنة عاد إلى إيقاظها أكثر من محراث لعين.

فما بين تصريحات وزير دفاع الحكومة المؤقتة باتجاه إيران، وتصريحات وزير الداخلية بأن حكومته لن تفاوض تيار الصدر وسترمي بهم خارج الحدود تستعير الحكومة خطاباً مريعاً، بينما تستعيد الكتلة الاجتماعية المعنية أثر خطاب السلطة السابقة التي سبقت الحرب العراقية الإيرانية، فمن الواضح أن الحدود التي قصدها وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة لن تخطئ جهتها التقليدية: الشرق، خاصة وإن طريق الرمي على الحدود لم يزدهر إلا نحو تلك الجهة، وهكذا ترث هذه الكتلة نعوتاً وتوصيفات بالعمالة واللصوصية والخروج على القانون من الحكومات المتعاقبة دكتاتورية كانت أم متقنعة بأقنعة الحرية.

والواقع أن لجميع البلدان المجاورة للعراق أوراقها التقليدية الواضحة، لا يمكن استثناء رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وأعضائها من حزمة تلك الأوراق بالتأكيد، لكن أن يجري ربط حركة هذه الكتلة الاجتماعية الواسعة بخطاب التهجير والتسفيرات سيئة الصيت فإن لهذا دلالات خطيرة في هذه المرحلة.

لكن أسوأ ما في التدبير الأسود أنه نسب في جزء منه إلى دعوة محافظ النجف القوات الأميركية التي قامت بتعيينه، إلى القضاء على جيش المهدي، لكأنه جنرال بأربع نجمات يأمر المارينز متى شاء!

لكن المحافظ المعين الزائل، هو في حقيقة الأمر أقــل مــن ذلــك بكثيـــر، فهو شخص غيـــر معروف حتى في أوساط النجفيين، فقد ترك العراق قبل أربعة عشر عاماً، لاجئاً في مخيم رفحاء في المملكــة العربية السعودية وثمة شهادات تواتر على نشرها شهود كانوا معه في المخيم، أفادت أنه اعتقل هناك في قضية داخــل المخــيم لا تــزال خيوطها غامضة، قبل أن يحصل على اللجوء في الولايــات المتحــدة ليعود مع القوات الأميــركية مترجماً، ضمن العقود التي أبـــرمتها وزارة الدفاع الأميــركية مع عدد من العراقيين للعمل مع قواهـــا في العراق كمستشارين ومترجمين، بيد أن الترجمة لم تكن مجرد مهنــة مؤقتة فقد تسربت ظلالها إلى اسمه نفسه لذلك لا يوجد حتى الآن أي اتفاق على حقيقة كنيته، خاصة وأنها تنقل غالباً من قبل وكــالات الأنباء الأجنبية ليجري تكييفها عربياً وعراقياً وفق أبجديــة أخــرى، بإيـــراد كنية المحافظ بالترجمة التي حملها جواز سفره الأميـــركي ربما، فما بيـــن (الذرفي والزرفي والظرفي) تحار الأبجديــة وتلتــبس الهوية في دلالة ذات مغزى أبعد من خطل الحروف، لتقول لنا مهما تعددت الأسماء فالفعل واحد! ولا أهمية للكنى والتواريخ والأسماء إزاء ما تؤديه من وظائف وأفعال.

وما بيـــن النجف (مبنى المحافظة) حيث جري التدبيـــر والتنسيق بيـــن الأميــركان والحكومة، والنجف الضريح والمقبــرة حيــث يعتصم المقاتلون، بــدلالتيهما، يلتــبس مفهــوم الحـــرب بيـــن التحريـــرية، والأهلية، بيـــن المقاومة والخروج على القانون، لكنّها حرب لا يمكن تجريدها في النهاية عن البعد الطبقي، ودوافع الصراع

السياسي التي يتداخل فيها مفهوم الأفراد والجماعات، بيـــنما تبقـــى النخبة هي النسيج المفقود للصلة بيـــن الجانبيـــن.

فما يجري في الواقع هو تفتيت هذه الكتلة الاجتماعية لصالح نمط آخر من الصراع السياسي.

فمن الواضح أن تشكيل هذه الكتلة المهمشة لتيار الصدر جاء في سياق محاولة منها أن لا تقف عند حدود مرجعيات التقليد الديني في المعاملات والعبادات وحتى العقائد، بل تمضي إلى أبعد مـــن ذلـــك لتبحث عن دور سياسي لها في الحياة العراقية، دور ظلت هذه الكتلة تفتقده بيـــنما يتم ترجيح الأدوار النمطيـــة للعـــائلات والألقـــاب التقليدية في معجم الأسماء الفاعلة في تاريخ العراق السياسي كالجلبي والباجحي والجادرجي والنقيب، بيد أن عائلة الصدر نفسها تنتمـــي إلى سلالة فاعلة ومؤثرة في تاريخ العراق منذ أن تولى السيد محمـــد الصدر رئاسة إحدى الوزارات في العهد الملكي ورأس في فترة أخرى من العهد نفسه رئاسة مجلس الأعيان، قبل أن تواجه عائلة الـــصدر بأجيالها اللاحقة كفاحاً من نوع آخر خلال العقود الثلاثة الماضية.

ولهذا نرى الكثيـــر من مقاتلي (جيش المهدي) يقـــاتلون حفـــاة الأقدام، مثلما هم مجردون من الأغطية الاعتبارية النوعيـــة، أعـــرف شخصاً فقد اثنين من أبنائه في المعارك، كان أحدهما جريحاً وله فرصة في تلقي العلاج، لكن سيطرة القوات الأميـــركية والحرس الـــوطني على مستشفيات النجف، وشروعها باعتقال واستجواب الجرحـــى الذين يصلون تلك المستشفيات، جعلت ذلك الجريح يموت متـــأثراً بجراحه دون أن يحصل على فرصة تلقي علاج في مستشفى المدينة.

والواقع أن فكرة الغرباء الذين يحاربون في غيـــر مدنهم قد تحولت هنا إلى بعد آخر، ينبئ عن حالة خطيـــرة يعيشها العـــراق اليـــوم، ففكرة المقاتلين العرب والقادمين من خارج الحدود الذين قـــاتلوا في الفلوجة، تحولت في النجف، إلى توصيف آخر ونعت لا يخلو مـــن غرابة (عن هؤلاء الغرباء) المقاتلين الذين يأتون بالشاحنات من المدن الفقيـــرة في الثورة والشعلة والحسينية والفضيلية وسواها من أحيـــاء بغداد الفقيـــرة وبقية المحافظات الجنوبية.

إذن هل هي كنايةٌ متقدمة عن حرب أهلية؟

لم يشهد العراق حروباً أهلية بالمعنى النمطي لهذا المفهـــوم، إذ لم يشهد اقتتالاً داخلياً ذا بعد قومي أو طائفي أو عرقي أو ديني، لكـــن هذه التوصيفات جاءت نتيجة صراع (الأهالي) والجماعـــات مـــع الحكومة، لا يمكن عزل (حرب الشمال) بيـــن الأكراد والـــسلطات المتعاقبة عن هذا الواقع، ولهذا فإن استهداف مؤســـسات الحكومـــة غالباً ما يكون من بيـــن البشاعات الكثيـــرة التي تفرزها طبيعة مثل هذه المعارك، ولهذا ليس مستغرباً أن تكون الصفحة القادمـــة مـــن المعارك الدائرة في مختلف أنحاء البلاد هي مهاجمة مؤسسات الحكومة من قبل الجماعات والأهالي المقهورة والباحثة عن دور ظل مفقـــوداً، خاصة وأن الأمر ازداد تعقيداً بتداخل وجـــود احـــتلال أجـــنبي، وحكومة لا تتواني عن نعت (مواطنيها) بأقسى الصفات الممكنة.

جمهورية الطوائف (الديمقراطية).

فهلْ أيّها الدُّستورُ تسمعُ شاكياً
بكَ اليوم يرجو أنْ يرى نهضةَ الشرقِ
نراكَ بأيديهمْ على الخلقِ حُجةً
وأنتَ عليهِمْ حُجةٌ لا على الْخَلقِ
فيا أيّها الدُّستور فاقضِ بِمَا ترَىَ
وابرقْ ولكنْ، لا تكُنْ خلّبَ البرقِ

معروف الرصافي

في مؤتمر المعارضة العراقية الذي انعقد في لندن – بضعة أشهر قبل الهجوم العسكري الأميركي على العراق- وقف كنعان مكية خلال المداولات ليعلن ضرورة تضمين البيان الختامي للمؤتمر توصية خاصة تقضي بأن تنصَّ إحدى مواد الدستور العراقي الدائم على كفالة حقِّ حرية المثليين جنسياً، لأن ذلك من المبادئ الأساسية للحرية الشخصية[1].

([1]) نفى كنعان مكي في رد نشرته جريدة القدس العربي الصادرة في لندن بتاريخ: 28 / 12 / 2002، أن يكون قد أثار مثل هذه النقطة في اجتماع المعارضة الذي عقد في لندن 13 – 16 / 12 / 2002، لكن مشاركين في المؤتمر المذكور بينهم مسؤولون في الحكومة الحالية أكدوا في دمشق بعد عودتهم من المشاركة في المؤتمر وبتواتر لأكثر من مصدر أنه طرح هذا الموضوع فعلاً وإنهم ردُّوا عليه بقسوة.

بالنسبة لكنعان مكية الذي كان يقول كلامه ذاك بيـــن أوساط كثيـــرة من المعممين ورجال الدين، من قادة الحركات الإســـلامية التي تشكل العصب الأساسي لقيادة العملية السياسية في البلاد اليوم، لم يجد من أمر يمنعه من الإدلاء بدلوه المثيـــر طالما أن أميـــركا التي يعرفها هي التي تقود مشروع التغييـــر في العراق، فمبدأ حرية المثلية الجنسية هو مثار جدل حتى داخل الولايات المتحدة نفسها فما المانع من إثارته في العراق الجديد أيضاً؟ بالنسبة لمكية أيضاً فـــإن الأمـــور كانت تبدو على ما يـــرام، على طريقة الراحلة سعاد حسني (فالدنيا ربيع والجو بديع..وقفّلي على كلّ المواضيع) قبل أن تفكر بمصيـــرها الأسود المؤسف، وبالتالي فإن المواضيع ذات الصفة الرمادية أو أيـــة ألوان بائسة أخرى لا وجود لها في عرقلة الدستور فلنـــذهب نحـــو المواضيع الوردية مباشرة، أليست تلك هي أهم مبادئ الحرية؟

وبالنسبة لصاحب كتاب (جمهوريـــة الخـــوف) الـــذي كتبـــه بالإنكليـــزية ونشره قبل أكثر من عقد من الزمن تحت اسم مستعار هو سميـــر الخليل، فإن الأمر يتعلق بحلم وردي لا توقظـــه منـــه إلا موسيقى ولا أعذب منها نواح القيثارات السومرية، تلك التي تنـــزل حممها على العراق، حيث كتب في (الجمهورية الجديـــدة) (The New Republic) بعد بضعة أيام فقط من بداية القـــصف الجـــوي الأميـــركي على العراق، بان ذلك القصف – بالنسبة له أيضاً- يمثل أعذب موسيقى سمعها في حياته، فما هي سوى (أجـــراس الحريـــة) تقرع في السماء لتعيد إلى أرض كلكامش عشبة الخلـــود الـــضائعة ولكن مع طلائع المارينـــز هذه المرة.

المتابعون لماراثون (الجمعية الوطنية ممثلة بلجنتها لكتابة مسودة الدستور الجديد الدائم للعراق) سيفتقدون – بلا شك - آراء كنعان مكية هذه الأيام، وهم يرون إلى النقاط العالقة التي تحول، على الرغم من رفع الدستور إلى الجمعية الوطنية، دون اتفاق أمراء الطوائف على هوية العراق الجديدة وأحقية ثرواته، فوق الأرض وتحتها، ونمط نظامه وعلاقة الدين بالدولة ولغاته ولهجاته المتعددة وألوان علمه، سيفتقدون نكهة الحرية الشخصية التي أراد مكية تضمينها في الدستور في إثارته تلك في مؤتمر لندن، على مسمع من أحد أبرز ممثلي التيار المحافظ في الإدارة الأميركية زلماي خليل زادة، الذي يتولى اليوم بنفسه إدارة معركة كتابة دستور جديد للعراقيين والتصويت عليه.

بيد أن الموسيقى العذبة التي ينبغي الإشارة إلى أنها لم تدر أنغامها في رأس مكية وحده، تحولت إلى انفجارات متتالية لا تنتهي ولا يبدو أنها في الطريق إلى ذلك، فيما نزعت الحرية آخر أوراقها مع عراة سجن أبي غريب.

الأمر هنا لا يتعلق بالانتقال من (جمهورية الخوف) إلى (الجمهورية الجديدة) كما تمنى مكية وسواه من حالمين، ولا بالكتابة تحت اسم سمير خليل في الجمهورية القديمة أو بأي اسم صريح آخر في العهد الجديد.

فما سعى صدام إلى إدامة وجوده في السلطة، بقمعه وتغييبه في آبار الكتمان والاحتقان، تحت شعارات المشروع القومي، والوحدة الوطنية والعراق العظيم. يأتي الأميركان اليوم لإيقاظه وإدامة شحنه

وكشفه في عراء الفوضى الخلاقة تحت شعارات الحريـــة والهويـــات المغيبة.

في اللغة العربية هناك صيغة للأفعال غيـــــر القابلـــة للتفـــاوت كالموت والعمى بمعنى أن ليس ثمة موت أفضل من موت أو عمـــى أسوأ من عمى، هذه الأفعال لا تتقبل المفاضـــلة ولا التفـــضيل، ولا الإعجاب أو التعجب.

تصح هذه القاعدة النحوية على ما يبدو في حالة النظـــر إلى مـــا جرى ويجري في العراق، وتمنح توصيفاً نموذجياً يقارب حالة الـــبلاد بيـــن العهدين.

هل أن مستقبل العراق، على وفق هذه القاعدة، لا يبـــدو قـــابلاً للمفاضلة والتفاوت مطلقاً؟ ليس الأمر كذلك بالتأكيد، لكن المؤكد حتى الآن أن الطبقة السياسية التي تولت إعداد مسودة الدستور الحالي على وفق تلقينات من البشتوني الأميـــــركي زلمـــاي خليـــل زادة، وبفتاوى من وريث اليهودية الأرثوذكسية نوح فيلـــدمان[1]، لـــن

(1) اليهودية الأرثوذكسية» ويشار إليها باعتبارها «الأصولية اليهوديـــة » حينمـــا تطبق داخل الدولة الصهيونية واليهودية الأرثوذكسية فرقة دينية يهوديـــة حديثـــة ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر، وجاءت كـــرد فعـــل للتيـــارات التنويريـــة والإصلاحية بين اليهود. وتُعتبر الأرثوذكسية الامتداد الحديث لليهودية الحاخاميـــة التلمودية. ومصطلح «أرثوذكس» مصطلح مسيحي يعني «الاعتقـــاد الـــصحيح». الموسوعة اليهودية: الدكتور عبد الوهاب المسيري، ونوح فيلدمان قانوني أميركـــي عمل مستشاراً دستورياً لرئيس «سلطة الائتلاف المؤقت في العراق» بول بريمر ويعد أحد المنظرين الأساسين لمناهج السياسية الأميركية الحالية في الشرق الأوسط. وقـــد صدر له في هذا السياق كتابان هما (ما الذي ندين به للعراق: الحرب وأخلاقيـــات بناء الأمم) و (ما بعد الجهاد, أميركا والصراع من أجل الديمقراطية الاسلامية)

تخرجه من معادلة العمى في شق طريقه نحو المستقبل، ولن تنجيه كذلك من دوامة الموت في حاضره، الطبقة السياسية التي تولت صياغة هذا المستقبل فشلت حتى الآن في الإجابة عن سؤال المستقبل ذاك، بل عقدته أكثر ما ينبغي.

لم يولد الدستور في موعده المقدس (الخامس عشر من شهر آب 2005) كما نص عليه قانون إدارة الدولة، لم يكن الأمر كذلك مع تسليم السيادة للعراقيين، أو في إجراء الانتخابات، إنه بهذا المعنى لا يزال بحاجة إلى حاضنة زمنية، ورعاية فائقة قبل أن يكتمل، لكن السيادة نفسها وكذلك الانتخابات ولدا خديجين، ولا زالا في الحاضنة عينها والعناية الفائقة ذاتها.

العملية السياسية بهذا المعنى لا تزال برمتها متشابكة وتسير كسيحة نحو مستقبل لا مكان فيها للتفاضل النوعي.

نقاط الخلاف الأساسية على أهم مواد الدستور جرى ترحيلها إلى المرحلة المقبلة، كنوع من إرجاء مزيد من التفجيرات إلى المستقبل!

ربما هذا ما سوف يستدعي في المرحلة المقبلة، أي في ما بعد انتخابات كانون الأول / ديسمبر 2005، إعادة رسم خريطة العملية السياسية بشروط جديدة ومقاربات مختلفة، ولكن ليس بالنظر إلى الماضي، لا ماضي التركيبة الاجتماعية للبلاد، ولا ماضي الدساتير السابقة التي فشلت جميعها في كفالة علاقة واضحة المعالم بين المواطن والوطن، إنها نظرة حادة نحو المستقبل حتى وإن كان ذلك المستقبل، في أجلى صوره، لا يبدو أكثر إشراقاً من الماضي.

فعندما كتب دستور العام 1925، أو ما عرف بالقانون الأساسي وتعديلاته التي ألحقت به بعد أربعة أشهر من المصادقة عليه من قبـــل الملك فيصل الأول، لم يكن هناك دستور سابق في العراق، بـــل ان العراق السياسي نفسه لم يكن قد تشكل بعد، إنه أول نظرة مدنيـــة ممكنة لمستقبل البلاد، لذلك كان أول وثيقة أو مسودة لعقد اجتماعي بيـــن العراقيين أفراداً وطوائف وعشائر وكتلاً اجتماعية في غيـــاب وجود حقيقي فاعل للحركات السياسية وتنظيمات المجتمع المدني التي نشأت بعد ذلك بموجب المادة الثانية عشرة من ذلك القانون والمتعلقة بحقوق الشعب وحريته (في إبداء الـــرأي، والنـــشر، والاجتمـــاع، وتأليف الجمعيات والانضمام إليها ضمن حدود القانون)

ومنذ دستور 1925، وتبعاً لتبدل العهود فإن الدساتيـــر اللاحقة – وجميعها صدرت تحت ديباجة مؤقتة- كانت تقوم علـــى نقـــض سابقتها على طريقة (كلما دخلت أمة لعنت أختها التي كانت قبلها) سنرى ملامح هذا اللعن في مستهل الدساتيـــر الثلاثة اللاحقة وهي دستور 1958 التي جاء بعد استيلاء الجيش بقيادة عبد الكريم قاسم على السلطة، ودستور عام 1964 بعد انقلاب عبد السلام عـــارف بالتحالف مع التيار القومي على الجمهوريـــة الأولى، وكـــذلك في دستور 1968 الذي بقي مؤقتاً لا دائمياً طيلة خمسة وثلاثين عاماً.

لكن دستورنا الجديد يـــراد به لعن جميع الأمم أو الدساتيـــــر السابقة مرة واحدة، إنه نقطة الصفر الجديدة للتطلع نحو مـــستقبل لا يحفل بالماضي كثيـــراً، لكن هل هو كذلك حقاً؟

قد تكون واحدة من المفارقات اللافتة في هذا الدستور أنـــه أول دستور عراقي ينص على تسمية صدام باسمـــه في موضـــعين، الأولى

للتذكير بجرائمه في الديباجة جرى حذفه في واحدة من الصيغ - والثانية في ثنايا إحدى مواده التي تحظر فكر (البعث الصدامي)

سنلاحظ أيضاً أن التعريف الدستوري لدولة لعراق يختلف في كلّ عهد حتى بدت صورته رجراجة وهلامية تفسر ما وصل إليه الأمر اليوم، فالعراق كما عرفه دستور عام 1925دولة (ملكية وراثية، وشكلها نيابي) وهي في دستور 1958 (جمهورية مستقلة ذات سيادة كاملة) أما في دستور العام 1964 فهو (دولة ديمقراطية اشتراكية تستمد أصول ديمقراطيتها واشتراكيتها من التراث العربي وروح الإسلام) بيد أن حزب البعث اكتفى في دستور العام 1968 بترحيل الديمقراطية من صيغتها الاشتراكية إلى الشعبية عندما أعاد التعريف السابق للعراق منقحاً بوصفه (دولة ديمقراطية شعبية تستمد أصول ديمقراطيتها وشعبيتها من التراث العربي وروح الإسلام.) أما «دستورنا» الجديد المقترح في مسودته الأخيرة فهو يعرف العراق بأنه (دولة مستقلة ذات سيادة، نظام الحكم فيها جمهوري نيابي (برلماني) ديمقراطي اتحادي.) ومن نافل القول هنا إن هذا التعريف يتعلق بعراق منشود ولا يتصل بعراق موجود، إنه محاولة لتوصيف الحالي بالتالي، ولأن هذا التوصيف يأتي على أنقاض توصيفات بائدة، فإن الذاكرة الدستورية العراقية، وهي ذاكرة ليست فعالة أساساً لدى عامة الناس، تبدو وكأنها تعيد تعريف العراق في كلّ مرة حتى تجعله (عراقات) متعددة، قلقة وهشة.

وإذا كان (العراق العربي) أضحى ذاكرة عصفت بها عهود المشروع القومي، ومحته من مواد الدستور المطروح، فإن (عراقاً إسلاميا) متعددة الأعراق يرشح بقوة في اغلب مواد الدستور

الجديد، بفعل سماح الولايات المتحدة لرجال الدين بـــإدارة العمليـــة السياسية على ضوء انتخابات جرتٍ في ظروف غيـــر طبيعية مـــن تاريخ البلاد وهو ما يستدعي سؤالاً يتعلق بالديمقراطية التي تـــسعى الولايات المتحدة إلى إقامتها في العراق.

إن سيطرة طبقة الثيوقراط الطائفي على جانب مهم مـــن العمليـــة السياسية في مقابل القوة التنظيمية التي يتمتع بها الأكـــراد إضـــافة لمـــا يحملونه من إرث الضحية بسبب سياسات العهود القومية في الـــبلاد، أوجدت هذه المعادلة الإشكالية التي تقوم علـــى تمريـــــر مـــشروع الفيدرالية مقابل الإقرار بالبعد الديني الواضح في تشكيل مواد الدستور.

الصيغة ليست نهاية المطاف حتى بفقراتـــه الإشـــكالية المرحلـــة للمرحلة التالية، لكن الدستور المقترح حتى في صيغته التي دفعت نحو الجمعية الوطنية بالتي هي أحسن، لن يمكن قبولها بالطريقة التي دفعت بها، وإنما ستواجه صعوبات أو على الأقـــل معركـــة لإســـقاطه أو تمريـــره، معركة من غيـــر الواضح أنها ستحسم الأمـــر وتـــسقط الدستور بالتأكيد، فتمريـــر الدستور بصيغته التوافقية هذه قد ينجح في الاستفتاء المقبل عليه، لكنه، إضـــافة إلى مـــا ســـيواجهه مـــنٍ استحقاقات تتطلبها إعادة فتح الملفات الخلافية، لن يجد إجماعاً وطنياً عليه[1]، وإذا كانت قضية الإجماع مزحة لا مكان لها في المجتمعـــات

([1]) جرى التصويت على الدستور في 15 تشرين الأول/أكتوبر 2005، ونجحـــت مسودته في نيل الثقة الشعبية المطلوبة على الرغم من أن محـــافظتي صـــلاح الـــدين والأنبار قد رفضتاه بنسبة 81/75 بالمئة و 96/95 بالمئة على التوالي إلا أن محافظـــة نينوى فشلت في تحقيق النسبة المطلوبة لرفض الدستور والبالغة 66 بالمئة، الأمر الذي كرس الإنقسام الوطني، وجرى التوافق على ترحيل المواد الخلافية إلى المرحلة التالية.

الديمقراطية، فإن التراضي في مجتمعاتنا الطائفية القائمة على المحاصصة هي الممكن الوحيد أمام مبدأ عدم تقبل الخسارة بنوع مـــن الـــروح الرياضية!

المدن ذات الأغلبية من (السنة العرب) ستجد نفسها هذه المـــرة أمام خيارين أحلاهما مر، فإما أن تندفع في معركة إسقاط الدســـتور من خلال رفضه في عملية التصويت، وهي معركة لا تبدو مضمونة النتائج كما قلنا، على الرغم من أن ثلثي المصوتين في ثلاث محافظات يمكنها أن تسقط الدستور وتحل الجمعية الوطنية، أو رفض العمليـــة بـــرمتها ومقاطعة الدستور سواء في مرحلة الإعداد له، أو التصويت عليه مما يجعل البلاد أمام مخاطر يصعب الإمساك بعواقبها.

حتى الآن اتجه الحديث توجهاً يشيـــر إلى (الأطراف المغيبـــة) في صياغة الدستور، على الرغم من هذا الحشد الهائل من المـــواد الـــتي تشيـــر إلى أطراف متعددة في الدستور، وهو ما يعني بوضـــوح أن المحاولات التي بدأت خلال عام لإشراك السنة في العملية الـــسياسية، قد اصطدمت بالعقدة القديمة الجديـــدة، أعـــني نوعيـــة المـــشاركة وحجمها، وطبيعة الانتخابات التي شكلت ميـــزان القوى.

في المقابل فإن الدستور الجديد يعد الأطول من بيـــن الدساتيـــر السابقة بمواده وتفرعاته بل انه أطول بعشر مرات من دستور العـــام 1958. أما ديباجته فهي الأطول كذلك بما انطوت عليه من إنـــشاء سياسي ركيك تجاوز في ادعاءته جميع الديباجات والاستهلالات في الدساتيـــر السابقة ولا أدري إذا ما كان أعضاء لجنة الصياغة قـــد أرادوا من هذه الإطالة والإسهاب والإطناب تبـــريـــر تـــأخرهم في

إعداد المسودة وأنهم كانوا يقومون بعمل شاق لا يمكن مقارنته بالدساتير السابقة؟

لكن ثمة تناقضاً في عدد من مواد الدستور تكشف عنه هذه الإطالة غير الضرورية إلا لإرضاء نزعة التوافق الطائفي والفئوي الأمر الذي يجعل النص يعاني من تناقض داخلي في مواده، فعلى سبيل المثال تمنع الفقرة الأولى من المادة الثانية سن أي قانون يتعارض مع أحكام الدين الإسلامي، بينما تمنع الفقرة التي تليها مباشرة سن أي قانون يتعارض مع مبادئ الديمقراطية، ربما أراد من وضعوا هاتين الفقرتين بالتجاور أن يقولوا إن الديمقراطية التي يقصدونها هي ديمقراطيتهم هم وليست الديمقراطية بأي معنى آخر.

وعندما تحظر المادة 16 في فقرتيها الأولى والثانية: اتخاذ العراق ممراً أو مقراً لقوات مسلحة أجنبية أو إقامة قواعد عسكرية أجنبية في العراق فإنها سرعان ما تبيح للجمعية الوطنية عند الضرورة السماح به وبأغلبية ثلثي أعضائها، لكن الأمر الأكثر مفارقة في هذه المادة بل في الدستور برمته أنه يكتب وفي العراق قواعد وجيوش من مختلف دول العالم.

الأكثر إفزاعاً في مواد الدستور هو هيمنة السياسي على المدني، والاهتمام بحقوق الإثنيات والطوائف والعشائر على حساب الحق الفردي الشخصي إذ لا يمكن الركون إلى أية صيغة لتعريف العراقي بعراقيته ولا بفردانيته، لكن ما شددت عليه مواد الدستور هي الصيغة الجماعية من خلال القومية أو العرق أو الطائفة، أية مراجعة لنص مسودة الدستور ستظهر هذا الأمر بجلائه، ولعل أوضح صور هذا الفزع تتمثل في تلك المواد التي تجعل من ممارسة الطقوس والشعائر

الدينية بنداً يثبَّت بوصفه حقاً جماعياً في إطار التوجه الطائفي، بـــدل أن تجعله من سمات ممارسة الحرية الشخصية، والحق الفردي.

ويبدو أن زلماي خليل زادة العائد من أفغانستان لم يمـــسح يديـــه جيداً من حبـــر كتابة دستور الأفغان، فظهرت آثار واضـــحة مـــن ذلك الحبـــر، في العديد من مواد دستورنا العراقي، هذا الدســـتور الذي يعني في أوضح ما يعنيه أن أميـــركا صارت أكثر مـــيلاً نحـــو (أفغنة العراق) بخلق إسلام سياسي (معتدل) تمثله طبقـــة الثيـــوقراط المرتبطة بمصالحها لمواجهة إسلام (متطرف) تعتقد أن مواجهته النوعية تستدعي هذه البيـــروستريكا، دون أن تنظر إلى الانهيارات الداخلية التي قد تخلفها مثل هذه الهيكلة والإصلاح الفوقي، ألم يتحول خطاب بوش من التبشيـــر بأقامة الحرية والعدالة المطلقة في العراق، إلى تأكيد أن مواجهة الإرهاب تستدعي خلق جبهة متقدمة لمحاربته؟

من المؤكد أن مبدأ الفصل بيـــن السلطات، ولا مركزية الحكم، وعدم تركيـــز الثروات بيد واحدة، دروس رأسمالية نموذجية في منع نشوء الديكتاتوريات أو منع عودتها في العراق، لكن هذه الخريطـــة المشتبكة من تعدد المراكز الصغيـــرة، والأقاليم، ومجلس الإتحاد الذي أوجده الدستور كسلطة تشريعية إلى جانب مجلس النواب، لا يبـــدو حلاً نموذجياً لواقع العراق، فهو لن يمنع التعارض الـــسياسي بيـــن الأطراف المتعددة، خاصة عندما يقوم على أسس عرقيـــة وقوميـــة وطائفية، كما لن يمنع في الوقت نفسه من بـــروز أمـــراء محلـــيين متعددين، يستفيدون من هذه الفجوات الفئوية لتكـــريس ســـلطات فردية تسحب تداعيات تنافسها الفئـــوي علـــى مجمـــل المـــشهد الاجتماعي السياسي في البلاد.

التظاهرات التي انطلقت في بعض المدن لعراقية، مؤيدة للدســـتور هنا، ورافضة له بالجملة أو لبعض مواده هناك، من شأنها أن تعطـــي ملامح واضحة لصورة المستقبل، التظاهرات المتقاطعة هذه قد تبـــدو واحدة من (مشهد ديمقراطي) في بانوراما العراق الجديـــد، بيـــد أن توصيفها الأوضح تأسيساً على تاريخ العراق، إنها تمثل حالة انقـــسام وطني واضح، ليس من السهل تجاوز تفاعلاته، لن يكون المـــستقبل سوى مادة حيوية من ذاتها، والعراق (الإسلامي) الذي يجري اليـــوم صياغته وفق معطى أميـــركي لتكييف الديمقراطية وفق البيئة المحلية، لن يجرد رسالة بوش عن الحرية من صدقيتها الهشة فحسب، بل انـــه يؤسس لجذور أزمة حقيقيـــة قـــد تنـــسف مـــشروع التبـــشيـــر «بالديمقراطية» بالكامل.

المشكلات التي أثيـــرت بعـــد إعـــلان قـــانون إدارة الدولـــة، والانتقادات والمناقشات الجذرية المحايدة، والمخلصة الـــتي رافقـــت الإعلان عنه لم تنجح في إنقاذ الدستور الجديد من كلّ تلك المخاطر التي تضمنها ذلك القانون، واضح هنا أن من كتبوا هـــذا الدســـتور غيـــر معنيين بحقيقة تلك المخاطر ولا بالتحذيـــر منها، إنهم معتزون على ما يبدو بما جيء به لهم فصدقوا أنهم جاءوا به وهم مـــصرون على ما عندهم، على طريقة القافلة تسيـــر.

أسوأ ما يمكن قوله في هذا السياق أن يتحول الدستور من عقـــد اجتماعي ومدني ضامن لحرية الأفراد ولتعايـــشهم في الـــوطن، إلى صحائف سياسية فئوية ترفع في وجه هذا التعايش وتوقظ الفتن تحت رايات العنف المضمرة في نصوصها.

الديمقراطية وولاية الفقيه

لم يحسم فوز الدكتور إبراهيم الجعفري بالانتخابات الداخلية للائتلاف العراقي الموحد، لتسمية المرشح لرئاسة الوزراء، معضلة تشكيل الحكومة العراقية الجديدة، مثلما لم يحسم فوز الائتلاف العراقي الموحد نفسه في انتخابات كانون الأول/ ديسمبر 2005، وحصوله على الأغلبية في البرلمان الجديد هذه المعضلة.

الأمر بظلاله العميقة لا يتعلق، في جوهره، بحسم معركة انتخابية تستمر ولاية الفائزين فيها أربع سنوات قادمة لا يمكن إغفال مدى أهميتها في تاريخ العراق، لكنَّهُ يتعلق بالتأكيد بصراع إمبراطورية بلا إرث واضح، هي الولايات المتحدة، وإمبراطورية تاريخية هي إيران، لوراثة أرض السواد، أو خزائن بابل بعدما لاحت أزمنة جديدة.

قديماً تصادم الاسكندر المقدوني مع دارا الثالث على أرض السواد ومن أجل خزائن بابل، لتنفتح للفتى المتوسطي تخوم الشرق كله، لكنَّهُ سيموت بالغموض الذي نعرف في بابل نفسها تحت سمائها المضطربة ولمعان كنوزها المنهوبة.

ليس نشر الديمقراطية، من المبشرين بها إلى المحرومين منها، ولا تصدير الثورة، من صناعها إلى طلابها، ولا حتى فكرة ولاية الفقيه من عهود الرسالة إلى الإمامة وصولاً إلى المرجعية، إلا تعبيرات وكنايات باروكية تختفي خلفها تجدد عصور النزعة نحو الإمبراطورية، والقيم الحضارية المتباينة التي تتحكم بتاريخ

الصراعات بيــن الأمم الناهضة، وعلــى ميــــراث الأمــم ذوات الشموس الغاربة.

قد لا يبدو مهماً بعد ذلك نعت النهضة والفاعلية التاريخية الــتي تقوم بها بلاد فارس بالقومية أو الدينية. فليست الصحوة الدينية التي تشرق سماؤها اليوم، ولا التأثيــر الإقليمي الذي تمارســه إيــــران والذي يمتد إلى البحر المتوسط هو مجرد هلال شــيعي، ولا هــلال خصيب جديد، يتلألأ في تلك السماء، فما المجوســية الإيــــرانية القديمة ولا الزرادشتية الساسانية ولا الإسلام البــويهي أو التــشيع الصفوي، إلا تجليات التزاوج الحضاري الذي يغذي البذرة الأساسية لهوية أية أمة.

من هنا يمكن القول إن الحكومة والبــرلمان، كذلك، ليسا سوى تعبيــرين مجازيين إضافيين،عن تعارضات شتى تحيط المشهد غيــــر المنجز للدولة العراقية في طورها الجديد. كأن العراق في هذا يــشبه لبنان، أو كأن لبنان والعراق معاً نموذجان لصورة ما يجري في العالم الجديد، العالم الذي يمتنع فيه تشكيل مفهوم للدولة خــارج حــدَّي الاستبداد الداخلي ومحاور الصراع مما حول وما هو أبعد.

وقد يبدو من اللافت أن اللاعبيــن هنا هم اللاعبــون هنــاك، يوزعون جهودهم لكنهم لا يستفيدون كثيــرا مما يجري من مثالب في جانب لتلافيه في الجانب الآخر. بمعنى ليس ثمة مختبــر ووقايــة، كبش فداء وكبش مُفدًّى، حوض المختبــر واسع وقرنا الكبش بعيدا المدى من هنا إلى هناك.

في التنافس الذي أخذ أحياناً شكل الصراع الخفي بين المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق، وحزب الدعوة الإسلامية للتفرد بقيادة المعارضة السياسية الإسلامية، ذات الصبغة الشيعية خلال العقود الماضية التي شهدت الصراع مع الدكتاتورية، كانت هناك أحزاب صغيرة تنشأ بينهما عادة، وحركات متعددة تتناسل عنهما، وغالباً ما اتهمت إيران بأنها وراءها، تشكيلاً جديداً، أو انشقاقاً أو إعادة إنتاج. يمكن الحديث هنا عن عدد وافر من تلك الأحزاب بينها منظمة العمل الإسلامي، وحركة الوفاق الإسلامي وسواهما من تنظيمات تحاول جذب طرف المعادلة نحوها، عبر مد صلات ما، مع دول الجوار الإقليمي للعراق أو ذات التأثير الدولي الفاعل فيه.

بيد أن مرحلة ما بعد الاحتلال أوجدت واقعاً جديداً جعل من التيار الصدري بتوجهاته المتعددة سواء في تنظيمات مسلحة، أو جمعيات أو في كتل انتخابية: جيش المهدي حزب الفضيلة، رساليون، الكوادر والنخب وغيرها، هو الطرف الذي دخل على المعادلة الجديدة في العراق بعد الاحتلال.

في الشكل العام يبدو تنظيم المجلس الأعلى إيراني النشأة إسلامي التوجه، فيما يتبدى حزب الدعوة عراقي النشأة إسلامي التوجه[1]. وكلاهما في شكلهما الحالي معاً، يمثلان جزءاً من إرث مرحلة المنفى السياسي العراقي، حتى وإن كان الأخير قد بدأ من العراق وواجه

---

(1) تأسس حزب الدعوة في العراق عام 1958 في العراق، بينما تأسس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في إيران عام 1982، خلال الحرب العراقية الإيرانية.

الدكتاتورية داخل العراق بضراوة خلال الثمانينات، بيـــنما تكفـــل التيار الصدري بحمل عبء تلك المواجهة خلال فترة التسعينات حتى سقوط النظام، وسيتخذ دخوله على معادلة (الـــدعوة – المجلـــس) شكلاً جديداً من صياغة الإسلام السياسي الشيعي في العراق.

على أن هذا التباين الشكلي في النشأة وحتى في الترعرع، الـــذي يقابله تماثل في التوجه، سنراه يتحول إلى مجرد حدود وهمية في الجوهر العقائدي لحركات الإسلام السياسي، وفي التوافق على مبدأ أصـــول الحكم بما يتصل بالانصياع النهائي للقيادة الروحية، وسنراه يتجـــسد تحت عباءة المرجعية عند العودة بعد الاحتلال، ففي الوقـــت الـــذي بقيت فيه إقامة قيادة المجلس الأعلى ومعظم كوادره البارزة دائمة في إيـــران خلال الثمانينات والتسعينات، وكـــذلك معظـــم نـــشاطه وهيكله العسكري واجتماعاته الدورية في قم وطهران. كانت كوادر حزب الدعوة قد غادرت إيـــران مبكراً، وكانت حكومـــة ولايـــة الفقيه مجرد محطة في طريق « الدعاة» إذ توزعت أبـــــرز قيـــادات الحزب بعد ذلك بيـــن دمشق ولندن. نـــذكر منـــهم إبـــــراهيم الجعفري وجواد المالكي « نوري كامل» وعباس البياتي.

بيد أن هذه المسارات المتعددة في الهجـــرات وفي الاجتـــهادات «الجهادية» ستنحو في نهاية الأمر منحى واحداً، لن يحيد كثيـــراً عن الإدانة بالولاء للولي الفقيه، ولإرشادات المرجعية.

لكن صورة التنافس تأخذ شكلاً آخر في واقع العراق اليوم، وفي التجاذبات الحالية بيـــن طهران وواشنطن، من هنا يمكـــن بـــساطة تلخيص ما جرى من انتخابات داخل الائتلاف العراقـــي الموحـــد، الذي هو في الواقع تحالف إسلامي شيعي، على ضوء هذه الوقـــائع.

ومن السذاجة إغفالها في قراءة ما جرى ويجري من إدارة ظاهرة لأزمة جديدة قد تأخذ وقتاً أطول مما أخذه تشكيل الحكومة الجعفرية الأولى.

مع هذا يبدو أن كفاح أميركا من أجل التشبث بمرشح يبدو الأقرب لها من بين الأسماء المتاحة، سرعان ما تحول إلى صراع مع طرف آخر، عندما حددت انتخابات الخامس عشر من كانون الأول / ديسمبر 2005، الخيار بين عدد من الوجوه قبل أن تنحصر بين كلٍّ من إبراهيم الجعفري مرشح الدعوة، وعادل عبد المهدي مرشح المجلس، وتحت سقف هذه الثنائية الصعبة، كان إبراهيم الجعفري كناية عن حصان طروادة الإيراني داخل «الدعوة» بينما بدا عادل عبد المهدي نموذجاً مواجهاً لمقاربة حصان طروادة الأميركي - البريطاني في «المجلس الأعلى»

لكن الحرب لم تنتهِ تماماً، وطروادة مكان آخر، ولنتائج المعركة أكثر من تفسير.

فعبد المهدي ليس إسلامياً عقائدياً ذا جذور تاريخية أو «جهاد» مشهود له، بل انه «ناضل» بحرية قربته من الانتهازية عندما تقلب في عقائد شتى، علمانية على العموم، قبل أن يصل مع المد الإسلامي للثورة الإيرانية إلى شاطئ له ضفاف أخرى، ومع أنه كان من بين الأسماء التي عرفت بأعضاء ما عرف «بلجنة التنسيق والمتابعة» التي اختارها زلماي خليل زادة في مؤتمر لندن الذي سبق اجتياح العراق ببضعة أشهر، إلا أن اسمه لم يكن من بين الأسماء الخمسة والعشرين من أعضاء مجلس الحكم الذين اختارهم بول بريمر الحاكم المدني للعراق بعد احتلاله، ولا في الوزارة الأولى التي تشكلت

في عهد بـــريمر، لكنَّهُ شغل منصب وزيـــر المالية بعد مـــا عـــرف بانتقال السيادة وتكليف إياد علاوي بتشكيل الحكومة المؤقتـــة. ثم نائباً لرئيس الجمهورية جلال الطالباني في لعبة المحاصـــصة الطائفيـــة الجارية على كلِّ قدم وساق.

ويبدو أن تاريخه البعثي في ميليشيا الحرس القومي 1963، وتاريخه الشيوعي مهما تطرف في جناحه «الماوي» من خلال العمـــل مـــع القيادة المركزية المنشقة عن الحزب الشيوعي، ومنفاه الباريسي الطويل وثقافته المفتوحة على اقتصاد السوق، شـــكلت ملامـــح الريبـــة في السيـــرة القلقة سياسياً لعادل عبد المهدي، لتضع بالتالي مؤشراً سلبياً لأتباع الولي الفقيه من تكرار نموذج الدكتور أبو الحسن بني صـــدر الرئيس الأول للجمهورية الإسلامية في إيـــران واصطدامه بالصعود السريع لولاية الفقيه وهي تقود الثورة تحت لهيب الحرب ضد صدام.

سيبـــرز الركون إلى أحد «الدعاة» إذن بوصفه الحل الأنجع ممـــا قد تحصده المرجعية من أعباء إذا ما لجـــأت إلى تطعـــيم الحكومـــة الإسلامية بنكهة غربية. وإذا كان ما يميـــز الجعفري عن جيل حرس الثورة الإيـــرانية التي أوصلت أحمدي نجاد إلى رئاسة إيـــران، هـــو ربطة العنق التي يحرص عدد كبيـــر من ملتحي الدعوة والمجلس على ارتدائها حال وصولهم إلى الحكم، على الرغم من أنهم لم يعرف عنهم دأبهم على ارتدائها في مرحلة المعارضة، فإن ما يقـــرب الجعفـــري وأقرانه من «الدعاة» و«التوابيـــن» من جيل نجاد أشياء كثيـــرة لا تتلخص في إطلاق اللحية والتختم بخواتم الفضة، وحمـــل المـــسبحة السوداء، بل في هذه العلاقة الروحيـــة الخاصـــة وكيميـــاء الـــولاء واستمداد الشرعية من فقهاء الطائفة وزعمائها الدينيين، ولعل مشهد

الجعفري مفترشاً الأرض إلى جانب السيستاني أو محمد سعيد الحكيم أو حتى مقتدى الصدر، يلخص إلى أي حد تبدو فيه ولاية الفقيه فاعلة بصيغتها العراقية.

وإذا كانت ولاية الفقيه في إيران قد ترسخت بعد الثورة، بانقلابات تدريجية متلاحقة فإن مرحلة ما بعد الاحتلال الأميركي للعراق هي في الواقع مرحلة الصراع بين توسيع ولاية الفقيه، وبين فكرة الإمبراطورية في التبشير بديمقراطيتها.

قد تبدو ثمة مسافة جلية بين النموذجين الإيراني «القديم» لولاية الفقيه، والنموذج العراقي «الجديد» لهذا نرى هذا النموذج المعدل يجمع في تكوينه بين الثيوقراط والتكنوقراط، في صياغة تكاملية داخلية للمشروع دون التطلع نحو الخارج للاستعانة بليبراليين جدد يجري التواصل معهم لتدعيم الصلة بين العمامة وربطة العنق.

لكن المسافة بين ربطة العنق والعمامة ليست مجرد هذه المسافة بين تكنوقراط مسلم، وليبرالي حليف عصي على الاندغام العقائدي، ولا بين الأمام الخميني ومراجع النجف، أو بين بني صدر في إيران أو كلٍ من الجعفري أو عبد المهدي أو حتى علاوي والجلبي في العراق، إنها في هذا الحد الحاسم بين التكليف الشرعي والفكر الرسالي المستمد من السماء، وبين المشروع الأميركي في نشر الديمقراطية على الأرض، فإذا استعانت الجمهورية الإسلامية، وكذلك الحكومة في النموذج الإيراني بشخصيات ليبرالية لتغطية صعود ولاية الفقيه نحو ذروتها، فإن بني صدر اتهم بالخيانة بخلاصة صعبة من لدن الفقيه نفسه لسوء إدارته للحرب مع العراق، لينتهي به

حلمه الليبــرالي القصيــر منفياً في باريس من جديد. من أجل هذا فإن التجربة الأصعب في العراق لا تحتمل بني صدر آخر إذن، ولهذا كان لا بد من «الجعفري» حتى مع وجود عادل عبد المهدي.

وكما انتهت مرحلة الثورة الجماهيــرية مع مهدي بازركــان[1] لتحل محلها الثورة الإسلامية عند احتلال السفارة الأميــركية في طهران في الثورة الثانية، فقد أصبحت فكرة «العــراق الــديمقراطي الجديد» على الأقل في ذهن شخص مثل إياد علاوي، جــزءاً مــن يوتوبيا ومعضلة حقيقية تشبه معضلة إسقاط صــدام، لا يمكــن أن يتكفل بها إلا الأميــركان والأميــركان وحدهم.

فبعد أن أبعد «الليبــرالي الشيعي» أحمد الجلــبي في صــراعات الحلقة الداخلية للائتلاف في الدورة الماضية، ترك الائــتلاف مغــرداً على ليبــراليته ليخسر مقعده النيابي «الطائفي" في هذه الدورة، وبعد أن خسر «الشيعي العلماني" علاوي معركة تــشكيل الأغلبيــة لا إسلامية داخل البــرلمان لجأ إلى مد الجسور مع فرقاء عــدة بمــا في ذلك حزب إسلامي «لا شيعي" لاستقطاب ما يمكن أن يشكل جبهة ضد تمددات نموذج ولاية الفقيه لكن تشكيل مثل هــذا التحــالف ليست بهذه السهولة ولا بمد جسور نحو منافــسين، ولا بمحاصــرة منافسين آخرين في صفة واحدة.

---

(1) مهدي بازركان من الشخصيات الليبرالية التي عارضت شاه إيران محمد رضــا بهلوي لعقود عدة، أسس في بداية الستينات «حركة تحرير إيران» وبعــد انتــصار الثورة الإسلامية شغل أول منصب لرئيس وزراء في الحكومة التي عينــها الإمــام الخميني خلفاً لآخر حكومة في عهد الشاه التي كان يرأسها شاهبور بختيار.

والواقع أنه تم عزل أغلب ليبراليي التيار الشيعي ذوي الجذور الممتدة في أميركا وإقصاؤهم بالتدريج، ضمن نهج « ديمقراطي" جرت أحدث فصوله خلال المعركة الانتخابية الأخيرة (كانون الأول / ديسمبر 2005) التي أقصت أحمد الجلبي وليث كبة وسواهما بقوائمهم الكبيرة والصغيرة ومنعتهم من الحصول على أي مقعد في البرلمان.

إذن كيمياء الولاء والطاعة للمرجع التي تنطوي عليها شخصية الدكتور الجعفري قد تسهم إلى حد ما في تقريب نمط الإدارة داخل الحكومة من رؤية الأمام الخميني الداعية إلى وقف التعطيل لأحكام الإسلام وتأجيل الدولة في عهد الإمام الغائب، والشروع بتفعيلها وتعليلها في عهد الولي الفقيه، صحيح أن أمر ولاية الفقيه في النموذج العراقي قد لا يتعلق بأصول الأحكام الشرعية وتطبيقها على وفق الشريعة تماماً كما هي في عهد الرسول أو الإمام، كما يريد الخميني للفقيه، إلا أن فكرة المرشد في أصول الحكم السياسي ونظم الإدارة، تطل برأسها بوضوح عبر هذه الكيمياء[1].

(1) يرى الأمام الإمام الخميني في كتابه (الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه) التي طبعت في النجف، ثم أعيدت طباعتها مرات عدة، أنه (من البديهي أن ضرورة تنفيذ الأحكام التي استلزمت تشكيل حكومة الرسول الأكرم (ص) ليست منحصرة ومحدودة بزمانه (ص)، فهي مستمرة أيضاً بعد رحلته (ص). وفقاً للآيات القرآنية الكريمة فإن أحكام الإسلام ليست محدودة بزمان ومكان خاصين، بل هي باقية وواجبة التنفيذ إلى الأبد.) وتأسيساً على هذه القاعدة يصل إلى إن (ما كان ضرورياً في زمان الرسول (ص) وأمير المؤمنين (ع) بحكم العقل والشرع، من إقامة الحكومة والسلطة التنفيذية والادارية، فهو ضروري بعدهم، وفي زماننا أيضاً.) وإذ يتحدث عن الولاية الإعتبارية، منطلقاً من ولاية الرسول يصل إلى أن (نفس تلك الولاية=

ففكرة ولاية الفقيه بصيغتها الخمينية ولــدت في العــراق، أي في المنفى السياسي، قبل الثورة الإسلامية بسنوات، ذلك أن المحاضرات التي كان يلقيها الإمام الخميني في النجــف، تحولــت إلى كتــاب (الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه) التي ستؤسس عليها جمهوريــة إسلامية، على أنقاض شاهنشاهية علمانية.

لكنها اليوم بالنسبة للدعوة والمجلس وحتى للتيار الصدري حلــم داخلي مشترك يبدأ بكتلة الائتلاف التي تشكل الأغلبية في البــرلمان، لكنَّهُ حلم خطيــر، إذ كيف يمكن تصور أن الديمقراطيــة وولايــة الفقيه بمقدورهما أن يجتمعا في غمد واحد؟ وهل من الممكن حقاً أن يكونا سيفاً وإن بحدين؟

عندما يتجه مثل هذا الحلم نحو ما حوله من كتــل صغيــرة، سيجابه مشكلات عدة، أولاها عقبة التمثيل الحزبي داخــل الكوتــا الطائفية الواحدة التي لن تقف عند حدود منصب رئيس الــوزراء، فمن الواضح أنها ستتجدد صراعات وشيكةً تتمثل في المنافسة علــى مناصب النواب في كلٍّ من الرئاسات الثلاث: الجمهورية والحكومة والبــرلمان. خاصة وأن تمثيل نائبي الرئيس الجمهورية بشكل أكثــرَ تحديداً، يتَّصلُ بقضية التوافق الطائفي، وما تشكله من مثلثات توافقية في هذا المجال.

لكنْ وفي مطلق الأحوال، فإن ما جرى داخل الائتلاف حتى الآن يؤكد مرة أخرى أن إيــران ربحتْ جولةً وخسرتها أميــــركا، أو

-الثابتة للرسول (ص) وللامام (ع) في تشكيل الحكومة والتصدي للإدارة والتنفيذ ثابتة للفقيه أيضاً)

كما يـريد البعض: ربح الإسلام العقائدي وخسر المتأسـلمون أو الليبـراليون داخل هذا التيار.

ولعلّ تأجيل التصويت داخل الائتلاف الموحد ليوم واحد لاختيار المرشح لرئاسة الوزراء، في وقت كان يبدو فيه عادل عبد المهـدي الأقرب للفوز، جاء بمثابة الإعداد والتحضيـر الـذكي لانقـلاب إقليمي على طبخة أميـركية متعجلة، أعد لها لاحقاً بعد أن فشلت «عربات العم سام" في إيصال مرشحها الأبـرز إياد علاوي لمنصب رئيس الوزراء، فهو رئيس الوزراء الأول حين كان التكليف ممكنـاً بيد الأميـركان، لكنَّهُ ليس كذلك حين تكون الصناديق هي الممكن الوحيد. قد يكون من السخرية، أو مـن الطبيعـي هنـا أن تهـزم الديمقراطية أول المبشرين بها، بيد أن أبطال الانقلاب الإقليمي ليسوا في الشرق فحسب، ليسوا في طهران تماماً، وإن كانـت خرائطـه رسمت هناك على ما يبدو، علينا أن نتذكر أن السيد مقتدى الصدر، كان في دمشق، عشية المشاورات التي سـبقت التـصويت، وهـو المعروف بأنه يقدم نوعاً من «النصح والإرشاد" لكتلة مهمة داخـل الائتلاف تحدد أصواتها مسار قضايا كثيـرة، ليصرح بعد يوم واحد من فوز الجعفري، بأنه تلقى وعداً من الحكومة العراقيـة بتحـسين العلاقات مع دمشق.

صوت واحد، غيـر المسار وأحال الفصول القادمـة للمعركـة وحساباتها إلى البـرلمان، على أن ديمقراطية الصوت الواحد قد تعني في بلد غيـر العراق بالتأكيد عنواناً نموذجياً وتعريفاً ممتازاً لاسمهـا. لكنّها هنا لا تلامس شيئاً من الروح الرياضية بـأي شـكل مـن الأشكال، بل تعني مزيداً من الالتباس وممكنـات شـتى للمرحلـة

القادمة، ثمة جهود مضنية ستبذل بالتأكيد لتغييـر المسار الـذي أوجده الصوت الواحد، أو للاستفادة من يُتمه للبحث عن أب جديد في اللعبة الغامضة، لهذا فإن ممكنات أن تتبدل النتيجة في مكان آخـر تظل قائمة حتى اللحظة الأخيـرة.

الاحتمالات كلها لا تزال قائمة إذن بما فيها عـودة عـلاوي أو عودة عادل عبد المهدي أو ظهور مرشح آخر من حزب الدعوة على الأغلب، لكن الجعفري أو سواه ممن سـيتولى تـشكيل الحكومـة سيمضي، نحو رئاسة الوزراء حقاً، لكن تحت سماء مـن عواصـف وأرض رخوة تزداد هشاشة كلما توغل فيها.

ومرة أخرى. لم تحسم القضية، فالعواصف التي ظلت خبيئة داخل كتل الائتلاف العراقي الموحد ستظهر مهباتها مجدداً عنـدما يجـري طرح الموضوع داخل البـرلمان، إذ لن تمر الأمور بالسهولة التي مرت بها، داخل الائتلاف الذي بقي موحداً حتى الآن!

وفي ضوء أزمة الثقة لدى الأطراف السياسية لن تبـدو مهمـة الجعفري سهلة، فهو حتى وإن نجح في المرور في البـرلمان فـسيجد أمامه، أو في وجهه، جبهة معارضة قوية وقد يتحول حتى شركاؤه في التحالف التليد والذي لا يبدو عتيداً (الأكراد) إلى معارضة داخليـة والسبب يكمن في مكان «قومي" لا ديني هذه المرة : كركوك

مثلما سيشكل السنة عقبة بسبب موقفهم من الدستور والفيدرالية وحجم التمثيل الطائفي، بل حتى شركاؤه الذين يلتقون على مرجعية الفقيه على الأقل سيمثلون تحدياً داخلياً من خلال التعارض بيـن مشروع المجلس الأعلى ومشروع التيار الصدري المناهض للفيدرالية،

وسيجد أمامه استحقاقات ليست يسيـرة تبدأ بالتنازع المتوقع بيـن «العدالة" الطوائفية «والوصاية" الأميـركية في المحاصـصة بتوزيـع الحقائب الوزارية، وتتصل باستحقاقات إدارية في ما يتعلق بمجابهـة الفساد، وتأمين الوضع الداخلي وتوفيـر الخدمات، ولعلها لا تنتهي بطبيعة العلاقة مع دول الجوار وشكلها خلال المرحلة القادمة.

قد يستطيع الائتلاف أن يشكل قوة لا تضاهيها قوة أخـرى في البـرلمان. لكنَّهُ لن يكون كذلك عندما تتحالف القـوى الأخـرى بوجهه تحت قيادة علاوي، المتطلع إلى تدخل أميـركي يعيد التوازن في معارك العراق الجديد.

الائتلاف والجعفري في مقابل البـرلمان والحكومة، تعبيـر آخر لا ينقطع عن المرور من باب المجاز هو الآخر. هذه العناوين الثنائيـة التي تبدو في الظاهر كوجه عملة واحدة، أو تعبيـرات تنـوس مـا بيـن الخاص والعام، تحمل في جوهرها تناقضات داخلية لا تغطيهـا إلا المساومات، لأجل هذا يستأثر فقيه آخر بـزعامة الكتلة الأكبـر في البـرلمان عبـر هذا التقاسم للرئاستين إذا لا يـستطيع المجلـس الأعلى التنازل لحزب الدعوة عن منصب رئيس الوزراء هكذا، لولا أنه يعرف أن ما سيبقى لديه هو رئاسة الكتلة الأكبـر في البـرلمان من قبل عبد العزيـز الحكيم الذي يـرأس قائمة الائتلاف.

مع الجعفري أو بدونه، أو بغيـره من رجال الفقيه، فقد هزمت أميـركا مرة أخرى، إذن، فبيـنما أسقط في يدها عندما تبيـن لها متأخراً أن أحمد الجلبي الذي كان صاحب حظوة لـدى بنتاغونهـا ومجلس شيوخها، قد مال بجناحه التاريخي نحـو الـشرق، فاتهمتـه بالتجسس لصالح إيـران. خسرت مرة أخـرى عنـدما لم يجـد

مرشحها إياد علاوي مكاناً لائقاً به إلى جانب العمامات الــسوداء، ولا حتى البيضاء، خاصة بعد معارك الفلوجة والنجف.

هُــزمت أميــركا ليس لأنّــها قطعت ثلــث العــدد نـــحو أتــمام الألف الثالثـــة من ضحايـــاها في العراق، وإنّــما لأنه لـــم يعد ثمـــة الكثيــرون على استعداد للانتظار إلـــى مـــا بعـــد السنوات الثلاث للتيقّن من سرابيّة الوعود الأميــركية وكـــوابيس لياليها السود، وتباشيــر الـــحياة الجديـــدة. هزمت أيضاً لأنــــها لم تبـــنِ حتى الآن صرحاً «كولونيالياً" جديداً في العراق، على الأقلّ لتباهي به سوابـــقها أو ليضاهي هـــو نفسه ما تبقـــى مـــن «طاق كسرى" الـــماثل للعيان عند ضواحي العاصمة بغـــداد[1].

فإذا فشلت أميــركا عبــر المسلم البشتوني خليل زادة، في الحد من وصول مرشحي الفقهاء، إلى تشكيل أغلبية في البـــرلمان، فهـــل ستنجح في كبح جماح التمدد الواضح لولاية الفقيــه في البــــرلمان وإعادة نقطة الصراع إلى نقطة البداية؟

([1]) طاق كسرى:تسمية عراقية لإيوان كسرى (القصر) الذي لا تزال بقايا منـــه ماثلة في مدينة (المدائن) (حوالي ثلاثين كيلو متراً جنوب بغداد) يعود بنـــاؤه إلى القرن الثالث الميلادي وهو من بقايا المعالم الآثارية لحكم الفرس الساسانيين للعراق الذين كونوا واحدة من الإمبراطوريات التي حكمت العراق لقرون عدة.

يبلغ أرتفاع (الطاق) حوالي الثلاثين متراً، على شكل هرم مقوس محدودب الشكل.

ويرى المؤرخون العرب وبينهم الطبري، إن الهدم الموجود في جانب من الإيوان يعود إلى رغبة ابو جعفر المنصور في نقل الآجر المفخور للصرح واستخدامه في بناء بغداد.

تعاليم الأمراء الملثمين.

يستفيق العراق من صدمة الاحتلال ليجد نفسه في جغرافيا جديدة هي جغرافيا الطائفية التي تنهض تضاريسها المخيفة من سباها ناشرة كوابيس لحقبة قاسية لا هوادة فيها.

العراق الجديد عراق طائفي. هذه هي الحقيقة التي لا يمكن إزاءها التشبه بالنعامة بينما يترك بيضها في العراء ليلد الفتن التي ترسم تفاصيل تلك الجغرافيا المخيفة.

وإذا كان العراق الجديد في تركيبته السياسية يفضح مكنونات بدت للبعض وكأنها كانت نائمة حقاً فإن الحقيقة الأخرى التي تواجه هذا الواقع تتمثل في سؤال نوعي ينبغي إيقاظه هو الآخر قبل أن يتحول إلى نعامة أخرى في هذه الجغرافيا العجيبة، وهو متى لم يكن العراق طائفياً؟

لقد صيغت الدولة العراق بعد الحرب العالمية الأولى صياغة طائفية، فمن بين أكثر من خمسين وزارة تشكلت في العهد الملكي لم يشكل الشيعة إلا خمس وزارات منها، بحسب كتاب حنا بطاطو (العراق الحديث) أي ما نسبته عشرون بالمائة، بينما كانت حصة الأسد في بقية الوزارات لشخصيات سنية بينها أربع عشرة وزارة شكلها نوري السعيد وحده خلال ثلاثة عقود.

ناهيك عن غيابهم المطلق عن منصب الملك في العهـــد الملكـــي، والرئيس في العهود الجمهورية اللاحقة.

ومنذ مجيء حزب البعث إلى السلطة في العراق في تموز 1968، لم تشغل أية شخصية شيعية منصب رئيس الوزراء، على الـــرغم مـــن وجود عدد من القيادات الحزبية من تلك الطائفة، باستثناء العام الذي أعقب انتفاضة الجنوب بعد حرب الخليج الثانية 1991، عندما عُيِّن سعدون حمادي المتحدر من عائلة شيعية من كربلاء، رئيساً للوزراء لفترة وجيـــزة أعقبه محمد حمزة الزبيدي، قبل أن تـــؤول رئاســـة الوزراء إلى الدكتاتورية الطائفية، عبـــر تركز جميع السلطات بيـــد صدام حسين.

من هنا سيبدو تجديد صورة الشيعة في التمثيل السياسي في العراق الجديد، نوعاً من الصدمة الجديدة التي لا يمكـــن اســـتيعابها، محليـــاً وإقليمياً بسهولة عدا عن (الكيدية) التي جرى بها ذلك التمثيل مـــن خلال تبني الطبقة السياسية لمظلومية جماعة لصالح نخبة تستخدم هذا الإرث الحزين لإقامة حفلات لا تخلو من نـــزعة الثأر لتاريخ طويل من التهميش.

وفي كلتا الحالتين ـــ أعني الصيغة الطائفية للدولة العراقيـــة بعـــد الحرب العالمية الأولى، وصياغتها النوعية المضادة أو المقلوبـــة بعـــد احتلال أميـــركا للعراق في نيسان / أبـــريل 2003 ـــ كان ثمـــة نـــزوع واضح لإنكار الآخر وتحديد فاعليته السياسية، ممـــا يمهـــد الأجواء لاحتقان طائفي يـــرتد في مراحله الأولى نحو الذات حـــتى يتحول في مراحل لاحقة إلى تنفيس غيـــر طبيعي لإثبات الوجـــود إزاء ما لحقه من إنكار وتهميش.

من هنا لا ينبغي إغفال هذا (الجرح التاريخي) في تحريك الأجواء المشحونة في عراق اليوم.

ومن هنا أيضاً فإن الحديث عن المخاوف من حرب أهلية في العراق تزايد، بشكل لافت، بعد انتخابات الثلاثين من كانون الثاني / يناير 2005، وبدأت تلك المخاوف تتجسد بوقائع متفرقة على الأرض، لتتغلب على فكرة الوحدة الوطنية التي شاعت خلال العام الأول من الاحتلال الأميركي.

ليست (الحرب الأهلية) التي يتردد البعض في إطلاقها على ما يجري في العراق، إلا مصطلحاً غامضاً لا يذكر بذاك المفهوم المتوارث عن الحروب الأهلية (القديمة) كما هو الحال في إسبانيا مثلاً في ثلاثينات القرن الماضي.

فالقضية هنا ولعلها في الحرب الأهلية اللبنانية كذلك،لا تتعلق بتصادم عهود، ومواجهات طبقية بين نظم قديمة وأخرى جديدة، إنها تستمد خصوصيتها من واقع الحال، حيث نظام عالمي جديد، لا يكتفي بالنظر، إلى الصراعات الداخلية، بل ان أميركا موجودة هذه المرة ليس داخل اللعبة فحسب بل بوصفها اللاعب الأكبر فيها.

تغير مفهوم الحرب الأهلية إذن، كما تغيرت كلُّ الحروب الأخرى في العالم.

إذ ما هي الحرب الأهلية بالتالي؟

هل هي تلك التي تشعلها الجماعات بان تطلق تجمعات ســـكانية معينة العنان لدهمائها بمهاجمة تجمعات سكانية أخرى علـــى خلفيـــة عرقية أو قومية أو طائفية أو حتى حزبية؟

أم هي تلك التي يذهب ضحيتها الأهالي دون أن يكونوا في حقيقة الأمر طرفاً فيها؟

في كلِّ الحالات تقريباً كان الاحتمال الثاني هو الذي يشكل صور البشاعة المرتبطة بالحروب الأهلية، أما مشعلوها وأمراؤها التقليديون فهم أولئك الذين يجدون لهم، عادة، دوراً لاحقاً في خلـــق عمليـــة التسامح والدعوة لتبييض الماضي، بعد أن ينـــزعوا الأقنعة والقفازات القذرة.

في إحدى روايات أميـــركا اللاتينية (لعلها مائة عام من العزلـــة لماركيـــز) يقول الكاتب على لسان إحدى الشخصيات: (إن الحرب الأهلية يـــربحها عادة الأكثر قسوة) الأمر إذن لا يتعلـــق بأكثريـــة تستطيع أن تؤكد أنها ستنتصر، لكن الربح هنا هو خسارةٌ مؤكـــدة حتى للطرف الرابح، فما يـــربح بالقسوة لن يستمرَ إلا معها.

الملاحظ للمتابعين للوضع العراقي، أن العمليات العسكرية ضـــد القوات الأميـــركية انحسرت فعلاً منذ تشكيل الحكومة الجديـــدة في مقابل ازدياد الهجمات ضد المدنيين، ومراكز الشرطة والمؤســـسات والمساجد والكنائس، وهي وإنْ لم تهدأ يوماً، لكنَّها أخذتْ شـــكلاً آخر، لم تعد السيارات المفخخة صيغتها الوحيـــدة، بـــل أضـــحت الاغتيالاتُ والقتل في الشوارع سمتَها.

ولعل إحصاءات القتل اليومي مما تنقله وسائل الإعلام، لا يمثل في الواقع صورة حقيقية لما يجري تماماً، حيث حوادث خارج الإحصاء الإعلامي تؤسس لحالة أخرى مخيفة.

بدا هذا التداخل أو قل التحول في الأهداف وكأنه نذر خطيرة، توجه مسار العنف نحو أهداف أخرى، أهداف أسهل تناولاً وأشد تأثيراً وأكثر بشاعة بالتأكيد.

صحيح أن المدنيين ظلوا أهدافاً سهلة منذ اندلاع الحرب، لكن موهم بهذه الصورة، على بشاعته، لم يكنْ من شأنه إدامة دورة العنف وتطويرها نحو توجهات أخرى كما يحدث منَذ الاحتلال وحتى الآن.

على الرغم من أن مخططات إثارة الحرب الأهلية شملت جميع الفئات، إلا أن عنوانها الأبرز، بفعل الحقيقة الديموغرافية، تركز في ثنائية واضحة حتى الآن طرفاها: السنة والشيعة، إذ لم تكن التفجيرات التي طالت الكنائس ومحلات بيع الخمور التي يمتلكها المسيحيون، ولا حتى صالونات الحلاقة، عنواناً مخيفاً لكنَّها كانت مجرد مرحلة كما يتضح حتى الآن.

قد يبدو من المفارقة أن مصطلح الحرب الأهلية بما يعنيه من محلية خاصة سيصطدم في واقع الحال بحقيقة إن سيناريواته ومراحله تحدد بفرجال تُمسك به وتهندسُ محيطهُ أيدٍ خارجية.

وسنلاحظ أيضاً أن ملامح العنف تلك تركّزتْ في محيط العاصمة بغداد، حيث تمثل ديموغرافيا هذه المنطقة بالذات أوضحَ صورةٍ للتداخل السكاني بين العرب شيعة وسنة.

فبعقوبة في الشرق وسامراء في الشمال، وأبو غريب والفلوجة في الغرب، والمدائن (سلمان باك) في جنوب بغداد على الـــرغم مـــن أكثريتها الشيعية، هي (الطوق السني) حول العاصمة، وهي الضواحي التي تربطها بما سواها من محافظات أخرى، إنها دائرة الموت الآخـــر، في مقابل (المثلث السني المقاوم) في العراق، الذي تشكل بغداد قاعدته السفلى.

وقد تكون معركة بغداد الكبـــرى، التي لم يحسمها الغزو تمامـــاً، ولم تنجح الانتخابات في ذلك أيضاً، مستمرة حـــتى الآن، وتتـــرأى فصولها القادمة أكثر بشاعة.

لنلاحظ مثلاً أن مصطلح المثلث السني جرى تسويقه إعلامياً من خارج العراق، لتعريف المناطق التي تركزت فيها الهجمـــات ضـــد القوات الأميـــركية، ثم تحول هذا المصطلح إلى معضلة سياســـية في الانتخابات، ولاحقاً في عملية كتابة الدستور، ليتحول بالتـــالي إلى استهلاك داخلي، وعملي على الأرض.

لذلك فإن مدن التشابك الطائفي مثل مدينة الشعب إلى الـــشرق وحي الدورة إلى الجنوب، والأحياء المتداخلة في جانب الكـــرخ إلى الشمال والغرب هي البؤر النموذجية لإيقاظ الفتن كلَّ حين.

من هنا أيضاً جاءت عمليات (البـــرق) التي أعلن عنها وزيـــرا الدفاع والداخلية في الحكومة المؤقتة كأبـــرز نشاط للقوات العراقية منذ الاحتلال، لتركز على تشكيل طوق أمـــني حـــول بغـــداد، في مواجهة رياح الحرب الطائفية المتجهة للعاصمة كدوامة رهيبة مـــن شتى الجهات، هكذا، يجري تصويـــر الأمر في جانبه المضمر تحـــت

لافتة منع الإرهابيين من إدامة عملياتهم داخل العاصمة وفي ضواحيها، لكن الطبقة الأكثر عمقاً في التحليلات الممكنة لخطورة هذه العمليات، أنها تجسد نوعاً من الإدارة المنظمة لحرب طائفية تقودها ميليشات حزبية تحت واجهة أجهزة الدولة.

وليست تلك الأجهزة إلا واحدة من صور كتائب العنف، بشتى صنوفه، التي بدأت تنتشر في العراق تحت مسميات شتى كنسور بابل وأسود العراق إضافة إلى ميليشيات الأحزاب والجماعات المسلحة المنتشرة بلا برنامج واضح في شتى أنحاء البلاد.

فنسور بابل أصدرت بيانها الأول عقب تفجيرات الحلة في آذار / مارس 2005 والتي اتهم بها مواطن أردني ينتمي لتنظيم القاعدة وبلغت حصيلتها ما يصل إلى ثلاثمائة عراقي بين قتيل وجريح، مؤكدة أنها ستتولى بنفسها (القصاص من المجرمين) هي واحدة من منظمات سرية قد تكون مجرد واجهة للعبة خطيرة تتسارع فصولها بدموية متصاعدة باتجاه توريث العنف وتجذيره في الآن نفسه على إيقاع السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة.

ومقابل هذا الاحتقان لا يزال الكثير من السنة العرب ينظرون إلى الوحدات العسكرية المشكلة حديثاً على أنها ذات بعد طائفي، فلواء الذئب الذي صارت تنشد لها الأغاني والأشعار وآخرها أغنية تذيعها المحطات التلفزيونية المحلية بشكل يومي بعنوان وإيقاع يذكران بأغاني حروب صدام (عفية بلواء الذيب) بدا بالنسبة لسنة العراق وكأنه الصياغة الطائفية المعكوسة لألوية الحرس الجمهوري والحرس الخاص التي كانت تنكل بالشيعة خلال عهد صدام.

وكالمعهود في تراث الجيش العراقي جرى تلطيخ سمعة وحداتـه المشكلة مؤخراً، بسرعة البـرق هذه المرة، في مواجهـات داخليـة خارج مهماته حتى تلك المعلنة في قانون إدارة الدولة الانتقالي نفسه.

هل يفسر لنا هذا الأمر، بـريبة لا غنى عنها، (الخطأ الستراتيجي) لبول بـريمر في حل الجيش القديم ببنيته الطائفية القديمـة، ليمهـد الطريق نحو تجديد تلك البنية بنكهة أخرى؟

إذا كانت الولايات المتحدة مسؤولة بهذا القدر عن توفيـر المناخ النموذجي لاحتمالات الحرب الأهلية في العراق بوصفها ستراتيجية نحو أهداف أخرى، فإن الرسالة الشهيـرة المنـسوبة لأبي مـصعب الزرقاوي تؤسس لأرضية نموذجية للحـرب الطائفيـة في العـراق فمشروعه الجهادي، كما تحمله تلك الرسالة لا يتلخص في محاربـة أميـركا وعملائها في المنطقة من الطبقة السياسية فحـسب، بـل يذهب إلى إقامة (الإسلام الصافي) الذي لا مكان فيه (للرافضة) لأنهم اشد خطراً على الأمة من اليهود والنصارى كما يـرى.

وبيـنما يـربط الزرقاوي في رسالته تلك بيـن ما يسميه (دولة الرفض) التي يسعى الشيعة إلى قيامها عبـر محور إيـران ــ العراق ــ سورية ولبنان، يعبـر زعيم عربي هو الملك عبد الله الثاني عـن مخاوف مماثلة عبـر التحذيـر من إشعاع (هـلال شـيعي) وهـو

التعبيـــر الذي أطلقه بعد فترة قصيـــرة من تسرب رسالة الزرقاوي تلك[1].

ليس هذا فقط بل ان ما يشيع اليوم عن بعد صفوي في التركيبة السياسية للحركات الإسلامية الشيعية في العراق، ســـنجد مظانـــه الأولى في رسالة الزرقاوي نفسه، مستعيناً ومستـــشهداً بتحذيـــر «استشراقي" يؤكد الخطر الذي مثلته الدولة الـــصفوية في التـــاريخ الإسلامي، فالإسلام الحقيقي تمثله بـــرأيه دولة الخلافة العثمانية التي وقفت على أبواب فيينا وليس الدولة الصفوية التي (كانت خنجراً في الظهر عندما دخلت بغداد) و(لقد صدق أ حد المســـتشرقين حـــين قال لولا الدولة الصفوية لكنا اليوم في أوروبا نقرأ القرآن كما يقرأه البـــربـــري الجزائري)

يمكن اعتبار تلك الرسالة التي قال الأميـــركان إنهم اعترضـــوها لدى أحد أعوانه الذي كان في طريقه إلى إيـــران ليوصلها من هناك إلى قيادة تنظيم القاعدة، ستراتيجية مبكـــرة للحـــرب الطائفيـــة في العراق، ويبدو انه نجح حتى الآن في توفيـــر بذور كافية بعد مـــضي عام واحد من تاريخ نشر تلك الرسالة.

فتراشق الطبقة السياسية في العراق (إسلامية وعلمانيـــة) في مـــا بيـــنها بالتذكيـــر بمرجعيات (الوهابية والصفوية) يتماهي بشكل ما مع تصويـــر نظام صدام قبل ربع قرن لحربه ضد إيـــران بأنها حرب

(1) هذا التصريح الذي بات شهيراً، أدلى به ملك الأردن عبد الله الثاني للواشـــنطن بوست في 8 كانون الأول / ديسمبر 2004، أي قبل شهر واحد من الإنتخابـــات التي جاءت بحكومة الجعفري وقاطعها العرب السنة.

عربية فارسية، ذات بعد ينطوي على ثنائية مضمرة أخرى إســـلامية ـــ مجوسية!

هكذا يجري إضفاء بعد تاريخي على الحروب سواء كانت حروباً تقليدية بيـــن دول أو حروباً أهلية بيـــن الطوائف.

سيبدو الأمر، بعد ذلك، مصنوعاً إعلامياً، ومتغذياً من الـــشحن الإعلامي اليومي بموازاة صناعته على الأرض، فقد أكدت محطة السي أن أن نقلاً عن ما أسمته (مصادر ميدانية خلال معركة الفلوجة الأولى في نيسان / أبـــريل2004 أن وحدات من قوات البيشمركة الكردية أسهمت في الهجوم على المدينة (العربية) إلى جانب قوات المارينـــز، وفي أيام المعارك عينها، أعلن أحد قيادي المؤتمر الوطني العراقـــي، إن ميلشيات عراقية بيـــنها ميلشيا المؤتمر شاركت هي الأخرى في تلك المعارك[1].

---

[1] جاء في نشرة الـــ ((C.N.Nالعربية في 13 نيسان / أبريل 2004: تحت عنوان: البشمرجة الكردية تشارك القوات الأميركية حصار الفلوجة مـــا يلـــي (علمـــت «CNN» من مصادر ميدانية أن قوات البشمرجة الكرديـــة، وهـــي مليـــشيات مسلحة، تشارك القوات الأميركية في فرض الحصار على مدينة الفلوجة. وتعمـــل تحت ستار قوات الدفاع المدني العراقي.)

كما نقلت وكالة الصحافة الفرنسية في العشرين من الشهر نفسه عن الناطق باســـم «المؤتمر الوطني العراقي» انتفاض قنبر في مؤتمر صحافي عقده في نادي الصيد وسط بغداد، قوله: ان «المؤتمر الوطني فخور بالمشاركة في الفوج 36 الـــذي شـــارك في مقاتلة الارهابيين في داخل الفلوجة جنبا الى جنب مع قوات المارينـــز الاميركيـــة» واوضح ان «هناك اربعة أحزاب أخرى تشارك في هذا الفوج وهي حزب الوفاق=

وفي وقت لم تكن ثمة وحدات مهمة من الحرس الوطني أو الشرطة العراقية قد جرى تشكيلها حتى ذلك الوقت، و لم يكن ثمة حكومة انتقالية، ذات سيادة بالمعنى القانوني قد تشكلت بعد، فإن حرب الميليشيات كانت العنوان المضمر لتلك المعارك التي تخوضها في عنوانها الظاهر القوات الأميركية للقضاء على الإرهاب، فثمة مقاتلون ينتمون إلى أحزاب ذات صبغة عرقية أو طائفية، دخلوا فعلاً في مواجهات مع مجموعات مسلحة تنتمي إلى قومية أخرى أو طائفة ثانية.

تضع رسالة الزرقاوي ممكنات الحرب الأهلية بصيغتها الطائفية بين (السنة الشيعة) كصيغة من صيغ تفعيل (الجهاد ضد الأميركيين) فيما يستفيد الأميركان أنفسهم من هذه (النزاعات الطائفية المتأصلة) في إدامة وجودهم وفي التقليل من خسائرهم التي تزايدت خلال السنة الأولى لاحتلالهم العراق.

لكن دماء الزرقاوي التي تردد أنها سالت في معارك القائم ضد القوات الأميركية، لن تكون أكثر من بقعة إضافية في خرافة جديدة يجري نسجها لمستقبل العراق.

فعشية الإعلان عن تشكيل حكومة الجعفري بقليل، وتزامناً مع بروز ملامحها الطائفية، بدا أن مدينة (المدائن) هي الحلقة الأكثر فصاحة في التعبير عن نذر الحرب الطائفية في العراق، فالمدائن (أو

=الوطني (بزعامة اياد علاوي) والمجلس الاعلى للثورة الاسلامية (بزعامة عبد العزيز الحكيم) والحزب الديمقراطي الكردستاني (بزعامة مسعود البرازاني) وحزب الاتحاد الوطني الكردستاني (بزعامة جلال الطالباني)».

سلمان باك) التي تقع إلى الجنوب من بغداد بحوالي خمـــسة وثلاثـــين كيلو متراً، تقطنها أغلبية شيعية، تجاورها تاريخياً قبائل عربية ســـنية أهمها قبيلتا الدليم والجبور.

وهي تمثل أقدم الحواضر في بلاد العراق، حيث يـــصفها يـــاقوت الحموي بأنها أم مدن العراق، فهي المدينة الأقدم من بغداد العاصمة، وكذلك الكوفة والبصرة الإسلاميتين، إذ تنتمي إلى حقبـــة العهـــد الفارسي الساساني في العراق في حدود القرن الثالث الميلادي، وهي المدينة التي شهدت تدفق الصحابة من الجزيـــرة العربية بعد الفـــتح الإسلامي للعراق قبل انتقالهم إلى الكوفة ومـــن ثم لبغـــداد عقـــب إنشائها، حيث توفي فيها العديد من الصحابة أبـــــرزهم ســـلمان الفارسي الذي تنسب إليه أحياناً، وحذيفة بيــــن اليمـــان وهمـــا يشكلان أثنين من أركان الشيعة في الفكر الإمامي، ولهذا فهي تمثـــل لدى شيعة العراق رمزاً دينياً تاريخياً وعادة ما يـــردد زائروها علـــى طول الطريق أهزوجة مأثورة تقول (الما يـــزور الـــسلمان عمـــره خسارة وندمان)

وهي تقع علي ضفتي دجلة الشرقية والغربية، وتمتد أحياء الـــضفة الغربية منها نحو أقرب منطقة في تقارب مسار نهر دجلة مع الفرات، وقد مر بها الاسكندر المقدوني خلال حملته على بابل، حيث قامـــت الاسكندرية إلى الغرب منها، وفي المدائن أيضاً دارت معركة كبـــرى بيـــن الإنكليـــز والأتراك تسببت في أكبـــر عملية حصار واجهت الجيش البـــريطاني وهو حصار (الكوت) حيـــث انـــسحب إليهـــا البـــريطانيون قبل أن يعين الجنرال ستانلي مود قائداً لفيلـــق دجلـــة ليلحق الهزيمة بالأتراك ويدخل بغداد فاتحاً بصيغة المحرر.

وفي قتاله للخوارج في معركة النهروان اختار الإمام علي بن أبي طالب (المدائن) قاعدة له على الرغم من كون حذيفة بن اليمان والي المدينة أيام عمر بن الخطاب، ظل معتزلاً خارج الفتنة التي سبقت معركة الجمل أقدم حرب أهلية بين المسلمين، فاتخذ له سيفاً من خشب قبل أن يموت ويدفن فيها.

ولا يزال طاق كسرى (أي الإيوان الملكي الساساني) شاخصاً في قسم كبير منه كأقدم أثر على الوجود الفارسي في العراق، هل يمكن اعتبار هذا الشاخص نصف المهدم عنصراً مهماً في الاتهام الذي وجهه وزير الداخلية المنصرف فلاح النقيب إلى المخابرات الإيرانية في التورط بأحداث المدائن.

لا يمكن التسليم بسهولة أن هذه الجذور هي مرجعيات اعتباطية لتفسير جانب من الغموض الذي رافق أحداث المدائن في الذكرى الثانية لاحتلال العراق وفي التلكؤ المديد الذي رافق تشكيل الحكومة المؤقتة، فالحديث بدا متضارباً بما يضفي غموضاً إضافياً وكأن الذي جرى ليس على الأبواب الجنوبية للعاصمة، والحديث هنا لا يتعلق بعمليات اغتيال غامضة الملامح، بل بخطف وقتل واغتصاب معلن، وتهجير قسري، على خلفية طائفية حيث تقطن عشائر من الدليم على جانب عشائر شيعية.

هل إن ما جرى في المدائن كان بسبب تشبث طائفة جرى إقصاؤها انتخابياً وإصرارها على العودة للسلطة عن طريق القسوة؟ إذن ماذا نسمي مقتل مزارعين وكسبة ورجال دين ينتمون للطائفة نفسها من تلك المدينة ومن مناطق عدة في العراق جري إعدامهم في الخفاء، هل هي ردات فعل على عمليات مماثلة معروفة، أم هي

ثارات طائفية يجري من خلالها استعراض ما لدى كلّ طـرف مـن عنف مبتكر ومغالاة في القسوة.

من الواضح إن الشيعة والسنة في العراق لا يتقاتلون بأرادهم حقاً، لكنهم يُقتلون معاً في حرب أهلية طائفية متعددة الأمراء، حرب من طراز خاص؟

ربما لا نجد مكاناً أو زماناً حاسمين في التوثيق لحـرب أهليـة في العراق، حتى الآن، لا في الفلوجة أو النجف أو المدائن أو الحلـة، لا بالاحتلال الأميـركي، أو بالانتخابات أو بتشكيل الحكومة المؤقتة، وقد يكون ذلك على العموم نوعاً من دفع المخاوف لمن يـريد أن يبعد عنه هذه الأشباح المزعجة، بيد أن جانباً مهماً ممـا يجـري في العراق اليوم هو مسرح واضح لحرب أهلية لا يعرف منها حتى الآن سوى أمرائها الملثمين، حقيقة ومجـازاً: الأميـركان والـصورة الدراماتيكية للزرقاوي وتنظيمه، والطبقة السياسية، أما ضحاياها فهم العراقيون المنكشفون في عراء الجغرافيا.

أنها حرب أهلية مضمرة حقاً، وخطورتها تكمن في كونها تـرتبط بشعارات حروب أخرى تتوشح بمقولات التحريـر أو الجهاد أو بناء عراق جديد.

معسكر الغرباء ومنفى الخلفاء.

يوم الأربعاء 22 / 2 / 2006 استفاق العراقيون علـــى زمـــن جديد، بتفجيـــر القبة الذهبية لمرقد الأمام العاشـــر لـــدى الـــشيعة الإمامية: الإمام علي الهادي وابنه الإمام الحسن العسكري في مدينـــة سامراء التي تبعد 120 كيلومتراً شمال بغداد.

الزمن الذي استفاق عليه العراقيون، مصدومين ومذهولين، لـــيس هو نفسه ذلك الزمن الفلسفي الذي أعيا القديس أوغـــسطين[1] في محاولة الإحاطة بكنهه اللاهوتي لما قبل الأربعاء، ومقارنته فيـــزيائياً بما بعده، فعندما خلق الله الشمس والقمر والنجوم وبقية الكواكـــب يوم الأربعاء وفق ما يخبـــرنا به الكتاب المقدس، فإن فكرة الزمن ما قبل الأربعاء تنطوي على مسافة تأويلية، خلفـــت تلـــك الحيـــرة الكهنوتية في تفسيـــر زمن ما قبل حركات المجـــرات في أربعائهـــا

[1] يمثل القديس أوغسطين نموذجاً لقلق الفرد في عـــصر غـــروب الإمبراطوريـــة الرومانية وانتشار المسيحية، فقد ولد في شمال أفريقيا، ودرس في قرطاجة، واتسمت تجربته بالقلق في مجال الاعتناق الديني، والفلسفي والأدبي، فهو مـــانوي، وخطـــابي لاتيني، وسافر إلى روما ليعود مسيحياً مؤثراً وأحد أبرز الآباء في العصر المـــسيحي الوسيطي وهو ما انعكس في أهم كتبه خاصة: مدينة الله، والاعترافات.

الغامضة، لكن الأربعاء الأسود في العاصمة العباسية البديلة زمن يمكن مقارنته بقرين أقرب يتعلق به امتداداً وتفاعلاً واقعياً وليس افتراضـاً ميتافيــزيقياً.

فالأربعاء الأسود في العراق، يعدل بشكل ما، في التأثيــر الفكري والروحي لتاريخ العراق، ما تركه الثلاثــاء الأســود في نيويــورك وواشنطن لدى الوجدان الجماعي الأميــركي، صحيح أن نيــران 11 سبتمبــر في ذلك الثلاثاء الأسود أطبقت على الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وقد لا يبدو الأربعاء العراقي الأســود إلا خيطـاً صغيــراً من دخانها، فإن من الصحيح أيضاً ملاحظة الانعكاســات التي سيتركها الأربعاء العراقي، ليس في هذا التعاطف الثقافي الــذي أبداه الأمين العام لمنظمة اليونسكو لحفظ هذا التراث الإنــساني، أو بعرض الخدمات الفنية الإيطالية، من خبــرات مهندسي رومــا في تشييد الأضرحة، ولا في دولارات الولايات المتحــدة وخبــراتها التحقيقية في الأمر، بل على هذا التاريخ الضاغط في سامراء نفــسها عندما ينــزع أبناء المدينة إلى رفض قبول أية معونة لتعميــر المرقــد وهم الذين عاشوا قروناً سدنة للمقام، ومــرابطين مــرتبطين بــه، ويستمدون شيئاً من شخصياتهم الاعتبارية بهذا الارتباط.

وفيما جرى الحديث مطولاً عن مخاطر حرب أهلية في العــراق، يقصد بها وصول التقاتل على الهوية ما بيــن المسلمين السنة الشيعة، فإن الأربعاء الأسود سيبدو محاولة في سياق رفع اللثام عن وجه تلك الحرب، أو بالأحرى هي حد فاصل يجري بعده تفسيــر عمليــات القتل هنا وهناك على قاعدة أضحت متاحة.

وبعيداً عن عقدة «نظرية المؤامرة" التي لم تعد في الواقع نظريـــة، ولعلها أصبحت فكرة عمياء، فإن فحص الجذور التاريخيـــة لتلـــك القاعدة سيشيـــر إلى وجود تدبيـــر مشغول بعناية ومدروس بوعي، لاختيار اللحظة بعناية وكذلك المكان والهدف، فقد يكون منفـــذو التفجيـــر شيعة أو سنة، مسلمين أو غيـــر مـــسلمين، مـــؤمنين أو ملحدين، الأمر ليس هنا، إنه لا يتجسد في السكين، ولا في اليد بل بالوعي. ولهذا من المهم فحص المغزى العميق من وراء توجيه مثـــل هذا العمل.

فسامراء بما تضمه من آثار تاريخية إضافة إلى المراقد، تختلف عـــن بقية المدن الشيعية المقدسة في بغداد والنجف وكـــربلاء، في كونهـــا نشأت في رحاب مدينة بقيت « سنية" لثلاثة عشر قرناً، علىالرغم من توافد العشرات من علماء الشيعة ومراجعهم للإقامة فيها، كمـــا تتميـــز بكونها احتفظت بشاخص تاريخي جامع بيـــن ما خلفه كلٍّ من القاتل والقتيل على حد سواء، في مشهد حي يجـــسد التعـــايش التاريخي بيـــن إرث الجلاد وميـــراث الضحية، ومثلت كذلك هذا المشهد التفاعلي بيـــن المئذنة والضريح، بيـــن الخليفة والإمام، أو قل السلطة والمعارضة، وهي تتسع لـــ «ســـرداب الغيبـــة " للمهـــدي المنتظر، وثرثرة الفسيفساء على جدران «قصر العاشق" في بانورامـــا حقيقية تتداخل فيها بصمات المنفيين وآثار المهـــاجرين وشـــواخص المقيمين.

لعل ثمة القليل ممن خرجوا من صومعة الاستنتاج المباشر لتجـــريم الفاعلين بشكل فوري، ليذهبوا إلى ما جرى في المدينة نفسها في شهر نيسان / أبـــريل من العام 2005، عندما أقدمت مجموعة لم تـــزل

مجهولة، على الرغم من كيل الاتهامات التقليدية، على تفجيـــر قمة منارة سامراء، أو ما يعرف بالمئذنة الملوية الـــتي يعـــود تاريخهـــا إلى التاريخ ذاته الذي تنتمي إليه الأضرحة.

ولهذا فإن سهولة تسييل التهم في وادي الفتنة العراقية، ما هـــو في الواقع سوى إدامة لسهر تلك الفتنة المستيقظة حقاً، على الرغم مـــن أناشيد التنويمات الوجدانية التي تنطلق من هنا وهناك.

من هذا الجانب يمكننا فحص الزمن العميـــق لإزاحـــة الظـــلال الواسعة عما جرى، وليس للتحقيق الأمـــني أو طلـــب الفاعـــل أو المدبـــر، ومن هنا أيضاً يمكن الإصغاء بـــروية لأصداء التاريخ لجعل هذا الفحص يذهب إلى تلك الأعماق ولا يقف عند حدود الظاهرة بوصفها حادثاً.

لكن لنعد إلى القصة الأصلية في الحكاية قبـــل أربعـــاء القـــديس أوغسطين، ذلك أنها هنا قد تفيد في تحليل ما يجـــري وتجنـــب مـــا سيجري، على خلفية قراءة لما كان في الزمن الآخر، أكثر مما تصلح مسوغات إدانة لطرف أو آخر في تحمل مسؤولية أربعاء الزمن الجديد في العراق.

فسامراء بدت يوم الأربعاء وكأنها تستعيد الجدل القـــديم حـــول اسمها، فما بيـــن « سر من رأى" و« ساء من رأى " جرى الركون إلى المختصر غيـــر المفيد هنا من جدل اسمها المركب: سامراء، على الأقل هذا ما نحصل عليه من الحاضنة التاريخية للاسم، أو من نبـــوءة الإمام جعفر الصادق بخرابها السريع في قوله لأحد خلصائه: مدينـــة تدعى سر من رأى وهي ساء من رأى.

لقد ارتبط نشوء سامراء عاصمة بديلة لبغداد، باستقدام محاربين من ثقافات أخرى، بعد أن تم استقدامهم في الجيش والشرطة والعسس والأمن، فكثرت شكوى العامة في بغداد منهم، بعد أن كثرت كتائب الخيالة من الجنود المماليك القادمين من آسيا الوسطى في شوارع العاصمة، فاستفزت الشعب الذي كاد يثور على الخليفة مما دفع الأخير إلى الرحيل بجنده نحو شمال بغداد حيث اختار وهاد المدينة ثكنة عسكرية لهم، ومن هنا جاء الاسم الآخر لسامراء (عسكر) الذي أصبح لاحقاً نسبة لمن يقطنها من الوافدين.

ولذلك فهي (عسكر) الغرباء و(سامراء) المقيمين، وهي تحمل إرثاً في اسمها غير ما تجلبه القواميس العربية لتظهر في المدونات الآشورية بلفظ (سرمارتا)، وأما سامراء، أو سامرا فهو في الأساس اسم آرامي لتلك المدينة التي قامت بين عدد من الأديرة المسيحية.

ولهذا فالعسكري هو من سكن المدينة من الغرباء، وعسكر فيها، تمييزاً لهم عن المقيم الأصلي، أو أفراد حاشية الخليفة.

ولهذا أيضاً فإن «الإمامين العسكريين" على الهادي وابنه الحسن العسكري ارتبطا بهذه النسبة المضافة مع أن الأب اشتهر لدى الشيعة بالهادي والنقي.

لكن المنفي العسكري الأول من الأئمة يبدو أنه وجد في المدينة نوعاً من السلام الداخلي مع النفس، شأنه شأن أبائه وأجداده في احتمال المهنة الشاقة: النفي، فهو يلخص علاقته الجديدة بالمدينة

لأحد أصدقائه بالقول: أخرجت إلى سرّ من رأى كرهاً ولو أخرجت عنها أخرجت كرهاً.

فأصبحت سامراء المأوى والمثوى، له ولعائلته حتى الجيل الثالث.

وفي الواقع أن استقدام الأب وابنه من المدينة المنورة إلى العاصــمة الجديدة كان الوسيلة التقليدية للخلافة العباسية في منع قيام (الإمام) من الجيل اللاحق، من جمع الناس حوله في المدينــة المنــورة تمهيــداً للثورة، ذلك أن خروج الإمام الحسين إلى الكوفة خــلال الحكــم الأموي كان جرس الإنذار الذي جعل الخلفاء الهاشميين مــن بــني العباس يتفادون قيام « ثورة " إمامية أخــرى فــاجترحوا أفكــاراً جديدة، أقل تأليباً لمشاعر الناس، وأكثر حذراً من أسلافهم الأمويين في مواجهة أبناء عمومتهم، تمثلت في الإقامة الجبــرية تحت الأنظار، فجرى استقدام الإمام السابع موسى الكاظم من قبل أبناء العمومــة مرات قبل أن يحتمله هارون الرشيد معه إلى بغداد، بعــد انقــضاء موسم الحج، ليموت الإمام السابع وهو بأصفاده في السجن، وجرى استقدام الإمام الثامن علي بن موسى الرضا من قبل المأمون وعهــد إليه بولاية العهد لكنَّهُ مات منفياً بطوس شمــال شــرق إيــران، واستقدم الإمام التاسع محمد الجواد من قبل المأمون ومن ثم المعتــصم وجرى تزويجه من إحدى بنات الخليفة ليموت في بغداد حيث مزاره المعروف إلى جانبه جده موسى الكاظم.

هذه المتوالية الوراثية لنمط العلاقة ما بيــن الخليفــة والإمــام أوصلت الصراع إلى ذروته، بيــن الخليفة العاشر والإمــام العاشــر لتنتهي إلى أكثر العهود قمعاً واستبداداً في الخلافة العباسية، وهو عهد المتوكل على الله العباسي الذي شمل طوائف المجتمع بــرمته حيــث

تصاعد التعصب الفقهي مع عودة السلفية الحنبلية للصعود وتبنيها من قبل السلطة على أنقاض الفكر المعتزلي، الذي تبنته السلطة العباسية في مرحلة سابقة، فمارس المتوكل ضد أصحاب الديانات الأخرى تمييزاً واضحاً يتنافى مع ما درج عليه أسلافه العباسيون، وعلى النقيض من روح التسامح وقبول الآخر التي كانت عليها الخلافة الأموية، عندما أمر بارتدائهم ملابس خاصة تميزهم عن المسلمين، ومنع طقوسهم، وتعسف في فرض الضرائب عليهم.وكان أن شاع التطرف والتعسف، وانحسرت مساحة حرية الرأي والتفكير مع تراجع المعتزلة، لقد أقام المتوكل مجتمعاً يقوم على إنكار الآخر أطلق فيه العنان للسلفيين، لتشتد الفتن، فيما كان هو مستسلماً لتأثير فتنة من نوع آخر مغرماً بالورد الأحمر تحديداً والذي حرمه عمن سواه من العامة (أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين وكل منا أولى بصاحبه.)

بيد أن ملك السلاطين عاشق الورد الأحمر، الذي اغتيل في قصره بتدبير من ابنه بمؤامرة انقلابية عائلية، ينظر له من قبل الشيعة كواحد من أكبر الطغاة الذين تجري مقارنتهم أحياناً من قبل بعض مشايخ الشيعة بصدام حسين، فهو صاحب فكرة تجريف قبر الحسين ومنفذها، بنبشه وحرث أرضه بالثيران وإطلاق المياه نحوه من نهر العلقمي المجاور.

وعلى الصعيد الثقافي لا بد من الإشارة إلى ظاهرة جديدة برزت في تلك الحقبة وهي ثقافة النقائض في الشعر العربي التي اكتسبت للمرة الأولى بعداً طائفياً داخل الديانة الواحدة هذه المرة من خلال الهجائيات المتبادلة بين دعبل بن علي الخزاعي وعلي بن

الجهم، بعد أن بدأت خلال العهد الأموي بالبعد القبلي في هجائيات الفرزدق مع جريـــر، مطعمة ببعد ديني مع دخول الأخطل، الـــذي كان مسيحياً، طرفاً ثالثاً.

وطيلة ثلاثة عشر قرناً عمرت مزارات سامراء وجـــددت قبـــاب الأضرحة مرات، فتعرضت للحرائق مرات بسبب سراج سها عنـــه أحد السدنة، قرب القفص الخشبي للضريح، أو بفعل شمعة وضـــعها أحد الزائرين للتبـــرك، أو لأسباب مجهولة كادت تؤدي إلى فـــتن، وفي كل مرة كان الخراب مناسبة للتجديد وإعادة الإعمار، من أمراء بويهيين وسلاطين عثمانيين، وقادة قاجاريين، أو محاربيـــن مغـــول، من مشايخ سنة، ومراجع شيعة، ومن محسنين باكـــستانيين وهنـــود وأفغان.مع أن المدينة نفسها سرعان ما تحققت بها نبوءة الـــصادق، فخربت، وعادت لتسمية «ساء من رأى " بعد عمران قل نظيـــره، وسر من رآه! إذ يؤكد مؤرخو المدن أن بداية عمرانها، وتمام خرابها ستون عاماً. حتى أصبحت الشواهد التاريخية في المدينة حـــسب مـــا يـــرى ابن طاووس مجرد: صومعة في بـــرية

تلك سامراء يتجانس في اسمها السوء والسرور. إنهـــا خلاصـــة متناقضة من المدن الزائلة ضربتها جائحة الخراب وفتكهـــا بأهلـــها الطاعون، لكنَّ أضرحة الأموات عادت فجددتها.

منذ بدايتها كانت الحرب في العراق حرب رموز، منذ إســـقاط تمثال الدكتاتور فيما كان هو لا يـــزال في بغداد، إلى سرقة تمثـــال أول رئيس ينتحر: عبد المحسن السعدون، إلى رفع تمثـــال الـــرئيس الأسبق أحمد حسن البكر، إلى إزالة قبـــر ميشيل عفلق (خاصة وأن قبـــره كان مزاراً كتبت على شاهدته دعاء لزيارة «الهادي الأمين" و

«دليل الوعي في ذروة الحيرة وقلة الزاد!") ومن ثم نسف تمثال أبو جعفر المنصور، وصولاً إلى تفجير الحسينيات والجوامع والأضرحة والكنائس.

وإذا ما كان كل من هذه الترميزات معبراً عن تعارضات داخلية بين المثل، حدودها المتعارضة الحرية والعبودية، الإقامة في العسف أو العبور نحو التحرر، النزعة الثأرية المعهودة لدى الشعوب، أو التعبير عن سيكوباثية تاريخية سياسية خاصة، أو توق للقصاص من تراث قمعي، فإن تفجير أضرحة سامراء على الرغم من مغزاه الطائفي الظاهر، إلا أنه يمثل في الواقع شرخاً أصاب الهوية التاريخية للمدينة من حيث لم يحسب حسابه.

فأهمية سامراء لا تنحصر في كونها حاضنة سنية لتاريخ شيعي وشاهداً على أضحياته، بل في كونها ظلت دائماً تلك المسافة التي لا تجعل من الجغرافيا مجرد هندسة مثلثات ومربعات ومشاريع لكانتونات وجزر لمناطق نفوذ، فقد ظلت دائماً: ما بين بغداد وتكريت، بما تعنيه هذه المسافة، بين سلطة العشيرة ودولة المؤسسات، ما بين حدَّي العقيدة: مفهوماً وممارسة، ما بين الطائفة والطائفية. يصلح أحد رموز المدينة المقتولين على يد صدام «عبد الخالق السامرائي" نموذجاً يلخص إلى حد بعيد هذا الواقع، فهو الضحية التي لا يتردد الأكراد، مع ضحاياهم الكثر، عن المحاججة السياسية به، وهو الذي ينعته الشيوعيون ببعض أدبياتهم بالمناضل، ويصفه بعثيو اليسار بالشهيد، مع كونه في الجناح الآخر، أما الإسلاميون فيؤبنون به صدام، على الرغم من كونه رفيقه في علمانية ما قبل الحملة الإيمانية، ومن هنا ندرك أي مغزى حالي، إضافة إلى

التاريخي، يكمن في اختيار سامراء عنواناً لتلك الرسائل، إنها بابل الجديدة، ينهار برجها أو زقورتها، فيتفرق أهلها في الأرض من جديد أنبياء، ومشردين.

ربما ثمة من يرى وجود ضرورة لمثل هذا التقويض، قبل بدء إعادة الإعمار، فالأضرحة بعد الإنسان والمكان المدني والشواخص العقائدية رموز ينبغي الفراغ من تخريبها قبل الشروع بإعادة عمرانها في ستراتيجية متكاملة.

وإذا كان مركز التجارة العالمي ببرجيه الشمالي والجنوبي مثل هيبة أميركا الاقتصادية المستهدفة، فإن مغزى تفجير المرقدين العسكريين يتجه برسائل ساخنة إلى استهداف رمز التوافق والوئام الطائفي بين الشيعة السنة في أمكنة عدة من العالم.

ولهذا فإن ما أكسبه تفجير برجي نيويورك من بعد رسالي لفكرة الحرب ضد الإرهاب، جعلها تبدو حرباً ذات معنى، وليست مجرد نزعة ردع مباشر لعدوان طارئ، ولهذا فإن ما استجرته بعد ذلك من فصول التعريفات الزائدة للبعد الرسالي، أوصل النزاع إلى سياق تتقاتل فيه الثقافات، وتصطرع داخله الأديان.

وعلى المستوى ذاته يمكن قراءة العمل المشين بتفجير مرقدي سامراء على ضوء ما أحدثه من تشويه واضح في المسافة النموذجية لأكثر من ألف عام من التعايش الطائفي، لكأن الاحتراب الطوائفي، يؤسس له اليوم فعلياً من خلال ديناميت آخر.

قد يكون من اللافت أو من المنسي والمغفل الآن، إن قبة الإمام أبي حنيفة النعمان في الأعظمية قد تعرضت للقصف الأميركي عند

دخول القوات الأميركية لبغداد، وظل هذا أول العلامات على دخول سكان الأعظمية في حرب مع المارينز، إنها عقدة بابل القديمة لكنّها هذه المرة ليست في الأبراج أو الزقورات، وإنّما في المراقد والأضرحة.

ولنتذكر أيضاً كيف كان الناس في النجف يقفون في وجه الجنود الأميركيين لمنعهم من الاقتراب من ضريح الإمام علي بينما أباحوا لهم بقية المدينة بتلك العبارة الشهيرة: SITY .EMAM ALI NO،YES

السياق الطبيعي لدورة العنف يجعل من حرب المساجد ومعارك المزارات وقصف الهاونات، صفحة في سياق الحرب الأهلية الملثمة هذه المرة بآجر الأضرحة، حيث التراشق بالمقدسات والتقاذف بأشلاء الموتى بعد أن لم يعد للأحياء من مهام ذات قيمة.

فلم تعد مناطق التداخل الطائفي في العراق، كما كانت عليه، ثمة هجرات متواصلة للشيعة من المناطق ذات الأكثرية السنية وبالعكس، الحرب الأهلية «السكانية" هي الفصل اللاحق من حكاية ديمقراطية الطوائف الفيدرالية، والمتاريس يجري تجهيزها عبر هذا العدد الهائل من المساجد والأضرحة.

لقد ظلت نذر الحرب الأهلية في العراق، تمضي بالتوازي تماماً مع العملية السياسية، وبقي الاستثمار السياسي للمقدسات وما تواجهه من خطر ورقة رابحة في بورصات المقدس لدى الطبقة السياسية في العراق ولدى أطراف أخرى.

فيوم فجرت ملوية سامراء طاب للبعض تشبيه الأمر بتفجير تمثال بوذا لكنَّ نفعيي التفسير هؤلاء نسوا أن الملوية بناها المتوكل الذي سبق ابن تيمية في «سلفيته" وهي في الواقع مئذنة ترتفع في الهواء لأكثر من خمسين متراً، وتمثل نموذجاً لقوة صوت الدين في عصر الخلافة التي يعتد بها العنف الأصولي في حربه، إضافة إلى أن سامراء بقيت لفترة طويلة بأيدي المسلحين الذين يقاومون القوات الأميركية المحتلة تحت مسميات وكتائب شتى، وكان يمكنهم في ظل التضييق الإعلامي الذي واجهوه آنذاك الإعلان عن أنفسهم بالطريقة المدوية ذاتها التي أعلن فيها مقاتلو طالبان عن أنفسهم في «باميان" بتفجير تمثال بوذا وجلب أنظار العالم لهم والقوات الغازية بسرعة.

لكن تفجير قبة الضريح كتفجير قمة المئذنة، لا يزال ضائع الأب وشائع التأويل.

وعلى الرغم من أن المجموعات المرتبطة بتنظيم القاعدة في العراق، أكدت على أن ما تم تدميره هو (وثن من أوثان الشيعة) ومع ما يعرف عن عدائها التاريخي وذي السوابق في محاربة «الثقافة القبورية" لدى الشيعة واجتثاث عقيدة التوسل بالأموات، فإنها لم تتبن عملية التفجير الذي لا يبدو أنها تخجل من تبنيه.

على أن فكرة «الوثنية القبورية" التي يجتهد تنظيم القاعدة بالتذكير فيها بالعراق، أخذت شكلاً آخر في ما عرف بحرب الأضرحة بأفغاستان،عندما أصبحت قبور «المجاهدين العرب " من تنظيم القاعدة المتحالفين مع حركة طالبان مزارات للسكان المحليين، ترتبط بالكثير من كرامات الأولياء التي تبدأ بالاستدلال عليها من

خلال ضوع الروائح الزكية الذي ينبعث منها، ولا تنتهي عن حدود الأنوار اللامعة في المساءات المعتمة، وهي الكرامات التي يجري الحديث عن مثيلاتها في العراق!

حتى تحولت «الثقافة القبورية" التي ينتقدها مرشدو طالبان — حلفاء القاعدة — الذين هدموا الكثير من أضرحة الشيعة في مزار شريف. إلى نوع من المقدس المحلي.

بل تحولت الأشياء الصغيرة، للقتلى بما فيها أحذيتهم، إلى مياسم فصيحة لآثار تلك الكرامات تصل أحياناً إلى رمزية خرقة المتصوفة.

قد يكون من المهم هنا الإشارة إلى أن اعتناق حركة طالبان للمذهب الحنفي، لا يتصل تماماً بتحريم بناء الأضرحة والتمسك بحديث «خير القبور الدوارس" كما هو الحال لدى تنظيم القاعدة التي ترتبط معتقداته في ما يتعلق بهذه المسالة بالمذهب الحنبلي، مثلما ينبغي التفريق بين الفكر الفقهي لكل من القاعدة وحركة طالبان بوصفهما حركتين منفصلتين في هذا الجانب، لا كما يتوهمه البعض من تماثل يصل أحياناً إلى حد البنوة والأبوة.

من هنا فإن معتنقي المذهبين السنيين الرئيسيين في العراق، وهما الشافعية والحنفية ينتمون إلى الثقافة ذاتها التي تعتقد بالشفاعات والكرامات وتبيح عمران الأضرحة، ففي بغداد وحدها على سبيل المثال ثلاثة مزارات لأئمة وشيوخ عرف عنهم كونهم من الأولياء والصالحين على الرغم من تحدراتهم المذهبية أو تحدر المذاهب الفقهية

والطرق العرفانية نفسها منهم، هم: أبو حنيفة والـشيخ معـروف الكرخي والشـيخ عبد القادر الكيلاني[1].

قد تكون معارك المراقد والمساجد خضة مفاجئة، تستفيد منـها الولايات المتحدة في مراجعة طروحاها عن نموذج الحريـة الغربيـة، وتجربة الديمقراطية الأميـركية، وأن تعيد مراجعة تاريخ الاستشراق في منطقتنا، فقد كان المستشرقون خيـر من درس تاريخ الفـتن في تراثنا العربي، وأول من عرفنا بوجهنا المشروخ في مـرآة التـاريخ، فجاب صحراءنا قبل أن يعمرها النفط كثيـرون منهم، بحثـاً عـن أضرحة الأولياء معجبيـن بحكايات كراماهم، ومعيـدين الاعتبـار لضحايا الفتن القديمة، ركبوا جمالاً وتجلببوا وتعمموا، وقـدموا لنـا خلال العهد الكولونيالي الأول أهم بحوثهم، فان فلوتن وتأصيله عن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات) ويوليوس فلهاوزن في رصد (الخوارج والشيعة) وجولد زيهر في مسائلته (المذاهب الإسـلامية في التفسيـر) ولويس ماسينيون في تعقبه (لأهداف التصوف في السلام)

([1]) أبو حنيفة (النعمان بن ثابت) ويعرف بالإمام الأعظم أحد أئمة أهـل الـسنة الأربعة، ولد في الكوفة سنة 80 هـ وتوفي في بغداد سنة 150 هـ.يتحـدر مـن أصول فارسية، و(معروف بن فيروز الكرخي) يعرف بالشيخ معروف، ولد وتـوفي في بغداد، وبعد أبرز رموز التصوف في بغداد في القرن الثالث الهجري، وكان أحمد بن حنبل من بين جملة زواره الذين يذهبون للتبرك به. وعبد القادر الكيلاني (بـن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست) ويعرف أيضاً بالجيلي، ولد في طبرستان 471 هـ ونشا وتوفي في بغداد 561 هـ، وهو مؤسس الطريقة القادرية في التـصوف السني.

واهتمامه اللافت (بآلام الحلاج) لكنَّ الاستشراقَ مع أهميته الأكاديمية في ثقافتنا العربية لم يكنْ فاعلاً في حياتنا بما يكفي لخلق مرحلة تنوير تجعل الطريق سالكاً نحو ديمقراطية عقلانية، لا ديمقراطية تحتضن تاريخ الفتن وتعيد شحنه من جديد، ولذلك فإننا حين نرى اليوم جيلاً جديداً من منظري هذا العهد، يعرض البضاعة هذه المرة كوصفة سحرية وصدمة شاملة، نكتفي منهم أن لا يحققوا لنا الفتنة، بل أن يحققوا فيها من جديد.

«بــرالا" أبنة الأعاجيب القديمة.

تبدو بغداد وقد دخلت السنة الرابعة من «عهدها الجديد" كأنها جامعة عهود قديمة راسخة على مرِّ الزمن، وأخرى ضائعة في الرحلة للمستقبل، وحاضنة لمواريث شتى تزاحمَ وارثوها وموزِّثوها في لحظة واحدة من قيامتها وهي تنوء بشكل واضح بما تركته السنوات الثلاث الماضية تحديداً من إفزاع لتلك المواريث والعهود، إفزاع بصيغة الصدمة والإيقاظ سيحدد، بلا شك، مستقبلاً هو أبعد من مستقبلها الفردي كمدينة وعاصمة، إذ لا تبدو صورة هذا المستقبل «لدار الخلافة وعاصمة الإمبراطورية الإسلامية" قبل غروب شمسها في المشرق العربي، لا تبدو ثابتة في إطار التصور اليوتوبي الذي رسمه لها البعض قبل سنين ثلاث.

وإذا كان الاحتلال الإطار الأوضح الذي احتوى صورة بغداد في السنة الأولى، والعملية السياسية المأزومة والأمن الشخصي المفقود أطاراً آخر لها في السنة الثانية، وجاء نموُّ الفتن واضطراب الهويات العرقية والطائفية ليبرز عنوان صورها في سنتها الثالثة، فإن السنة الرابعة من عهدها الجديد ستحمل أعباء هذه المراحل جميعاً وتسير إلى المجهول، لا إلى (مستقبل مأمول) كما وصف بول بريمر الثالث مذكراته عن «سنته في العراق" التي سارع إلى إصدارها قبل أن تلوح بشائر واقعية لذلك المستقبل، سوى أن الفوضى لا تزال تضرب

أطنابها في أرض الرافدين، دون أن «تخلق" سوى المزيد من فيضان العنف.

شيء آخر حاول أن يستر ما تظهّره وقائع الحاضر، إلا وهو الانشغال بالأزمة السياسية التي أعيا المحللين تأويلُها، فغابت أسئلتهم في بئرها المحيرة، عما إذا كان مسبب الأزمة الاحتلال الأميركي نفسه؟ أم هو أرث الديكتاتورية المقيت، أم لعله التدخل والتأثير الإقليمي؟ أم بفعل الولاء للمرجعيات الدينية وتنازع هذه المرجعيات الرأي، أم بسبب الجذر الطائفي الذي يرافق إعادة بناء نظم الحكم في العراق عادة؟

لكنِ ألا تكمل سلسلة التساؤلات هذه بعضها البعض لتشكل أصفاداً جديدة ونيوراً مبتكرة أمام انطلاق بلاد أريد لها أن تتحرر من كل ما يمكن أن يجعلها أسيرة الماضي، لا أن ينعتق أبناؤها كالرقيق ليكون عليهم تسديد الثمن في مكان آخر من التاريخ.

إنها أزمة أرادت أن تجعلِ كل شيءٍ، ما عداها، يبدو عابراً حتى وإنْ حملَ في تجاويفه مؤشراً خطيراً، أو كأنّ ما عداها من مخاطر ونُذر، وفي كلِّ الأحوال، هي مجرَّدُ مؤشر نوعي من داخل الأزمة بمسارها وأسبابها التي أشرنا إليه.

التفجيرات المركبة، بثلاثة أجساد مفخخة، التي طالت مسجد «براثا" ببغداد بعد صلاة الجمعة في السابع من نيسان / أبريل 2006، مرت مثل غيرها من التفجيرات وتفخيخات البشر للبشر، على الرغم من العدد الكبير الذي خلفه من قتلى وجرحى وصل إلى حدود المائتين وخمسين شخصاً بين قتيل وجريح.

الأعداد نفسها لم تعد ذات تأثيـــر نفسي بيـــن العراقيين أنفسهم وهم يـــراقبون الأرقام تتصاعد باضطراد، ولا حتى لغيـــر العراقيين، ممن أصبحت حكايات الدم العراقي، والعنف الذي يـــشهده البلـــد الذي أعياهم أمر التواصل مع تلك فجائعه وقد أضحت معتـــادة إلى درجة عدم المبالاة أحياناً.

مع هذا فأخبار تفجيـــرات المساجد تأتي هذه الأيام مـــن كـــل مكان، من مسجد في كراتشي بباكستان، من عمق آســـيا المـلـــيء بالفتن الراكدة هو أيضاً، تأتي لتقول لنا كيف علينا أن نحتفل بعيـــد المولد النبوي، بالأضاحي البشرية التي قامت كل ديانات الله، علـــى فكرة الافتداء بالكبش هُدْي الآلهة، ليبقى ابن البشرية يعمـــر الأرض وينشر السلام فيها.

أخبار أخرى ذات نكهة نووية، تأتي من مسجد أيضاً في أقـــصى شرق إيـــران، فلعلها ليست مصادفة أن يعلن أحمدي نجـــاد بدايـــة عصر العهد الإيـــراني الجديد، لا بشاهنامة جديدة، بل بتقنية نووية من « مشهد " حيث مرقد الإمام المنفي علي بن موسى الرضا[1].

ومنذ تفجيـــرات سامراء وتفجيـــر القبة المذهبة لضريح الإمـــام علي الهادي، راحت فكرة المسجد / الثكنة تتضح أكثر فأكثر، لكنَّ

(1) إضافة إلى أن الإعلان الرسمي بأن إيران أصبحت دولة نووية في الحادي عشر من نيسان أبريل 2006 قد جاء في احتفال أقيم في مدينة مشهد الواقعة شمال شـــرقي إيران لا في العاصمة طهران، وفي مناسبة ذكرى المولد النبوي، فإن اول عينة مـــن اليورانيوم المخصب أودعت، في الروضة الرضوية في مشهد، التي تضم رفات الإمام الثامن: علي بن موسى الرضا.

المسجد ليس ثكنة «للجهاد النووي" هذه المرة، بل ثكنة للفتن المدججة بالإرث الأسود.

مسجد « براثا" نفسه لم يعد التدقيق في أهميته المتلفعة تحت ركام التاريخ، وستراتيجيته المعنوية كهدف، أو في طبيعته الخاصة، لم يعد مما يشغل المحللين أو سواهم، بعد أن جرى استهداف جميع المساجد المعروفة في العراق تقريبا.

بيد أن الأمر هنا يتعلق بذلك السؤال الذي أضحى محل خلاف في العراق وخارجه، أكثر من غيره، بل أكثر من استمرار معضلة تشكل الحكومة التي مضت أشهر أربعة، موسم كامل، وهي تتلكأ في إيجاد مخرج لها بعدما أمضت في ردهة الأزمات وقتاً لم يعد معقولاً بعد ذلك.

وسط هذا كله يبقى السؤال الذي لا جوابَ واضحاً له حتى الآن: هل ثمة حرب أهلية في العراق أم لا؟

غموض الإجابة هنا يكمن في كون المتصدين لها يخضعونها للتحليلات أكثر من ارتباطها بواقع الحال، ويسحبونها نحو طبيعة التفسير الاصطلاحي ومقارنة تجارب الأمم في حروبها الأهلية، أكثر من سحبها على الأرض التي باتت تدور عليها حقاً، ذلك أن يوميات الدم العراقي تقول لنا ببساطة أن أعداد من يقتل في العراق يومياً، يفوق في بعض من جائحات العنف، أعداد من يقتلون في أية حرب أخرى. إذن ما أهمية نعت ما يجري في العراق بعد ذلك بكونه حرباً أهلية، أم إقليمية، أم معارك مقاومة أو إرهاب، أم استكمال لاحتلال لا يبدو أنه أنجز أهدافه؟ هذه الأعداد لا نعرف أنها تموت إلا

في الحروب والكوارث والأوبئة القديمة على اختلاف تسمياتها فلأي من أسباب الموت تنتمي جثث الضحايا التي نراها كل يوم، أو لا نـــرى في الواقع سوى أشلائها وبقع الدم وبقايا الحاجيات الشخصية للـــضحايا والتي سرعان ما تتحول وببضع دقائق لا أكثر، إلى أسمال مـــن حيـــاة قديمة، متاحة لكاميـــرات التصويـــر العاجلة عبـــر الفضاء.

ومنذ تفجيـــرات مرقد العسكريين في سامراء، نَحَـــتْ بـــوادر «الحرب" منحى آخر، ليس بتلك الأعداد التي يجري التستر عليهـــا، ومن ثم إعلانها عندما يتصل الأمر بالتباري بالجثث، واستعارة حشود الأضاحي، وتوظيفها في البازار السياسي، ولا في حـــرب البيانـــات السياسية من هنا وهناك، ودعوات التهدئة التي لا تخلو مـــن نفـــاق متبادل، بل في هذا التجييش المضمر، بيـــن ألأطراف التي تدعي تمثيل طرفي النـــزاع الواضحين حتى الآن في العراق: إســـلاميي الـــشيعة وإسلاميي السنة.

خلال ساعات تتوالى الأخبار حتى تبدو لسامعيها كأنها متكـــررة غيـــر أن معظمها في الواقع مختلف وجديد..:

انفجار قرب مسجد الأمام علي في النجف وعشرات الـــضحايا والجرحى.

انفجار قرب مرقد أولاد مسلم في المسيب على طريق الحلة[1].

---

(1) أولاد مسلم بن عقيل بن أبي طالب، ابن عم الحسين. أطفال فروا مـــن خيـــام الحسين بعد مقتله في معركة كربلاء، وترتبط بقصة مقتلهم « حكايـــة مأســـاوية» تروى كاستكمال لقصة مقتل الحسين وآل بيته واصحابه في كربلاء، ويقول بعض المؤرخين إنهم دفنوا في منطقة المسيب القريبة من محافظة بابل.

أئمة مساجد سنية يقتلون بتهمة التكفير والتحريض على العنف الطائفي.

جامع الإمام أبو حنيفة ومساجد أخرى للسنة يجري قصفها بالهاونات وليس تفجيراً بتفخيخ الأجساد، ربما للتمييز بين مديين مختلفين لثقافتين في حرب المراقد والمقامات.

قتل على الاسم وهو ليس هوية طائفية بالضرورة.

وسط هذه الدراما الدموية يستمر مسلسل الاختطاف والعثور اليومي، الذي صار يقترب من التعثر بجثث الضحايا، الصورة التي وظفها صدام سياسياً في جلسة محاكمته.

ثقافة التطهير الطائفي، وتهجير العوائل القائمة على الجانبين صارت تتركز بشكل خاص في محيط العاصمة في النهروان والمدائن وسامراء وبعقوبة، بعد أن كادت تكتمل في المحافظات خاصة في البصرة والأنبار والموصل.

من أين لهؤلاء البطارقة غير المقدسين الذين يتحدثون عن كون العراق لا يزال بعيداً عن الحرب الأهلية، من أين لهم هذا اليقين لكي يرددوه بنوع من التباهي؟ ربما هم لا يدركون وقد أضحوا داخل المسافة الجهنمية الخبيثة للعبة بل ولعلهم من الخائضين فيها، إن البلد واقع في براثن تلك الحرب فعلاً، وما ينبغي عليه هو التخلص منها ومنهم معاً، وإلا فإن حرباً أهلية ستندلع بشكل آخر عندما تصبح مشروع منطقة ولا تعود مجرد أزمة داخلية، إنها الفتن التي راحت تبحث عن تنفيس احتقانها المستور بالبحث عن مجال حيوي قد يجعل منها فتنة طائفية – قومية أو حتى متعددة الجنسيات.

لهذا فإن عملية تفجيـــر مسجد «بـــراثا" ستحيلنا بشكل تلقائي، إلى التاريخ، في محاولة للإجابة على تساؤل مشروع لكنَّهُ مقلق حقاً يتعلق بغموض فكرة الثقافة الطائفية في العراق وتعقيداها، وما قـــد ينتج عن تلك الثقافة من ممارسات وعقائد عنف، وتطـــرف شـــعبي يذهب بالتاريخ بعيداً نحو جغرافيا قديمة.

ذلك أن «بـــراثا" كما يتضح من الاسم نفسه مكان لا ينتمي في مبتدأه التاريخي للثقافة العربية ولا للثقافة الإسلامية، فكيف يمكن أن يكون بؤرة في معركة بيـــن الثقافات المتنوعة في بلد واحد تعاقبـــت على أرضه الحضارات والديانات والعقائد؟

في الفكر الشيعي تكتسب بـــراثا، المدينة والمسجد،بعداً يقربها من الأساطيـــر، ويذهب بها نحو قداسة مركبة مـــن تعـــدد الـــديانات وتلاقيها في سياق شخصية الإمام علي بن أبي طالب.

على أن بـــراثا ترتبط بظهور الفـــتن الأولى في الإســـلام، فقـــد دخلت في الثقافة الإسلامية في ذات الوقت الذي خرجت فيه فئة من المسلمين على حكم الإمام وعلى كل حكم من بعده فكان الخوارج، وكان أول رفع فعلي للسيف في وجه الخلافة، ذلك أن الأحاديـــث المتواترة تؤكد أن «بـــراثا" كانت صومعة في الجانب الغربي من نهر دجلة عندما مر بها الإمام بجيشه بعد الفراغ من قتـــال الخـــوارج في معركة النهروان، وترتبط تلك الحادثة بحديث (رد الشمس) لـــدى الشيعة عندما حل عصر ذلك اليوم بـــأرض بابـــل «ذات الخـــسف المتكرر".

لكن «بـــراثا" أبعد من مجرد كونها رمزاً شيعياً يسعى إلى استعادة هيبته في الحاضر، أو مسجداً إسلامياً يـــرتبط بعهد الخلافة الراشدة، أو ديـــر مسيحي يشيـــر إلى ما قبل الإسلام، أو مزار يهودي قبـــل هذا أو ذاك، بل هي أبعد كذلك، من بغداد العباسية نفسها لـــيس بقرن من الزمن عندما نـــزلها الإمام بجنده، بل بقرون عندما غمرتها مياه دجلة، ربما مرات ومرات، وتحولت إلى خرائـــب لحـــضارات وسلالات تارات وتارات.

وهذا ما يؤكد أن بغداد هي في الواقـــع «بغـــدادات" متعـــددة، إحداها ما نعرفه بوضوح معقول عن بغداد المنـــصور، تمامـــاً مثـــل طروادة التي انشغل عالم الآثار الألماني «هنريش شليمان" بالبحـــث عنها طيلة حياته بعد أن سكنته كيانياً وسحرته حـــتى خرائبـــها في الإلياذة التي كان يحفظها باليونانية القديمة ويعمد أولاده بمائة بيـــت منها بدلاً من الإنجيل.

شليمان الذي حفر في الأرض تسع «طروادات" من أجل الوصول إلى «طروادة بـــريام" ويكتشف قطعاً نحاسية من كنوز المدينة المحترقة كان يقارن ما تبقى من أحجارها ونحاســـها بـــسطور مـــا كتبـــه هوميـــروس في الإلياذة[1].

---

(1) هنريش شليمان أحد أهم علماء الآثار في القرن التاسع عشر ذهب عام 1870 إلى شمال غرب أسيا الصغرى للبحث عن بقايا طروادة وبعد عام من البحث المضني عثـــر على قطع من الذهب والفضة تشير إلى المدينة المفقودة رغم تشكيك علماء الآثـــار في عصره، ولم تبق المشكلة القائمة بعدئذ هل كانت هناك طروادة أو لم تكن، بل أصبحت محصورة في أي الطروادات التسع التي كشفت هي التي تطلق عليها الإلياذة اسم إليوس. (ول ديورانت – قصة الحضارة/ حياة اليونان/ حضارة بحر إيجه.

«بـــراثا" بهذا المعنى هي طبقة من طبقات تلك المدن المطورة التي تنطوي عليها بغداد الحالية إذ أن التسمية ليست عربية كمـــا هـــو واضح، فلا المعاجم اللغوية ولا معاجم الأمكنة تـــستطيع أن تغيـــب الأثر السامي الشرقي في المفردة التي تؤكد المصادر الكلدانيـــة أنهـــا معدلة عن (بـــريثا) في السريانية، وتعني بـــريثا الوليد (ابن أو بنت) وتعرف بـــراثا بأنها (ابن الأعاجيب)[1]

لكن أعاجيب «بـــراثا" كثيـــرةٌ يستيقظُ جزءٌ منـــها في قـــصَّة الإمام علي مع الراهب الذي رأى الإمام يصلي بمائة ألف رجل مـــن المقاتلين فسأله عما إذا كان نبياً ليصلي بكلِّ هذا الحشد من النـــاس، فقال له الإمام شارعاً بمناقشة ستنتهي بإعلان الراهب إسلامه: الـــنبي سيدي وقد مات، قال الراهب فأنت وصيُّ نبيٍّ.

من أعاجيب هذا المكان تعاقبُ الأنبياء عليه فقـــد صـــلى فيـــه إبـــراهيم، في طريق هجرته، وكذلك كلٌّ من النبيِّ دانيـــال والـــنبي حزقيال، عندما كانا أسيـــرين في السبيين البابليين الأوَّل والثاني على التوالي، أعاجيبُ «بـــراثا" تتحدَّثُ عن أكثر من سبعين نبياً ووصيَّ نبي صلوا في المكان، الذي لا تزالُ تمثُلُ فيه بعضٌ من شواخصه، من بيـــنها تلك البئر الذي انبثقتْ بعد أن أزاح الأمامُ الصخرةَ عنْهـــا، وكان قد سأل الراهب من أين تشرب فقال له من دجلة، لكنَّهُ دلـــه على تلك البئر التي عاش الراهب قربها سنوات ولم يعرفها، ولا تزال تعرف ببئر علي، وتجتذب الكثيـــر من الزوار طلباً لكرامات تتحدث عنها قصص عديدة.

---

(1) الموسوعة الكلدانية لجورج البنا.

قد تبدو هذه الأعاجيب محجوبةً اليوم أمام الأعاجيب الأخرى، التي تبدو أكثر ارتباطاً بالفتن الدائرة حول المراقد والأضرحة والمقامات في العهد الجديد للعراق، منها ما يروي جانباً منها ابن طاووس في (الملاحم والفتن) والنبوءات المقدسة عما يحل بالمنطقة بفعل فتنة براثا.

ثم لندقق وإن بشكل عابر في الروايات التاريخية عن الفتن التي عصفت ببغداد، على خلفية الصراع الطبقي، لنرى أثر فكر القرون الوسطى الحي بيننا اليوم وكأنه ابن ساعاته وجزء أساسي في البنية اللا واعية التي تتحكم بثقافتنا في عالم اليوم.

تخبرنا تلك المصادر أن المسجد خرب مرات وهدم عن آخره في حمى العنف الدموي بين حنابلة بغداد وشيعتها، خاصة على خلفية أقامة شعائر عاشوراء بغداد انطلاقاً من ذلك المسجد.

تفاعل الأديان والحضارات في (براثا) لم يمنع أن يكون هذا المكان نفسه، محل صراع للأديان ومدار تنازع داخلي في التعصب الطائفي خاصة خلال الفترة العباسية منتصف القرن الرابع الهجري تحديداً: حيث يذكر ابن كثير جانباً من هذا التنازع بقوله (ثم تسلطت أهل السنة (الحنابلة) على الروافض، فكبسوا مسجدهم، مسجد براثا الذي هو عش الروافض، وقتلوا بعض من كان فيه من القَوَمة)

ومع أن البويهين سمحوا «لبراثا" أن تتحول إلى مدرسة للفكر الشيعي، بعد ما يعرف بعصر الغيبة الكبرى، وكان أبرز منظريها الشيخ المفيد، إلا أن العنف الطائفي لم يتوقف، ولعل ما يورده ابن

كثيــر في البداية والنهاية عن أحداث سنة 367 ما يلخص الأزمــة الطائفية التي تماثل في انعكاساتها الــسلبية الطوفانــات والكــوارث والحرائق، يقول ابن كثيــر في ذلك: «وزلزلت بغداد مراراً في هذه السنة وزادت دجلة زيادة كبيــرة غرق بسببها خلق كثيــر وقيــل لعضد الدولة: إنّ أهل بغداد قد قلّوا كثيــراً بسبب الطاعون، ومــا وقع بيــنهم من الفتن بسبب " الشيعة والسنة«، وأصــابهم حريــق وغرق، فقال: إنّما يهيّج الشرّ بيـــن النــاس هــؤلاء القــصاص والوعّاظ."

تحت تأثيــر هذه النعرات والجائحات تحول المكان المقدس مــن مأوى يلجأ إليه الزاهدون وسط بستان من نخيل، إلى مقابــر تحتضن الرفات، قطعت أشجار النخيل عبــر التاريخ لترتفع محلها شــواهد القبور.

ومع هذا لننظر من جانب آخر إلى حاضر مسجد «بــراثا" لكي تكتمل الصورة على الجانبيــن، فهذا المسجد الذي يقــع في محــيط الكاظمية وتحديداً في منطقة العطيفية التي شهدت أوائل الثمانينــات جانباً من موجات التهجيــر أو ما عرف «بالتسفيــر" للعراقيين من ذوي التبعية الإيــرانية، ظل منذ ذلــك التــاريخ في عهــدة وزارة الأوقاف، مسجداً صغيــر الشأن، لا يتناسب مع أعاجيبه المرويــة والمتخيلة والتي بقيت مترسخة في المكبوت، حتى فتــرة الاحــتلال الأميــركي، عندما جرت أعادة توزيع إرث وزارة الأوقاف العراقية على أساس طائفي في عهد بــريمر، بالفصل المذهبي بيــنها، لم يكن ذلك الإجراء مما يحقق الحقوق المدنية في ممارسة الشعائر بل بما يكرس الانقسام المذهبي ويؤدي بالنتيجة إلى هوة طائفية تقوم على التثقيــف

المختلف لا على الثقافة المؤتلفة، عندها خضع هذا المسجد كبقية المساجد إلى معادلة المحاصصة ليس الطائفية فحسب، بل التوافق الداخلي بين التيارات ذات اللون الطائفي الواحد، فبينما جرى التوافق على تقاسم إمامة الجمعة في مسجدي الكوفة والنجف بين التيار الصدري والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق على التوالي، كان مسجد «براثا" من حصة رجال الدين المحسوبين على المجلس الأعلى للثورة الإسلامية، وتولى إمامة الجمعة فيه الشيخ جلال الدين الصغير عضو المجلس الذي كان والده إماماً للمسجد نفسه في الخمسينات، غير أن الإمامة في عصر السياسي الفقيه، لم تتوقف عند حدود الوعظ الديني، حركات الإسلام السياسي لا ترى في المنابر إلا مصادر تثقيف « رسالي " ومناهج تبليغ ودعوة« وتعبئة لمشروعها، كما أن مشروع تنمية المسجد قدم على أي مشروع آخر، لكأن الناس باستطاعتهم أن يجدوا فيه ما لا يجدونه في بيوتهم، ولا في الجامعات أو في المنتديات، المكتبة أو المقبرة، وهي الأشياء المعروفة في المساجد كحدَّي حياة وممات تقليدية في رحلة الإنسان المتدين، ليست وحدها ما يتضمنه المكان، كان ثمة إذاعة أطلقت من المسجد بدأت تبث باسم إذاعة السادة، قبل أن تتحول إلى وكالة أنباء تبثُّ الأخبار باسم "وكالة أنباء براثا« كما بدأت الأعمال لزيادة سعة المسجد ليصل إلى أكثر من عشرة آلاف مصلي، وارتبطت به مجموعة من المؤسسات التعليمية والمعاهد والمنتديات الاجتماعية ومراكز تثقيف.

لقد جرت أعادة الحياة للمسجد بوصفه مكاناً، قبل أن يعاد تأهيل الإنسان من حوله وقبل أن يجري نـــزع الظلال الطائفية العميقة من ثقافته، بوصف الإنسان هو المبدع لذلك المكان.

ربما لهذا التنافس المذهبي ذي الجذور التي لا تخمـــد، وفي حمـــى الصراع السياسي المشحون بالطائفية المقيتة جرت محـــاولات عـــدة سابقة لاستهداف المسجد وتفجيـــره كان آخرها محاولة أحبطـــت قبل شهر واحد.

إذن، ما يجري اليوم وما تقدم من رصد لعنف الحاضر سيُفهم منه بوضوح أن الفكرَ الطائفيَّ في العراق، متجذرٌ تاريخياً، وأن فتَنـــهُ لا تنامُ إلا لتقومَ بهمَّة أمضى ودورة أعنف، ليس صـــدام أو الاحـــتلال الأميـــركي أو الطبقة السياسيةً الحالية، سوى مستثمرين لها، إيقاظاً ومداعبة وتهييجاً، المجتمع الذي لم يتخلصْ من العبء الثقيل والإرث الأسود لتاريخ الفتن يعيدُ صياغةَ الماضي كنوع من النشاط الخفـــي والتكرار اللا واعي لاشتراطات الصراع في بغداد القديمة بدل أن تعيدَ المدينةُ الحالية صياغةَ الحياة من راهنها لا من تاريخها.

فجانب الكرخ اليوم يشهد معركة بغداد الكبـــرى الجديدة، التي كثرت معاركها وتعددت أشكالها وشعارات التلويح بها سواء خلال غزو القوات الأميـــركية للعراق، وهو ما لم يحدث، أو في انتخابات 2005 بكانونيها الثاني والأول على التوالي، معارك بغداد الجديـــدة هي معارك طائفية بامتياز، وليس من المناسب حجب الشمس بغربال بعد ذلك.

المدينة المقسومة على ضفتي النهر يـراد لها أن تكـون رصـافة "الشيعة« وكرخ "السنة« على الرغم من أن التاريخَ نفسَهُ لم يتحصلْ على مثل هذا التقسيم، لكنْ في عصر الطوائف " المثقفة« ليس مـن المهم الوجودُ التاريخيُّ لضريح إمام هؤلاءِ في ضفة أولئك، وبالعكس، وليس مهماً وجودُ مئات الآلاف من هؤلاء مختلَطين بأولئك علـى الضفتين، أو متصاهرين في الضفة الواحدة، أو ملتبسين بالتسميات في المنـزل الواحد، التهجيـر بقصد التغييـر الديموغرافي قائم على كل الأقدام والسيقان، والتطهيـر الطائفي بشراً وأضرحة وتقاليد من هنا إلى هناك وبالعكس، طريقة نموذجية لخلق واقع جيـو- سياسـي - طائفي، يهيئ، على الأقل، لفيدراليات أقرّها الدستور، وبعد ذلـك ليتسنَّن من لا يـريد التهجيـر أو ليتشيع في واحدة مـن ضـفتي دجلة، أو ليغيـر إمامه التاريخي، ويبدل اسمه في العائلة الواحدة.

وإذ كان ثمة من يـرى أن التهجيـر الطائفي نفسه لن يـشكل علامة على وجود الحرب الأهلية، فإنه لن يستطيع أن يتجاهل علـى الأقل، كون هذه التهجيـرات المتبادلة هي نتيجة لعنف متبادل، قد يكون المقدمة الأوضح لحرب لم يعد مهماً نعتها بنعوت ما.

المسافة بيـن الحرية والفوضى، التطلـع إلى الإمـام أو الرحلـة المعكوسة نحو الماضي، الثقافة التي تدور على نفسها في ظلام القرون، ذلك هو الوجه الأبـرز الذي تجلى لطبيعتنا الـتي لم يـتح لهـا أن تتشكل حقاً خارج طبائع الاستبداد.

فبعد بضعة أشهر فقط من الاحتلال الأميـركي لبغـداد، كـادت الفتنة في جانب الكرخ أن تشتعل مبكراً عندما جرى إطلاق اسـم "أبن تيمية« على جامع "أم الطبول« في جانب الكرخ، لكن العقيدة

الأساسية "لشيخ الإسلام« في عدد من مؤلفاته الكثيـــرة ســـواء في منهاج السنة أو في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المـــسيح) أو في (الصارم المسلول) تقوم أساساً لا على تكفيـــر الآخر " من الأغيار« والتحريض على قتله فحسب، وإنما تقدم عليـــه شـــريك العقيـــدة التوحيدية، الأمر الذي تداركه أهل السنَّة في العراق، وهـــم الـــذين يتبعون المذهبيـــن الشافعي والحنفي، وليس الحنبلي الذي يتبعه ابـــن تيمية فعدلوا التسمية إلى جامع "أم القرى« مقر هيئة علماء المسلمين اليوم.

خارج هذه التسميات كلها، فإن الفتنة الدائرة في محيط الكرخ ما بيـــن "بـــراثا« ابنة الأعاجيب أو بنتها، و"أم الطبـــول« أو "أبـــن تيمية« أو "أم القرى« تبقى مجهولة الأب، أو لعلها أعجوبة غامضة لا أب لها ولا أم...

فقط أبناء وبنات يضرسون.

الملاحم المعقولة في أخبار بغداد المجهولة.

وقف الشاعر العباسي علي بن الجهم في القرن التاسع الميلادي - الثالث الهجري، على جسر بغداد، ليتغزل بامرأة عابـرة ويجعل من بيته واحدة من العلامات الأثيـرة لبغداد حقاً، لكن بيت علي بـن الجهم كان في الواقع مرثية مُضمرة لبغداد، ذلك أنّ العاصمة البديلة (سامراء) بدأت تسلب بغداد ما تبقي من سحرها.. ومع أن ظـاهر البيت استهلال غزلي تقليدي، إلا أنّ القصيدة تتجه بغرضها الأساسي نحو مدح المتوكل، أوّل خليفة تبدأ خلافته في سامراء، وأول خليفـة يبدأ في عهده تحول الدولة نحو تبني الثقافة الطائفية، بعد أن ظلّ الأمر حتى ذلك العهد مذهباً فقهياً أو اتجاهاً سياسياً يقوم على نوع مـن الصراع السياسي بيـن نخب بعينها، ولا يصل إلى حـدّ التنابـز والقمع المبـرمج وإنكار الآخر، وشيوع الفتن بيـن الجماعات كما حدث في عهد المتوكل.

عيـون المهـا بيـن الرصـافة والجـسر
جلبن الهـوى مـن حيـث أدري ولا أدري

لكنّ مُجتلباً غيـر الهوى، وعيوناً غيـر عيون النساء المحجبات، راحت تعبـر جسر دجلة، لتنسج الفتن من كرخ بغداد إلى سامراء.

بعده بأحد عشر قرناً وقف بدر شاكر السيَّاب القادم من البصرة، على الجسر الذي تغيـــرت أسماؤه مرات عدة، ليحـــرِّف شـــطراً في بيت ابنِ الجهم، تحريفاً يحمل في تأويله المزاجي كثافة من عنف الواقع معكوساً في مرآة الحداثة!:

عيون المها بيـــــن الرصـــافة والجـــسر
ثقوب رصاص رقشت صـــفحة البـــدر

ولأن السيَّاب عاش في سياق ثقافة تقوم على التـــصادم بيـــــن الإيديولوجيات، وعلى صراع حزبي فئوي كانت بغـــداد مـــسرحه الرحب خلال الخمسينات والستينات، فقد تحولت الجسور وقتـــها على الرغم من أنها مجرد ممرات ضيقة على دجلة، إلى ساحة تاريخيـــة للكثيـــر من الوقائع لثقوب رصاص، أكثر من كونها مكاناً للتغـــزل بعيون العابـــرات فوقها.

هل هي المسافة بيـــن الغزل العربي التقليـــدي، وبيـــــن صـــور السياب ذات المأساوية المبتكرة؟ أم هي جذور الثقافة الطائفية الـــتي تبدو وكأنها البنية المضمرة والمحركة للحياة السياسية، أم تراه تـــاريخ من العنف مرَّ على بغداد منذ القرن الثالث الهجري فجعل من شطر بيت شعري ومن الشعر كله يتقلب في أنهار من الإرث الثقيل ومـــا حملته المياه من ذكريات للعنف السياسي والعنف الطائفي معاً؟

صورة بغداد اليوم، تبدو متشظية حقاً ليس فقط ما بيـــن الرصافة والجسر، وإنما بمحيطها الذي فشلت كلُّ الجسور وعبـــر قرون عدة،

في صياغة صورة متصلة للعاصمة يعتصم بها مجتمع مدني أو على الأقل أهلي، لا جماعات متشظية في استعارات شتى.

ووسط هذا التشظي لصورة بغداد أصبحت أسطورة خرابها التي يجري تحديثها من مرجعياتها القديمة المرتبطة بالغزو الخارجي المتتابع على "سرَّة الدنيا« وبتعاقب الأمم والإمبراطوريات البعيدة وحتى الممالك المجاورة، طاغية على مشهد لخراب آخر، أعني خراب بغداد الداخلي: خرابها بيد أهلها: ساكنيها والوافدين إليها، هذا المشهد لم يجرِ تصويره في التحليل الكلي لتاريخ المدينة، رغم كمونه في تفاصيل ذلك التاريخ بوصفه خلاصةً لمحنة البلاد.

صحيح أن موجات الغزو من الفداحة ما يجعلها شاهداً على ما عانته بغداد عبر تاريخها، لكن الشواهد المطمورة من الخراب أو قل التخريب الذاتي، ينبغي الكشفُ عنها، أقله في هذه المرحلة التي تجمع فيها المدينة أسطورة خرابها من طرفيها الداخلي والخارجي.

مساجد وكنائس وأديرة تخرَّب، وحمامات تتحول إلى اسطبلات وثكنات، ومدارس تهدم، وقيساريات تنهب وتهجر، ومكتبات تحرق، هكذا ظلَّ مشهد هذا التخريب الداخلي محجوباً خلف صورة نمطية مهوَّلة لذلك الخراب الذي أحدثته موجات الغزو.

لن نحتاج إلى العودة نحو بيزنطة لحسم الجدل في تنسيب كل من الخرابين، أو مقاربتهما لتفسير الأمر. ما لاشك فيه أن " فتن بغداد« عبر التاريخ ترسخ قناعة أكيدة بأن ما يجري اليوم في المدينة ليس بدعة في عصر الطوائف، وإنما هو جزء من استجابة لتلك النزعات الهائجة، تلك "الرسالة الخالدة« التي احتقنت طويلاً

وأسهم الاستبداد في ضغطها نحو الأعمـــاق، وفـــشلت الأحـــزاب والحركات السياسية عبـــر أكثر من سبعة عقود في تنفيس قهرهـــا الداخلي وتسريب خلودها نحو رسائل أخرى، لتنفجر اليـــوم بهـــذه الفداحة التي لا تترك أحداً بمقدوره متابعة مونديال الموت الـــذي لا ينتهي، فلا يجد أمامه سوى الذهول والعجز عن التفسيـــر.

إذ كيف يمكن تفسيـــر أن سنة أولى منذ سقوط الاستبداد، وقيام الاحتلال، لم تكن كافية لإيقاظ تلك الفتن؟

كيف يمكن تفسيـــر سنة ثانية من التصنيفات السياسية، والفـــرز الاجتماعي، والمحاصصة الطائفية، لم تكن كافية هي الأخرى لإعلان موسم "الحرب الطائفية« العنوان الأبـــرز لسنة العراق الثالثـــة مـــن الاحتلال وما بعدها؟

أيضاً كيف يمكن تفسيـــر أن مروحة العنف بـــدأت دورهـــا في محيط كبيـــر وغيـــر محدد واتخذت صيغاً عدَّة قبل أن تتركز في هذه البؤرة الخطيـــرة، وكأنها مجالها الحيوي الذي ظلت تتخبط في تخـــوم أخرى بحثاً عنه؟

فمنذ التفجيـــرات المتنقلة، مروراً بعمليات اغتيال المـــشاركين في العملية السياسية، فتفجيـــر الأسواق والمطاعم والفنادق، ثم محـــلات بيع الخمور ومحلات الحلاقين وأكشاك مروجي الأفـــلام الإباحيـــة، وتفخيخ المساجد، عبـــر خلط المدينة بديناميت متعددة الأغـــراض، يجري تدميـــر كل ما يمتُّ للعاصمة التي تحاول أن تستعيد نفـــسها بصلة مع صورها التي لم تعد متاحة.

واقع الأمر يقول أن بغداد اليوم ليست عاصمة على ضفتي جسر وحيد كما قامت عند منتصف القرن الثامن الميلادي، إنها "عواصم« أمامية لجبهة حرب بين دويلات عدة، تصعد براياتها نحو بغداد، أو تنزل نحوها، وهي تعرف إن الجسور الكثيرة التي تعبر عليها، من هذا الجانب نحو ذاك وبالعكس، هي التي ستحدد شكل تلك الدويلات في أمكنتها هنا وهناك، وليس بالنظر نحو "تجربة« كردستان الحالية في العراق، ولا حتى نحو "معضلة« كركوك أو الموصل، ولا "الإقليمية القلقة« في البصرة أو الناصرية أو العمارة، ليس في الصفقات السياسية بين الأكراد والشيعة والسنة، فكل هذه الأمكنة وما تضم من خلائط أو معادن بشرية، ما هي في الواقع سوى صور هشة لكتل اجتماعية قابلة للتنافر الداخلي، والانشطار المستمر في صياغات متعددة، بما في ذلك الأكراد الذين يبدون من الخارج وكأنهم محصّنون في هوية ما.

لم يعد السؤال هل بدأت الحرب الطائفية في العراق؟ بل ذهب نحو المستوى والصيغة اللذين ستأخذهما تلك الحرب، فنحن نتحدث عن حرب أهلية لا عن حرب إقليمية تقليدية.

وإذا سلمنا إن الحكومة أضعف من الجميع، من الاحتلال نفسه ومن دول الجوار ومن المقاومة، ومن جميع الفئات المسلحة حتى تلك الثاوية داخل بنية المؤسسات الأمنية للدولة نفسها، فإن سؤالاً عن مخاطر مثل تلك الحرب صار في الخلف تماماً والبلد يمر في أتونها منذ سنة على أقلّ تقدير.

لم يعد السؤال متعلقاً حتى بهذا الجوّ الـديمقراطي في كردستان النائية عن أصوات الحرب، بل يتعلق بمتى تجد الحركات الكردية نفسها في الأتون ذاته؟

إياد علاوي رئيس وزراء الحكومة الانتقالية نفسه كان قد أعلن أنّ العراق يعيش بالفعل حرباً أهلية[1]، ولم تكن انتخابات كانون الأول / ديسمبر 2005 وحدها ما جعل الأمر حقيقياً، ليس في ذهن علاوي الذي خسر تلك الإنتخابات فحسب، بل وحتى لدى أولئك الرابحين فيها.

ليس مثل هذه الأسئلة مما يدعو للفرح ولا التشاؤم، فالأمر يتعلق بسيناريو تتلاحق فصوله ومهما اجتهدنا في التخفيف من تراجيدياه سيبقى قابلاً للتصعيد نحو ذرى جديدة.

لا تبدأ الحروب الأهلية عادة، ولن تستمرَّ كذلك، بإرادة الأهالي أنفسهم، إن طقوس العنف التي ترافق الحروب الإقليمية تتفاعل تأثيراتها عادة بعد انهيار الدولة أو الانتقال من نظام حكم إلى آخر، ولهذا تولّدت هذه الهزة العنيفة في بنى المجتمع العراقي الهش أصلاً بفعل دولة الاستبداد المعمرة طويلاً، وجاء المفهوم المتخلخل لشكل نظام الحكم في العراق حتى الآن ليسرِّع من الذهاب نحو حرب

(1) جاء هذا الإعلان في تصريح لإذاعة «البي بي سي» في التاسع عشر من آذار / مارس 2006 . حيث أكد أن العراق يفقد يومياً ما بين 50 – 60 مواطناً، وإذا لم تكن تلك حرباً أهلية فإن الله وحده يعرف ما هي الحرب الأهلية، فيما حاول المسؤولون في الإدارة الأميركية والبنتاغون، التخفيف من وقع هذا التصريح بتصريحات تشدد على إن العراق ما زال على مسافة من تلك الحرب.

أهلية، فبيـــن ربيع الديمقراطية "الملهمة« التي حلمت بها إدارة بوش، أو فكرة "الديمقراطية الإسلامية« وفق تنظيـــرات نـــوح فيـــدلمان، ونموذج ولاية الفقيه التي تقوم على دولة المستـــضعفين الحاكمـــة في الأصل العقائدي للأحزاب الإسلامية الشيعية، والعروبة المـــشروخة بنماذجها الاستبدادية، ثمة إرادات تتقاطع ولا تتفاعـــل، ولا يمكـــن الوصول إلى مقاربتها في دولة التراضي.

وطالما إنّ العراق جبهة عالمية للحرب ضد الإرهـــاب بـــزعم الرئيس بوش، وهي ساحة جهاد أساسية بالنسبة " للمجاهدين« من شتى بقاع الأرض، وطالما إنّ الصراع الإقليمي غيـــر المعـــزول عن موازنات القوى المحلية يعمل بجد داخل المجتمع بطوائفه وقومياته المتعددة، فإن الأمر لا يمكن اختزاله باختبار تعريف الحرب الأهلية في تجارب الأمم والشعوب الأخرى، وإنما يتصل بطبيعة اللحظة الراهنة لعالم مفتوح على صراعات تتمدد في خلق نموذجها، ولا تتحـــدد في نموذج معهود.

أيضاً لا يتعلق الأمر بالتسمية في النعوت والمفاهيم: عنف طائفي أم صراع أثني، أم حرب أهلية تجمعُ كلّ هذه التسميات ولا تجتمـــع في صيغة واحدة، وإنما المتاح هو سؤالٌ واقعيٌّ وملحٌّ على الجميع: هل يبقى الاحتلال لحماية البلاد من حرب أهلية وقعت في وجوده أصلاً؟ هل يندفع في هذا السيناريو الواقع نحو حماية طرف مقابـــل طـــرف آخر، أم يغذي طرفاً ضد طرف، أم يخضع الطـــرفين معـــاً لتلـــك الستراتيجية التي سماها بوش ستراتيجية النصر في العراق؟

كلما احتدمت جائحات العنف الطائفي في العراق، أو أخـــذت شكلاً يجعلها تندرج في سياق الحرب، سنلاحظ انحساراً للـــهجمات

على القوات الأميـركية، وأكثر من ذلك ستبدو تلـك القـوات وكأنها ضمانة بوجودها على إعادة الفتنة إلى رقادها المؤقت ريثما يتم بناء الدولة الكافلة " لحقوق الطوائف« الدولـة / العـشيـرة أو (مجلس العشائر والطوائف) التي تقوم على فك المنازعات وفق نواميس تقليدية وقوانين خاصة، تزيد من ضعفها وتجعل من دورها مجرد دور المحافظ على التوازنات، لا الممسكة بالميـزان كله، وما يـزن، مجمل العملية السياسية يؤكد هذا الواقع.

ففيما أفرزت انتخابات كانون الثاني / ينايـر 2005، اسـتئثاراً طائفياً شيعياً بمقاعد بغداد في ظل غياب سـني واضـح، جـاءت انتخابات كانون الأول / ديـسمبـر 2005، لتكـرس الانقـسام الطائفي لضفتي بغداد، سواء بما أثارته من اعتراضات من نتـائج في مناطق نفوذ مفترضة، أو بما تمخضت عنه في النهاية مـن بـروز الكيانين الطائفيين: قائمة الائتلاف الموحد الشيعي، وجبهة التوافـق السنية، في مقابل توصيف المتنافسين للقائمة الثالثة من حيث عـدد المقاعد في العاصمة (القائمة العراقية) ذات الإطار العلمـاني بأنها مسعى بعثي، لإقامة "جمهورية البعث الثالثة« رغم ضمها لمرشـحين عن الحزب الشيوعي ألد أعداء البعث في كـل حقـب الـصراع السياسي في العراق.

تقاسم قائمة الائتلاف وجبهة التوافق لأغلبيـة مقاعـد بغـداد يـرسخ ملامح الخطر أكثر من رسمه لصورة التعايش الهش بيـن الكيانين. بيـن هذا التنازع الطائفي في العملية السياسية، وتـداخل إدارة الاحتلال بخلق تجاذب سياسي، ووجود مقاومة مسلحة، تحتدم في بنية المجتمع الناصلة نوعاً ما عن التفاعل الحقيقـي مـع الطبقـة

السياسية، تأثيرات يومية خطيرة تشكل بغداد وضواحيها ساحتها الأرحب، فأمارة أبي مصعب الزرقاوي التي كان ينوي إعلانها في غضون العام 2006 قبل أن يقتل في أحد ضواحي تلك الإمارة ذات الحدود الغامضة، وشركات الاحتكار المستثمرة في مناطق الخطر، والميلشيات الملثمة بثياب الدولة، والمجتمع المدني المفقود باسمه ونعته، كلها بؤر نموذجية للتلاقح البغيض لتلك التأثيرات في هذه الحاضنة الكبرى : بغداد.

بيد أن إمارة الزرقاوي لن تنكسَّ راياتها بمقتله بل سترتفع مع انطوائها رايات أخرى تزيد المشهد اضطراباً، فلا يمكن للأمارة أن تؤول بسهولة إلى سلف محدد بين هذا الحشد من المبايعين المجتمعين من بقاع شتى على أرض الرافدين، والأمر لم يعد يتعلق بتنظيم القاعدة وحده، فهناك مجلس شورى المجاهدين، بفصائله المتعددة، التي اضطر الزرقاوي قبل مقتله لإخضاع إمارته لولاية تلك الشورى "القلقة« على مضض.

الفكرة الأساسية ولعلها الوحيدة التي ستعقد لواء البيعة للأمراء، هي إقامة الإسلام (الصافي) الذي يقوم أساساً على التطهير الطائفي الداخلي.

لا شك إن الزرقاوي حالة أخرى لا تتعلق بالمقاومة، وإنما بدفع الفوضى إلى أقصى ما يمكن من عنف لا تمييزي، وهذه الحالة المجاورة والمتداخلة بين فكرتي الاحتلال والمقاومة جعلت من المعادلة مشوهة الحدود، والراجح أنها ستستمر حتى بعد مقتل الزرقاوي ذلك أن هذه الحالة، هي عهد أو فصل في الحرب الأهلية،

وليست نهاية مرحلة كما يتفاعل البعض. إنها تماماً مثل إسقاط تمثال صدام أو اعتقاله أو محاكمته.

لقد قتل الزرقاوي أخيــراً، لكنه على ما يبـــدو أنجـــز مهمتـــه، وبإمكان الأمور السيئة أن تمضي بدونه.

وبالنظر إلى محيط بغداد يمكننا رسم معالم تقريبيـــة تفـــسر هـــذا الإيقاع غيـــر المنضبط لنمو شروط الحرب الأهلية والتباسها بالعنف الطائفي المستمكن، فبوجود الفلوجة في الغرب، وبعقوبة في الشرق، وسامراء في الشمال، والمدائن في الجنوب وفي أجزاء محيط هذه الدائرة باتجاه الفرات حيث مناطق اليوسفية حتى تضيق الدائرة عند خان بني سعد واليـــرموك والضلوعية وحتى في التجمعات السكانية المتداخلة ما بيـــن مجمل الرصافة ومجمل الكرخ ما بيـــن الكرادتين (كـــرادة مريم والكرادة الشرقية) نجد دائرة متموِّجة لا يمكن عزلها ولا تنظيفها طائفياً إلا بالعنف والتهجيـــر القسري، وهو ما يجعل مـــن خلـــق ديموغرافيا صافية، في جانبي بغداد، فكرة لا تمرُّ إلا عبـــــر حـــرب حقيقية، وليس في استمرار التصفيات علـــى الهويـــة، وفي إيقـــاع القصاص والثأر بهذا الجانب أو ذاك.

الرسائل التي يجدها المواطنون عند مداخل بيوتهم أو حـــتى تلـــك الملصقة على أبواب المنازل بـــ "فرمانات « أضحت مألوفة، للرحيل عن الحي بقصد تنظيفه من " الأغيار« وفكرة الأمن الذاتي التي تمارس في العديد من المناطق، ثم التبليغات المضادة المصحوبة بالتهديدات هي الأخرى بعدم ترك الحي تحت أية ظروف، كلها تبدو اســـتعدادات لتلك الحرب، بيد أن ظهور أسلحة الهاون والكاتيوشا في هجمـــات تشن على بعض المناطق في بغداد مؤخراً، يشيـــر إلى مرحلة ما بعد

السيارات المفخخة والعمليات الانتحارية اللا تمييــزية، ففي هــذه العمليات لم يكن من يستهدف الجموع يميــز بيــن الشيعي والسني حتى وهو ينفذها داخل حي يعرف بلون طائفي محــدد، "الهاونــات والكاتيوشا« تنقل العنف من حيــز الأفراد إلى مجال الجماعات.

إنها الجغرافيا البشرية المتخلخلة، وإعادة تمركــز الجماعــات في " غيتوات« جديدة تتطلب تدرجاً في دراما العنف التي لا يبدو أن ثمــة من يعمل على إبطائها حتى الآن، بعد ذلك لن نــستغرب مــشهداً يتدبــر عناصره من هذا الواقع في سيناريو تنمو تفاصيله بالتــدريج كذلك :

راية على الطرف الشرقي لجسر الأئمة وأخرى على الطرف الآخر منه، قناصون عبــر مآذن الأعظمية أو قباب الكاظمية في مشهد ربما يأخذ شكل القتل "المقدس« أو طقس الواجب الشرعي، والدفاع عن الطائفة كي تبدو هي "الناجية« الوحيدة حقاً!

مدافع هاون تستفيد من طرفي جسر الشهداء لرسم إحــداثياتها، مسلحون على طرفي الجسر بيــن الدورة وبغداد الجديدة، لا يتحرك الرصافيون نحو الكرخ ولا الكرخيون نحو الرصافة، إلا بإذونات محلية من أطراف في هذا الصوب أو ذاك، أو بباجات معينة تــشبه تلــك الباجات التي يجري التحرك بها في معظم مناطق بغداد الــتي تــضم الوزارات والمؤسسات الحساسة، ولا سيما المنطقة الخضراء.

مغاويــر الداخلية وقوات الحرس الوطني ضــمانتان احتياطيتــان لتنظيمات علنية قادرة على الدخول في الحرب في أي وقت، ولــيس

لمنع وقوعها! لقد أصبح بناء الوزارات على وفق المحاصصة الطائفية نوعاً من استعداد السلطة لتكون طرفاً في تلك الحرب!

مزراعون من ديالى والأنبار يُختطفون في بغداد، لمجرد أن لوحات سياراتهم تحمل رقماً مسجلاً في إحدى المدن السنية، وهم رهائن في مقابل إطلاق سراح أعضاء منتخب التايكواندو الشيعة الذين اختطفوا في المناطق السنية.

الكرادة المقسومة إلى كرادتين، بجسر معلق، تصبح كرادتين مقسومتين بشكل يحدد مناطق نفوذ السلطة ومناطق غياب ذلك النفوذ أو التحرك الحر لسرايا العنف : فكرادة مريم حيث المنطقة الخضراء، تنزل عليها قذائف الهاون بشكل عشوائي والكرادة الشرقية حيث أحد المراكز التجارية، ساحة لزرع العبوات الناسفة ولركن السيارات المفخخة أو اقتحامها للتجمعات البشرية.

في أكثر مناطق بغداد أمناً يجري اليوم تفتيش راكبي الباصات بما حملوه من أكياس وحاجيات، قبل صعودهم، إجراءات أمنية محلية أين منها إجراءات المطارات العالمية، تُتخذ على خطوط النقل الداخلية بين الأحياء السنية والشيعية على حد سواء، فكثيراً ما يترك شخص عابر أو مندسٌّ كيساً تحت المقعد لينفجر بين الركاب بعد نزوله بقليل.

المطاعم والمقاهي والدوائر الحكومية والمحلات التجارية، وحتى المنازل صارت مستودعات لعبوات مجهولة تنفجر في أية لحظة.

لم يعد الأمر متعلقاً بمثلث الموت،أو طريق الذبح بين بغداد والمحافظات المتاخمة للعاصمة، ضاقت الحلقة بما جعل بغداد نفسها أحياء للموت اليومي.

ليست بغداد بهذا المعنى، سوى حاضنة لتلك الموجات العنفية الواردة إليها من مصادر مجاورة وبعيدة أحياناً، إنها ساحة ووصف الساحة هنا لا يعني أن إمكاناتها ذاتية تماماً في إدامة العنف الطائفي، ما تشهده خاصرة بغداد وأطرافها من المحافظات المتاخمة يفسر شيئاً من فكرة الساحة، لن تكون محاصرتها من جميع الجهات ممكنة تماماً رغم أن المحيط الذي يبدو سنياً في الظاهر هو جهة واحدة فحسب، تسمح فقط بإدامة التماس بين بغداد الغربية من ناحية الكرخ وبغداد الشرقية من ناحية الرصافة. قد يشكل الشمال والغرب عمقاً للكرخ، فيما لن تستطيع بعقوبة وحدها أن تخلق مثل هذا التماس الحيوي مع الرصافة، ليس لأن إيران قريبة من هذا المحور فقط، بل لأن " بستان بغداد الشرقية« ديالى ستبدو بعيدة تماماً عن بغداد الغربية وعمقها الشمالي الغربي، وهي غير صالحة أن تكون مسرحاً لغيتو طائفي، في وجود تماس قومي مع مناطق كردية متداخلة معها، كما إن الجنوب بوجود سلمان باك "المدائن« المختلطة طائفياً سيشكل عمقاً لبغداد واتصالاً مع الجنوب من خلال الكوت، حيث بدرة وجصان أقرب نقطة تماس بين الحدود الإيرانية وبغداد، دجلة الذي قسم بغداد منذ الخليقة قادر وحده أن يكون حداً ما بين بغداد الماضي وبغداد المستقبل على أن الجسور لن تشكل أكثر من بوابة يسهل السيطرة عليها على وفق خطة أمنية.

لن تنجو المنطقة الخضراء من تأثيرات انتشار الفتنة على الصوبين، بل لعلها ستكون منطقة عمليات لإدارة تلك الفتنة على الأرض مثلما أدارها سياسياً.

تبقى مناطق مثل الثورة "الصدر« أو العامرية على سبيل المثال قواعد لوجستية للدعم في معارك تزحف نحو المسافات الضيقة والمتداخلة طائفياً.

هذا السيناريو المفجع ليس متخيلاً تماماً، بل إن الخيال أضعف نقطة فيه، إنه تماماً ما يحدث الآن في بغداد ومحيطها، بعد ثلاث سنوات من انهيار الاستبداد تحت قوة الاحتلال.

على أن الأنهار التي تجري بين المدن لا تقسمها عادة إلا لكي تجمعها في مياه واحدة هبة الطبيعة التي تكوِّن طينتَها المشتركة وخميرة مجتمعها المتطامن، لكن الجسور الهشة التي يبنيها البشر عادة بين الضفتين، لن تجمعهم في طينة تلك المياه بل تفرقهم بين الكرخ والرصافة، إنها توقظ الفتن من علي ابن الجهم إلى السياب، إلى هؤلاء الذين يعبرون قسراً من ضفة إلى أخرى، ولا يتذكرون "عيون المها« في بغداد، بل عهد المتوكل في سامراء.

إمبـراطورة النواح.

بالرغم من أن كتب التراث، تنقل لنا أن أول نا ع دخل المدينــة (مسقط رأس الحسين بن علي بن أبي طالب) هو بشر بن حذلم[1] قد نقل نبأ مقتل الحسين إلى من تبقى من أهله وأهل مدينتــه، بأبيــات شعرية شهيــرة يقول مطلعها:

يا أهلَ يثــربَ لا مُقــامَ لكــم بــــها
قتــل الحـــسين فـــأدمعي مـــدرارُ
الجـــسمُ منــه بكـــربلاء مُــضرجٌ
والــرأس منــه علــى القنــاة يُــدارُ.

(1) شخصية ملتبسة إذ تتحدَّث بعض المصادر « الشيعية» عن وجوده مع أصحاب الحسين في كربلاء، لأسباب مجهولة كما يشير العاملي في أعيان الشيعة، فيما تــرى مصادر أخرى إنه رافق ركب عيال الحسين، بعد مقتله، من الشام إلى المدينة، كما تختلف المصادر في نسبته إلى صحابة ما فبعضها يشير إلى صحابته للإمــام علــي، وآخرون يرون أنه من أصحاب زين العابدين، فيما لحق التصحيف والتحريف اسمه. فهو يتنوع في المصادر بين « حذلم بن بشير » و« حذيم ابن شريك » و« بشير بن حذلم » و « حذام الاسدي » و « حذيم » و« بشير بن خــزيم الاســدي » و : حذيم بن بشير « و»حذيم بين ستير«.

إلا أن الواقع يشيـــر إلى أن مراثي الحسين كانت قد بدأت حتى قبل احتزاز رأس الحسين بأرض كربلاء، واستمرت دائرةً مع الرحلة المعروفة لدوران الرؤوس على أسنة الرماح من كربلاء إلى الكوفـــة، ومن ثمّ من الكوفة إلى الشام.

وهذا الواقع يُثبتُ حقيقةً أخرى هي أنّ المراثي الحـــسينية، الـــتي بدأت النموذجَ المكبـــر للندب الحسيني، ارتبطت بالمرأة. فمن بيـــن العشرات من أهل بيت الحسين وأصحابه لم يتبقَ من الرجـــال، إلا بضعةٌ من الأطفال والجرحى، بيـــنما اشتعلت الفاجعـــة في قلـــوب النساء الكثيـــرات المصاحبات لأزاوجهنّ وأبنائهنّ وأخوتهنّ وآبائهنّ في موقعة الطف، وتحمل كتب التراث العديد من النماذج المبكـــرة تلك، بيـــنها أشعارٌ مبلولةٌ بماء الحزن، للرباب بنت امـــرئ القـــيس ـــــ وهو غيـــر الشاعر الجاهلي المعروف ـــ والتي كانت إحـــدى زوجات الحسين، وكذلك مراث متفجعة لأم البنين الكلابية، إحدى زوجات الإمام علي والتي فقدتْ أربعةً من أبنائها في كربلاء، بيـــنما كانت هي قد بقيت في المدينة، وثمة مرثيات أخرى تنقـــل عـــن أم كلثوم بنت علي، وسكينة بنت الحسين، وليلى إحـــدى زوجـــات الحسين وأم ولده البكر وهي من بني ثقيف.

بل ان ابن الشجري في أماليه يذهب إلى أبعد من ذلك، عنـــدما ينقل لنا ما يشيـــر إلى أن الندب والنواح على الحسين، ليس أنسيًّا أو أرضيًّا فحسب، بل هو طقسٌ مقدّسٌ أتت أصواته من عـــالم آخـــر، دون أن ينسى تثبيتَ الهويّة الأنثوية لهذا النـــواح المخـــتلط بطقـــس الاحتفال حيث يشيـــر إلى أن أهل المدينة (كانوا يـــسمعون نـــواح الجنّ على الحسين وجنية تقول:

ألا يـــا عـــين فـــاحتفلي بجهـــد
ومن يبكي على الشهداء مـــن بعـــدي
علـــى رهـــط تقـــودهم المنايـــا
إلى متجبـــــر في ملـــك عبـــد[1]

ولا حاجة للتنبيه هنا إلى ما يحمله مستهل البيت الأول من دمـــج غيـــر اعتباطي بيـــن فكرة الاحتفال، والبكاء على الشهداء.

كما يمضي ابن الشجري إلى تقصي جغرافيا النواح في مكان آخر ليـــروي عن الجنيات مرثية أخرى تلخص قداسة شخصية الحسين:

مسح النبي جبينـــه فله بـــريق في الخدود
أبواه من علـــيا قريش جده خيـــر الجدود

المرثية هنا تخرج عن دلالتها النواحية المباشرة لتـــدخل في ســـياق أنشودة مدائحية جمالية، تؤكد أن الفقدَ كان عظيمَ الأثر.

ويلاحظ أن هذا التفجع النسوي الكبيـــر قد جرى تكثيفُهُ عبـــر المراحل التاريخية، بشخصية زينب بنت علي، شقيقة الحسين، وعميدة البيت الهاشمي النسوي، مثلما جرى تكثيف واقعة الطف بـــــرمَّتها بقصة مقتل الحسين كصورة جمعية لقتلى كثيـــرين، وفاجعة متعددة النوائب للتعبيـــر عن يوم كربلاء.

([1]) »الأمالي الشجرية« لابن الشجري، أبي السعادات : هبة الله بن علي بن محمـــد الحسني (450 – 542 هجرية)

وسط هذا الجو العشتاري الواضح، تشكلت شخصيات تاريخية لافتة تمثل ملخصاً لصورة إمبراطورية للحزن تتناسل تركاتها عبر العصور، وتعبر عن نفسها بتجليات مختلفة كجزء من تشكيل وجدان شعبي خاص يخضع لطبيعة ثقافية معينة وبيئة اجتماعية ومثيولوجية خاصة.

من هنا وجدنا أنفسنا أمام شخصية تلخص هذه التجربة، في العراق، أعني شخصية الملاية ذات التأثير الخاص، في الوجدان الأنثوي العراقي، وفي الترسبات الشعورية للطفولة المرتبطة بأجواء عاشوراء.

وترتبط شخصية الملاية، إضافة إلى صلتها العميقة في تمثل النموذج النسوي المفجوع بكربلاء، بنموذج آخر في التراث الديني النسوي، فهي نوع من التعبير الشعبي المحلي، عن تبنٍ فكرة إمامة المرأة في الدين، إذ أن المتواتر في الجدل الذي ظل دائراً بين الفقهاء حول معضلة إمامة المرأة في الدين، تأكيد على عمق انشغال الفقه الإسلامي بهذه المعضلة، فبينما جوزت العديد من المذهب إمامة المرأة للنساء في الصلاة، ومنعته بالنسبة للرجال، سنرى أن مرجعاً شيعياً معاصراً بارزاً، قد تعرض بكثير من الجرأة لهذا الموضوع، فالسيد محمد حسين فضل الله، اعتبر أن القضية الفقهية هي قضية ثقافية يمكن تحصيلها من قبل الذكور والإناث على حد سواء، مما يعني أن إمامة المرأة تصحُّ في المسائل الفقهية المتحصلة طالما أن المسألة ترتبط بهذا المناخ الثقافي المفتوح.

تتداخل في شخصية الملاية كذلك، أبعاد المهنة الحياتية بدلالاته الدنيوية المباشرة، بطقوس روحية تطوعية ترتبط بالتكليف الشرعي

والواجب الديني، بفكرة الإثابة والمستحق، المتضارعة مع إرث محلي يرتبط بالشفاعة والتوسل بالأولياء، إنها خليط لا يبدو متجانسا بين صوفية غير منتظمة، وطقوسيات فيها الكثير من محمولات اللا وعي الجمعي، وممارسة اجتماعية تنتظم في التقاليد والفولكلور الشعبي.

ولهذا فلا يبدو أن ثمة تأصيلاً محدداً للنموذج البدئي لشخصية الملاية، إلا بردها إلى أبعد من العلاقة المباشرة بالواقعة التي شكلت شخصيتها الحالية، فهي كما أشرنا خليط غير منتظم ولا يمكن نسبته إلى بنية معينة، ولعل شخصية المرأة المفجوعة التي تحاول (الملاية) استعارتها في تأديتها لمسرح النواح اليومي طيلة أيام عاشوراء وما بعدها وكذلك في المناسبات الأخرى المرتبطة بها، هي أيضاً تمتد بعيداً لتلتصق بنموذج النواح الأول في التراث العراقي البعيد، وغير المنقطع في تمثلات اللاوعي الجمعي القارة في الوجدان العراقي.

صورة عشتار الباكية على تموز ستبرز بوصفها النموذج البدئي لشخصية زينب الباكية على شقيقها الحسين، الطوطم واحد هنا في الجوهر وإن بدا مختلفاً اختلافاً عرضياً في المستوى وليس في الطبيعة وذلك بين شخصيتي الشقيق والزوج.

فرحلة عشتار إلى العالم السفلي للبحث عن جسد تموز المعلق "بخطاف« تشبه إلى حد ما رحلة الغريبة من الكوفة إلى الشام مع رؤوس الأحبة المعلقة على "أسنة الرماح« بحثاً عن قبر يوحد بين الرؤوس وأجسادها.

تلمع شخصية الملاية، إذن، بيــن غيم الفاجعة وسماء الرحمة، إنها محراث المشاعر النائمة والمكبوتة التي سرعان ما تحرك رماد الفجيعــة فتشتعل نيــران الحياة من جديد، وينهض التاريخ بكامل قامته ليقف بيــن شواخص الحاضر بوجوده الحي لا بشبحيته.

يستدعي الدخول إلى عالم الملاية جهداً غيــر طبيعي لإزاحة اللثام عن ممارسة اجتماعية تتسم بالتستر والتحجــب، وذات خــصوصية اجتماعية وحرمة دينية، خاصة بعد أن نفيت خلال العقود الأخيــرة خلف طبقات متعددة من القهر والتهميش، وحتى الإلغاء، ليــصبح الكشف عنها وإعادة الاعتبار لها، مهمة لا يمكن إنجازها بمقالة كهذه لا تعدو كونها أكثر من دعوة تحريضية لإعادة اكتشاف عالم مهــم، يكاد يغيب اليوم.

واضح أن تسمية الملاية مرحلة عن تسمية ذكورية متصلة بوظيفة دينية تربوية، هي: (الملا) و (الملا) في العراق يعادل مــا يعــرف في بعض البلدان العربية (بالكتّاب، أو الكتاتيــب) بيــد أن المدرســة الذكورية مع (الملا) تهتم بالأصول الدينية كتعليم القرآن، والكتابــة والقراءة، الإملاء هنا هو مصدر التسمية وهــدفها في الآن نفــسها، فثمة ما يملى على الصبيان من أجل تعلمه ومن ثم تمثله، ومــن هنــا تسمية الملا. لكن فقه (الملاية) يتباين نوعياً، مع الأصــول التعليميــة الذكورية، إنها تختص بتأكيد الفاجعة وبتمريــرها بطرق محدثة عبــر تحريــرها من سلطتها الدينية ونقلها إلى ما هو شخصي ووجداني.

دين المرأة هنا ليس فقه المعاملات والعبادات بل هو حرارة الواقعة وقوة الحدث المتصلة بالتأكيد بتلك المنابع عبــر طريق لا تبدو مرئية للوهلة الأولى. الملاية إذن هي المدرسة الأخرى غيــــر الأكاديميــة

البحتة ولا الاجتماعية الموجهة، لكنَّها رموز الطقوس التي تجعل من العذارى مختلطات بالنساء، ومجالس الحريم لا تقتصر على احتفالية الطقوس الذكورية في عاشوراء، بل هي تندفع نحو تقاليد من نوع آخر.

وتختلف مهمة الملاية عن مهمة أخرى تبدو متشابهة معها في المظهر العام لكنَّها متباينة عنها في الجوهر، فثمة في طقوس العزاء في العراق، كما في مصر تحديداً، وبعض بلاد الشام، سيدة عادة ما تكون متقدمة في السن، ومتفجعة كبرى، تمتهن إبكاء الآخريات في مجالس العزاء، هذه الندابة الغريبة تسمى في العراق (الشاعرة) أو الكوالة - بالكاف المشرَّطة (من القول أي - القوالة) وتختص بمراثي عامة تكيفها عادة في كل حادثة وفاة لتنطبق أو تتشابه مع صفات الراحل، بيد أن الملاية لا ترثي أي أحد، بل ترتبط مراثيها بموسم عاشوراء، وتلتصق بصفات (الحسين) وقصة مقتله فحسب، تماماً كارتباط النواح العشتاري والعراقي القديم عموماً بمواسم القحط بعد خصب، وبكائها على تموز.

ليس من الضروري أن تستمد مهنة الملاية أهميتها من الشرف المتحصل، من التحدر العلوي (الانتساب إلى سلالة الأمام علي، من فاطمة) أو المجد الموروث، بل هي ظاهرة ثقافية مكتسبة، لا تنطوي على تفاضل نوعي إلا بمقدار ما تختبره تلك الظاهرة بالممارسة والديمومة، ستكون (العلوية) المتصلة بالفاجعة بالتحدر والرحم، مجرد نعت نوعي، إضافي قد يسبغ على شخصية الملاية هالة مضافة، بيد أنه لن يكون عاملاً حاسماً في ترجيح ملاية على أخرى، فكم من (علوية) تنتمي إلى بيت الفاجعة الأول وتتحدر من سلالة الحزن

المتوارث، تجدها تنوح في مجلس الملاية التي تؤكد أن الدمع والنـــواح إمبـــراطورية يجري تأسيسها بالموهبة والممارسة ولا يمكن وراثتها مع الأمجاد السلالية.

كما أن ليس ثمة تفاضلية معيارية للتعليم الأكاديمي، في تحديد قيمة ما تؤديه الملاية، فكم من فتيات متعلمات خلعن البدلات المدرســية والجامعية، وتغيبن عن الدرس، وتركن مقاعد الدراسة فارغـــة أيـــام عاشوراء، ليؤدين درساً افتراضياً طوعياً، وتطبيقياً خاصاً أمام الملايـــة التي يفضلنها على المعلمة أو المدرسة واندفعن لنداء (ويه يا حـــسين) بحماسة أكثر من اندفاعهن لجرس الدرس.

ثمة صرة قماش سوداء على الأغلب وخضراء أحياناً، تحفظ بهـــا هذه السيدة المهوِّلة بظلال خاصة بيـــن بنات جنسها، أوراق صفراء تبدو كمخطوطات قادمة من عالمٍ قديم، ومجلدة بقماشـــة ســـوداء، تفتحها كما تفتح كنـــزاً عزيـــزاً بيـــن حشد من المنتظرات أمـــراً من إمبـــراطورة الدموع ليبدأن البكاء، هل من المثيـــر أن نعلـــم أن هذه الكتبَ التي تُشبهُ كتبَ الأدعية الصوفية، تسمى القصيدة؟ هكذا تحملُ القصيدةُ قيمةً مقدسةً أخرى لتسمى كلُّ هذه الكتب السوداء المخصصة لأيام عاشوراء: قصيدة. ربما لتعلنَ أوَّلَ ملامح الملحميـــة لاستعادة الواقعة.

تهيئ الملايةُ أجواء المجلس عبـــر أحاديث دينية اجتماعية بموجة من سردٍ أوَّلي يجذبُ الانتباه لها ولشخصيتها مع تقاطع خطوط الـــدخان المنبعث من السجائر التي تؤرخ لتاريخ الحزن من سجائر (اللف) إلى (المزبن) إلى (الفلتر) يصبح التدخين مباحاً للنساء أيام عاشـــوراء وفي حلقات المجالس العزاء، الجواني النسواني، يحتفظ هنا بسريته حيث لا

يسمح للبالغين بالمشاركة أو التلصص، الملاية عادة هي التي تقدر بفراسة الأنثى / المرأة أن هذا الفتى غير مسموح له بالحضور وذلك لا بأس من حضوره.

عندها تبدأ لحظة الشروع بالوقوف بعباءها العريضة الأكمام، وتبدأ بجملة مأثور (ويه يا حسين) وهي الجملة ذاها واللازمة التي تنهي بها كل مقطوعة، لتبدأ بها أخرى.

تتوسط الملاية الكبرى، مساعدتين أو أكثر أو أقل، عادة ما يكن طامحات للحلول، في وقت لاحق، محل إمبراطورة الدموع ذات السطوة الخاصة على بقية النساء، تفتح المساعدة صرر الكتب ذات الجلد الأسود، وتقلب الصفحات لاختيار النماذج المناسبة لهذا اليوم من عاشوراء، حيث اعتادت أن تعرف طبيعة سيدها في اختيار النماذج الأكثر تأثيراً في النفس، وفي إنزال الدموع الساخنة، وهي تروي قصة الحسين بمزيج من وقائع تاريخية وتراث شفاهي مبني بعناية تجعله يدخل في صميم الفكرة التاريخية، وشيء من أساطير عراقية قديمة وجدت مناخاً مناسباً تتسلل من خلاله للديمومة في الحاضر، وتبدأ الملاية أيام عاشوراء بتتبع مسيرة الحسين من المدينة إلى الكوفة والهواجس التي تسيطر على ليالي النساء اللواتي اصطحبهن معه من أفراد أسرته وعائلته الكبيرة، وتختلط في هذه الرحلة أو هذه المرحلة من القصة، نذر الشؤم بنبواءات النعيم، تصوغها الملاية ليس في توصيل النص الذي تقرأه فحسب، بل في دقة اختيارها للبناء الدرامي من أجل حفر أنفاق في الصلة مع المتلقي عبر اختيارها لنمط معين من المقامات وأطوار الأداء الصوتي المناسبة لرواية الواقعة وتطورها، ولا غرابة من دخول المقام والأطوار الغنائية في البنية

الأساسية لأناشيد النواح والندب الحسيني، فواحدة من رائدات الغناء العراقي تخرجت أساساً من مدرسة النواح العشتاري - الحسيني هذه، في بدايات القرن الماضي قبل أن تأسس دار الإذاعة العراقية لتـصبح فيما بعد أول صوت نسائي عراقي ينطلق منها، وهي صديقة الملاية، التي تكاد تكون المطربة الوحيدة التي حمل اسمها حقيقة مهنتها الأولى، وظل يدل عليها، رغم أن الكثيـر من المطربيـن والمطربات كـانوا قد بدأوا حياقم من تلك المنابـر السوداء وإيقاعـات الـدموع في هارات وليالي عاشوراء، قبل أن يقفوا تحت أضواء من نوع آخـر، دون أن ينجحوا تماماً في التخلي عن نبـرة الحـزن الأثيـرة في أصواقم[1].

والواقع أن شخصية الملاية تستجمع قدرات ومواهب شـتى لأداء مهمتها الصعبة، فلا بد ابتداء أن تتمتع بشخصية قوية قادرة علـى التأثيـر، شخصية يكتنفها شيء من الهالة الاجتماعية تمنحها مكانة اعتبارية بيـن بنات جنسها، وتقربها من نموذج النـواح الأول وإن بقدر ما، يجعل الدور الذي تؤديه مقنعاً وهي بهذا تجمع بيـن القدرة على تشخيص "الكاركتر« التاريخي الذي تنوب عنه، والحـضور في اللحظة الراهنة الذي يستدعيه الوقوف بيـن حـشد مـن النـساء الباحثات عن تفريغ المكبـوت الاجتمـاعي والتـاريخي الطويـل والمتكثف، كما تستدعي مهنتها، أو مهمتها الدينية إن شـئت، أن تتمتع بصوت من طبقة معينة يجيد الأداء والأسلوب في التناغم مـع آهات وأنات الكورس المتلقي، وضبطه لتأدية نشيد الدمع.

---

(1) المطرب العراقي المعروف ياس خضر واحد من هؤلاء.

إنها تراجيديا سوداء متنقلة. إذ تقوم القصة التي تتضمنها أناشيد الندب التي تؤديها الملاية على بناء فني، يستفيد قليلاً من الواقعة التاريخية لكنَّهُ لا يقع تحت وثائقيتها تماماً، فالسرد لا يشبه سرد الكتب التراثية التي تروي جوانب متشظية من واقعة الطف، وهو لا يتشابه كثيراً مع حلقات المنابر الحسينية الذكورية التي تقوم على الموعظة وتكييف المعلومة مع الواقع، بل ان المادة الأساسية في حلقات العزاء الحريمي للمجالس النسوية في عاشوراء، تكتفي بالندب والنواح ليكونا البنية الرئيسية للراوية، إنه بناء خاص يجمع بين أكثر من مستوى تعبيري ومنهج فني للتوصيل، لكنَّها في المقابل تستفيد من وظيفة (القصة خون) و (الروزخون) في آن واحد، وما يعرف في بعض البلدان العربية بالحكواتي، في القدرة على شد المتلقي وجذب اهتمامه اليومي للتواصل مع حلقات تالية من مسلسل يبدو في كل مرة وكأنه يروى للمرة الأولى، فتخرج النساء مع نهاية قصة اليوم الأول متلهفات لما يمكن أن تحمله التراجيديا العاشورائية في اليوم التالي.

والواقع إن النمو الإيقاعي لأيام عاشوراء يتغير ويتطور، وفق ما تختاره سيدة الندب، وهو ما يجعل النساء المشاركات في تنفيذ المشهد العام مشدودات لدور اكبر في الأيام التالية، فالأيام الأولى تبدأ في ما يعرف (بالنعي) وما أن تبدأ الملاية بقراءة الجملة الأولى من النعي بإيقاع خفيف وشجي، حتى تتدفق الدموع إيقاعاً من نوع آخر في الجلسة.

من بيت إلى آخر ينتقل مسرح الحاضر كما تنتقل مسيرة السبايا في التاريخ عبر الأمكنة، ورغم أن هذا المسرح يتماثل فيه

الجمهور بالمؤدي، الذي يكون هو ذاته، لكن الملاية تختار في المكـــان الآخر إيقاعاً متخلفاً ورؤية نظرٍ ونبـــرة أخرى لتروي الحدث، ومن هنا يكون الحشد النسوي منشداً إلى جاذبية التجديد وصعود المشاعر التي تقترب من ذروتها كلما تبدل المكان وتجوهر الزمان، طيلة اليوم.

والنعي عادة ما يكون في وضع الجلوس، فتتكئ النــساء علــى جدران البيت كأنهن يستعدن واقعة كربلاء، أو يتكئن على خرائب سومر وبابل وآشور وكل الحضارات المتقوضة، في لحظة مثالة لــلا شعور الجمعــي، بيـــنما تقــف الملايــة في الجانــب الآخــر أمامهن،كشاهدة ماثلة أمام الجميع تؤكد كيف يكون الماضي حيــاً ومستمراً.

وبتتابع أيام عاشوراء يشتد الإيقاع، وتحتدم مــشاعر الــروح في الجسد، فلا يعود الاتكاء على الجدار، ووضع المنديل الأسود، وهو ما يعرف (بالشيلة) على الفم والأنف لتلقي مسرى الــدمع الــساخن الهابط من عين تجود بدمعها على الأمام الشهيد، بفعل شدو الحمامة البشرية التي تقف كالصقر وسط الجمع!

لا يعود هذا المشهد كافياً لترجيع الأثر المتصاعد لاقتراب موعــد (الطبكك) ومهما قيل عن أصل هذه المفردة التي ليس هنــا المجــال لمناقشتها، إلا أن الراهن سيعطينا دلالة جديدة لهذا المفردة، حيــث يتطابق ـــ حد الانطباق ـــ اليومي بالتاريخي بالاسطوري في لحظــة مكثفة لا يمكن عزلها لتحصيل نتيجة تستطيع أن تؤول مــا يجــري، بمنطق معين.

ولأن الأيام العشرة الأولى من عاشوراء، هي الزمن الأبـــرز لتمثل الواقعة وإن امتدَّتْ إلى أبعد من ذلك، لتشمل محرم وحتى النـــصف الأول من شهر صفر. فأن توزيع الأيام في تقطيع ســينمائي لافــت يؤكد صفة إضافية في شخصية الملاية التي يتضح أنها ليست تأسيــساً اعتباطياً أو طارئاً لحلقات الندب التقليدية لدى العديد من الــشعوب وثقافاتها الفولكلورية.

تقوم الملاية بتبليغ مريداتها، قبل يوم على الأقــل بموعــد تبــدل الإيقاع في تأدية طقوس الحزن، وعادة ما تستفسر المريدات أيضاً عن ذلك الموعد فهو يتطلب بعض التحضيــرات الضرورية لتأدية طقس أخر غيــر الجلوس والنواح وتلقي النعي من مقامات هادئة وشجية. تدريجياً تخصص الملاية مقاطع من قصائدها أو قل قــصيدتها، فمــع النصف الثاني، من الأيام العشرة، تنهض القدود، وتتــهيأ الخــدود، لحمى الإيقاع الجديد، فتخصيص أيام لمن قتل مع الحسين من اقرب آل بيته سيجعل من استقبال فكرة مقتل الحسين ذروة تــصاعدية لا يدانيها شيء آخر.

وتتلخص هذه التخصيصات في يوم العباس، ويوم لنجل الحــسين الأكبــر، وآخر لنجل شقيقه الحسن.

تقرأ الملاية خلال هذه الأيام قصائد مختارة ذات إيقــاع مختلــف ضاج ومفعم بتعبيــرات متعددة الأشكال تــشترك فيهــا الحــواس ومواطن الرغبات، بيــنما تهفهف شعور النساء، وترمح أجسادهن، كخيول بــرية.

ومع اقتراب موعد العاشر من محرم، تكون الملاية، قــد فقــدت صوتها تقريباً، بفعل ما أطلقته من صرخات وعويل مــن بيــت إلى بيت، ومن نعي، إلى هتاف، ومن قرار وجواب، ولم يتبق منه سوى

بحَّة، وصرخة مشروخة، تناسب كمية الحزن المتكثف عبـــر الأيـــام، فلا يكاد يسمع لها إلا الأنين، كأنها في المشهد التاريخي نفسه.

ويبلغ هذا الطقس مبلغاً آخر في إضفاء البعد المسرحي، المفتـــوح على الفرجة والمشاركة، في اليوم الذي يعرف بـــ (عرس القاســـم) ورغم أن واقعة العرس، لا تجد الكثيـــر من التعضيد في بطون الكتب التراثية التي تسرد واقعة كربلاء، إلا أن الوجدان المحلي، والـــذاكرة المبنية على شفاهيات مأثورة تؤكد أن القاسم بن الحسن كان مقرراً له الزواج من ابنة عمه سكينة بنت الحسين على وفق وصية من والده الراحل، ولما حان موعد مواجهته للموت كان على عمه أن ينفـــذ الوصية فعقد قرانه على سكينة، بيد أن الدخول لم يكن إلى فـــراش العرس، بل إلى حومة الحرب وحرِّ السيوف.

تستفيد الملاية من هذه الواقعة التي تمزج طقوس الموت بطقـــوس الفرح، لتنفذ واحدة من الفصول الأخـــاذة في مجـــالس عاشـــوراء، بيـــنما يكون الأبـــرز في هذه المناسبة للعذراوات اللـــواتي يطلـــبن (المراد) من يوم القاسم.

وعادة ما تتألق في هذا اليوم إحدى ابـــرز مـــساعدات الملايـــة المرشحة لتولي مهمة الملاية في المواسم التالية لكأن عـــرس القاســـم بالنسبة لهذه المساعدة هي حفلة تعميد وتأييد لها بأنها أصبحت قادرة على قيادة إمبـــراطورية الدموع، ومهيأة لوراثتها.

تشرك الملاية في هذا اليوم مساعداتها في العمل بصورة فعالة بعـــد أن كان وجودهن لا يتعدى الكورس أو قراءة بعـــض المقطوعـــات الصغيـــرة والسهلة، والمساعدات اللـــواتي يفـــضلن مـــن بيـــن العذراوات، يهيئن طقس العرس الدامي، بالحناء والـــشموع والآس وقطع الحلوى المعروفة بـــ (ملبس الأعراس) لكنَّـــهُ عـــرس مبتـــور

الأطراف إذ لا وجود للرجال فيه، بل ان الملاية عادة ما تلجأ في هذا اليوم إلى التدقيق المبالغ فيه في رصد وجود الصبيان في هذه الحلقة السرية، وكأنها تضفي طابعاً حقيقياً على حميمية لحظة (العرس) وخصوصيتها.

تدور (صينية القاسم) بعد أن تعبر الملاية رمزياً عن انتهاء الفرح وتصاعد ضجيج البكاء بإطفاء الشموع، دلالة على انطفاء شعلة الحياة، وحلول الدم معادلاً مضاداً للحناء، أو تحول الحناء في (صينية القاسم) إلى دلالة تضادية كبركة من دماء سالت في المعركة، بديلاً عن دم العذرية.

كما تجعل الملاية من هذه اللحظة المكثفة والملتبسة مناسبة، لتأكيد ارتباط المهنة بالمهمة، الأجر المهني بالثواب الروحي، فتدور إحدى مساعداتها بالصينية على الجالسات ليضعن فيها استحقاق نذورهن الموروثة من الموسم الماضي، والنذور هنا تتلخص في مبلغ نقدي تضعه الناذرة في صينية القاسم، استحقاقاً لتحقق ما طلبته، أو طلباً تريد تحقيقه آجلاً، فتضع عربونه عاجلاً في صينية الموسم الحالي.

كادت هذه الشخصية الإفصاحية عن طبقات المكبوت في المجتمع العراقي وتواريخه المأسوية، تختفي نهائياً لتتحول هي بالذات إلى طبقة أخرى في طبقاته المتعددة، فبفعل القمع الذي تعرض له مجمل النسيج الاجتماعي والثقافي والسياسي في العراق، انزوت ظاهرة الملاية شيئاً فشيئا، فحتى وجودها في البيوت تحول إلى ممارسة سرية في بداية الأمر، قبل أن يضمحل ويتلاشى بفعل الملاحقة الأمنية التي تعرضت له مجالس الملايات، كشأن كل الشعائر العاشورائية في العراق، وكل الطقوس الجمعية في بلاد الرافدين، وخلال العقود الثلاثة الماضية وجدت الملايات أنفسهن في منفى مزدوج الأبعاد، ففي منفى داخلي

لا يتيح لها ممارسة مهنتها ومهمتها، ربما فقــط في المقابـــــر الــتي ازدهرت وحدها في العراق، تحول البكاء على الحاضر إلى نوع مــن التعبيــر عن الندب لتلك المجالس نفسها، حتى اختلطــت في هــذه المرحلة مهمة (الملاية) الخالصة باتجاه عاشوراء، مع مهمــة جديــدة منقحة، تتخذ من البكاء على قتلى الحروب ذريعة رسمية لاســتعادة شعائر وطقوس ممنوعة، فأصبحت الملاية التي تروي أناشيدها مصيبة الحسين وأهله في واقعة الطف، إلى (شاعرة) تحمــل ربابــة الأنــين وقيثارة الدمع، وتتنقل بيــن البيوت لرثاء أصحابها، لم تعد واقعــة الطف إلا رمزاً، أما الواقع فقد كان يشيــر إلى أن العراق كله أصبح طفاً ومذبحاً لأبنائه، وخلال تلك الفترة، اعتقلتْ أجهزةُ الأمن العديدَ من الملاّيات، بتهمة انتمائهن لتنظيمات إسلامية، وبالتأكيد فإن كلّ من عاش أجواء العراق خاصة خلال الثمانينات، سيعرفُ أنّ حلقات البكاء والحزن تلك كانت مناسبةً نموذجيةً لنشر المُخْبــرات وعيونَ أجهزة الأمن في تلك المجالس، وكانت الملاّية عادةً ما تــدفعُ الــثمن الأساسي بوصفها المحرض، والموجه لأيــة احتجاجــات تنطلــق في جلسات الدمع تلك.

لم تكن أجهزة السلطة هي الوحيدة التي حاولت تقويضَ ظــاهرة الملاية، وتوصيف شخصيتها وطقوس يومياته، بل كان ثمة تثقيــفٌ مضاد يجري بيــن صفوف اليسار العراقي باتجاه الضغط لشطب هذه الظاهرة الاجتماعية والثقافية التي تشكل مساحة مهمة من الوجــدان المحلي، ومثلما كانت فروع اتحاد النساء في المناطق، تحــاول حمايــة دورها بتقويض الآخر ومحاربة ظاهرة زعامة هذه المــرأة الروحيــة وتشبُّث النساء بها، وهو تشبُّثٌ ناتجٌ عــن استحــضارها لــذكرى مقدسة، فإن المنظمات اليسارية تضامنتْ هــي الأخــرى، أو قــل تواطأتْ، لتغييب هذه الشخصية الفاعلة بيــنما كان ينبغي عليهــا،

أن تستوعب هذه الظاهرة بوصفها نوعاً من الثقافة الشعبية المحلية تعكس نزعات شعورية من معطيات واقع تشكل عبر العصور ولا يمكن اجتثاثهُ ورميهُ إلى الهاوية ببساطة.

وشيئاً فشيئاً كادتْ شخصية الملاية تندثرُ تحت ركام الخوف وسقف "الفوبيا« التي ولدتها ممارسات القمع والاضطهاد، بينما تشردتْ نماذجٌ مهمة تعبر عن هذه الشخصية وحلت في المنافي المجاورة حيث وجدت ازدهاراً يعوضها عن جدب المشاعر المكبوتة وقحط السنوات في بلاد الرافدين، وانتشرت في كل من إيران وسوريا، سرايا من الملايات، كما سبق أن تشردت سبايا كربلاء نفسها ما قبل القرون الوسطى.

بيد أن ضواحي العاصمة السورية دمشق، بدت وكأنها عالم سفلي آخر لعشتار العراقية، دفعت نحوه هذه المرة قسرياً ليس بحثاً عن رمز الخصب، بل لإحياء بكائيات فقدانه، تزدهر مهنة الملاية من جديد في المكان الأول الذي انطلقت منه إرهاصات الشعائر العزائية النسوية تحديداً، حيث أقيمت للحسين وآل بيته مراسم التعزية، في عاصمة الأمويين التي صدر منها أمر قتله، وتأتي الملاية لتستعيد بتمثيل تقريبي فكرة النموذج البدئي، عند مقام سيدة الأحزان الكبرى زينب.

عند مقام السيدة وفي الأزقة الفقيرة التي تحيط به تهفهف العباءات العراقية، زرافات ووحداناً، خاصة أيام عاشوراء ذكرى تنطوي على أكثر من مغزى، فهي أحياء للواقعة التاريخية من جهة، وإعادة تمثيلٍ التاريخ الشخصي المكبوت في البلاد، والمنفي منفى داخلياً قاسياً من جهة ثانية، النساء المتنقلات بمواكب النواح من بيت إلى بيت، يبكين غربتهن، في محيط ضريح الغريبة، لهذا أصبح هاجس التغرب والتشرد، سمة أضافية صنعتها الوقائع اللاحقة لتلتصق

بشخصية الملاية مثلما التصقت بشرائح اجتماعية عراقيـــة متعـــددة، المجالس الحسينية اليوم، تتسع هاويتها المفتوحة باستمرار، لكنَّها قادرة في الوقت نفسه على إيصال الرسائل السرية للأجيال اللاحقة مـــن الفتيات، والنساء اللواتي يحملن إرثاً غيـــر يسيـــر من تلك المجالس.

اليوم يجري تجسيـــر تلك الهوة، فمن اللافت أن جيـــل النـــساء المتقدمات في السن سارعْنَ بشكل لافت يدعو إلى التوقـــف عنـــده طويلاً في نقل الإمبـــراطورية الشعورية هذه إلى جيل جديد، جيـــل نال فرصاً أكثر من التعليم وعاش مأساة الـــراهن، وحمـــل فواجـــع الماضي، وأدرك إن هذا الطقس، الذي ظلت طرقُ تـــواتره ونقلـــه شفاهية، لا يُمكن أن ينـــزوي في اللا شعور إلى الأبد بل إنه لا بـــدَّ أن يتمثلَ مرةً أخرى.

وهل ثمة ترسيخٌ للحالة الطقسية الفجائعية، وتكرار استعاري لتلك الملحمة الحيَّة، أكثر مما هو عليه حالة طقوس الذبح الجماعي في عراق اليوم؟

الفصل الثالث

تحت قبعة العم سام

خطط البشتوني الأميـــركي

لا يمكن قراءة قرار الإدارة الأميـــركية تعيين سفيـــرها السابق في أفغانستان، زلماي خليل زادة سفيـــراً لواشنطن في بغداد، في ســـياق التعيينات الوظيفية الروتينية التي عادة ما تدرج عليها سياسات الدول عند تبديل سفرائها في العالم، ليس لأن العراق بالنـــسبة للولايـــات المتحدة يتجاوز كونه (دولة صديقة) أو بلداً تسعى إلى تعميق صداقة دوبلوماسية معه في هذه المرحلة! بل لأن شخصية خليل زادة نفسها يمكنها، في جانب كبيـــر منها، تفسيـــر دافع مهم من دوافع قـــرار واشنطن تعيينه سفيـــراً في بغداد، في وقت بدأت فيـــه بـــالتخطيط، على ما يبدو، لمراجعة واسعة لسياساتها في العراق وبشكل جـــذري وشامل، لا في ما يتعلق بوجود أكثر من مائة وأربعين ألفاً من عديد قواتها فيه، بل في كيفية تحويل هذا الوجود إلى أبعد من مجرد جنـــود يَقتلون ويُقتلون يومياً، في البلد الذي لم يَجْرِ احتلالُهُ كما يجب، على ما هو واضح حتى الآن، ولا يـــزال بـــرسم الحـــرب متنوِّعـــة الأشكال.

من هنا يُمكن التدقيق في ظلال الجماعات المتمثلة في شخـــصية خليل زادة (الأفغاني - المسلم - السني - البشتوني) والتي كوَّنـــتْ الأميـــركي الراديكالي، على أنَّها واحدة من الإحداثيات التي يمكـــن من خلالها قراءة طبيعة المراجعة التي تقوم بها الولايات المتحدة لإعادة

صياغة وضع جديد في العراق، بعد أكثر من عامين على احتلالها له، لم تنجز خلالهما الصفحة الرئيسية في عملية الاحتلال: أعني تطويع مخلفات المرحلة السابقة وإخضاعها لإرادتها وتصوراتها لمستقبل البلد.

وإذا كانت قضية أسلحة الدمار الشامل هي العصا التي رفعتها واشنطن ذريعة لإسقاط صدام، فإن الجزرة التي رافقت حملتها تلك، كانت الوعدَ بحريَّة طال أوانُ انتظارها من قبل العراقيين، وهي حريةٌ لم تنسَ الولايات المُتحدة تغليفَها بماركات الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها في تجارب احتلالها لعدد من الدول في آسيا وأوربا خلال الحرب العالمية الثانية وكان ذلك حلاوة الجزرة لبلد عاني من مرارة الحصار لأكثر من عقد من السنوات.

كان نموذج التجربتين الألمانية واليابانية من أمثلة التاريخ الجيدة لتسويق تلك الجزرة، على الأقل هذا ما أعلنه كولن باول وزير خارجية الولايات المتحدة عند احتلال العراق، وما كرره أكثر من مسؤول في الإدارة يوم كان قُطبا الخارجية والدفاع في تلك الإدارة يتنافسان على الاستئثار بالإمساك برحى الحصيلة العراقية في إطار ما سمي " محاربة الإرهاب".

ترك كولن باول منصبه، كإشارة على حسم الصراع بين القطبين الجديدين، وذهب مع أدراج رياح أسلحة الدمار الشامل التي أكد أمام مجلس الأمن الدولي أن دلائله على وجودها في العراق قطعية تماماً، وإنْ لم ينجحْ في إقناع أوربا بذلك، ذهبَ باول وذهبتْ معه ملامحُ الجزرة وماركتها النموذجية.

ومع تعيين خليل زادة سفيـــراً في العراق، يلوح النموذج الأفغاني غيـــر المنجز والقلق في تحققه حتى الآن وكأنه المثال القريب والموازي الذي تسعى الولايات المتحدة، في هذه المرحلة، إلى مقاربتــــه مــــن النموذج العراقي الذي يبدو عصياً على التحقق أكثر فأكثر.

لا العراق ألمانيا ولا أفغانستان اليابان، فالقضية لا تتعلـــقُ بـــإرث نازي، أو بتركات عهد إمبـــراطوري، هذا صحيح تمامــاً، ولكـــن العراق ليس أفغانستان كذلك. إلا إذا سلمنا بأن مـــشكلة واحـــدة تجمعهما الآن: الاحتلال الأميـــركي.

أكثر من سنتين مرَّ على (تحريـــر العراق) بصيغة احتلاله، وســـنةٌ مرَّتْ على انتقال السيادة بصيغة حكومة مؤقتة، لكنَّ واقـــع الحـــال يشيـــر إلا أنَّ ما بقي من الاثنين صيغتهما الاســـتعارية: الاحـــتلال والحكومة المؤقتة، أما مسميات الحرية والسيادة فهي اليـــوم ليـــست سوى شعارات مرحلة.

فالقوات الأميـــركية نفسها لم يكن وجودُها في العراق مرفوضاً كما هو الحال الآن، حتى أن ثلث أعضاء الجمعية الوطنية التي كانت أحد معالم (العملية الديمقراطية) التي أرادها الولايـــات المتحـــدة في العراق، يـــرفضون هذا الوجود في تقاطع واضح مع رغبات الحكومة المؤقتة وواشنطن في آن معاً.

وأكثر من ثلث المبالغ التي خصصتها إدارة الرئيس بوش لإعـــادة أعمار البلاد جرى إنفاقها في دوامة إحلال الأمن لكنَّهُ لم يحـــلْ، ولا يـــزال يتهاوى كلَّ يوم سواء بالنسبة للعراقيين أو حتى للأميـــركيين أنفسهم، حوالي ثمانية مليارات دولار من ذلك المبلغ جرى إنفاقهـــا

دون أن يلحظ أي من العراقيين ملامح تغيــر على خرائب الحروب، الأصحُّ أنها أُنفقتْ في إدامة الاحتلال والعمليات العسكرية في البلاد التي أورثتْ مزيداً من الخراب.

بل ان وسائل الحياة نفسها صارت مهددةً، فإضافة إلى المـــشكلة المستعصية للكهرباء، ثمة أمراضٌ عدة شاعت في العراق، بفعل الميـــاه الملوثة التي يشربها العراقيون، الحصص التموينية التي كانـــت تـــوزع بانتظام، وبأسعار رمزية تقربها من الهبات المجانية، جرى شطبُ العديد من وحداتها الغذائية ناهيك عن تأخُّرِ تسليمها لأشهر عدة، بيـــد أن قدرة العراقيين على شراء المواد الغذائية من السوق السوداء بـــسبب ارتفاع رواتبهم جعل من التفاعلات السلبية لهذه هذه القضية غيـــر مرئيةٍ إلى حين.

الوضع من هذا الجانب ليس نموذجياً بالتأكيد للسيد (زال) الاسم الرديف لزلماي خليل زادة وهو وضعٌ لا يُشبهُ قرينَهُ بأفغانستان حـــتى في هذا الجانب.

صحيحٌ أن هذه المهمات الحياتية ليست من اختصاصه ولا مـــن اختصاص حكومته بل هي من مـــسؤوليات حكومـــة إبـــراهيم الجعفري، إلا أن تداعياتها تبدو قرينة بالوجود الأميـــركي في العراق، تماماً مثلما كانت بداياتها قرينةً بالحصار الـــذي فرضـــته الولايـــات المتحدة على هذا البلد.

ليس خليل زادة بهذا المعنى سفيـــراً للأميـــركين لدى العـــراقيين لكنَّهُ يستعيد في الواقع وضيفته القديمة كونـــه سفيـــراً للـــرئيس الأميـــركي لدى المعارضة العراقية (تحت تسمية العراقيين الأحـــرار)

عندما انتدبه جورج بوش للإشراف على تلك الاجتماعـــات الـــتي سبقت الهجوم على العراق ببضعة أشهر[1].

يومها كانت قاعة الاجتماعات الرئيسية في أحد فنادق عاصـــمة الكولونيالية القديمة، مسرحاً لمناقـــشات بــــروتوكولية وترتيبـــات إعلامية ومنتدى لجدل سياسي أثيـــر، ومنبـــراً للخطابة عن اتفاقات وتوافقات مفترضة، بيـــنما كانت الطوابقُ العليا من الفندق حيـــث الجناح الخاص لزلماي خليل زادة هي الكواليس الحقيقية التي تنـــسدلُ على مطبخ تتغيـــر عناصر طبخته باستمرار وتعدل كـــل حـــين في انتقاء أسماء خاصة لوجوه المرحلة القادمة يقوم الأميـــركي الـــشرقي بالتدقيق فيها جدياً قبل أن يؤيد مشاركته في صنع المستقبل السياسي للعراق.

يومها أيضاً توضحت الصورة تماماً لطبيعة حكم العراق من قبـــل الولايات المتحدة: إنها صيغة المندوب السامي البـــريطاني التي عرفتها مناطق الكولونياليات الشرقية والعربية على وجوه الخـــصوص بعـــد الحرب العالمية الأولى.

---

[1] عقد المؤتمر في لندن للفترة من 13 – 16 كانون الأول/ ديسمبر 2002.

قائمة السبعة والستين[1] التي تمخضت عن مؤتمر لنـــدن، تحـــت تسمية لجنة التنسيق والمتابعة، بتعميد خاص بحبـــر خليل زادة الذي كان توقيعه مطلوباً وملاحقاً من قبل من حضروا ذلك الاجتمـــاع كما يحدث عند حضور المشاهيـــر بيـــن العامة حسب شهود عيان، ستصبح هي نفسها قائمة مجلس الحكم، بعد الاحتلال، مع حـــذف بعض الأسماء التي سرعان ما عادت للظهور بعد تشكيل الحكومـــة المؤقتة، السفيـــر زادة سيتذكر مفاتيح اللعبة حقاً عندما يلتقي بتلك الأسماء من جديد في بغداد هذه المرة، وسيذكر هؤلاء من جانبهم أنه

([1]) ظلت هذه القائمة تخضع للتنقيح والمراجعة حذفاً وإضافة، ليبلغ نصاب أعـــضاء هذه اللجنة 54 عضواً عقدوا اجتماعاً لاحقاً في مصيف صلاح الدين بكردســـتان العراق للفترة من 26 شباط / فبراير 2003 ولغاية 1 آذار / مارس 2003، بحضور زلماي خليل زادة أيضاً حيث أدار الجلسات جلال الطالباني وجاء في بيان صدر في ختام تلك الاجتماعات (قيم الاجتماع الاوضاع السياسية والدوليـــة واحتمـــالات اندلاع الحرب التي تنوي قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة شنها. وفي الوقت الذي يحمل الاجتماع النظام العراقي الدكتاتوري مسؤولية تعريض أمن البلاد للخطر الشديد بسبب استمراره في سياسات الاستبداد وانتهاك حقـــوق الانـــسان والجماعات، والاعتداء على دول الجوار وعدم التزامه بقرارات الامم المتحـــدة ذات العلاقة، **واحتفاظه بأسلحة الدمار الشامل**، فإنه يطالب الولايات المتحـــدة وكـــل اطراف المجتمع الدولي بأن تفرق بين نظام صدام والشعب العراقي.. **وبين اســـلحة الدمار الشامل وبنية العراق الاساسية**.. (... السلطة سوف تنقـــل الى الـــشعب العراقي بشكل مباشر. وانها تتطلع الى علاقات متكافئة مع الدول الاخـــرى علـــى أساس التعاون والمصالح المشتركة دون وصاية أو احتلال.)

ليس سفيــراً تقليدياً بالتأكيد، بل سيستذكرون معاً علاقة (نضالية) مشتركة في العمل السياسي الموحد والتخطــيط لإســقاط النظــام السابق، وصداقة شخصية في الجامعات أو في الفنادق أو في خنــادق كردستان، ينطبق الحال هنا بشكل أساسي على أحمد الجلبي نائــب رئيس الوزراء، وجلال الطالباني رئــيس الجمهوريــة، وبــدرجات متفاوتة لدى بقية أركان الحكم حتى أولئك الذين قد لا يعرفــون أن الأفغاني المهاجر كان واحداً من بيــن من ضغطوا باتجاه دفع الإدارة الأميــركية في عهد كلنتون نحو توقيع قانون تحريــر العراق.

لقد سبق خليل زادة جنرالات الحرب الأميــركان إلى العــراق، قبل أن تنطلقَ قواتُهم عبــر الحدود بأكثر من شهر عندما أدار آخر اجتماع للمعارضة العراقية في أربيــل، قبــل أن تــدخل القــوات الأميــركية العراق بشهر واحد.

خطة خليل زادة التي قدمها خلال تلك الاجتماعات والتي لم يجر الأخذ بها بعد الاحتلال، تبدو للكثيــرين اليــوم وكأنهــا الوصــية المهدورة التي ربما كان الأخذ بها سيعدل من واقع الحال الذي آلــتْ إليه الأمور، فتلك الخطة التي رفضتها الطبقة الــسياسية في العــراق، كان من شأنها أن تبدو حلاً وسطاً بيــن التوجهات التي تقول بأهمية أعطاء دور سياسي مباشر للمعارضة العراقية في حكم البلاد ما بعــد صدام، وبيــن تلك التي جرى تطبيقها وهي حكم العراق من قبــل قوات الاحتلال مباشرة، فإدارة البلاد لمدة عام على الأقل، من قبــل حاكم عسكري من الجيش العراقي السابق - حسب خطــة زادة - كان سيعني أن الجيش الذي يتواصل التباكي اليــوم علــى أمجــاده المزعومة، لن يجري حلّه، بل سيكون مشاركاً في عمليــة التغييــر

بدور واضح وفعال، تماماً كما هو دور تحالف الشمال في أفغانستان، ومن هنا لم يكن ليتحول إلى مادة أساسية في تغذية المجموعات المسلحة التي تقاوم الأميركان حالياً في كل مكان من العراق تقريباً.

الاستحقاقات السياسية القادمة في العراق، ستكون على الأرجح إعادة تنقيح الخارطة السياسية التي أوجدها انتخابات الثلاثين من كانون الثاني / يناير 2005، وهي تنقيحات تبدو حتميةً في المرحلة المقبلة ليس لأن الولايات المتحدة تريد ذلك فحسب، بل لأن العراقيين الذين اندفعوا تحت تأثير فتوى ملتبسة للمرجعية الدينية وقتها، وجدوا أنفسهم في ما بعد أنهم اختاروا طبقة سياسية لم تلتزم بأي من وعودها مع أن الأمر كان واضحاً منذ البداية أن ليس ثمة الكثير لدى هذه الطبقة لتفعله في ظل وجود عسكري أميركي يُخْضِعُ كل المعطيات لمستجدات خريطته.

على أن عمل زادة الجديد لن ينصبَّ هذه المرة على تنقيح أسماء القيادات الجديدة في العراق فحسب، بل سيمتدُّ إلى أبعدَ من ذلك على الأرجح ذلك أن المجموعات المسلحة ستكون محور عمله الجديد والمرحلة الصعبة في مشروع واشنطن، تحت شعار إدخال هذه المجموعات في الحياة السياسية، من بوابة الانتخابات.

الحوار مع مقاطعي العملية السياسية من السنة العرب، وإدارة مفاوضات ماراثونية متقطعة مع المجموعات المسلحة غير المنسجمة والمبهمة في هيكلية تنظيماها وقياداها، لن تكون سهلة كما هو شأن أفغانستان حيث قوات طالبان، هي التنظيم الأقوى والأوضح على الأرض، ولعلّ المنطقة الخضراء التي حصر فيها سلفه نغرو بونتي

نشاطه اليومي، لن تكون كافيةً لاستيعاب المجال الحيوي لعمل زادة، وهو الذي يمتد ببصره بوصفه أحد التلامذة البارزين لتيار المحافظين الجدد نحو أبعد من العراق ليشمل ما هو إقليمي، وقد يكون فوز أحمدي نجاد بالانتخابات الإيرانية، وعودة راديكالية (ولاية الفقيه) عبر تجديد الرموز المتحمسة لمبادئ الثورة الإيرانية من شأنه أن يفتح خريطة زادة نحو محور أبعد.

لقد أطل زلماي خليل زادة على إيران، فعلا، من الشرق ومن الغرب، من ثنائية الطوائف وتعددية الأعراق والقوميات، ومن الدرس الأكاديمي عبر بحثه في المشاريع النووية الإيرانية، إلى استقصائه لأصول نظرية الحكم في إيران بكتابه عن (حكومة الله) إنه نقطة الوصل التي تستطيع جمع محور بغداد كابل عبر طهران، ليس في ما يتصل بامتدادات القاعدة عبر هذا المحور فحسب بل لأن منابع تغذية قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين بدت اليوم قريبة المصادر وغنيته للورود إلى أرض الرافدين، وحقول النفط الآسيوي لا ينبغي أن تكون حقول ألغام في وجه تقدم المصالح الأميركية وتبشيرها بالعهد الديمقراطي الجديد في المنطقة، والمشاريع السياسية لإيران في العراق، وجه آخر من أوجه المشروع النووي نحو بناء قوة كبرى في المنطقة، كل هذه الوقائع ستحتم عليه بالتأكيد إعادة النظر في ستراتيجية (الاحتواء المزدوج) بين العراق وإيران، أو (حتى الازدواج الأحادي المضاعف للعراق) التي أضحت جزءاً من التاريخ، نحو تشديد احتواء من نوع آخر أكثر تشدداً باتجاه الشرق وبأقصى ما يمكن من وسائل.

يأتي زادة إلى بغداد، إذن، ليجد أمامه دستوراً لا يكتب وأمناً لا يستتب وعنفاً لا تمييزياً يتصاعد بشكل يومي، ومقاومة ضد الاحتلال ترتفع وتيرتها، دون أن يجد أحد مخرجاً واضحاً من بين حالة الفوضى الداهمة واستحقاقات الجدول الزمني للعملية السياسية المتعثرة.

شهر ونصف قبل الانتهاء من صياغة مسودة الدستور الدائم، وبضعة أشهر قبل التصديق عليه، ثم انتخابات تشريعية قبل نهاية العام تنتهي خلاله المرحلة الانتقالية نحو مرحلة دائمة مفترضة، وإزاء هذا الجدول المزدحم والمكثف خلال ستة أشهر يجد (الدكتور زال) نفسه مجبراً على فرش خرائط عمله في العراق مستعيناً بمرجعيين أساسيين ومهمين للخروج من عنق الزجاجة.

الأول أستاذه الراحل الباحث حنا بطاطو الذي أشرف على رسالته للماجستير من الجامعة الأميركية في بيروت، والثاني ليو شتراوس الأب الروحي لتيار المحافظين الجدد أستاذه في جامعة شيكاغو حيث نال الدكتوراه.

فحنا بطاطو صاحب أهم كتاب في تاريخ التنظيمات السياسية في العراق، والذي يعد مرجعاً نادراً للباحثين من حيث تقسيماته الدقيقة للمكونات القومية والدينية والطائفية للأحزاب السياسية في العراق خلال النصف الأول من القرن الماضي، سيمنح السفير الجديد صورة جيدة عن طبيعة الثقافة الاجتماعية التي تحرك التنظيمات السياسية في العراق اليوم وتراثها القريب الذي تتحرك تحت هديه.

أما أفكار شترواس فستلهمه من جانب آخر، كيفيــة التمــسك بالراديكالية المعهودة لدى المحافظين الجــدد وتحويلــها إلى نـــــزعة بــراغماتية عند يتطلب الأمر ذلك في التعامل مع وقـــائع الأرض، دون أن تهتز في رأسه صورة الأهداف الستراتيجية التي تعلمها جيداً نتيجة مكوثه الطويل تحت رعاية (أوكار الصقور.)

إنه في الخلاصة مشروع أميـــركي في وجه الفــشل، فـــالجنرال المتقاعد غاي غارنر صاحب مشروع إعادة الإعمار، الذي لم يعمـــر طويلاً في بغداد، والسفيـــر بول بـــريمر الثالث، المخــتص بملفـــات بمكافحة الإرهاب الذي دخل الإرهاب في عهده للعراق مـــن كـــل الأبواب وبامتياز واضح بيـــنما غادر خرج هو عاشقاً بدمع وفيـــر! ثم جون نغرو بونتي الإغريقي الذي لم تنفع الاســتعانة بحكمتـــه في أرض الرافدين، فانتدب لإدارة أجهزة المخابـــرات الأميـــــركية في العالم. هؤلاء هم حاملو الملفات الفاشلة للولايات المتحدة في العراق، يدرك المسؤولون في واشنطن هذه الحقيقة المرة بالتأكيد ولهذا فهـــم يلجأون إلى عمق الشرق للاستعانة بخبـــرة خليـــل زادة في إعـــادة مراجعة سياسة الولايات المتحدة، أو بالأحرى محاولة تفادي مزيد من الأخطاء، في مرحلة قادمة قد تكون هي الأصعب.

ربما جاء اختيار زلماي خليل زادة بمثابـــة اللجـــوء إلى الـــسهم الأخيـــر في كنانة الولايات المتحدة، ولن يبدو هذا التعبيـــر نوعـــاً من الانشاء التراثي خاصة وأن الجيش الأميـــركي، صـــار بـــدوره، يخفض من مستوى البلاغة الحديثة في توصيف عملياته العسكرية منذ الصدمة والترويع، وأم القنابل، ليصل إلى تسمية عملياته العـــسكرية الواسعة اليوم بتسميات من قبيل: الرمح والسيف والخنجـــر وربمـــا

ستصل إلى السهم، والعرب تقول عن السهم الأخير في الكنانة أنه السهم "الأهزع" أي ما يبقى في آخر الجعبة، ومع اختلافهم على كونه أجودها أم أردأها إلا أنهم متفقون على أنه السهم الأخير الذي يتبقى في الجعبة، أما مقدار جودته فيتوقف على قدرته في معالجة المواقف في الحالات الحرجة.

ولا تبدو حالة زلماي خليل زادة ومهمته في العراق، سواء كان شتر واسياً متشدداً أم مسلماً متسامحاً أم أفغانياً طيباً، بعيدة كثيراً عن هذا التوصيف.

ألف ليلة..حكاية لا تنجز بألف قتيل.

بدأوا يعدُّون ما بعدَ الألف، وبدأت حكاية المارينـــز تتخذ منحى أكثر درامية، وصار فقهاؤهم المحليون لا يستعيدون ذكرى ألف ليلة وليلة، بحسها الدرامي وما يأتي به من أخبار الجهات عن تراكم الموت وليس تأجيله، ولا بوصفها مجاز المتعة وليل التسلية.

بدأنا نعدُّ ما بعد الألف، منذ أن أعلن البنتاغون تجاوز عدد القتلى من جنوده في العراق الألف قتيل، فاشتعلت الحسابات والتكهنـــات، وربما حتى البورصات، كأن هذا الرقم بخاناته الأربع، جـــاء كمـــن يذكر الجميع، وليس الأميـــركان وحدهم، بأن الحرب تـــستمر في نـــزهتها بين خرائب الأجساد، وستصبح لها خانات إضافية، أمكنة إضافية، ومقابـــر إضافية وتوابيت أيضاً.

لسنا نعدُّ جثثاً لنـــربي حجمَ مأساة، بل نعدُّ ثمناً قادمـــاً أكثـــر قسوة، ولا يعدون إلا ليـــزيدوا المرثيات لتلك الأحلام التي أضحتْ كوابيس، لكنَّهُ في كلِّ الأحوالِ عدٌّ أسودُ وحزينٌ. ويثيـــر الوجـــهَ المرعب فيه أنه عدٌّ في الحادي عشر من سبتمبـــر.

ليس الرقم "1000" الذي بلغته خسائر القوات الأميـــركية مـــن جنودها في العراق حتى منتصف أيلول/ سبتمبـــر 2004، حـــصيلة نهائية لانتصار معين، لكنَّهُ عتبة نحو مرحلة جديدة، ومن هنا أهميته أو

بالأحرى نذره السيئة للولايات المتحدة، فانتصار أميركا على نظام صدام، لم يتطلب سوى نزر يسير إذا ما قُورن بالعدد "ألف" والحجم المهَّول لقوة الخصم، أما بقاؤها في العراق فهو الذي تطلب أضعافاً مضاعفة من الضحايا.

لكنِ عدد القتلى في الإحصائيات الأميركية يشمل عادة أولئك الذين قُتلوا في المعارك، مع عدوٍّ، أو الذين قضوا بنيران صديقة، خلال الاشتباكات والمعارك الكبرى، أو في حوادث أخرى بينها حوادثُ السير، والغرق، وضربات الشمس، والانتحار وسواها، فالحياة نفسها تحمل وباءَ الموت، مهما تعددت الأسباب، والحياة الطويلة في أي مستقرٍّ، تُنتجُ آليات فنائها بصيغ متعددة، المعارك واحدة منها، وهي هنا الراجحة بين تلك الآليات والأسبابٌ.

ومع هذا فإننا لم نتعرَّفْ على نسبة الرجال من النساء في هذا الرقم، أو لم يجرِ التركيز عليه تماماً، يبقى الموتُ لا جنسَ له، لكنَّهُ في الحروب قد يستعير ذكوريتها وعنفها في صيغة الإحصائيات عن القتلى، إنها التوصيف الذي يجعلِ العددَ رقماً محضاً مفرغاً من تعقيداته، لذلك يأتي الفزعُ أحياناً عندما نصطدم بحقيقة أنه رقمٌ يُذكِّرنا بتفصيلات مضمرة أرَدْنا نسيانَها في لحظةٍ ما.

لكننا نعرفُ، بالمقابلِ، أنَّ قتلى الولايات المتحدة هم من العسكريين، بينما تختلطُ في الجانب الآخر عناصر الصورة دونَ أنْ يهتزَّ إطارُها، فثمة المسلحون، وثمة المدنيون، ثمة النساء والأطفال، النائمون فوق سطوح المنازل، أو في خنادق القتال، وحتى أولئك الراقدون في المقابر.

ولذلك سينظر إلى هذا العدد من وجهة النظر الأميـــركية لـــيس كما ينظر له من قبل الآخرين، فليس مهماً عدد الأرواح العراقية التي تراقب الأرواح الأميـــركية المُزهَقة في العراق، وتأمـــل أن ترحـــل الأرواحُ الشاخصة فيه.

ولكي يجري الإمساك بالحكاية من طرفيها فإن رحلة الألف قتيل بدأتْ بقتيل واحد! ومن ذا الذي يتكفل بأن يبدأ مثل هذه الرحلـــة القاسية سوى الحروب؟

على أنها رحلة وحكاية متعددة المصادر في الآن نفسه، أمكنتـــها تتعدَّدُ، وشخصياتُها تتبدَّلُ، وأحداثُها تنعطفُ أو تجـــنح، ترتخـــي أو تتوتر، لكنَّها تبقى الحربُ التي تأخذُ في النهاية شكلَ حكايةٍ أخـــرى للموت والحياة في العراق والعالـــم أيضاً.

كانت شهرزاد تروي حكاياتها، دافعةً الموتَ بالإسهاب في طريق الرحلات والأهوال، وتدفع الليلَ بمقدم الفجـــر، وربمـــا بالتثـــاؤب وتأوهات الجنس: فاصل حكايات الموت والحيـــاة وبـــــرزخها في شرقنا.

والحكاية أميـــركياً، تتصل بإرث ثقيـــل، لم تبـــــردْ حـــشودُ كوابيسه بعد في ليل الكهول والشيوخ الأميـــركيين، ولـــيس مـــن المناسب إعادة سردها بإرثها القاسي على الجيل الجديد، سيبدو هذا الإرث إذن ذاكرة تستلزم القطيعة، ولكنها من جانب آخر تحـــضر عندما يـــزداد بـــريد الأجساد الفانية والأرواح المصدومة الطـــائرة من الشرق.

الجيل الأميـركي الذي يعرف مأساة فيتنام من خلال الروايـات والأفلام، وجدل الطبقة السياسية حولها، لا يـريدُ للحظة التاريخيـة القاسية أن تتكرَّرَ، وهي لن تتكررَ بالتأكيد، لكنَّهُ قد لا يـدري أن أترابه ممن يديـرون ملف الأحداث في العراق، يجـدون أنفـسهم مندرجين في صناعة لحظة مأساوية أخرى، ليس بالضرورة أن تتطابق أو حتى تتشابه مع نسخة قديمة من المأساة لكنَّها تبقى محل مقارنـة على الرغم من كل شيء.

بالنسبة لجيل جورج بوش ومساعديه سيبدو الأمر (مأساوياً) حقاً وهو الوصف الذي أطلقه منافسه في الانتخابات جـون كيـري ليقرن تلك المأساة بإدارة سـيئة للأحـداث مـن قبـل خـصومه الجمهوريين، في حمى التحضيـر لانتخابات الرئاسة الأميـركية، ليس هذا التوصيف سوى جرعة محدودة لإيقاظ "فوبيـا" مُـضمرة تتعلق بفيتنام التي عرفها كيـري وبدأ يستعيد ما يذكر بها، بينما لم يتذكرها عندما كان متحمساً للحرب على الإرهاب في العراق.

العدد (ألف) بأصفاره الثلاثة المفتوحة، على أعداد أخرى، بدا من وجهة نظر كيـري المناسبة النموذجية، ليشيـر إلى خطأ خـصومه في قرار الحرب، الخطأ الذي كان أحد مشرعيه والمصوتين لصالحه.

فهذا العدد لم يكن إلا أسوأ مما ظن المخططون للحرب، و لم يكن تحذيـر بوش لضباط الجيش العراقي، عشية الحرب، بعدم الإقـدام على استخدام الأسلحة التقليدية ضد القوات الأميـركية، لم يكـن من باب تهيئة الرأي العام لتقبل خسائر كبيـرة، فقد بات موضوع الأسلحة غيـر التقليدية بـرمته، مفهوماً اليوم بوصفه مبـرراً لشن الحرب وليس لتقبل نتائجها.

وعندما أنهت القوات الأميـــركية عملياتها القتالية الكبـــرى كما أعلن جورج بوش في آيار/ مايو 2003، كان ما يتردد عن هجمات تتعرض لها القوات الأميـــركية هنا وهناك، لا يخرج عن تفـــسيـــر شاع، أو أشيع وقتها، بوصفه هزات ارتدادية طبيعية، بفعل ســـرعة انهيار النظام السابق مرة واحدة، وبقيت أوهامه بالعودة للسلطة، هذا ما كانت تردده الإدارة الأميـــركية وحلفاؤها في العراق على الأقل، وكانت عبارة فلول النظام السابق، هـــي التوصـــيف الأبـــــرز في تفسيـــر تلك الهجمات، بيد أن هذه العبارة المرحلية ســـرعان مـــا تراجعت وتبددت، مع اعتقال صدام. حتى كادت تختفي نهائياً بعـــد مرور عام واحد على سقوط النظام، أما اليوم فأن الحديث يتجه إلى نحو آخر، وبلاغة أخرى، وقاموس جديد. إذ إن الفلول في المعـــاجم تعني السيف الذي تكسر حده وانثلم، حتى ما عاد قادراً أن يفتـــت حجراً! وفلول الجيش تعني هزيمته، ومنهزميه الـــذين تركـــوا أرض المعركة.

إذن كيف تستمرُّ المعارك مع جيشٍ مُنهزم بفلوله الـــتي تركـــت أرض القتال؟

وكيف ترتفع خسائر المنتصرين الذين أعلنوا هزيمة خصومهم؟

ظاهرياً لا تبدو نسبة الألف قتيل أميـــركي في العراق، ذات شأن حاسم، خاصة إذا ما قيست بعدد الجنود الأميـــركيين الموجدين في العراق، فهي قد لا تشكل نسبة واحد بالمائة من حجم تلك القوات، الأمر من هذا الجانب، لا يتعلق إذن بهزيمة جيش يقاتل جيشاً آخـــر، لكنَّ الصورة نفسها ستبدو مختلفة بل ومروعة، بالنسبة للجيش الذي يـــريد البقاء في العراق، أطول فترة ممكنة، فليالي الألف ليلة وليلة لم

تكد تبلغ نصفها بعد، منذ التاسع من نيسان / أبريل 2003، فيما تجاوز عدد القتلى الداخلين إلى الحكاية هذا الرقم، إذن كم سيكون الرقم عندما تبلغ الحكاية ذروتها، قبل أن يدرك شهرزاد الصباح الأخير؟

ومع هذا فإن العراقيين ينظرون اليوم بشيء من السخرية المرة، للمقارنات بين قتلى أميركا الألف في العراق، وعشرات الآلاف من قتلاهم على أرضهم، والذين لا توجد إحصائية دقيقة عنهم حتى الآن، القيمة بمعناها المصرفي هي (حبكة) الفكاهة في تراجيديا الحرب وقتلاها، ينظر لها العراقيون اليوم من خلال التعويضات التي تمنح لأولئك الذين قتلوا بالخطأ بفعل النيران الأميركية (الصديقة)، الاعتذار بالدولار نقداً، لكن بقيمته مقابل سعر صرف الدينار العراقي، وهو ما لا يمكن مقارنته بالتعويضات التي تحصل عليها أسر الأميركان القتلى في الحروب والعمليات (الإرهابية) فثمة قتلى بالدولار، وآخرون بالدينار، وسوق الصرف هي التي تحدد القيمة وتمنح العدد، هولاً أو تتركه بلا حول، مجرد رقم لا يذكر كثيراً.

العراق ليس فيتنام، هذا صحيح ولكنه، في الوقت نفسه، ليس الصومال ولا البوسنة ولا أفغانستان، قد يصلح النموذج الأميركي في العراق، للمقارنة مع نتائج هذه الحروب، المقارنة لا تعني التشابه ولا التماثل بالضرورة، الأمر في طور المقارنة وخارجها ليس إلا.

العراق ليس فيتنام حقاً، فهو (عقدة جديدة) وإن حاولت بعض التحليلات التي عزفت على وتر الألف قتيل، أن تذكرنا بأن أقل من ثلث هذا العدد قتلوا خلال فترة مقاربة من حرب فيتنام في بداياتها، ذلك أن مجرد توقع سقوط عشرات الآلاف من القتلى الأميركيين

في العراق، كما حدث في فيتنام سيعني شيئاً حتى أكثر من كارثــة، ليس لعدد القتلى الأميــركيين أنفسهم ولكن لما يمكن أن يتركه مثل هذا العدد من خراب في العراق قبل أن يطيــر بأرواحه.

والأمر لا يتعلق بفيتنام لأن جدلية الأسباب والنتائج تقــول لنــا ذلك.

فسجلات القتلى في العراق وحدها من تزدهر اليوم بينما تتراجع المفكرة السياسية الأميــركية وتتعثر، الحديث عن الحرية لا يعــدو كونه أكثر من حساء من الحصى يطبخ للجياع، وموعد الانتخابات المزمعة مطلع العام المقبل يقترب من اســتحقاقه، في ســباق تحــت النيــران.

فحتى الرقم (ألف) من قتلى أميــركا في العراق حتى الآن، يؤكد أن ما نــراه ليست فيتنام وليست أفغانــستان كــذلك، فخــسائر أميــركا في حربها ضد طالبان في أفغانستان، لم يتجاوز عشر هــذا العدد، كان الرد الفوري ضد هجمات الحادي عشر من سبتمبــــر إذن، بأقل الخسائر بالنسبة للأميــركان وبتحقيق نتيجــة ملموســة وسريعة على الأرض، هل يمكن عند هذا الحد توصــيف حربهــا في العراق، بأنها الغزوة الأهم ثاراً لضحايا بــرج التجارة العالــــمي؟ وهل يعني تزامن الإعلان عن سقوط هذا العدد من الجنــود، مــع الذكرى الثالثة لأحداث الحادي عشر من سبتمبــــر، أن الكارثــة مستمرة، وأن سقوط البــرجين لا يــزال ينشر شظاياه إلى أبعــد نقطة ممكنة؟

والأمر لا يتعلق بفيتنام، لأن الجنود الأميـركان وجنود التحالف، يخوضون حربهم اليوم تحت اسم حركي هو (الحرية الدائمة) واسـم رديف هو (الحرب ضد الإرهاب) وليس ثمة حركة تحـرر بديلـة، مسندة من معسكر أحمر أو أصفر أو أسود، وليس ثمة هوية للإرهاب أيضاً.

فكيف يمكن أن تعرَّف الحروب؟ هل تعرف بجنسية مـشعليها أم بملامح قتلاها؟ أم تحدد هويتها بفكرة بدائية تتحدد بـالأرض الـتي تدور فيها رحاها، أو تلك المتنازع عليها؟

تنقل وسائل الإعلام أنباء على مدار الساعة عن مقتل أعداد مـن العراقيين، وتقاريـر أخرى تقول إن عرباً وأجانب يقاتلون القـوات الأميـركية، أو يشتركون في قتالها في العراق، لكن العنوان العريض يبقى ملتصقاً بقتلى عراقيين وأميـركان، فـالحرب هـي حـرب أميـركا، وهي تدور على أرض العراق، ذات الفكرة البدائية عـن الحرب وهي فكرة لم تتغيـر كثيـراً بجوهرها في عصر العولمة.

هوية القاتل والمقتول تعبيـر عن ثنائية لا تقبل تداخل هويـات مضافة هكذا هي اليوم في الإعلام، أو في التمثل بأذهان المتـابعين، على الرغم مما يقوله لنا الواقع من أنها ليست كذلك، فهو لا يتعلـق بقتلى العراق أو أميـركا في هذه الحرب، وهي حرب عالمية من نوع آخر: عنوانها الإرهاب وفي تفاصيلها ثمة كناية عن عولمة القتل، لكن وسط ذيول خطاب الحرب، وفكرة الاحتلال، يختزل المشهد بقتلـى من هنا وقتلى من هناك، بيد أن قتلى قوات التحالف نفسها، شمـل جنسيات عدة، فكان بينهم جنود بـريطانيون وإيطاليون وبولنديون وبلغار وأوكرانيون، ودانماركيون وهولنديون.

وكان ثمة قتلى ورهائن مدنيون من شتى بقاع الأرض ذبحوا تحت حد السيف سواء.

والأمر لا يتعلق بفيتنام، لأن كاتباً عراقياً منفياً (على سبيل المثال) لم يتردد في وصف القتلى الأميــركيين والبــريطانيين، بأهم: شهداء الشعب العراقي[1]، وبأنه يقول هذا الكلام بعد تأمل طويل وتفكيــر عميق، مع أن المقالة التي كانت تأبيناً مبكراً للقتلى واحتفالاً متعجلاً بالحرية، نشرت بعد أقل من شهر على دخول القوات الأميـــركية للعراق، لكن الأمر أيضاً ليس بهذا التوصيف المجاني المنفعـــل، إذ أن عدد (الشهداء) بين قتلى الجهتين يتعاقد مـــع القيمـــة في تفـــسيـــر التباين، فلو اكتفى الأميــركان بهزيمة صدام من الجو، كما فعلـــوا خلال عمليات عاصفة الصحراء، وتركـــوا للعـــراقيين أن يختـــاروا (حريتهم) على الأرض، لما وصل عدد قتلاهم في عراق ما بعد صدام إلى هذا الرقم، إنهم بارعون في السماء ويثيـــرون الإعجاب حقـــاً، هكذا ينظر إليهم العراقيون قبل أن ينـــزلوا إلى الأرض، فهم ليـــسوا شهداءهم، ولم يقل أكثر الضحايا مثل هذا الكلام، كان نـــــزول المارينـــز على أرض العراق تمثيلاً نموذجياً للفشل، على الرغم مـــن دعوات فقهائهم بالسلامة، ذلك أن هذا الفشل تجسد حتى بما شكله من تنافس على المساحات بشكل ما، في طريق السيارات مثلاً يشعر العراقي بأن الرتل الأميــركي يحتل طريقه إلى البيـــت، عوارضـــهم الأسمنتية التي تسد الطرقات، تجسد الاحتلال، هذه الأشياء البسيطة، جعلت من هؤلاء البارعين في الجو، يتقاتلون علـــى الأرض بتكـــافؤ

[1] مقالة عواد ناصر "الأميركيون والبريطانيون أبطـــال وجنـــودهم «شـــهداء» عراقيون" جريدة الشرق الأوسط 8 مايو / أيار 2003.

تقريباً، مع عدوهم، فيَقتلون ويُقتلون ولا يثيــرون الإعجاب في كل الأحوال، ولا يحظون حتى بتمثال كتمثال الجنــرال مود ليــسحل ذات يوم في الطرقات.

إنها إذن الحرية طالما بقيت في السماء، لكنَّها تصبحُ احتلالاً عندما تزاحمني على الأرض.

وعقدة الألف قتيل أميــركي لها حصَّةٌ كبيــرةٌ من هذه الحكاية أيضاً، فقد حرصوا مؤخراً على إتباع ستراتيجية القصف من الجــو، خاصةً بعد تخطيهم حاجر الألف قتيل، بينما المــسألة علــى الأرض تزداد تعقيداً.

سرد حكاية قتلى أميــركا في العراق، يختلفُ تماماً عندما ينتقلُ، من بيانات البنتاغون، وإحصائياته، إلى شفاهيات الليالي والنهارات في البلاد التي تحكي كثيــراً، ينطوي هذا السرد على شيء من الإشاعة ممزوجة بشيء من الواقع ومهولة بخيال ضروري لتأليف طبقة السرد بين هذين الحدين المتناقضين، فالأحاديث متواترة في العراق حتى قبل بلوغ العدد هذا الرقم (المميــز) بأن أميــركا لا تعلن العدد الحقيقي لقتلاها في العراق، وأن بإمكانك أن تضاعف العدد عــدة مــرات لتكتشف العدد الحقيقي للقتلى من جنود الولايات المتحدة.

وربما كان في مثل هذه الأحاديث شيء من تجربة واقعيــة مــع الحرب وعدم الثقة بكل ما تأتي به، بما في ذلــك لائحــة القتلــى وإحصائيات الخسائر في الأرواح والمعدات.

فثمة ذاكرة لم تبــرد بعد عن الحرب العراقية الإيــرانية، بل ربما أعادت الحرب الجديدة تسخينها، فقد كانت خسائر الإيــــرانيين

والعراقيين توثق يومياً في بيان صادر عن القيــادة العامــة للقــوات المسلحة العراقية، تجمل فيه الخسائر اليومية للطرفين، وينتهي عــادة بعبارة (خسائرنا بضعة شهداء في قواطع العمليات) وكثيــرا ما كان التندر يبلغ ذروة مراحله عندما يختتم البيان بعبارة (خسائرنا شـــهيد واحد في كافة قواطع العمليات) بينما كانت الأحيــاء العراقيــة في مختلف المحافظات تستقبل يومياً المزيد من الجنائز التي لم يذكرها بيان القيادة العامة للقوات المسلحة!

مع سنوات الحرب، اختفت حتى هذه (البضعة) فطــول المــدة، سيجعل حتى من البضعة المفترضة يومياً، تؤلف عشرات الآلاف من الضحايا، وجيشاً من الشهداء.

عدم الثقة الموروث من تجارب الحروب وإحصائياتها ساعد المخيلة المحلية في تخطي جانب الدقة والمسؤولية والصرامة المعهودة في بيانات الجنــرالات ومخططي الحروب، إلى سرد حكاية أخــرى في بلــد الحكايات، فمياه الأنهار والبحيــرات، لا تخلو من جثــث القتلــى الأميــركان الذين لا يجري دفنهم، أو بالأحرى إخفاء جثــثهم في تلك الأماكن، بل ان حديثاً يجري عن (مقابــر جماعيــة للجنــود الأميــركان) في بعض المناطق، فليس من المعهود في كل الحروب أن لا يترك الغزاة والفاتحون على حد سواء أثراً، لمجدهم أو هزيمتــهم في الأرض التي فتحوها أو غزوها، مقابــر الأتراك والبــريطانيين، في الكوت والبصرة وبغداد، وسواها شاهد على هذا التقليد الكولونيالي في زرع سلالة الموتى من الغزاة بأرحام الأرض الأخرى!

ولا يمكن عزل تفاصيل الروايات المتعلقة بحقيقة أرقــام القتلــى الأميــركيين، عن واقع يجري على الأرض، فثمة شهود يوميون على

احتراق دبابة هنا أو مدرعة هناك أو قافلة تموين وإمداد بينهما، حيث يرى هؤلاء جثثاً متناثرة لجنود في الزي الأميركي (زاد تعقيد هذه المسالة تشابه بدلات الحرس الوطني العراقي الجديد مع بدلات جنود المارينز وطريقة تجهيزهم) بينما يسمعون أو يقرأون عبر وسائل الإعلام تقارير عن قتيل واحد أو اثنين، عادة ما يكون في غير المناطق التي شهدوا فيها وقوع الهجمات.

بيد أن ثمة تفسيرات ترجع هذا التعارض والالتباس إلى تقاليد خاصة في الجيش الأميركي، فقيادته لا تعلن لوسائل الإعلام عن قتلاها، إلا بعد إبلاغ عائلاتهم في الولايات المتحدة أولاً، كما أن ثمة تحليلات تشير إلى أن قيادة الجيش الأميركي تعلن خسائرها، فقط، في ما يتعلق بالمواطنين الأميركيين ممن يحملون الجنسية الأميركية تحديداً، وإذا ما علمنا أن هناك تقارير تشير إلى أن كثيراً من الجنود الذين يقاتلون في الجيش الأميركي في العراق، هم ممن لم يحصلوا على الجنسية بعد، بل كانت مشاركتهم في الحرب نوعاً من إثبات الوطنية واكتساب الجنسية، سنجد تفسيراً إضافياً لطبيعة التعارض الحاصل بين التقارير الرسمية وبين واقع الحال على الأرض.

وسيجعل هذا التقليد من تقارير البنتاغون ذات "مصداقية" داخلية فهي تتحدث عن مواطنين أميركيين قتلوا في العراق، وليس عن كل الجنود الذين يقاتلون في هذا البلد.

ولهذا صار العراقيون يطلقون على معظم جنود الولايات المتحدة صفة المرتزقة، وإنها لا تحفل بحياتهم كثيراً تماماً مثل عدم اهتمامها بحياة المدنيين من العراقيين، لذلك تخفيهم في مقابر سرية، وعند

أكتاف الأنهار، يعضد هذا الاعتقاد، ما تقوم به الولايـات المتحـدة عادة من حرص مبالغ فيه غالباً في تدميـر كل ما تخسره من آليات وطائرات في المعارك، بالإسراع في تدميـرها على الأرض فوراً، دون أن تسمح بتصويـرها من قبل وسائل الأعلام، أو نقل أي احتفـال يقوم به حشد من الصبية المتطلعين للظهور عبـر الفـضائيات مـن خلال صورة قرب آلية أميـركية في العراق، فإذا كان الأمر كذلك مع آلية أو عربة مدرعة أو حتى طائرة مروحيـة فكيـف سـيكون حرصها على صورة جندي من المارينـز يظهر قتيلاً في العراق، أنها حرب الصورة، التي تعرفها الولايات المتحدة جيداً، أو بالأحرى هي من اخترعها، ولذلك لا تريد أن تؤتى من مأمنها، وها هي حـرب المعلومة الموجهة والمفلترة التي يأتي الرقم ألف ليكشف عن جانـب بسيط منها.

حتى بعد تشكيل قوات الشرطة العراقية الجديدة، وأفواج الحرس الوطني، وألوية الجيش الجديد، وحتى بعد تسليم (السيادة) للعراقيين، ظلت الخسائر البشرية بين صفوف الأميـركيين في تصاعد مضطرد، وظلت الخسائر بين العراقيين أنفسهم ترتفـع إلى أعـداد أكبـر، المعضلة هنا لا تتعلق بهزيمة جيش أو إسقاط نظام، بـل في صـراع إرادات على تحديد طبيعة النموذج الجديد للدولة العراقية، من هنـا يمكننا القول أننا نتحدث عن حرب أميـركية ثانيـة في العـراق، غيـر تلك التي بدأتها لإسقاط نظام صدام، وحسمتها سريعاً بثلاثـة أسابيع فقط، فقد خسرت أميـركا في مواجهة الفلوجة والنجـف وحدهما، أكثر مما خسرته أمام جيش منظم لدولة كان يقـال أنهـا تشكل خطراً واضحاً على الجيـران وجيـران الجيـران أيضاً.

ولا ننسى أيضاً أكثر من سبعة آلاف جريح، وأعداد كبيرة من الجنود الذي أصيبوا بصدمات شعورية ورضات نفسية عميقة، ويشكلون جانباً من الصورة لم تظهر تفاعلاته كما ينبغي بعد.

بيد أن هذه الحرب الجديدة، قد تواجه استحقاقها واختبار ممكناتها عند موعد الانتخابات مطلع 2005، وإلا فقد تجد أميركا نفسها أمام استحقاق تال، تمثله حرب نوعية أخرى من داخل الحرب التي تتناسل صوراً ومعانيٍ وأهدافاً وتبقى تحمل الجوهر ذاته: مزيداً من الأرواح البشرية تحصدها النيران في حقل قد لا تتناسب حساباته مع حصيلة البيدر.

جيل (الروك).. فتنة العودة إلى فيتنام.

... وفي آب اللهاب، ما بين تموز الاستقلال، وأيلول/ سبتمبــر الزلزال، أيقظت سيدة أميــركية فتنة سوداء في الطــرف الآخــر، عندما أعادت تمثيل كوابيس فيتنام في ليالي أميــركا، مقلقة عطلــة الرئيس بوش في مزرعته بتكساس.

قد لا يكتفي آب اللهاب بوصفه نذيــر شؤم للرئيس بوش حيث قتل فيه أكثر من سبعين جندياً أميــركياً قبل أن تلوح تحت شمــسه المحرقة في بغداد ظلال تحنو على البقية من جنوده، أولئــك الــذين ينطلقون لتعزيــز حرب تعددت تسمياتها بينما ظل الموت عنوانهــا الأبــرز.

وقد لا تشبه، حرب أميــركا في العراق، حربها في فيتنام وهــي ليست كذلك فعلاً، حتى وإن قتل فيها من سفراء الحقيقة، في عامين أكثر مما قتل في فيتنام خلال عشرين عاماً حسب تقريــر لجماعــة (صحفيون بلا حدود) هي ليست كذلك، لا في سياقاتها العملية ولا في مجري تفاصيلها على طرفنا من الأرض هنا، لكن الأرض كروية، تدور على محورها، وفي طرفها الآخر، أعني الولايات المتحدة تظهــر الشمس لتوقظ ذكريات سوداء ظلت ثاويــة في ظلمــات الــروح البشرية، ذكريات يتداخل فيها الحنين بالرعب، فإلى جانب عــودة

أبناء "العم سام" مكبوسين في خشب التوابيت، ثمة عـــودة غريبـــة توقظها هذه الأخشاب والصلبان المرسومة في الحـــدائق، لتعـــود إلى الساحات أغاني الروك وتراث جيل البيتلـــز، والبلـــوز وموســـيقى الشوارع، إلى جانب مشهد رصف الطرقات بالصلبان الـــتي تـــزداد يومياً، مظاهر تعزز القناعة بأن كوابيس الطبيعة المتوحـــشة في أرض الأدغال، صُنعت في نهارات أميـــركا وشـــوارعها، ولـــيس في أي مكان آخر، على الأقل ليس هنا في الشرق هذه المرة. لكن ألم تصنع فيتنام الأولى هناك، في بلاد العم سام، أيضاً؟

ثقافة الستينات تعود كما لو إنها تجسد جزءاً من ذلـــك الحـــنين الغريب بما يجعلها نوعاً من التعاويذ التي يمكنها وحـــدها أن تطـــرد جيوش الكوابيس التي بدأت تحتشد، وتستعيد ترنيمات قديمة مجربـــة لتشريدها قبل أن تتمرس في حياة الأميـــركيين، هذه الثقافة (القديمة) تحاصر بوش، هذه الأيام، ليأخذ رفض الحرب بعداً ثقافياً شـــعبياً في أميـــركا، مظهراً صورة تفيد في أبسط توصـــيفاتها بـــأن المجتمـــع الأميـــركي منقسم الآن على الحرب، ولم يكن كذلك قبل عامين أو حتى عام واحد أو بضعة أشهر سابقة.

لا أحد في الولايات المتحدة يمكن أن يقتنع أن الحرب في العـــراق انتهت فعلاً، مع أن بوش نفسه أعلن أن العمليات الكبـــرى من تلك الحرب انتهت منذ آيار 2003 لكنَّهُ يعود اليوم مصححاً مسارها إلى ما يتناسب مع ذلك التوصيف: الولايات المتحدة تخوض حرباً عالمية ضد الإرهاب، خسائر أميـــركا منذ ذلك التاريخ إلى ازدياد مطَّرد، بل إنها بلغت أضعاف ما كانت عليه عندما أعلن بوش كلامه ذالك من على متن حاملة الطائرات إبـــراهام لنكولن متعجلاً في إعـــلان

(خطاب النصر) في عمليات (حرية العراق) وفي الحيثيات التي أعلنها الجنـــرالات مُسوِّغاً للإعلان المبكر عن ذلك النصر غيـــر التام: إن الطائرات الأميـــركية قد خفضت نسبة دعمها للقوات البـــرية مما يعني أن المهمة قد أنجزتْ.

أما على الأرض، سواء في العراق أو في أميـــركا نفـــسها، فـــإن النصر لم ينجز تماماً بعد، الحرية الأميـــركية لا شيء منـــها يـــذكر بإبـــراهام لنكولن، والحرب لم تنته إذن، وجيل الروك الـــذي ظـــنَّ الجميع أنه انهزم مع نهاية الحرب الباردة، يعود ليقول إن خلف الطبيعة المتوحشة لفيتنام ثمة كوابيس أخرى تلوح مع استمرار الحرب وإرجاء الانتصار، عودة تعيد ربط روح الروك الساخن والـــدافئ بـــالتمرد والرفض والغضب. الروح التي عبـــرت عن ملامح الـــصراع علـــى العالـــم في النصف الثاني من القرن الماضي.

إنه المسرح الفيتنامي في شوارع أميـــركا: نساء أراملٍ وثاكلات، وفاقدات الأحبة بسبب العنف والحرب وجدن لهن دوراً مهمـــاً في إعادة الصياغة هذه وسط مظاهر عديدة بـــدأت تقـــرب حـــرب أميـــركا في أرض السواد، من كوابيس الأرض الخضراء. الواقـــع أن أميـــركا لم تشهد مثل هذا العدد من القتلى في تدخلاتها العـــسكرية وحروبها منذ فيتنام.

حافلات بمقطورات طويلة، تجوب الشوارع بملصقات كالسخرية المتنقلة، كأنها تذكر الجميع في الشوارع البعيدة عن خطر الإرهـــاب بأن (الجبهة الداخلية) للولايات المتحدة بدأت تتأثر بضراوة الحـــرب العالـــمية الثالثة، مغني الروك "ستيف إيـــرل" صـــاحب الأغنيـــة الشهيـــرة (كآبة جون ووكر) أحد مقاتلي طالبان الأميـــركان،

والتي تتحدث عن معضلة الاغتراب الثقافي، يبدأ الاحتجاج في وقت مبكر، لكنَّهُ يذهب إلى معسكر كيسي ليغني ضد الحــرب في آب، فيلم مايكل مور فهرنهايت 11/ 9 خطوة مبكرة أخرى في الطريــق نفسه، النجمة المحتجبة جين فوندا استعادت هي الأخرى ضـجيجها الستيني في هذا المهرجان، فمنذ حرب فيتنام لم يصدر عنــها كمــا قالت أي موقف، وصار لديها الكثيــر لتقوله بشأن الحرب الحالية.

مستثمرة هذا الإيقاع المختلط، أحالت سيدة ثكلى (آب اللهاب) إلى مسرح شعبي يومي تراجيدي ودائب، يــرمي سؤالاً وجوديــاً ضخماً نحو مزرعة بوش الصيفية. ساندي شيهان أصــبحت اليــوم شهرزاد أميــركية، تعيد رواية الجانب المفزع من الحكاية، إنها تريد فقط أن تقابل الرئيس، والرئيس مشغول بمواعيد لا يُمكن تعديلــها، ربما بينها موعد إعلان الدستور العراقي الجديد، لتكرار لقاء حــدث أساساً مع السيدة الثكلى عندما استقبلها مع حشد من ذوي قتلــى الجيش الأميــركي. هذا هو الجانب الظاهر من الحكاية، التي تسعى السيدة شيهان إلى التنقل بها من تكساس إلى واشنطن ومن مزرعــة بوش إلى مبنى الكونغرس.

ماذا تريدُ السيِّدةُ شيهان في المضمر من الحكاية ؟ سؤالٌ بــسيطٌ لكنَّهُ مستحيل ودونه فتن وفتن: لماذا مات ولدي في العراق؟ وإن لم تتلقَ جواباً مقنعاً ستصرُّ على سحب بقية الشباب الأميــركي مــن الحرب، حتى لا يموتوا هكذا دون أن يتلقّى ذووهم جواباً مقنعاً[1].

---

(1) ربما ثمة جواب لدى بعض الكتاب العراقيين، فإبراهيم أحمد - علــى سـبيل المثال- أصدر رواية "طفل السي أن أن" وهي تدين حرب أميركــا في عاصــفة-

قتل كيسي في مدينة الثورة / الصدر في نيسان / أبـريل 2004، في المدينة التي تركتُ السكن فيها قبل أن يولد كيسي بقليل، الحملة التي تقودها والدته سيندي تحت اسم عائلات النجوم الذهبيـة مـن أجل السلام، تجتذب مزيداً من الثكالى لتزداد النجوم الذهبية المكونة لهذه المنظمة، عشرات منهنَّ التحقنَ في معسكر كيسي، كأنهن أردْنَ بهذه التسمية أن يستبدلْنَ نياشينَ الحروب وضحاياها، بهذا السـؤال الذي لا جوابَ له حتى الآن؟

ولأن بوش ليس له أولادٌ ذكورٌ، ولأنَّ أميـركا مثل حروبها تماماً ليس لها تفريق جنسي بين (الرجال) (والقواريـر) تحوَّل السؤال إلى دعوة للرئيس كي يـرسلَ ابنتيه إلى الحرب، إذا كان يعتقد حقاً أنها حرب نبيلة تستحق أن يموت فيها الشباب الأميـركيون.

بالنسبة لي ولعراقيين كثر، فإن مثل هذه الدعوة تنطبقُ إلى درجة بعيدة مع هتاف الثكالى على قبور أبنائهن خلال الحـرب العراقيـة الإيـرانية عندما كنا يهتفنَ موجهاتٍ الـصراخ علـى صـدام في

-الصحراء عام 1991، على أن يجزها باجزاء لاحقة، لكن أجزاء روايتها أخـذت شكلاً آخر سواء بالتعاقد مع البنتاغون كغيره مـن بعـض العـراقيين، للعمـل كمستشارين للقوات الأمريكية في العراق، أو من خلال إشـاعة ثقافـة العرفـان للمحتلين، عندما تصدر اسمه قائمة الموقعين المائة من " المثقفين العراقيين" على رسالة شكر لبوش وبلير "معاهدينهما" إن أرواح الجنود الأمريكيين والبريطانيين والإيطاليين والأسبانيين والبولونيين واليابانيين والأستراليين والحلفاء الآخرين ستبقى حية بيننـا تشهد على أمثولة التعاضد والمساندة بين البشر الذين يعون أن الكوكـب الأرضـي وطن واحد وأن مصيرهم لم يعد مجزأً."

هستيـــريا لا تناسب الرعب العام الذي كان يلف البلاد (كثَّلتْ كل أولادنا وعدَّاي يلعب طُوبة) كان عدي في ذلك الوقت مشغولاً حد الولع بمباريات كرة القدم، بينما يموت أبناء الخائبات علـــى جبهـــة الحرب.

لكن من اللافت حقاً أن يبـــدأ جيـــلُ الكهـــول مثـــل هـــذه الاحتجاجات بينما يكتفي جيلُ الأبناء بالذهاب إلى المحرقة.

هل كان يجب أن يموتَ كيسي في مدينة الثورة، التي تعدُّ أكثـــرَ مدينة عراقية فقدت من أبنائها سواء كقرابين لحـــروب صـــدام أو ضحايا لحكمه، يدلُّ على ذلك تبدل اسمها إلى مدينة صدام ثم مدينة الصدر، لتنطلق قافلة الاحتجاج هذه من تكساس معقل بوش بعـــد أكثر من سنة على مقتله؟

جيلٌ هو في الواقع ذاكرة أميـــركا الفيتنامية، الآباء الذين لم يتسنَ لهم سرد القصص المزعجة لأطفالهم قرب أسرَّتهم قبل النوم ولا ينبغي لهم ذلك بالتأكيد، يجدون أنفسهم مدفوعين هذه الأيام بقوة لإعادة سردها وتمثيلها في شوارع المدن الأميـــركية، يلاحقون بها نهـــارات جورج بوش قبل أن تلاحقهم في لياليهم وتقضَّ مضاجع المزيد منهم.

لكنَّهُ جيلٌ يسعى من جانب آخر إلى تجديـــد ذكرياتـــه بحيويـــة الستينات والسبعينات، في ذروة صعود اليسار، ودعوات السلام واللا عنف، تلك التي أرادت من العالـــم أن لا ينـــزلق نحو حرب كونية جديدة، لكن ها هو يقع في أتون هذه الحرب الكونية، على الأقل من وجهة نظر بوش نفسه، وإن جاءت هذه المرة على مراحل متقطعـــة وأجزاء مسلسلة.

وإذا ما كانت ذروة عصر الروك بشكل ما عبــر عنــها جيــلِ الحرب الفيتنامية، يوم كانت الساحات والهــواء الطلــق مــستعدة لاستيعاب هذه النبــرة الاحتجاجية الجماعية والتمرد السلمي، فهــا هو يتقدم الصفوف ثانية ليعيد مجد الرفض بفوضى خلاقة حقاً.

لكن بوش نفسه من الجيل ذاته بيدَ أنَّه لم يخدمْ في فيتنام بل بقي، طيلة خمس سنوات من ذروتها، يخدم في الجبهة الداخليــة للحــرس الوطني فيما كان أقرانُه يقضون نَحْبَهم وشطراً من حياتهم في الأدغال المفخخة ومستنقعاتها المخيفة وهو وإن تخلص من عقدة (محــارب في فيتنام) في سباقه الرئاسي ضد كيــري حينما جعل تلــك المعركــة وراءه تماماً، وهي لم يعدْ بمقدورها إسقاطه في انتخابات لاحقة ما لم تسقطهُ ضربةٌ قاضيةٌ غيــر معلومة. إلا أنه اليوم في مواجهــة تلــك العقدة التي تسعى لتجريده من صفة الرئيس المنتصر.

غيــر أن الديمقراطية الأميــركية تُظهرُ مزاجاً أميــركياً آخر لا يعيش على ما يبدو تحت سقف الفوبيا القديمة، فثمة من بين عوائــل الجنود الموجودين في العراق، من جعل من حدود معسكر كيــسي وسياجه الخارجي مناسبة للإعلان عن توجه آخر لــدى الــشارع الأميــركي، ولكن الأمر كان كذلك فعلاً في حرب فيتنام، فأنصار نيكسون، لم يستسيغوا خلاصة صورة أميــــركا بوصــفها مجــرد (عملاق يثيــر الشفقة) المسرح خلقهُ هؤلاء وأولئك أيضاً، الفوبيــا الجماعية بصيغتها النهائية صنعها الخائفون والمطمئنون معاً.

فهل كان بإمكان بوش أن يسقطَ نظام صدام دون احتلال البلاد بالطريقة التي تم بها، ليتجنب الاصطدام بأشــباح تلــك الــذكرى السوداء؟ بالنسبة لمعظم العراقيين نعم كان يمكنــه ذلــك إن أراد،

فالنظام كان متداعياً أصلاً، لكنْ بالنسبة لإدارته فإن إقامة الديمقراطية على الطريقة الأميـــركية وتغييـــر الخريطة الـــسياسية للمنطقـــة، لا يُمكنُ إنجازها إلا بوجود أميـــركا في هذا التوقيت في هذا المكان.

بيد أنَّ الحكايةَ التي ترويها اليوم نساءٌ ضد الحرب لم تبدأ من هُنا، بلْ بدأت حتى قبل أن تسيل أية قطرة دم أميـــــركية قبـــل شـــن الولايات المتحدة حربها لإسقاط نظام صدام واحتلال البلد.

قد يكون الأمر بالنسبة للمغنية اليابانية يوكو أونو أرملـــة مغـــني البيتلز الشهيـــر جون لينون، مختلفاً نوعاً ما، فهي وإن فقدتْ زوجها بفعل العنف المتصل بالحروب أيضاً عندما اغتيل بعد ســـنوات مـــن مواقفه المناوئة لحرب فيتنام، إلا أنها ليست من أرامل بوش ولا ثواكل حربه، موقف أكونو يمكن تفسيـــره هنا بصور شتَّى بينـــها ميولهـــا اليسارية، والتقليعات المرتبطة بفرقة البيتلز وعصرها الذهبي، وإحيـــاء لذكرى زوجها الراحل، ولهذا فلا يمكن شخصنة موقفها، ويمكـــن كذلك تفسيـــر لماذا بدأتْ الحكاية عندها باكراً جداً، عندما قادت حملة إعلانية قوية ضد حروب أميـــركا، بلغت ذروتها عندما أقدمتْ في عرض للسلام أقيم في باريس بعد بضعة أشهر من حرب أميـــركا في العراق، على دعوة الجمهور إلى قصِّ أجزاء من ملابسها بالتقسيط من أجل السلام لتكشف عن جسمها وهي في السبعين من العمـــر، مستعيدة، هي أيضاً، أيام الشباب عندما أقدمت في منتصف الستينات على دعوة الناس لتقطيع ملابسها والتعرِّي في عرض دعائي للسلام.

ويبدو أن لأميـــركا ذاكرةً في بغداد أبعد من بؤس مدينة الثـــورة وتاريخها بل وأبعد حتى من خسائرها في الحلم الضائع في جزر(الهند الصينية) تحاصر بوش هذه الأيام، الذكرياتُ البغداديةُ في الخمسينات،

وصورةُ فيتنام في الستينات والسبعينات استيقظت دفعة واحدة لدى جوان بايز، أشهر رموز جيل الروك الأحياء، لتمنحَ معسكر كيسي جذباً إضافياً ونوعياً،عندما حملت كيتارها لتغني في الهواء الطلق، مستحضرةً صورة أول تجمع مناهض لحرب فيتنام، وبدا لها مئات الأشخاص من المفجوعين بالنجوم الذهبية، حشداً ضخماً لأنها تتذكر أنهم بدأوا بعشرة أشخاص فقط في حملتهم الأولى، هل من المثير هنا أنْ نتذكرَ أنَّ بايز كانت قد عاشت سنة واحدة في بغداد بين عامي 1951 – 1952، عندما كان والدها مُنتدباً من قبل اليونسكو لإنشاء أول مختبرات الفيزياء والتعليم في جامعة بغداد، حيث أَلَّفَ كتاباً عن ذكرياته هناك تحت عنوان (سنة في بغداد) ضمنه رسوماً لابنته جوان رسمتها في بغداد عندما كانت في العاشرة.

جوان المتأثرة بأفكار اللا عنف من غاندي إلى مارتن لوثر كنج، غنت في الشوارع بالمجان ضد حرب فيتنام وردَّد معها مناوئو الحرب (سوف ننتصر) ولم يكن نصرها هو الذي يعنيه بوش اليوم بالتأكيد، ورفضت دفع الضرائب كي لا تدعم بورصة الدم، التهمة ذاتها التي يسوقها مؤيدو الحرب للتشنيع على شيهان.

ولكن هل هي ذكريات الستينات، ومأساة فيتنام وحدها من دفع بايز إلى العودة للغناء في الهواء الطلق؟ تقول بايز في شهادتها عن فترة وجودها في العراق (إن إحساسها بالعدالة الاجتماعية ولد هناك عندما رأت الفقراء من أهل بغداد وهم ينقبون في مزابل الأسرة الأميركية.)

إنهم الفقراء ذاتهم الذين قتل كيسي في أكثر مدنهم فقراً.

(عندما أفكر في الله أرى الأرض صغيرة جداً) هكذا تقول في واحد من لقاءاتها، ولكن لنر كم أصبح العالم صغيراً، من جانبنا نحن في الطرف الآخر من الأرض، شخصياً أحس اليوم بأكثر من صلة عاطفية مع معسكر كيسي، ليس لرفضي للوجود العسكري الأميركي في بلادي، ولا لأن كيسي قتل في مدينتي الفقيرة السابقة التي لا أعرف عنها العداء للغرباء، ولا لأن جوان بايز عاشت في بغداد قبل أن أولد بعشر سنوات، ولا لأنني خدمت في الجيش قبل عشرين عاماً في حرب لا أومن بها مثل كثير من الجنود الأميركيين الذين أتعاطف معهم اليوم حقاً، حينما أراهم يدفعون إلى الحرب تحت شعارات زائفة، ليس لهذا كله فحسب، بل لأنّ الذّكريات أحياناً تعيدُ تشكيلَ العالم الواسع في الأرض التي رأتها جوان بايز صغيرة، ويرى المحتجون، في واحد من شعاراتهم، بأنها (صغيرة جداً على الحروب.) تماماً كما كنا نتصورها في طفولتنا، وكما يظهرها الزمن في تتابعه فعلاً كم هي الأرض صغيرة حينما تكون خميرتها معجونة في كون مشترك؟

تستيقظ فيتنام في وجدان جوان بايز، بينما تستيقظ في وجداني، مع العودة الظافرة لبايز، ذكريات ثلاثين عاماً في المدن التي ظلت على فقرها بعد أن غادرتها بايز، وتلك التي نشأت في ما بعد على تراث الفقر ذاته، ولا تزال كذلك حتى بعد أن قتل كيسي شيهان عند احد مداخلها بعد أن فشل قادته في إقناع سكانها بغير ذلك.

في منتصف السبعينات، وكانت حرب فيتنام قد انتهت، لكن زلازلها ظل يتردد قصصاً في شتى أرجاء الأرض، دار الحديث بين

شباب الحي عن عودة الملاكم محمد علي كلاي لاستعادة لقبه الذي فقده بسبب رفضه الخدمة العسكرية في حرب فيتنام، وكان كـــلاي شاغل البلاد والعباد آنذاك بقبضاته أكثر مـــن طـــائرات نيكـــسون ودباباته، ومدافع جونسون وبوارجه، كنت أنا الأصغر سناً أتطلـــع لأحاديث الشباب الذين يعرفون أكثر مني عن العالـــم الـــصغيـــر، وعن كلاي الكبيـــر، لكن (صكبان) وكان ذا تكوين خاص مختلف عن بقية أقرانه، انبـــرى ليوجه الحـــديث بعيـــداً عـــن القبـــضات الأسطورية التي كنا نحسها تدافع عنا! كانـــت قبـــضات كـــلاي ونـــزالاته أهم بالنسبة لنا من حرب تدور رحاها في الأدغال البعيدة، وكنا نحب كلاي (الأميـــركي) الذي لم نصدق للحظة أنه كذلك، بغضاً بأميـــركا نفسها!

انبـــرى صكبان ليتحدث عن تلك المغنية الأميـــــركية نـــصف المكسيكية التي غنت أمام مئات الآلاف من أبناء (هوشي منـــه) في هانوي خلال أعياد الميلاد بينما طـــائرات ضـــخمة مـــن بلادهـــا الأميـــركية تقصف الناس في المدينة! كان حديثه يصطبغ بنوع مـــن الترجيح لموقف هذه المغنية على موقف كلاي الذي لم نكن لنصدق أن شيئاً سوى قبضاته يستطيع أن يقف ضد أميـــــركا ويهزمهـــا، وأعدت رسم المشهد بمخيلة الطفل، حيث تسقط القنابل على رؤوس الناس بينما تستمر هذه المغنية في الغناء كأنها تقول للناس عليكم أن تموتوا وأنتم تنصتون لي، ثم تخيلت الأمر وكأنه نوع مـــن الخدعـــة الأميـــركية حيث أرسلت جاسوسة لتجمع الناس حولها وتغني لهم، فتأتي طائرات بلادها على إحداثيات الغناء لتقصفهم وتربح الحرب،

وتعجبت كيف لم تربح أميركا الحرب ضد هؤلاء العزل الذين يستمعون لأغنية ولا يحاربون!

قتل (صكبان) بعد عام من تلك الحادثة في معارك الشمال بين الجيش العراقي والمقاتلين الأكراد، ومع أنه حاول رفض الموت بالهرب من الخدمة العسكرية كما فعل كلاي، إلا أنه أعيد لها مجبراً، ليموت أعزل ليس بيده سوى شفرة الحلاقة حيث كان مشغولاً بحلاقة ذقنه عندما سقطت عليه قذيفة هاون.

لا أدري ما إذا كان (صكبان) يعرف، أن جوان بايز عاشت سنة من صباها في بغداد، ولكنَّهُ ترك في داخلي، بحديثه وموته في ما بعد، أثراً من الإعجاب بهذه المغنية لأهتم بأخبارها وها هي اليوم تعود لتعترض على الحرب: عزرائيل النموذجي المشترك في خلق سلسلة المآسي التي تحيط بنا مثلما أحاطت البشرية في كل وقت.

ولكن أين تصنع فيتنام في النهاية؟

المكان والزمان نسبيان هنا إلى حد بعيد.

ومن يصنعها: الجنرالات والمتحاربون في الأراضي البعيدة؟

أم ضحاياها وثواكلُها وأراملُها في أرض الميلاد؟

أم رموزُ عصر الروك والبيتلز والمثقفون الأميركيون الذين وقّعوا وثيقة (ليس باسمنا) رافضين حروبَ أميركا الأخيرة قبل أن تقع؟

مع هذا كلّه فقد لا تتشكّلُ فيتنام الآن، أعني أن قيامتَها لم تحنْ بعدُ، لكن أليست (القيامة الآن) فيلم فرانسيس كوبولا عن فيتنام، والروح الشريرة التي صنعتها جاء متأخراً بضع سنوات عن نهاية

تلك الحرب؟ ألم ينقلها كوبولا عـــن (قلـــب الظلمـــة) لجوزيـــف كونـــراد، بعد ثمانين عاماً من غابات أفريقيا ومجرى نهر الكونغو إلى دلتا نهر الميكونغ والمستنقعات على تخوم (الأرض الطيبة) ومجاهلها.

الأميـــركان في أميـــركا هم الذين يأخذون أنفسهم نحو مجاهـــل فيتنام هذه المرة، بـــرحلة مفترضة وفي وقت مبكر، وبنوع من أعادة تمثيل الفوبيا الجماعية واستحضارها، حتى قبل أن يقودهم أحد نحـــو هذه المنطقة المظلمة والمخيفة.

لدى ستالين ما يعود لأجله.

أنْ يعودَ ستالين إلى موسكو في نصب تذكاري لتخليده بصيغة جديدة إلى جانب ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني والرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت، الزعماء الذين ساهموا في هزيمة دول المحور في الحرب العالمية الثانية، فإن للأمر فحوى أبعد من دلالته المتأخرة المعبرة عن انتصار قديم للعالم الذي لم يعد حديثاً هو الآخر.

وهو أمر لا يندرجُ، كذلك، في سياق منافسة أوروبية أنكلو سكسونية لإغاظة الألمان، أو ماداعبة عقدهم التي تحرروا منها، أو هي رسالة إلى أولئك الذين ينتظرون عودة النازية بنوع من النوستالجيا، فالقصة أكبر من مجرد رفع التعاويذ بوجه شبح مفترض.

لكن إعلان روسيا بوتين (وريثة المجد السوفياتي) عن نيتها إزاحة الستار عن نصب يمثل القادة الثلاثة لمناسبة الذكرى الستين لانتصار الحلفاء على هتلر لا تنحصر دلالته في المنطقة الظاهرية التي وضع فيها بقدر تعلق تلك الدلالة بعودة ستالين إلى الواجهة من جديدة، عودة من شأنها أن تستدعي تأويلات إضافية عن أهمية تجديد الرموز في

روسيا ما بعد الإتحاد السوفياتي، وفي تحريك البـــركة الراكدة الـــتي وضعت بها شخصية الرجل الغليظ نفسه طيلة العقود الماضية.

فستالين لا يقف هذه المرة، بين ماركس ولينيين ليـــشكل الرمـــز المثلث للشيوعية، ولا بين تروتسكي وبوخارين ليعيد التوافق للثلاثي البلشفي الذي لم يصمد طويلاً في الثورات الداخليـــة إذ انـــسحب (الرفيقان) دون عودة، إلى التحليل ورثاء (الثورة المغـــدورة) بينمـــا واصل ستالين ثورته ليطيح بثنائي آخر داخـــل القيـــادة البلـــشفية: كامينيف، و زينوفيف ليصبح لا مجرد حاكم مطلق للإتحاد السوفيتي في عصر استثنائي من تاريخ البشرية، وإنما الممثل لمرحلة مهمة مـــن ذلك التاريخ.

وها هو يتهيأ لينتصب بتمثاله الذي سيتطلع الكثيـــرون لقراءتـــه تعبيـــرياً ورمزياً، في حقبة تالية من التاريخ، خاصـــة في تـــشكيله الجديد واقفاً واحداً بين ثلاثة رفاق قدامى جدد! لن يشكلوا الأمميـــة الرابعة التي حلم بها تروتسكي بالتأكيد، لكنهم رفاق سلاح قد ينجح جمعهم في الوقت الحاضر في خلق رومانسية أدبية متعددة العناصـــر تذكرنا (بالرفاق الثلاثة) في رواية الألماني ريمارك التي تحمل الإســـم ذاته.

فإزاء تبدل صورة ستالين خلال نصف القرن الأخيـــر، وتحولهـــا الجدلي، إلى درجة وصلت معها حدين متناقضين تماماً من التأليـــه إلى التشويه، تضعنا عودته ولو بتمثال، أمام سؤال مختلف، بعدما دأبـــت الديماغوجيا الإعلامية على ترسيخ هذا التحول بتغذية الجدل حـــول ستالين بالمزيد من جرعات (الحقائق التاريخية) والشحن الإنساني عن تاريخ (ضحايا الستالينية) وهم كذلك فعلاً، لترسم بالتـــالي هـــذه

الصورة المضادة لشخصية ما كان ينبغي النظر لها إلا عبر توازن يبدو مفقوداً اليوم، ولا نقدها إلا وفق منظور موضوعي لم يكن متاحاً تماماً ولا يزال، في إعادة تقييم شخصية ينوس تأثيرها بين الإستبداد والبناء، وتقصي أثرها في تشكيل مسار الصراع في العالم خلال النصف الأول من القرن الماضي.

فقد عزز الطابع الجدلي لشخصية ستالين، بقاء صورته أسيرة طرفين يحددانه بين أن يكون حياً وفاعلاً في اللحظة، وبين أن يكون غائباً ومحلاً لتأويلات عدة بعد رحيله.

موت ستالين كان ذاته منطلق الصياغة الجديدة لتاريخه الآخر، التاريخ الذي لا يتدخل هو في صناعته، هذه المرة، بقدر ما تضطلع بتصويره أيد أخرى تعمل بجد على التنقيح والترجيح، لتصحيح تاريخ مفترض.

فمنذ إجماع الحزب الشيوعي بعد رحيله بسنوات على نقل جثمانه من جوار جثمان لينين المحنط في الساحة الحمراء، إلى مقبرة الكرملين، بدأت سيرة أخرى لستالين، تحت ذريعة إعادة الإعتبار لملايين الضحايا الذين سقطوا خلال فترة حكمه الممتدة لثلاثة عقود، ولمنع نزعات عبادة الشخصية التي ارتبطت بعهده من التحول إلى عقيدة شيوعية، لكن الواقع يشير إلى أن عصر التأليه وتضخيم الرموز لم ينته بالكامل، بمجرد نقل جثمان (الرجل الفولاذي) من ساحته الحمراء، بدلالة بقاء جثمان لينين وحيداً في تلك الساحة، إنها أيضاً قضية تخص ستالين أكثر من سواه، أو بالأحرى هي قضية تتعلق بالصراع الداخلي، والنزعة لتصحيح الخطأ في القيادة البلشفية، باللجوء إلى شخصنة الفكرة، وإلا كيف يمكن لخروتشوف مثلاً أن

يصبح قائداً لدولة عظمى كالإتحاد السوفيتي، وسكرتيـــــراً عامـــاً للحزب الشيوعي وهو لا يمتلك (الرمزية المفخمة) لــسابقيه ليـــنين وستالين، فقد تيقن خروتشوف بتاريخه المتواضع، قياساً إلى ســـلفيه، من انتهاء عصر الأسماء التي تكتسب مدلولاتها من قوة الإسم ذاتـــه كما هو الحال في اسم لينين، أو من قوة وصلابة الفعل الذي يؤديـــه القائد كما هو شأن ستالين الذي طغى اسمه المكتسب علـــى اسمـــه الحقيقي تماماً.

هكذا إذن بدأت حملة إنهاء تكريس عبادة الشخصية وانتهت عند حدود ستالين و لم تطل لينين المحنط في مرقده، وجرى اختزال الأزمة بحدودها المتشابكة تاريخياً وعالميـــاً وداخليـــاً، بحمـــلات التـــصفية والتطهيـــر التي نفذها (الجورجي الوقح) كما كان يسميه لينين من أجل (شيوعية ستالينية.)

موت ستالين في هذه الحال يشبه هزيمة خصمه هتلـــر، مـــع أن صلابة جوزيف كانت سبباً رئيسياً في هزيمة حلم أدولـــف، ذهـــب حلم الرايخ الألماني الثالث أدراج الرياح الأوربية، تماماً كما وصلت الأممية الثالثة إلى نهايتها الطبيعية على يد ستالين لصالح شيوعية محليـــة واقعية، بينما بقي موت الغريمين يخضع لمقاربتهما بشكل من الأشكال ليضعهما في خانتين متجاورتين تكادان تتداخلان: الاستبداد وصناعة الحروب التي تحرق الجميع، دون التدقيق ملياً في كنه اللحظة التاريخية التي جعلتهما في التوافق مرة وفي المجابهة لاحقاً، وفي هذا الأرث الذي يـــريده الكثيـــرون ان يكون مشتركاً اليوم.

لكن تماثيل وصـــور الإســـم الـــصعب والطويـــل (جوزيـــف فيساريونوفيتش دجوغاشفيلي) التي طردت من ساحات الجمهوريات

الحمراء بالتدريج لا يمكن مقارنتها بالتأكيد مع عمليات التطهير من بقايا النازية في ألمانيا وفي أوربا عموماً، فهذه نتاج طبيعي لحرب كونية راح ضحيتها خمسون مليون نفس بشرية، وتلك واحدة من تفاعلات حرب باردة أعقبت حرائق أوربا والعالم.

حتى هتلر نفسه، يمكن وصفه دون كثير من التردد بأنه واحد من ضحايا صناع السير النمطية التي لا ترى إلا وجهاً واحداً من الحقيقة.

عودة تمثال ستالين، قد تعني لنا نحن الذين نعيش في غابة من التماثيل معنى آخر يثير صدمة ممزوجة بالذعر الذي سقط جزء مهم منه بعد سقوط تمثال صدام في ساحة الفردوس ببغداد.

فتقويض صورة البطل التاريخي للإتحاد السوفيتي كان يفترض أن تكون مقدمة نوعية لقيام بدائل رمزية نقيضة، قد يمضي الأمر بها للوصول إلى إقامة متحف لضحايا الحقبة الستالينية، وهي فكرة لا تبدو في منأى عن أذهان الكثيرين من أولئك الذين يصوغون الميديا لصالح فكرهم، بيد أن عودة ستالين في الربيع المقبل لن تكون من قبيل الدعاية لعشاق الطغيان والمعجبين بتاريخ العنف الستاليني الممتد من المنفى السيبيري إلى حرائق الفلاحين في القوقاز.

فسيتنصب إلى جانبه رموز الحرية والأبطال المخلصين، الذين أنقذوا العالم، وليس أوربا أو مصالحهم، من الهيمنة النازية.

إذن كيف نفسر هذا التضاد النوعي بين كل من الرمز والتاريخ والواقع؟

ومع هذا لن ينقذ وجود روزفلت وتشرشل، إلى جانبه في المشهد التذكاري، لن ينقذ ابن الإسكافي الجورجي القاسي، من مواجهة مرحلة جديدة من إعادة سرد وجه آخر من سيرته مع القسوة.

ربما كان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، يرى المستوى الآخر من الحكاية، ولا يغوص عميقاً في ترجيح مستوى السرد عن طبيعته وماهيته في متن الحكاية، فستالين في نهاية الأمر قاد أمة في طور جديد، تجاوز فيها فكرة روسيا القيصرية بالمعنى التاريخي، نحو بناء دولة عظمى وأحال شعباً من الفلاحين المشتتين الذين لا يعرفون للأرض غير معناها البدائي، إلى ورشة هائلة من الصناعات متعددة الأغراض لم يواجه بها الخطر النازي فحسب، بل أدار بها حرباً باردة لم ينهزم بها كذلك، وتركها لمن جاء بعده ولأربعة عقود بالمستوى ذاته قبل أن تنهار بصورة بدت دراماتيكية للكثيرين من الحالمين بتحقق التاريخ بصورته المثلى.

ومع هذا ثمة في الثقافات المهزومة والمأزومة على حد سواء من يصر، بصيغتي التبجيل أو التنكيل، على التوسل بصفقة مع الماضي عبر عقد مقاربة زائفة لشخصية ستالين، لعله يجد صورة لإحلامه وكوابيس في صورة رجل ميت.

ولعل واحدة من الخطوط العريضة للتشويه الذي طال شخصية ستالين في الوعي السياسي العربي، هي تلك المقارنة المتعسفة التي تسعى إلى مقاربة شخصيته بشخصيات الطغاة في بلداننا، وهي مقارنة تنطوي على نوع من الإستبداد المضاد، في أحلال الأصل في غير محله، بل في نقيضه من أجل وجه واحد ووحيد من المثال.

كان صدام نموذجاً ممتازاً يهيئ المــساحة المطلوبــة للخــوض في تفاصيل تلك المقارنة ابتداء من توافق الشكل الخــارجي بحــاجبين كثيفين ومقطبين، كأهما يعبــران عن القسوة أكثر مما تعبــر عنــه العينان، وبشاربين شهيــرين، مروراً بسيــرة طفولة قاسية مشتركة بينهما، مع أها مشتركة كذلك بين الكثيــرين من القــادة الطغــاة منهم والعدول. ووصولاً إلى حرص كل من (الطاغيتين) على الإلتزام بارتداء بدلة الحرب في شتى المناسبات.

صورة صدام التي حرصت وسائل الإعلام الغربي على اختيارهــا للنشر، بعناية واضحة، كان من شأها أن ترسخ هذه المقاربة بــأكثر صورها الدعائية تأثيــراً، كأها تقول حدق هذا الرجل إلا ترى إلى أي حد يشبه ستالين؟

وهذا فقد جرى إسقاط نموذج عشوائي لاحق، على أصل سابق، سحبت ممارسات صدام من راهنها لتلاحق ستالين ليس في الساحات الحمراء في الجمهوريات الشيوعية بل في ردهات التــاريخ المكتظــة بالمتناقضات، تماما مثلما جرى اهام نظرية التفــوق الــتي طرحهــا الفيلسوف الألماني نيتشه في كتابه الشهيــر (هكذا تكلم زرادشت) والتي انتهت به إلى الجنون، بإها السبب في إشعال الروح النازية لدى الألمان، عندما جرى سحب قراءة هتلــر الزائفــة لهــا وممارســاته الشخصية لفكرة التفوق، على الأصل الفلسفي الذي تقــوم عليــه نظرية التفوق الإنساني، أكثر من ذلك فإن هتلر نفسه كان واحداً من النماذج (المرحلية) التي جرى مقاربتها بصدام خلال فتــرة غــزوه للكويت ولمعت فكرة المجال الحيوي الهتلرية بوصفها مرجعاً تاريخيــاً تبناه صدام لتبــريــر احتلاله للكويت.

غيـــر أن هؤلاء المولعين بتقديم سيـــرة جماعية، قد تصل يوماً ما إلى صيغة جماهيـــرية عشوائية للطغيان. وخلطه بمتناقضات شتى، لم يتذكروا أن ستالين ساهم بشكل أساسي في هزيمة النازيـــة، وبـــنى مجتمعاً صناعياً في خطة خمسية لم يتطرق إليها عشاق هذه المقارنة في الغالب، وهي الخطة التي حققت، على الرغم ممـــا واجهتـــه مـــن مصاعب، معدل نمو صناعي فاق معدل نمو ألمانيا في العصر الصناعي، واليابان في النصف الأول من القرن العشرين، ناهيك عن التحـــديث الزراعي، وتحسين مجال الخدمات الإجتماعية والصحية والتعليمية.

ولم يتطرقوا أيضاً إلى الظرف التاريخي الذي أوجـــد ســـتالين في مواجهة هتلر، والشيوعية في مواجهة النازية، مـــع كـــون الحـــزبين يشددان على " مبادئ، تبدو متطابقة وغيـــر متنافرة مـــن قبيـــل: حقوق العمال، وتطبيق الإشتراكية، فالحزب النازي في الواقع ما هو في تسميته الأساسية سوى (حزب العمال الوطني الإشتراكي)

ولم يلتفتوا كثيـــراً إلى تشديد هتلر على أن سبب هزيمة ألمانيا في الحرب العالـــمية هم الشيوعيون واليهود، وبينما توسع الهلوكوست اليهودي إلى (قربان كامل وممتد عبـــر التاريخ) جرى تقريب المسافة بين هتلر وستالين إلى حد مثيـــر.

والمثيـــر للسخرية هنا أن صدام نفسه كان يعبـــر عن إعجابـــه بستالين في مناسبات عدة، لكنَّهُ لم يثبت أعجابه هذا إلا بما ثبته عليه أؤلئك الذين شبهوه بستالين لناحية: الإستبداد والشهوة للعنف.

ففي الفرصة الأخيـــرة له لأن يثبت أعجابه بستالين أو حتى هتلر بممارسة عملية، لم ينجح صدام في أن يجعل من أي مدينة في بغـــداد

ستالينغراد جديدة أو عاصمة لرايخ جديد لن يغادرها حياً. فحــتى المدينة التي أطلق عليها اسمه كانت من بين أولى المدن الــتي هللــت لسقوطه، ليس لأن ستالينغراد على الفولغا ومدينة صدام (الثــورة) على دجلة بل لأن ستالين غراد غيــرت اسمها القيصري بعد حرب أهلية سبقت الحرب العالــمية الثانية بعقدين، لتصبح رمزاً لوحــدة الإتحاد السوفياتي، واحتفظت باسمها مضاعفاً بعد أن أضحت ســوراً منع الألمان من احتلال موسكو لتغدو عنواناً أوضح ليس لهزيمة هتلر فحسب، بل لانتصار العالــم، ربما لهذا سنجد الكثيــرين مــن لا يعرفون من المدينة اسمها اللاحق الــذي غيــــره خروتــشوف إلى فولغوغراد، ولا اسمها القيصري القديم (تساريتسين) بــل يعرفوهــا بالتأكيد (ستالين غراد) دون ان يعني ذلك بالتأكيد تكريساً لتأليــه قائد مات و لم يحتفظ بمكانه في الساحة الحمراء.

ثمة فرق كبيــر، لا شك، بين طاغية يشعل الحــروب في كــل الجهات دون أن ينتصر في أي منها، وبين آخر يدخل في حرائقهــا المتجهة نحوه دون أن ينهزم في أية واحدة، لم يشعل ستالين الحــرب العالــمية الثانية بل كان سباقاً إلى توقيع معاهدة مع ألمانيــا في ذروة صعود النازية فيها، و لم يدخل في أتونها إلا بعد غزو ألمانيا لأراضــي الإتحاد السوفييتي، و لم يكن حليفاً رخواً للغرب، في أية مرحلة مــن مراحل الحرب.

من الطبيعي أن لا تنحي هذه الحقائق، الواقع الآخر الذي طبــع الحقبة الستالينية من عنف دموي وتهجيــر قسري ونفي متزايد، بيد أن ما يبعث على الريبة في توجيه هذا الواقع، هو عزل دورة العنــف الستاليني عن محيطها التفاعلي الذي ولدت فيه وتنــسيبها إلى نقطــة

مركزية تتمثل في شخصية ستالين لا غيــر، حتى أن ثمة من يتطرف في تكثيف تلك الدائرة ليذهب إلى أن الملايين من ضـحايا الحــرب العالــمية الثانية هم من بين عداد المحرقة الستالينية، وأن التهجيــر السياسي الذي كان يمارسه ستالين ما هو سوى نوع من التطهيــر العرقي، وأن فكرته المستحدثة عن التعاونيات الزراعية هي جزء مــن حرب شرسة قادها ضد الفلاحين البسطاء.

وأيديولوجياً، نال ستالين مزيداً من التشنيع، عندما ظل التنــازع بين أممية تروتسكي، ومحلية ستالين، بؤرة إضافية لنقد تجربته، بينمــا أفرزت وقائع العقود اللاحقة (شيوعيات محلية) أقل طوباية في الواقع العملي من الأمميات التي تعددت مفاهيمها و لم تتحقق.

أغلب الظن أن أزاحة الستار عن تمثال ثلاثي (تحريــر العالــم من خطر النازية) في أواخر ربيع 2005، سيكون في الواقع أزحــة للستار عن وجه آخر لستالين غيــر الذي تشكل طيلة نصف القرن الأخيــر بوصفه النموذج الأمثل للعنف والإستبداد، وجه قد يتيح لنا فرصة لنــرى جانباً آخر من أعمال الرجــل الفــولاذي، الــتي لا تتلخص في قبضة فولاذية لضرب الخصوم، بل أيضاً في إرادة قوية في بناء دولة عظمى، صارت جزءاً من حقبته ولعلها كانت من ضحاياه في الوقت نفسه.

البحث عن (جنّة عدن) أم مقابر السومريين، أم نور كونراد؟

لا تحفل المعاجم العربية كثيراً بمعالجة مصطلح (الهور) مكانياً وبيئياً، ولا حتى في تحديد جذره اللغوي العربي كثيراً، بما يقارب المستنقعات المائية الغائرة التي تعرف في العراق باسم الأهوار، ولعل معجم تاج العروس في جواهر القاموس للزبيدي، هو من بين تلك المعاجم القليلة التي توقفت، وإن عبوراً، عند المعنى المتداول اليوم عن (الهور) بكونه بحيرة تغيض بها المياه وتكثر فيها بيوت القصب، وإذا ما علمنا أن الزبيدي عاش في القرن الثامن عشر، وأن أصله من المحيط القريب للأهوار الذي كان ملتصقاً به ذات يوم، وكان مسقط رأسه يمتد إلى أعماق آسيا[1].

عرفنا الأبعاد المتلبسة لهذه المفردة التي ستنسحب على تلك البقعة القلقة وعلى سكانها وأصولهم.

([1]) محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي الملقب بمرتضى 1732 – 1790 م أصله من واسط بجنوب العراق ومولده بالهند ومنشأه في زبيد في (اليمن) توفي في مصر بالطاعون.

عن: الاعلام لخير الدين الزركلي.

إنها مفردة أوسع من حدود اللغة القومية، وبيئة لمكــان يمتــد إلى أبعد من صورة العراق التاريخي ليلتصق بصورته الأسطورية القلقة.

الأهوار هي موقع (جنة عدن) كما يــرى العديد من البــاحثين التوراتيين، الذين يكادون يجمعون على ذلك، خاصة وأن الكتــاب المقدس (التوراة تحديداً) تحدد موقع جنة عدن عند حدود أربعة أنهار هي فيشون وجيحون وحداقل (دجلة) والفرات[1]، ويتعــزز هــذا الرأي بتأكيد أن شجرة آدم غرست هناك عند ملتقى دجلة والفرات، وإذا عرفنا أن نهر الكارون المجاور يعرف أيضاً باسم جيحون، سنجد للبحث التوراتي عن الفردوس الأرضي وشجرة آدم، مياهاً كثيــرة جعلت الأرض خصبة بما يكفي لغرس تلك الشجرة ما بــين دجلــة والفرات.

السومريون، الذين عاشوا قبل تدوين الكتاب المقدس و لم يــرد فيه شيء مهم عنهم، كالذي أورده عن أنهارهم، لهم ما هو أرجــح من الأساطيــر، في هذه الأرض أو الفردوس الأرضي الأكثر خصوبة حيث كانت الأمطار قبل أكثر من ستة آلاف سنة لا تكاد تنقطــع عن هذه المنطقة.

أكثر من عشرة آلاف كيلو متر مربع (بعض المستشرقين تحــدث عن ضعف هذه المساحة) هي المساحات المائية التي كانــت هــذه المناطق تمتد إليها لتصل إلى الأطراف الجنوبية لمحافظة الكوت جنوب بغداد. هكذا كان الأمر حتى الخمسينات عندما بدأت تتراجع شــيئاً فشيئاً بفعل عوامل عدة لعل من بينها كثرة السدود على نهري دجلة

[1] سفر التكوين، الإصحاح الثاني.

والفرات داخل أراضي كل من تركيا وسورية وحتى الأراضي العراقية نفسها، مما خفف من عنف العناق بين النهرين في الجنوب. لقد أخذت حرب المياه المبكرة كثيراً من هيجان رحلة النهرين وفوضاها الجميلة نحو الجنوب قبل أن تأتي حروب النيران الملتهبة على ما تبقى من عنفوان النهرين.

هذه المنطقة المتشكلة من فوضى اللقاء وفرط العناق وشهوته بين النهرين العظيمين دجلة والفرات بدأت تتراجع شيئاً فشيئاً، فتقلصت تلك المساحات من (جنة عدن) والمهد الأول للحضارة البشرية، لتصبح مجرد مهب للعواصف الترابية والسواتر والخنادق بفعل الحروب التي شهدها العراق خلال ربع القرن الأخير.

من هنا تأتي أهمية إعادة (السلام) لهذه البقعة المعزولة في العصر الحديث، في بلد لا تعرف جغرافيتها الواسعة إلا الحرب.

وربما لهذا اهتمت صحافة الغرب، بتغطية عودة حياة الكائنات الحية إلى هذه المستنقعات المائية[1].

والواقع أن الأهوار ظلت حقلاً استشراقياً معرفياً، حاله حال حقل التصوف والحركات الفكرية النافرة في التاريخ الإسلامي، والمدن الأثرية، وقصص ألف ليلة وليلة في مرحلتها البغدادية.

فقد تعرفنا على مشاهدات المستشرقين عن الأهوار خلال السبعينات خاصة بعد صدور ترجمة كتاب كيفن يونغ (العودة إلى الأهوار) ومن خلال بحوث ليدي درور، وولفريد ثيسكر وسواهم،

---

(1) بشكل أكثر تحديداً: الهيرالد تربيون في عددها 8 آذار 2005.

لكن التجربة الحية التي واكبناها خلال السبعينات كانـــت العمـــل الميداني الذي قام به الرحالة النـــرويجي المغامر ثور هيــــــردال،تحت اهتمام أعلامي ملحوظ، عندما حاول أن يستفيد من نمـــط حيـــاة المعدان وسكان الأهوار وتقنياهم في بناء السفن لبناء سفينة القصب والإبحار منها عبـــر دجلة مروراً بالخليج ووصولاً إلى المحيط الهندي، ليحاول إثبات أن العراقيين القدامى أبحروا مرة نحو شرق أسيا، لقـــد استفاد هيـــردال، في مشروعه الذي سماه (حملة دجلة) مـــن قـــدرة القصب والبـــردي على امتصاص المياه بسرعة خاصة وأنـــه وجـــد العشرات من الأبنية ذات المعمارية الغريبة وهي تعوم عبـــر سنوات على المياه المتحركة، لقد حاول أن يثبت أن وجود نوع من القيـــر الذي تدعم به وصلات البـــردي وقـــضبان القـــصب، ومعرفتـــهم المبكرة للنفط الثقيل في طلاء سفنهم، ساعدهم على اكتشاف طريق المياه السريعة عبـــر المحيطات.

التحول من النظرة الاستشراقية، نحو البحث البيئي الإنساني، جاء خلال العقد الأخيـــر عندما أضحت الأهوار مجالاً حيوياً للتجاذبات السياسية، بعد الحملات التي شنها النظام السابق ضد سكانها خاصة بعد انتفاضة العام 1991في الجنوب حيث جميع سكان الأهوار مـــن الشيعة العرب، وإذا كان الأكراد يـــرفعون لافتة مأســـاتهم عبــــر طرفي (الأنفال وحلبجة) فإن الأهوار هي لافتة الشيعة وهم يحملونها معادلاً لجمع المأساتين في فكرة واحدة، تجمع بين القتل والترحيـــل وهدم المساكن والإبادة وإخفاء المعالم البيئية لحضارة تعود إلى آلاف السنوات.

وما إن احتلت القوات الأميركية العراق، حتى بدأ برنامج الأمم المتحدة للبيئة بإطلاق مشروع تحت عنوان (استعادة جنة عدن)، مؤكداً أن العام 2003 هو عام استعادة تلك الجنة[1]، غير أن الأحداث الأمنية جرَّت الحلم إلى منحى آخر، كما أن بقاء سكان الأهوار على عصيانهم، عطل أي مشروع لإعادة إحياء الجنة، فسكان الأهوار ليسوا مجرد ثوار عقائديين ضد نظام معين، وإنما العصيان هو عقيدتهم الدائمة، ولم يكن حملهم السلاح ضد نظام صدام مجرد تمرد مؤقت فهم (خوارج دائمون) لا يمكن لأحد أن يتدخل في شرائعهم أو يخضعهم لنظم جديدة خارج ما درجوا عليه من نواميس متأصلة.

هذه المناطق التي قد تصبح، إذا ما استقر العراق، واحدة من أبرز المكتشفات السياحية ذات العمق الأسطوري والتاريخي والتكويني الهائل، لم تعرف نشاطاً سياحياً على الإطلاق، بل ظلت مجرد منطقة مبهمة وغامضة يقتصر الاهتمام بها على الباحثين والمستشرقين والمغامرين، والباحثين عن أوراق للعب السياسي.

وبينما نعرف أن الأراضي المنخفضة (هولندا) جرى بناء جانب منها بعد ردم مساحة من البحر، ليستقر القراصنة في يابسة جديدة، فإن جانباً مهماً من الأهوار جرى ردمه بكميات هائلة من التراب، فقط لتكون ممراً سالكاً للمدرعات والدبابات والآليات العراقية المتجهة إلى الشرق في حرب الثماني سنوات ضد إيران.

---

(1) كانت منظمة (هيومان رايتس ووتش) قد أعدت تقريراً مطولاً في كانون الثاني عام 2003، تحت عنوان (عدوان الحكومة العراقية على عرب الأهوار- دراسة للإحاطة)

وقبل الحرب بقليل كان صدام أول رئيس في العراق يزور منطقة الأهوار بعد استلامه الحكم مباشرة، وقضي فيها وقتاً تحت كاميرات تسجل له كل حركاته، لكنَّهُ لم يفطن إلى الخصوصية البدائية النادرة التي تحملها تلك المنطقة، وبينما كانت المشاحيف البدائية هي أوضح صورة للتنقل في ممرات الأهوار فإن القوارب البخارية التي استخدمها صدام وهو يضع الكوفية الحمراء علي رأسه، غير المألوفة في المنطقة هي الأخرى، كانت مشهداً جديداً على الناس، ولما سأل صدام أحد شيوخ القبائل فيها إذا ما كان يعرفه، أجابه الشيخ أنه ربما شاهده في التلفزيون عند زيارته للمدينة قبل فترة. ولما لم يكن ثمة تلفزيون في الأهوار بل ولا حتى كهرباء، فقد قهقه صدام وقال للشيخ إنه سيهدي لهم تلفزيوناً يعمل بالبطارية لكي يشاهدوه دائماً ويتذكروه، لم يكتف صدام عند هذا الحد بل، أنشأ مضيفاً يحمل اسمه في المنطقة.

الغريب أن هذه الحادثة تحولت إلى نكتة سياسية يتداولها العراقيون في السر، وهي أن ذلك الشيخ وقبيلته راحوا يشاهدون، على التلفزيون الذي أهداه لهم صدام، صور السيد الخميني، وخطبه خلال الحرب التي سرعان ما بدأت.

لم يكن دخان الوقود المنبعث من قوارب الرئاسة المتنزهة في الأهوار، إلا بداية لدخان لن ينقطع عن مدن الماء، فبعد تلك الزيارة بقليل اشتعلت حدود الأرض والمياه والسماء، بالحرب مع إيران.

ولعلَّ صدام استفاد من زيارته الوحيدة تلك للمنطقة ليدوِّن في ما بعد رأياً خطيراً ضد أهل الجنوب عموماً في سلسلة مقالات نشرها جريدة (الثورة) الناطقة باسم حزب البعث، والتي شاع أنه

كتبها، أو على الأقل رسم أفكارها الرئيسية رداً على انتفاضة مدن الجنوب ضد نظامه في آذار/ مارس عام 1991، ليقول أن (هؤلاء الغرباء) لا ينتمون للحضارة الإنسانية، ولا العراق الوطني، لأن القائد العربي محمد بن القاسم جلبهم مع الجواميس التي غنمها بعد فتحه لبلاد الهند، معتمداً على رواية في هذا الصدد أوردها في الأساس بعض المؤرخين العرب عن غزوات الشرق[1]، غير أن صدام بتبنيه لهذا الرأي تجاهل إرثاً واسعاً من التراث التصويري والأدبي للحضارات التي نشأت في العراق، التي رسمت الجواميس والثيران الوحشية ووصفتها في الأشعار منذ ملحمة كلكامش.

ثمة أهوار تتصل باليابسة وهي التي يتواصل سكانها مع المدن المجاور ونواحيها كالعمارة والناصرية والبصرة، لكن ثمة بيئة مائية بحتة توغل في الابتعاد عن مراكز المدن والأقضية وحتى النواحي وليس ثمة من وسائط للتنقل بين منزل وآخر عبر الممرات المائية التي تعرف بـ (الكواهن) إلا بالمشاحيف، والمشحوف هو قارب صغير يصنع من القصب والبردي، وخاص بتنقل العائلة الصغيرة، وإذا كان (الجمل وما حمل) قد حظي بتراث واسع من الشعر العربي، فإن المشحوف وأسمه الرديف (البلم) احتل مكان الصدارة في الفلكلور

(1) يتحدث البلاذري في فتوح البلدان مثلاً، عن أول عهد بلاد الشام بالجواميس ثمانية آلاف أرسلها الحجاج والي العراق إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لأنها تتصف بمقاتلة الأسود التي كانت قد أغلقت الطريق إلى أنطاكيا! وهي مما غنمه والي السند محمد بن القاسم الثقفي، لكنَّهُ يذكر أيضاً أنها كانت موجودة في البصرة، في الآجام والكور، أو ما يعرف اليوم بالأهوار.

الغنائي والشعر الشعبي في جنوب العراق، ويستخدم (المردي) في تسيير المشحوف بالماء وهو عصا طويلة تدفع بها المياه عمودياً على طريقة العكاز أسفل أحد جانبي المشحوف عوضاً عن المجداف، وقد أصبحت دفعة المردي وعصا الكردي مثلاً في الذاكرة الشعبية العراقية.

أما الأكواخ المقوسة المبنية من حصير القصب والبردي، المطلية بالقار، والتي لا يتدخل معدن في عمارتها فتسمى (الصرايف) والصريفة الواحدة هي منزل العائلة الصغيرة المتفرعة، وعادة ما تبنى (الصرايف) على (اليشن) وهي جمع لكلمة (إيشان) السومرية التي تعني الأماكن المرتفعة، وهي أشبه بالجزر العائمة، وكانت في العصور القديمة مدافن للسومريين، لذلك تنطوي بعض الخرافات في الأهوار على اعتقاد أن ثمة كنوزاً تحت أعماق هذه اليشن، سنعرف لاحقاً أن شيئاً من هذه الخرافة قابل للتصديق والتحقق.

وعادة ما يرتفع منسوب المياه الموسمي في الأهوار ليجرف عدداً من الصرايف الثابتة، ليجد الأهواريون أنفسهم يعيشون في بيوت متنقلة قاعدتها المشاحيف، وجدرانها حصران القصب، وهي تتحرك في جغرافيا مائية نحو أمكنة سكن جديدة.

وإذا كانت الصريفة هي السكن الداخلي لسكان الأهوار فإن المضيف هو (برلمان سكان الصرايف) منتدى للتسامر الليلي والجدل المتعلق بشؤون الحياة وفك المنازعات وفق أعراف هذه البيئة المائية التي يتناقض عنف تقاليدها وقسوتها مع فكرة الماء الشفافة، لكنّهُ يتجاوب تماماً مع النمط القاسي للحياة البدائية، ومدى العنف الموجه لهم عبر العصور.

ومع هذا لا يتخذون سوى الطين والقصب مواد تكوينية في حياتهم ومرموزاتهم التي تتروح بين صناعة الأثاث والأدوات المنزلية الضرورية مروراً بتزييناتهم الجمالية وصولاً إلى ناياتهم الحزينة.

لقد كانت الأهوار مركزاً نموذجياً وقاعدة صلبة في المياه الرخوة، للعديد من العصيانات المسلحة في التاريخ المعاصر للعراق، بل تعدت ذلك إلى عصور قديمة بينها المدى الذي أخذته ثورة الزنج فيها عند منتصف القرن الثالث الهجري.

وخلال الحرب ضد إيران كان الجنود في مناطق الأهوار يشكون من أنهم، دون بقية الجنود الآخرين الذين يخدمون في جبهات أخرى،كانوا يخوضون حرباً مزدوجة ضد الجيش الإيراني وطائراته السمتية، وضد الغارات المستمرة ليلاً ونهاراً للبعوض والبراغيث ذات الحجوم غير الطبيعية!

بيد أن سكان الأهوار أنفسهم اعتادوا طريقة لا تقل قسوة في طرد البراغيث وسائر الحشرات من ليلهم (بتدخين) مواقعهم مستفيدين من كثافة الدخان الذي تعودت عليه رئاتهم، لطرد تلك الحشرات.

ولهذا فإن قسوة الحياة في هذه المنطقة تضع فكرة كونها "جنة عدن" في الأساطير وفي المخيلة أكثر منها في الواقع.

وإذا كان بدوي الصحراء مرتبطاً بعلاقة نمطية بالجمل، فإن بدو المسطحات المائية، تربطهم علاقة نوعية بالجواميس، وإذا كانت أبرز سمات الجمل تتلخص في الصبر والمطاولة، فإن من سمات

الجواميس القوة والهيجان والعصيان، والواقع أن طبيعة التعامل مـــع هذه الحيوانات التي عاشت مع كل من بدو الصحراء وبدو الميـــاه، انعكست بشكل واضح على تجاربهم في الحياة وجعلت بدو الصحراء أكثر حكمة بينما كان بدو المياه أكثر بأساً وقوة.

وإزاء صورة (المعيدي) تتجلى صورة المرأة المعيدية نموذجاً للجمال القوي البدائي النيئ، الذي يجمع بين المنعة عن الوقـــوع في شـــراك الحب بسهولة، وإمكانية أن يستسلم للحـــب الحقيقـــي، بطريقـــة دراماتيكية، وأسطورة المعيدية الحسناء التي أحبت الرجل الإنجليـــزي الأشقر وهربت معه هي واحدة من الصياغات الفولكلوريـــة عـــن الجانب المضمر من الهشاشة، خلف ملامح القسوة والبدائية والأذرع القوية للمرأة التي تروض الجواميس.

وتعد المرأة في الأهوار ذات شخصية تستمد قوتها من مـــساهمتها الفاعلة في النشاط الاقتصادي، فهي التي تتكفل بتـــسويق منتجـــات الحيوانات من اللبن الرائب الذي يسمى بلهجة المعـــدان (المغـــالي) وكذلك القيمر والحليب والسمن، إلى النواحي القريبة مع الفجر بعد أن تقطع الطريق بمشحوفها الخاص، وتعود في آخر اليـــوم بالـــشاي والتوابل والدخان والأقمشة أهم الحاجات غيـــــر الذاتيـــة لكـــن الضرورية لعيش أهل الأهوار.

وتكاد قصص الحب التي تروى عن أهل الأهـــوار لا تـــضاهيها الأساطيـــر وحكايات العشاق في التراث العربي، أما حزن المعـــدان (عندما يحزنون) فأضحى مضرباً للأمثال، وإذا كان حزن العراقي يتم تنسيبه إلى أرث تاريخي عاشورائي، فإن ثمة طبقة ثانيـــة أعمـــق، في حزن المعيدي تتمثل في البعد الأسطوري السومري، يجسدها ذلـــك

الحزن الذي يصل إلى حد التصوف، والاندغام بأرواح السومريين والانقطاع عن كل ما له صلة في الحياة، إنه ببساطة موت في الحياة، حزناً على موت قريب أو فقد حبيب بشتى صنوف الفقد.

وتعد العشيرة هي المؤسسة المحلية المتوارثة التي تحظى بالولاء الأهم الذي لم تصل له الدولة في أي من المراحل، وإن بدأ دور رجال الدين في السنوات الأخيرة ينافس دور شيوخ العشيرة، مع أنه يتداخل معه أحياناً خاصة عندما يكون السكان من غير (المعدان) بل من (السادة) الذين يوجد عدد كبير منهم في أهوار الحويزة والجبايش.

تنقسم القبائل التي تسكن الأهوار إلى قبائل عربية أصيلة وعشائر المعدان ذات الجذور الملتبسة، فثمة الكرامشة والشغامبة والعلاسة والكعابنة (من بني كعب) والجوابر وبني أسد والبو دراج وآل ازيرج وآل بزون وسواها، بيد أن الفروق النوعية ذابت في المياه المترامية حتى أضحت (المعدنة) كناية عن توصيف نمطي لمجمل سكان الجنوب في خلال العقود الأخيرة.

ويعد الكرامشة أعتى قبائل المعدان في طلائع التمرد الذي لا يرتبط بحقبة معينة، فقد كانوا يوصفون في العهد السابق بأنهم قطاع الطرق، واليوم يجري وصفهم بالسلابة، لكن الأمر في كلتا الحالتين يتعلق بخصلة أساسية لدى الكرامشة تشبه إلى حد بعيد، مبدأ الخوارج في أن لا سلطة ولا سلطان على الأرض يمكن أن ينقادوا إليه.

وفي نظرة لثقافة الطبخ لدى أهل الهور سنجد أنها على الرغم من محدودية تنوع مطبخهم إلا أنها لم تبق أسيـــرة البيئة بل ان المهاجرين إلى بغداد والذين سكنوا الضواحي نقلوا جانباً مهماً منها إلى المطبخ العراقي الفقيـــر أصلاً، كان التنوع في طرق تحضيـــر السمك واحدا منها، ولعل المسكوف بطريقة تحضيـــره يعود في أصـــله إلى تلـــك الثقافة البدائية في الطبخ.

وفي جميع تلك الوجبات لا وجود لدقيق الحنطة في تشكيل المادة الرئيسية للغذاء، وإنما تعتمد على دقيق لنوع من الرز يسمى (الشلب) الذي يكثر في تلك المناطق، ليعوض عن دقيق الحنطة، وله طرق عدة في التحضيـــر، ومن بينها (الطابك والسياح والرصـــاع) وهـــي في الواقع كنايات متعددة عن قرص الخبـــز المشوي على طبـــق طـــيني سميك، معادلاً للصاج في بعض القرى ببلاد الشام. وتعتمد التـــسمية هنا على رقاقة أو سماكة الخبـــز فإذا كان سميكاً سمي (طابـــك) وإن كان متوسط السماكة سمي (الرصاع) أما الرقيـــق منـــه فيـــسمى (السيَّاح) لأنه يسيح عند سكبه على الصاج المعدني.

وفي العودة (إلى التحليل النفسي للنار) لغاستون باشلار، نجـــد أن المرأة أيضاً هي مصدر الوقود وسره فهي التي تمتلك سرَّه بتجفيـــف روث الحيوانات على شكل قرص دائري يسمى (المطال) ليجـــري خزنه وقوداً للطبخ.

فيما تمثل أكلة (المصموطة) واحدة من خيارات محـــدودة لثقافـــة مؤنة يجري الاحتفاظ بها، إلى زمن معين، حيث يجري تجفيف السمك أطول فترة ممكنة قبل أن يتم سلقه بالماء.

حتى أكلة الكباب تتخذ في الأهوار نمطاً بيئياً خاصاً فهي تـــسمى (الجباب) بجيم مشبعة مفخمة ومضمومة، كما تتخذ من لحم السمك بديلاً عن لحم المواشي، حيث يتم عجنها بتوابل محـــدودة ويجـــري سلقها وليس كما يعرف عن (الكباب) بكونه من المشويات.

تشكل أهوار الحويـــزة والجبايش والحمار، التعبيـــرات الأبـــرز لمجموعات كبيـــرة من الأهوار الفرعية التي عادة ما تكون الملتقـــى الموسمي لعشرات الأنواع من الطيور من شتى القـــارات، حـــتى أن الباحثين أكدوا أن أكثر من مائة نوع من أنواع الطيور تلتقي عنـــد هذه المسطحات المائية، لكن هذه الطيور تكتسب عبـــــر هجرتها الموسمية أسماءً جديدة وهي تقضي موسمها في هـــذه الأهـــوار، مـــن أكبـــرها وهو البجع السيبيـــري الذي تسميه البلاغة التركيبية للبيئة (نعيجة الماء) إلى أصغرها الذي يسميه السكان المحليـــون (الزيطـــة) بخفتها ورشاقتها وزوغانها الذي أضحى مثلا آخر لسلوك زوغـــاني لدى البشر، وبينهما تكونت حكايات كثيـــرة للأمثال، ومن أشهر الطيور التي تعيش أو تتكاثر في المواسم هي: (الخضيـــري والبعيجي والططوة والغرنوق والدراج ودجاج الماء)

ومع أن سكان الأهوار لا يأكلون لحوم الخنازيـــر التي تنتـــشر في المواسم، إلا أن لهم طريقة بدائية فريدة في صيد الخنازيـــر[1]، فهـــم ينتظرون الخنازيـــر حتى تنـــزل إلى المياه، ثم يباغتونها من الخلـــف، ليدخلوا قصبة مجوفة جري بـــريها بعناية، وغرزها في المناطق الهـــشة

---

(1) حدثني عنها صديقي جبار الزهيري (أبو أيوب) الذي أنعشت حواراتي معه عن الأهوار جانباً من هذا الموضوع.

من جسم الخنزير، مستفيدين من قلة مرونته في الاستدارة والمراوغة، ثم ينتظرون امتلاء جوف الخنزير بالماء، ليسهل لهم اصطياده وبيعه.

أما صيد السمك في الأهوار فله طرق عدة بينها الأكثر تقليدية، كالصيد في كمين الشباك، التي تسمى في الهور (السلية) وهي أما تكون عائمة، أو تنصب على عمق معين تبعاً لنوعية السمك في المياه، وثمة طريقة بدائية أخرى لكنَّها تتطلب مهارة خاصة، حيث تتم بواسطة (الفالة) وهي عصا طويلة تنتهي بأشواك مسننة تشبه شوكة الطعام، وحين تشف مياه الأهوار وتلبط فيها أسماك (الكطان والحمري والشبوط) يحكم ابن الهور تسديدته حالما تمر به السمكة، ومن من بين (الصور السينمائية) التي تجسدها طقوس صيد السمك في الأهوار هي تلك التي تتم في الليالي التي يغيب فيها ضوء القمر، حيث يعمد الصيادون إلى حمل الفوانيس النفطية ذات الضوء الساطع، أو المشاعل الوهاجة التي تغري الأسماك بالظهور على سطح المياه حيث يتم الصيد في مشهد يذكر بصيد الفراشات أو انتحارها في التباس المسافة بين النور والنار، وقد تحولت (الفالة) التي تستخدم كذلك في تذرية الشلب والرز، إلى رمز وطني كبير، إلى جانب (المكوار) وهما السلاحان البدائيان اللذان استخدما في مقاومة الإنكليز في ثورة العشرين، حتى صارا نوعاً من الشعار الفولكلوري المضمر للدولة الوطنية ينافس رمز المنجل والمطرقة الشعار المعلن والصريح للدولة الأممية.

أما صيد الأسماك الصغيرة، مثل (الزوري) القريب من السردين، أو ما يعرف (بالحرش) وكذلك (الروبيان) وسائر الأنواع

الصغيـــرة، فيتم بطرق غيـــر عنيفة. إذ تتم السخرية ممـــن يـــصيده بالفالة أو حتى بالشباك.

وهذا الغنى المائي كانت الأهوار حتى السبعينيات مصدراً يـــشكل ثلاثة أرباع أنتاج العراق من السمك.

بيد أن هذه الطرق التي تمثل مرحلة لم تعد موجودة من (عـــصر نبلاء الأهوار وفرسان المسطحات) اختفت تماماً، وانعكست الحروب بآثارها على طرق صيد السماك والطيور، فنالها ما نال الإنسان مـــن بارود وألغام وحتى أسلحة كيميائية، حتى أصبح الجنـــود أنفـــسهم صيادين في الأهوار بالطرق الأسهل وهي إلقاء المتفجـــرات ليـــصبح سطح المياه، في لحظة، مقبـــرة للكائنات المائية أبـــــرزها فـــصيلة الأسماك بالتأكيد، بينما جرى تسميم مساحات واسعة لتطفو علـــى سطحها الأعشاب والطيور حصيلة تفتقد إلى العدالة، لتـــذهب إلى أكثر من الحاجة وأكثر من التجارة، نحو التعبيـــر عـــن الغريـــزة التدميـــرية لدى الإنسان.

لكن عودة الأسماك بهذه السرعة، للسباحة في مياه الأهوار، كمـــا أوردته الهيـــرالد تربيون، يشبه إعلاناً عن عودة الفردوس، أو انبعاث لمدن ميتة، وكأن هذه الأسماك كانت مختبئة في أعماق الطمي، وهـــو يشيـــر إلى أن الخصوبة التاريخية لهذه البقعة واتصالها بالمـــسطحات المائية المجاورة قادر على استعادة الكائنات المائية لنمط حياتها ســـريعاً فور توفر الظروف البيئية.

وبينما جاءت الولايات المتحدة، بديمقراطيتها "القيصرية" عبـــــر البحار على دبابة وطائرة وسفينة حربية، فإنها تحاول أن يبدو كمـــن

يوازن بين تصديـــر مدنية تفتقر لها الحدائق القديمة، وإحياء حضارة نائمة، أو منوَّمة تلك هي: حضارة القصب.

لكأن الفردوس الأرضي الذي تعدُ به الولايات المتحدة، لـــيس في العراق بل في المنطقة عموماً، لا يستمد مشروعيته من تلـــك الآلات العسكرية الضخمة التي تطيح بالدكتاتوريات فحسب بل في (حيـــاة جديدة) عبـــر تسييـــر المياه للأراضي العطشى كي تعود خصوبتها معادلاً لخصوبة الحضارات في تلك البلدان ومزاوجة لقيم الحضارات المتحاورة، وإن تباينت أمكنتها، وتعددت أساليبها.

لكن أين الخرافة القديمة، وكنوزها الحقيقية وسط هذه الحكاية؟

إنها تقع في (قلب الظلام) عند حقل نفطي خرافي هو الآخر يحمل اسماً يتناسب مع الحكاية: فحقل مجنون يعد أغنى الحقـــول النفطيـــة غيـــر المستثمرة حتى الآن إذ يشكل وحده حوالي 30 % من مجمل احتياطات النفط العراقي، بل ويشكل مع حقل القرنة المجاور حوالي نصف احتياطات النفط في العراق.

أما سكان الأهوار فهم يبدون اليوم كمن يجلس علـــى بحيـــرة ظاهرها المسطحات المائية وباطنها ذهب أسود، لم يعرفوا قيمته بعد ولم يعرِّفهم أحدٌ بقيمته في حياتهم سوى لطلاء أكـــواخ القـــصب وسفن البـــردي وإضاءة فوانيس الدار ومصابيح لأغواء السمك على الظهور على السطح، إنهم نموذج تقريبي للهنود الحمر بقبائلهم الـــتي يسهل تفكيكها، وليس بالضرورة أن يقتل بقية الـــسومريين، ذوي الشعور السوداء، كما يصفهم وول ديورانت، بل أن يعملوا بجد في مهن أخرى غيـــر صيد الأسماك والخنازيـــر الطيـــور، وتتفـــرغ

نساؤهم إلى حياة أخرى غير تسطيح روث الجواميس، وبيع القيمر والحليب عند الفجر.

قد لا تشبه الرحلة هنا النزعة الكولمبوسية القديمة، لكنَّها على ما يبدو تتشبه برؤيا أخرى لاكتشاف المناطق المظلمة تشبه إلى حد ما رحلة جوزيف كونراد في قلب الظلام، والوعد بالنور.

اليوم لم يعد (المعيدي) سيد الهور وحده، ولم يعد نمط حياته يحتمل مزيداً من العزلة، بعد أن اختلط الماء بالنفط الفائض على خريطة الجنوب، وبألغام مزروعة منذ عقدين ولا تزال خرائطها مجهولة هي الأخرى، أما سكان الهور الذين شكلوا في يوم من الأيام عشر سكان العراق فلم يبق منهم سوى بضعة آلاف.

وإذا ما أعيدت الحياة في الأهوار، تجديداً أو انبعاثاً، فإن من الصعب إعادة (الأهواريين) إلى حياة جديدة، ترفل بالدعة والتصالح بعد تاريخ من العصيان لم يعرفوا غيره طيلة عقود.

لهذا يبدو أن جنة عدن أو الفردوس الأرضي يحتاج إلى نوح جديد يأتي بكائنات أخرى ترسم فرادة المشهد من جديد.

بانوراما الفوضى الخلاقة

كمنْ يحاولُ وطناً، على حدود ليس ثمة ما يمكث فيهـــا ســـوى الغبار، أو كمن يحاول منفى فيلمع في خاطره ســـراب الـــذكريات وكأنه حياته الأخرى تحدث على الضفة القديمة، يعود العراقـــي ولا يعود، ينفى ولا ينفى، وما بين هذه المحاولة وذاك المحال صار الكثيـــر من العراقيين مقسومين بين هاتين الضفتين، ربما لهذا لا يـــزال المنفي ممتداً لدى الكثيـــر منهم، حتى تأبّد في قناعاهم ووجداهم مصيـــراً كيانياً، بينما أصبح الوطن لدى البعض الآخر مآلاً لا فرار منه علـــى الرغم من هلاميته وتراجع فكرته الواقعية حتى غدا ضرباً من الطوباية التي غذت غاباها أملاح الضفة الأخرى.

إها رحلة أخرى، إذن، غامضة الحدود ما بين الوطن والمنفى.

تلك هي مسافة الصحراء التي أقطعها للمرة الأولى، بجواز ســـفر أخضر الجلد بنسره المتلفت إلى الشرق في طريق عودة أخرى ناقصة أيضاً للبلاد، أو تجديداً لهروب قديم ببوصلة أخرى.

أين هو العراق؟

هل هو في مخيلة النسر المرسوم على غلاف جواز السفر ليس إلا؟ أم أن ليل الذبح انكشف تحت شمس حمراء أخرى؟

أعود بالجواز وأهرب منه كمن يحاول منفى لم يتبق منه الكثيـــر.

وبموازاة هذا الشعور بالتشظي والانشطار، تبدو نقطة الوليد الحدودية صورة تقريبية لنظرية (الفوضى الخلاقة) التي روج لها تيار المحافظين الجدد في الولايات المتحدة وأشياعهم في الولايات "غير المتحدة" لتفسير ما يجري في أرض السواد، تبدو التعبير الأدق لما يجري تصميمه منذ تلك النقطة البعيدة عند حدود الصحراء، حتى المنطقة الخضراء في قلب بغداد، ربما يكون تعبير (الفوضى الخلاقة) الذي راج على لسان سمراء المحافظين الجدد (كونداليزا رايس) هو الدحض لمروجي مقولة الفشل الأميركي في العراق، أو ربما كان هذا التعبير في الوقت نفسه كناية استعارية عن ذلك الفشل، لكن المهم في الأمر أن نظرية المحافظين الجدد تؤكد، في مطلق الأحوال، أن الإدارة الأميركية أرسلت الجنود ليحركوا الفوضى من مكمنها قبل أن يخلقوها بطورها الأول.

فما بين شرق الوليد وغربه تمتد على مسافة كيلومترات عدة، طوابير الشاحنات المحملة بمختلف البضائع، سواقها يمكثون أسابيع قبل أن يدخلوا إلى شرق الوليد، وعلى الرغم من أن ما تعداده مائة شاحنة يسمح لها في الدخول في اليوم إلا أن هذا العدد لا يمنع امتداد الطابور عميقاً داخل الأراضي السورية.

منذ نقطة الحدود تكتشف أن الصورة المأساوية التي تنقلها الأنباء عن العراق، تنطوي على صور مضمرة لا تقلُّ مأساوية عن تلك التي كانت تنقل أيام الحصار أو هذه التي تنقل أيام القتل الذي لا نعرف منه إلا أعداداً يومية بل صارت معدلاتها تحسب بالساعات، دون أية بارقة أمل تشير إلى توقفها.

وإزاء هذا كله تعجب لهذا الحشد الهائل على الحدود ذهاباً وإياباً، مئات السيارات الصغيـــرة التي استوردها التجار، والـــتي تعـــرف بسيارات (المانفيست) لم يسمح لها بالدخول لأنها تعود إلى موديلات قديمة أو لأنها صممت بمقود على اليمين، ملقاة بجغرافيا متناثرة ترسم خريطة أولى للفوضى، بانتظار تهريبها بعد رشوة الجندي الأميـــركي بورقة خضراء، كما يسمي العراقيون مبلغ المائة دولار.

كل عراقي لم يبلغ الخمسين من العمر عليه أن يعود أدراجه تحت غبار الصحراء الجارح، عليه أن يسلك طريق هروب آخر، أو يسافر بالطائرة، وإلا فإن عليه أن يكمل الخمسين بعيداً عن بلده قبـــل أن يعاود الدخول.

لكن الذين يصلون إلى النقطة التي تعرف على الجانب الـــسوري بــــ (التنف) لا يستسلمون لفكرة العودة أو لأي من بدائلها بسهولة، فتراهم يـــرابطون على الحدود حتى تلوح لهم حيلة يسترون تحتـــها شبابهم المشبوه، ثمة من يجادل كثيـــراً لكنَّهُ سرعان ما يستديـــر أمام بندقية الأميـــركي التي تسدد نحوه. وثمة من يبحث عن عائلة ليـــزجَّ نفسه بينها، متوسلاً كطفل ضال. ولأن صلة القربى تحتاج إلى مطابقة جوازات السفر، كان إيجاد عائلة تقبل أن تصحب أحد الممنوعين من الدخول، بحاجة إلى شيء من سعادة الحظ وحسن التدبيـــر لكـــي يقتنع الجندي الأميـــركي بأن هذه المرأة زوجة الرجل، أو تلك المرأة هي زوجة أبيه. أو خالته.

شباب يتشبثون كالأطفال بقوافل النساء وهنَّ يملأنَ البولمانـــات القادمة من السيدة زينب، بينما يتولى (الحملة دار) مهمـــة أخـــرى تضاهي مهمة الجندي الأميـــركي الواقف عند بوابة الحدود بصحبة

المترجم. مهمة تتطلب خلق واقع يجعل من صلة القرابة المفترضة بين الشاب وإحدى السيدات ممكنة التصديق وسالكة نحو الحدود، كي لا يعود الشاب أدراجه مرة أخرى، وهي مهمة لا تخلو من مهنية جعلها البعض من موجبات الرحلة عند (التنف) بينما رأى فيها البعض الآخر نوعاً من عمل الخير لنيل المزيد من الأجر والثواب بعد زيارته للسيدة زينب!

تعيد هذه المحنة الحدودية صورة معكوسة لواقع سابق عندما أصدر صدام خلال التسعينات قراراً يمنع بموجبه المرأة التي لم تتجاوز الخمسين من العمر من السفر إلى خارج العراق إلا بصحبة محرم. الجانب المثير للسخرية هذه المرة أن الرجال العراقيين دون سنّ الخمسين صاروا هم الآن بحاجة إلى محرم أنثوي لدخول البلاد.

هذا ما حدث معي بالفعل حين لجأت إلى صحبة أخي وزوجته وطفلهما مستفيداً من وجودهما في زيارة قصيرة لدمشق، لكي أدخل البلاد مُحرِماً عائلياً.

سائق سيارة الدولفين الذي اعتاد سلوك الطريق مرتين في الأسبوع على الأقل يؤكد أن ما نراه اليوم من زحام وفوضى، هو في الواقع رحمة ربانية إذا ما قورن بما كان يجري في أيام فائتة.

حين وصلنا عند أول الطابور، بعد ست ساعات من التقدم الزاحف نحو البوابة التي يديرها الجنود الأميركان وهي مدة قياسية مقارنة بست وثلاثين ساعة قضاها السائق نفسه في رحلته السابقة، بدأت السيارات تتقدم بمسافة متباعدة تصل إلى بضع مئات

من الأمتار حيث يومئ الأميـــركان للسيارة التالية أن تتقدم بعد أن يتحققوا من التي قبلها وهكذا.

بنادق مصوبة وخطى عريضة يتقدم جنديان أميـــــركيان مـــن جهتي السيارة، يصحبهما المترجم العراقي الذي بدا عليه الانـــزعاج لأنني خاطبت الجندي الأميـــركي مباشرة لأعرفه بـــأني أصـــحب عائلتي، كان المترجم يـــريد أن يبـــرهن أنه يعمل فطلب البطاقـــات الشخصية التي تثبت ذلك قدمتهما له قائلاً: لا تبتئس فإنهم من يمسك الحدود ويديـــر البلاد، إنهم قادرون على منعي من دخول بـــلادي وقادرون على الاستغناء عن عملك في أية لحظة.

عندما دخلت العراق قبل عامين بالضبط كنت أرى البلاد وكأنها خرجت من تاريخ الحروب، وأن ما رأيته من أنقاض هي الـــشاهد الأخيـــر على حقبة سوداء وقاسية، بيد أنني اليوم أكثر قناعة بـــأن الحرب لا تزال مستمرة، مع فارق نوعي واحد أنها لم تعد حرباً بين إرادتين سياسيتين متناقضتين، لكنّها تدميـــر للإنسان بكل المعاني.

القفر الذي تؤكد المعاجم أن (التنف) من أسمائه حيث لا ماء ولا أنيس، لا يبدو اليوم كذلك، إذ الكثيـــر من البشر يذرعون نقطـــة الحدود جيئة وذهاباً أو مشكلين حلقات شكوى مـــشيدين حيـــاة انتظار خاصة، بينما رحت انظر نحو الجهة الأخرى مستذكراً بيتاً من الشعر يليق بالمقام ومقتضى الحال:

كـــم دون ليلـــى مـــن تنوفـــة
لماعـــة تنـــذر فيهـــا النـــذر

لكن بغداد دونها أبعد من (تنف) وأكثر من لماعة للنذر، إذا ما أن تؤشر الجوازات عند معبـــر الوليد بسرعة لا تتناسب مع الانتظـــار، وما أن تسيـــر بضعة كيلو مترات داخل الأراضي العراقية حتى تجد نفسك محاصراً بعاصفة رملية تتجه من الشمال إلى الجنوب وتتشكل كمثل دوامة أحياناً لكيلومترات عدة تجعلك أمام خيارين أحلاهما مر كما يقولون، أما التوقف أمام مد العاصفة التي قد تغمر كل ما حولها بالرمال أو مواصلة السيـــر لاجتياز العاصفة مع ما تحمله من مخاطر تتمثل في انعدام الرؤيا كلياً لما هو أمامك على بعد حتى متر واحد مما يجعل حتى الإنارة العالية غيـــر ذات جدوى، وليس من حل أمـــام السائق إلا بإطلاق المنبه على طول الطريق، كأنه الحادي الإلكتروني في الصحراء الغربية.

ليست عاصفة الصحراء الغربية، سوى أولى النذر السيئة للداخل للعراق، فما أن تجتاز غابات الرمال التي تمتد حتى منتصف الطريـــق تقريباً حتى تهيئ نفسك لنذر جديدة وأخطار من نـــوع آخـــر، وإذا كانت جيوش الرمل قد ابتعدت فلولاً نحو جهات أخرى فإن حشوداً أخرى من الجيش الأميـــركي تلوح في الأفق قاطعة الطريـــق مـــن الجنوب إلى الشمال، في ما بدا أنه تعزيـــزات عسكرية ثقيلة يجـــري نقلها نحو منطقة حصيبة والقائم، حيث تدور هناك واحدة من أعنف العمليات العسكرية منذ معارك الفلوجة والنجف.

يتوقف طابور السيارات القادمة مـــن الحـــدود، لتمـــر قافلـــة التعزيـــزات العسكرية الأميـــركية، أو لتتوقف كي تبطـــل عبـــوة ناسفة زرعت على أحد جانبي الطريق، أو لإصلاح آلية تعطلـــت في البيداء.

منذ أن ازدادت عمليات مهاجمة القوات الأميـــركية بـــسيارات مفخخة يجري تفجيـــرها بين الأرتال العسكرية المتنقلة في الـــبلاد، لجأت هذه القوات إلى إطلاق النار على أي موقع أو سيارة أو بشر يقترب لمسافة تقل عن مائتي متر عن الرتل السائر ببطء.

لكن مسافة المائتي متر تحولت بفعلٍ ما يتركه الخوف من أثر لدى الناس، إلى ضعف هذه المسافة، وغالباً ما تقف السيارات على مبعدة من الرتل خلال عبوره أو مروره، أو تسيـــر خلفـــه علـــى مهـــل يتناسب مع إيقاع سيـــر الدورية، أو تقف متى مـــا وقـــف الرتـــل العسكري، في مشهد ذكرني ببيت للفرزدق يقول نقاد الأدب العربي القديم بأنه أخذه عن جميل بثينة، وها أنا اليوم أستعيـــره لـــسخرية سوداء لوصف المشهد:

ترى الناسَ ما سرنا يـــسيـــرون خلفنـــا
وإن نحـــنُ أومَأنـــا إلى النـــاسِ وقّفـــوا
ألوفُ ألـــوفٍ مـــنْ دُروعٍ ومـــن قَنـــاً
وخيـــلٌ كرَيعَـــان الجـــرادِ وحرشـــفُ

ولعل من السخرية الإضافية أن تكتب إحدى الـــصحف المحليـــة الناطقة باسم (قوات التحالف في العراق) منتقدة قيام بعض الدوريات العسكرية الأميـــركية بالتجاوز على قانون المرور وتسييـــر دباباتها عكس اتجاه السيـــر، في تصرف غيـــــر حـــضاري لا يمكـــن أن يـــرضاه العراقيون كما تقول الصحيفة.

منطقة الكيلو 160(مقدار المسافة المتبقية قبل الوصول إلى الرمادي مركز محافظة الأنبار) هي مكمن نموذجي لرجال استفادوا من نظرية الفوضى الخلاقة الأميــركية ليمتهنوا سلب المسافرين مستفيدين من قفر المكان ومعرفتهم الجيدة به، وعدم تواجد الدوريات الأميــركية أو دوريات الشرطة.

ويتعرض الكثيــر من المسافرين على هذه الطريــق (لهجمــات السلاّبة) الذين يقومون بعملياهم بسرعة حيث يطلقون النار فــوق السيارات لكي تتوقف مكتفين بسلب النقود تــاركين للمــسافرين أمتعتهم وجوازات سفرهم كي لا تتعكر رحلتهم تماماً.

يحاول البعض ممن وقع في هذا الفخ الصحراوي أن ينقذ جيوبــه بشتم الأميــركان أمام قطاع الطرق كي يقنعهم بالعدول عن سلبه، لكن هؤلاء لا علاقة لهم بموقف الواقف أمامهم فيمضون في عملهم غيــر معنيين بهذا الموال السياسي، بل لعلهم في داخلهم يمتــدحون الأميــركان الذين أوجدوا لهم، بما خلقوه من فوضى، عملاً يدر لهم ربحاً وفيــراً في الصحراء القاحلة.

يسرع (الدولفين الأميــركي) في الطريق الصحراوي، وليس ثمة جمال تلوح سنامتها سفائن في الصحراء. يؤكد الــسائق أن قطــع المسافة نحو الرمادي ومن ثم عبور الفلوجة وحتى آخر طريــق أبــو غريب نحو بغداد ينبغي أن ينجز قبل حلول الغــروب فالــدوريات الأميــركية تكون مكثفة بعد ذلك ويصبح السيــر محفوفاً بــالخطر عند المعقل الأساسي للمجموعات المسلحة من (المقاومة)

ولعل المسافة عند نهر الفرات الذي يمر بالرمادي ويقـــسمها إلى قسمين، حتى ذراع دجلة في الشمال الغربي من بغداد، هي المنطقـــة الحيوية لتوجيه العمليات المسلحة ضد القوات الأميـــركية المنتـــشرة بكثافة في هذه المنطقة، حيث تُشاهد رباية المراقبة عند التلال، وعلى الجسور المطلة على مدن الرمادي والفلوجة، بينما تنتشر الـــدبابات والمدرعات والآليات العسكرية بمختلف أحجامهـــا علـــى جـــانبي الطريق، إضافة إلى دوريات راجلة تترصد على الجـــانبين وتمـــسح الجزرات الوسطية لتأمين الطريق.

لا يمكن لأحد مهما كانت قناعاتـــه الـــسياسية إلا أن يـــرى الاحتلال بأوضح صوره متجسداً في هـــذه المنطقـــة لا الاحـــتلال فحسب بل وكذلك الصورة المضادة له: المقاومة.

لكن الصورة الثالثة الأكثر بشاعة هي ما تراه عند شمـــال مدينـــة الفلوجة وتحديداً الحي العسكري الذي يقع مباشرة على يمين الطريق الدولي المؤدي إلى بغداد، فهذا الحي بما حل فيه من خراب، لا يوحي بأن مجرد معارك بالأسلحة الثقيلة دارت رحاها عنده، بل يبدو مشهد البيوت على طول الطريق وكأنها أصيبت بكارثة طبيعية لمدينة ضربها الزلزال بدرجة عالية من درجات مقياس ريختر، تتساءل أين اختفت سقوف المنازل وقد تحول كل شيء إلى تـــراب وأحجـــار مفتتـــة وصغيـــرة لا ترتفع عن الأرض إلا قليلاً.

وإذا كان هذا هو حال جميع الأحياء التي تشكل المحيط الخارجي للمدينة والتي كانت خطاً أول في المعارك التي شهدتها المدينة العـــام الماضي وأسفرت، إضافة إلى الخراب المدني الظاهر، عن تشريد آلاف العائلات من المدينة، فإن من بقي من العائلات التي تعيش فيهـــا أو

أولئك الذين بدأوا بالعودة إليها، يواجهون محنة إنسانية لا تبدو صورها الحقيقة واضحة للعيان بما تنطوي عليه من مأساة من نوع آخر، فطوابير السيارات التي تمتد لبضعة كيلومترات عند المدخل الشمالي من المدينة تعيد صياغة جانب من مشهد طوابير السيارات عند الحدود، وواقع الحال يشير إلى أن الحواجز، ونقاط التفتيش التي أقيمت عند مداخل المدينة جعلت المدينة تبدو وكأنها معزولة بجدار أمني صارم، معززاً بتدابير حصار لا إنساني ضد مواطني المدينة بما يشبه الإقامة الجبرية، حيث يقوم كل شخص يغادر المدينة بتقييد اسمه في سجلات خاصة تتضمن معلومات عن سكنه وموعد مغادرته وأسبابها، على أن يعود في نهاية اليوم لتحديث تلك المعلومات عند الحاجز، وإظهار (الباج) الخاص الذي يشير إلى شخصيته وإلى كونه من سكان الفلوجة قبل أن يستطيع دخول المدينة.

وما بين نهر الفرات وذراع دجلة يوقت السائق الزمن بشريط كاسيت يختاره بعناية ليضعه في المسجل، ويقطع به تلك المسافة بسلام، وعلى الرغم من أن سيف "ذو القفار المرسوم" في مكان بارز على بدن السيارة مزيناً بحديث (لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار) يبدو كناية عن هوية طائفية قد تثير شيئاً من المخاوف لمن يمر في تلك المناطق إلا أن الشريط الذي راح يصدح بقوة كان شريطاً غنائياً يتمثل ألوان الغناء المشهورة في المناطق الغربية من العراق وهو يشيد ببطولات المقاومة في الرمادي والفلوجة والموصل!

وتعد منطقة أبو غريب العقدة الأخيرة في الطريق إلى بغداد، حيث يشهد هذا الطريق المحاط بالقرى وبساتين النخيل عمليات

زراعة العبوات الناسفة، والهجمات المستمرة بقذائف الهاون عبـــر البساتين، وهي هجمات لا يمكن إيقافها حيث يسمح التداخل مـــا بين بساتين النخيل والقرى القريبة غطاء آمناً للمهاجمين على الـــرغم من التحليق المستمر لطائرات الهيلكوبتر في محيط المنطقة. وإذا كانت كل من الرمادي والفلوجة تقعان على يمين الطريق الدولي المؤدي إلى بغداد، فإن سجن أبي غريب الذي اكتسب شهرة دوليـــة كبيـــرة وهو في عهدة الأميـــركان طغت على شهرته المحلية لدى العراقيين في عهد صدام، يقع على الجانب الآخر من الطريق بمسافة لا تزيد على عشرات من الأمتار.

ومن اللافت أن بناية هذا السجن عند المدخل الغربي من بغـــداد، هي أضخم بناية من الممكن أن تصادفها طيلة حوالي ستمائة كيلومتر حتى دخولك بغداد، بل ليس ثمة من مبنى ظاهر داخـــل العاصـــمة يضاهي ضخامة هذا الصرح الرهيب، ربما لهذا أراد الأميـــركان أن يجعلوا من تواجدهم فيه أكثر من مجرد أدارة لسجن يضج بالمعتقلين، فالمكان بوضعه الحالي يمكن وصفه بأنه واحد من أبـــرز شـــواخص القوة الأميـــركية في العراق، ويمكن بسهولة بعد ذلك فهم الدلالـــة الرمزية التي يحملها أي هجوم على هذا الموقع من جانـــب وإصـــرار الأميـــركان على الاحتفاظ بهذا الموقع سجناً وثكنة في الوقت نفسه على الرغم من وقوعه في منطقة تعد نموذجية بالنسبة للمجموعـــات المسلحة التي تستهدفه باستمرار، ربما سيـــرمز سجن أبو غريب إلى دلالة أخرى في المستقبل لكن الواضح حتى الآن أنه بكل نظامه الأمني الصارم وبعوارض الخرسانات التي تشكل مصدات متعددة الطبقات قبل الوصول إلى جداره الخارجي، لن يكون بمنأى عن هجمات من

الطريق وعبــره من خلال القرى والبساتين التي تقع على الجانـــب الآخر.

ما أن تجاوزنا سجن أبي غريب نحو بغداد حتى هنأنا السائق على سلامة الوصول إلى حدود بغداد، لكن صوت أول انفجـــار عنـــد المدخل الغربي للعاصمة التي بدأ الغروب يمازج ظلال أبنيتها، يعلن أن السلامة هي أن تسمع أصوات التفجيـــرات في كل مكان لكن دون أن تكون من ضحاياها.

الفصل الرابع
الفتن تستيقظ في المنفى

سفراء العهد القديم

لكي نتعقب الفتنة في سفرها، في ترحالها كما في حلها، لا بد من إيقاظ ذاكرة مريـــرة عن تلك الأماكن التي كانت أعشاشاً تفـــرخ «طوائف» أخرى من عنف ومن شبهات شتترك آثارهـــا عبــــر الزمن.

مشهد العراقيين وهم يحتشد بالعشرات وأحياناً بالمئـــات، أمـــام سفارات بلادهم في الخارج، لم يكن مما هو مألوف مـــن المـــشاهد كثيـــراً في السابق، خاصة في تلك البلدان التي يتواجد فيها عراقيون معارضون منفيون، وليسوا مجرد مغتربين عاديين أو سياح عابـــرين ومسافرين زادهم الخيال. المألوف كان احتشاد أعداد منـــهم أمـــام سفارات بلدان أخرى في دول الجوار، التي غالباً ما كانت محطـــات مضنية في طريق رحلة بعيدة، غالباً ماكانت هي الأخرى بلا عودة.

بين هذه الحشود « الجديدة» هناك من يسعى للحـــصول علـــى جواز سفر بعد ربع قرن أو أقل أو أكثر من البحث عن وطن للطيور التي تعبـــر الحدود بلا جواز سفر، وثمة من يـــرتِّب أوراقاً ثبوتيـــة تتصل بأفراد من أسرته والشهادات الدراسية لأبنائه، أو إضافتهم إلى جوازه، أو الحصول لهم على جنسية بعد قصص لا تخلو من طرافـــة حول هذا الموضوع.

لي عدد من الأصدقاء، كانت زوجاهم السوريات يذهبن إلى بيروت، دون أن يصطحبن أبناءهن رغم إلحاحهم، وحين يسأل الإبن إحداهن عن سبب ذلك، لا تستطيع أن تشرح له القضية المركبة، من كون الأم عربية (سورية) تستطيع دخول لبنان بهوية الأحوال المدنية، بينما ابنها، عراقي بالقوة لا بالفعل، لا يمتلك من عراقيته سوى بذرة وشفرة وراثية زرعها أبوه، و لم يستطع أن يثبت له عراقيته بعد ذلك بالأوراق والمستمسكات.

أهمية مثل هذه المشاهد تتأتي من كون العلاقة السابقة بين العراقي وسفارته، اتسمت بطابع آخر غير ما يعكسه المشهد « الجديد» طابع يعامل فيه المواطن على أسس تمييزية، وتقسيمات غريبة.

وها أنا بعد أكثر من ثلاث عشر سنة لم أتمتع خلالها بأي عمل تقدمه السفارات العراقية، أقف مع هذا الحشد، بينما هناك من بقي أكثر من ثلاثين عاماً منتزعاً عنه هذا الحق الطبيعي، لكننا اليوم نقف جميعاً أمام مشهد جديد حقاً. لكنَّهُ لن ينسينا بسهولة وقائع مريرة من الماضي الذي لم يمض تماماً.

فقد أنتجت انعكاسات المرحلة الماضية، والتخبطات التي لا يزال عليها العراق كبلد حتى الآن في خلق طبقة من العراقيين يمكن أن نسميها براحة ضمير طبقة (البدون الجدد!) وإذا كان العراقيون الذين اختاروا الإقامة في بلدان أجنبية قد حققوا نوعاً من الإفلات من عبء هذه الطبقة الاجتماعية المنفية والحائرة، وإن وقعوا في ازدواجية المواطنة، بتخلصهم من الوقوع في هذه المنطقة الخطيرة، فإن عشرات بل مئات الآلاف من العراقيين المقيمين في بلدان الجوار تحديداً، كانوا هم المادة الأولية الحية لخلق هذه الطبقة

المستحدثة في المجتمع العراقي التي تنوس بين المنفى القـــائم والـــوطن المفترض.

والواقع أن انقطاع العراقيين المقـــيمين، أو بـــالأحرى اللائـــذين والهاربين إلى بلدان أخرى، عن التواصل مع السفارات الـــتي ظلـــت قائمة طيلة سنوات عدة، قد خلق مساحات واضحة لنـــشوء هـــذه الطبقة الجديدة.

إذ أن فكرة (السفارة) ما كان لها أن تدخل في أذهان العـــراقيين المقيمين خارج بلدهم إلا بنعوت بشعة لا تليق بعمارتها ولا بالغرض الذي أنشأت من أجله نعوت تتلخص في كونها: نقاط مراقبة متقدمة للمخابـــرات وأجهزة القمع، ومراصد قنص، ودكـــاكين سمـــسرة لشراء الذمم وبيع المصائر.

فالسفر، بحد ذاته، فكرة لم تكن تبدو طبيعية خـــلال العقـــدين الأخيـــرين من القرن العشرين إذ ظل فيهما هذا الحق الطبيعـــي في كل الأعراف والدساتيـــر، محظوراً، ومحرمـــاً علـــى العـــراقيين، أو مسموحاً به بمحدودية تحت محددات وشروط تكـــاد تجعـــل مـــن المستفيدين من تلك الفكرة الإنسانية، ذوي امتيازات واضحة بـــين بقية البشر في الوطن الواحد.

كما أن مفهوم الجالية العراقية في الخارج يكاد يختلف كلية عن أية جالية أخرى في الخارج، عربية على الأقل.

ومع أن كتب التراث تشيـــر إلى أن أقدم مفهوم للجالية، يتعلـــق بتوصيف يخص (الجماعة) ويتصل بقضية (أهـــل الذمـــة) وفـــرض

(الجزية) فإن عرب الجالية، الذي هجروا الجزيرة وسكنوا بلاد الشام، شكلوا كتلة اجتماعية متماسكة داخلياً إلى أبعد الحدود.

بيد أن هذا المفهوم لم يتحقق لا ببعده الحديث ولا القديم لدى المجموعات العراقية المنفية، فهي ليست تلك الكتلة الاجتماعية التي تمثل صورة تقريبية للوطن في المغترب، بل هي العناصر المتنافرة مع مركزها، فينسحب الوطن نحو وجدانها الفردي ليصبح نوعاً من الفقدان، فردوساً لا يمكن أن يعاد تمثيله أو تمثله مرة أخرى.

ولأن (السفارة) تكتسب مدلولاتها، في الجذر اللغوي، من السفر، وفي الاصطلاح الدلالي من الإصلاح، وفي المفهوم الدولي: العلاقات العامة، فإن هذا سيكون عاملاً أضافياً لتجنب فكرة التعاطي معها لأن أياً من تلك الدلالات لم تتوفر في واقع العراقي المهاجر، فهو هارب، وليس مسافراً، يسعى للانبتات لا للتواصل، وما بينه وبين دكاكين الوطن في المنفى، أكثر مما صنع الحداد.

يكفي أن نشير هنا إلى أن أول جهاز للاغتيالات أسسه صدام لتصفية المناوئين لحزبه، ورفاقه (العاقين) كان يحمل تسمية (مكتب العلاقات العامة) هذه التسمية الغريبة لجهاز القتل الأول في السلطة، ستجعله يتضخم تدريجياً وسيكون بناؤه على المستوى الخارجي أقوى من بنائه داخلياً.

كانت العلاقات العامة إذن تمارس من فوهة كاتم صوت، حواراً من طرف وحيد، ومصيراً مشؤوماً للضحية يندفع لا من شفافية العلاقة، بل من عري الضحية وحصانة القاتل.

الشيء الذي قد لا يعرفه الكثيـــرون عن طريقة تعـــيين الملحـــق التجاري والملحق الثقافي، في أية سفارة عراقية في الخارج هو أهـــا لا تتم كما هي العادة في البلدان الأخرى عن طريق وزارة الخارجيـــة، وموظفيها، وإذا كان الملحق العسكري عادة ما يتم اختياره من ذوي المسلك الخاص بالقوات المسلحة، أو أولئك الذين يجري إبعادهم عن مسرح السياسية وصنع القرارات في بلداهم، إلى نوع من النقاهة ما قبل التقاعد أو قيلولة ما قبل المساء الأخيـــر، فإن اختيار كل مـــن الملحقين التجاري والثقافي كان يخطط له بعناية ليجري تغطية هـــذه الصفة المتاحة للسفارات في الخارج بمزيد من الأغطية الأمنية المحكمة، ولهذا الغرض بالذات جرى خلال السبعينات إنشاء ما سمـــي كليـــة الأمن القومي في العراق، حيث يتم تخريج ضباط مـــدربين بـــشكل خاص للعمل في السفارات العراقية في الخارج، التي لم تكن في الواقع سوى أوكار مخابـــراتية تلتحق للخدمة فيها كل عام وجبة جديـــدة من خريجي كلية الأمن القومي.

كان الملحقون التجاريون والثقافيون العراقيون هم رأس الحربة في مطاردة المناوئين للنظام وتصفيتهم، وثمة قائمة تطول مكتوبـــة بـــدم الضحايا الذين سقطوا بتدبيـــرات تحت غطاء التجارة والثقافة.

من هنا فكون السفارة مكاناً للسمسرة والقتل، يجعل من ملـــف السفارات العراقية خلال العقود الثلاثة الماضية ملفاً خطيـــراً ومهماً في أي جهد نحو أعادة مراجعة تاريخ العنف والكشف عن جـــرائم السلطة ضد العراقيين في كل مكان، ولا ينبغي لهذا الملف الخطيـــر أن يبقى نوعاً من أسرار الدولة وهي العبارة التي سارعت دبلوماسية الحكومة المؤقتة في العراق إلى ترديدها لتبـــريـــر طي ملفات أخرى

أقل شأناً، لا ينبغي للناجين أن يحتفلوا بحياة جديدة ومستقبل مفترض، بينما تبقى الذيول المخيفة لتاريخ العنف متسربة هنا وهناك.

في لبنان كانت الحرب المنمَّطة تحت تسمية: الحرب الأهلية، تتسع ذيولها نحو مساحات أخرى يتحرك فيه محاربون آخرون من بلدان أخرى، مستترين تحت دخانها العالي من جهة، وناشطين تحت ظلال أعلام أخرى ورموز سيادية وحصانات سياسية من جهة أخرى.

وكان المحاربون العراقيون على الطرفين يخوضون حربهم على وفق مرجعية العلاقات العامة في بيروت، هي حرب، إذا عددت ضحاياها من بين العراقيين لتجاوزوا العشرات.

كانت بيروت المشتعلة بالحرب الأهلية مسرحاً نموذجياً لأزلام النظام الذي جعلوا منها مسرحاً حقيقياً لكاتم الصوت.

عادل وصفي (خالد العراقي) وزهير كمال الدين (فهد العراقي) وآية الله حسن الشيرازي، وتمتد قائمة من اغتيلوا في بيروت بتدبير وتنفيذ من السفارة العراقية، خلال السبعينات والثمانينات قبل أن تتوقف اللائحة في التسعينات بقطع العلاقات الدبلوماسية بين لبنان والعراق إثر عملية اغتيال الشيخ طالب السهيل في بيروت بتدبير ومشاركة من أعضاء السفارة العراقية، بينهم الملحق الثقافي، وهو الأمر الذي أدى إلى أزمة سياسية معروفة. اليوم يجرى تعيين كريمة الضحية الأخيرة للسفارة العراقية في بيروت (صفية السهيل) سفيرة للعراق الجديد في القاهرة، فهل ستكون فاجعة والدها ذكرى مريرة لعمل السفارات، وتذكرة جديدة

لعمل من نوع آخر لا يكون (كاتم الـــصوت) أو (شـــراؤه) سمتـــه الجديدة.

لا يكاد يوجد بلد (عربي خصوصاً) لم تسفك عليه الدماء العراقية (بكاتم الصوت الدبلوماسي) ففي السودان تم اغتيال مهدي الحكـــيم خلال مشاركته في أحد المؤتمرات الإســـلامية، وفي الـــيمن اغتيـــل الدكتور توفيق رشدي، كما اغتيل العالم النووي مؤيـــد الجنـــابي في الأردن وتتسع القائمة باتساع الخريطة الدبلوماسية.

بيد أن أبشع تلك الجرائم هي الجريمة المزدوجة الـــتي ارتكبتـــها السفارة العراقية في باكستان عندما قامت بتصفية طـــالبين عـــراقيين معارضين للنظام كان يحضران للماجستيـــر في الهندسة التكنولوجية من إحدى الجامعات الباكستانية، فقامت باختطافهما وتعذيبهما قبل قتلهما، حيث دفنا في مقبـــرة الغرباء في السيدة زينـــب بدمـــشق، مقطوعي الرأسين والأصابع.

وإذا كانت بيـــروت خلال الحرب مـــن أخـــصب الـــساحات وأصلحها لتدبيـــر المصائر السود، فإن سفارة العراق في الكويـــت، شهدت بواكيـــر النشاط في ملاحقة المعارضين للنظام، كون الحدود بين البصرة والكويت تسمح بتسرب الهاربين من بطـــش الـــسلطة بسهولة أكثر من أي مكان آخر حيث كان التسرب مـــن خـــلال القبائل البدوية ونقطة الحدود التي لم تكن تعرف الأسلاك الـــشائكة ولا نقاط المراقبة الصارمة ولا الدوريات المسلحة، وهو مـــا يـــوفر مهرباً مناسباً خلال السبعينات، إضافة إلى وجود شـــريحة مجتمعيـــة تعرف بالبدون، من الذين لا يمتلكون جنسية محددة، سمـــح ببقـــاء العديد من العراقيين في الكويت، لكنهم كانوا متواجدين تحت أنظار

الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة العراقية التي كانت قد غزت الكويت أمنياً وإعلامياً قبل أن تغزوها عسكرياً بسنوات، ولهذا فإن أي نشاط مناوئ سيكون مرصوداً في الحال وستتم تصفية أي شخص يسعى إلى مثل هذه الأنشطة، و لم تكن الكويت ساحة لملاحقة ورصد الخصوم السياسيين للنظام فقط، بل تحولت في وقت مبكر إلى مسرح إغريقي لاستدراج من كان ينشط في مكان آخر تمهيداً لتنفيذ حكم الإعدام به في تلك الساحة، وتعد عملية اغتيال الجنرال حردان عبد الغفار التكريتي أحد أبرز قادة الانقلاب البعثي في العراق عام 1968، واحدة من أهم تلك العمليات وربما تحتل اليوم مركز الريادة في النشاط المخابراتي المرتبط بسفارات النظام في الخارج.

وعلى وفق مقولة الثورة تأكل أبناءها بدأ التنفيذ بشكل مبتكر حيث كان الإبعاد إلى الخارج أولى مراحل التنفيذ، حيث تتوجه أفواه الثورة نحو الخارج لإشباع جوعها لدم أبنائها.

لقد وجدت الثورة في الطرائد السمينة هدفاً نموذجياً تبدأ به وليمة طويلة، وبدأت بالتهام أولئك الذين كان لها دور في تسمينهم عبر عقود «من النضال».

استدرج حردان من الجزائر للكويت على خديعة ثورة أخرى سيجري تحريكها من هناك لكنَّهُ سيجد فم الثورة التي طردته قد انفتح على وسعه ليتغدى به قبل أن يحين موعد العشاء! اغتيل حردان التكريتي من قبل السفارة العراقية في الكويت وجرى نعيه في بغداد بتسيير جنازة لأحد «مناضلي الحزب».

تمت عملية اغتيال حردان تحت إشراف وزيـــر الخارجية آنـــذاك عبد الكريم الشيخلي الذي قتل هو الآخر في وضح النهار في أحـــد شوارع بغداد.

وإذا كان حردان ابن الثورة «الضال». الذي لا سبيل لعودته إلى البيت إلا بالتهامه، فإن عبد الرزاق النايف، الذي أقحـــم نفـــسه في وليمة الثورة و لم يكن من بين المدعوين، أبعد إلى لندن بعـــد ثلاثـــة عشر يوماً فقط من انقلاب 17 تموز، لكنَّهُ سرعان ما اغتيل في منفاه البـــريطاني على يد سفراء الموت العراقيين في لندن.

وبعد جرائم السفارات العراقية في الخارج لن يبدو الأمر فنتازيـــاً عندما يتم الإعلان عن بداية تحريـــر العراق، من أول مبنى عراقي في ألمانيا. كان العراقيون الذين اقتحموا سفارة بلادهم في بـــرلين قبـــل بضعة أشهر من سقوط النظام، يؤكدون ذلك بصيغة لم تبد مفهومة حتى للأميـــركيين الذين كانوا فد أكملوا ترتيباتهم تقريبـــاً لبدايـــة «تحريـــر» من نوع آخر، كان الأميـــركان ونظام صدام يتفقـــان للمرة الأولى في أوج الصراع بينهما على إدانة هذا العمـــل، لكـــن العراقيين الذين جربوا ويلات سفاراتهم، هم أدرى النـــاس، بـــأول الطرق وأوضحها نحو بغداد.

ولهذا فإن ثمة من يـــرى أن النظام لم يسقط كليـــاً حـــتى الآن، بالنسبة له على الأقل، طالما أن بعض السفارات العراقية في الخـــارج بقيت مسكونة بهاجسها القديم، ربما لن يكفي أن تغيـــر السفيـــر أو القنصل أو الملحق أو السكرتيـــر الأول والثاني والثالث، وأن تغيـــر العلم وطلاء المبنى بل وحتى موقعها، عليها فعلاً أن تـــشعر العراقـــي بنوع من الأمان، فمن الغريب أن يشعر العراقي بأمان أكثر حيث لا

توجد سفارة لبلاده، ربما ظلّ العراقيون في سوريا وإيـــران تحديـــداً يشعرون بأمن نسبي لأن هذين البلدين لم يكونا، لأكثر من عقـــدين من الزمن، يشهدان نشاطاً للسفارات العراقية، وحتى عندما بـــدأت قنصلية النظام تمارس نوعاً من نشاط رعاية المصالح العراقية من خلال السفارة الجزائرية بدمشق، وعلى الرغم من أن العلم الجزائري هـــو الذي يـــرفرف إلا أننا كنا نبتعد كثيـــراً عن مبنى السفارة في أبـــو رمانة، وعن الخطر الكامن تحت العلم، إنها نوع مـــن الفوبيـــا إذن جعلت الجاليات العراقية في العديد من البلـــدان تستـــصرخ طالبـــة تحريـــرها من هذه الفوبيا، فثمة احتجاجات متواترة من عراقيين في بلدان عربية وأوربية عدة تقول إن ثمة العديد من الطواقم القديمـــة لا تزال تمثل العهد الجديد.

ظلت أمكنة الدولة الشمولية في الخارج، أوكاراً متقدمـــة لإدارة أزمات الداخل بصيغها المركزية في ما يتعلق بمواطنيها المـــسافرين أو قل الهاربين، وميداناً إضافياً لتدبيـــر الشؤون الأمنية وعيناً في البلـــد الذي توجد فيه، عيناً على الجميع، على المهاجرين مـــن العـــراقيين ومواطني ذلك البلد ومؤسساته على حـــد ســـواء، التحـــضيـــرات المتعددة للمحاولات الانقلابية في بعض بلدان المغرب العربي، هـــي تمثيل تقريبي، لفعل تلك العين واليد واللسان معاً. وكم من مرة كان السفيـــر العراقي في بلدان عدة شخصاً غيـــر مرغوب فيه، لتدخله في الصراعات السياسية الداخلية للدول، ووجوده وكأنه رقم صعب في المعادلات السياسية الداخلية لتلك الدول.

حتى الولايات المتحدة نفسها بدأت حربها الأخيـــرة (لتحريـــــر العراق) من الأهداف الحيوية التي تشكلها الـــسفارات العراقيـــة في

الخارج عندما دعت أكثر من ستين دولة كانت لا تـــزال تحـــتفظ بعلاقات مع نظام صدام، إلى طرد السفراء من بلدانها، لنـــــزع أول الأغطية الشرعية والرموز الدولية للسيادة، ولتأمين زحـــف قـــوات المارينـــز تحت غطاء آخر نحو الداخل.

في كتابه (نصف السماء) وهي كتابة تنوس فنيـــاً بـــين الروايـــة والسيـــرة ذاتية، يشيـــر أرشد توفيق الذي عمل في سفارات العراق في إسبانيا والمكسيك وكوبا، أنه كان يصرف بناء على أوامر مباشرة من الخارجية العراقية مبالغ ضخمة لتمويل إصدار صحف لا تـــصدر وشراء سكوت، فقط سكوت، بعض الصحفيين الإسبان عن الإسهام في أية حملات إعلامية ضد النظام.

وفي إحدى الحفلات الشرفية في مدريد كان هناك قادة عدد مـــن الأحزاب الإسبانية، فجاء من يـــريد تعريفه بأحدهم، لكنَّهُ ابتـــسم عندما سمع اسم الشخص واسم حزبه فقد كان في اليوم السابق قـــد صرف مبلغاً كبيـــراً (بناء على تعليمات عليـــا) لتمويـــل الحملـــة الانتخابية لهذا الزعيم الإسباني.

ووصلت العطايا العراقية الـــسخية إلى جـــزر الأنتيـــل والبحـــر الكاريبي.

ولعل أطرف ما يـــرويه توفيق، في هـــذا الـــسياق وفي مناســـبة أخرى، ويستحق أن يسجل في تاريخ النكات السود حقاً، أن ملايين الدولارات جرى تحويلها من قبل العراق كمساعدة إلى إحدى جزر الكاريبي، وبالنظر لتشابه أسماء البلدين فقد ذهبت تلك الأمـــوال إلى جزيـــرة (دومينيكا) بدل أن تذهب إلى (الدومنيكان) ولمـــا أرادت

السفارة العراقية في المكسيك أن تلفت نظر (القيادة الحكيمة) لهذا الخطأ، جاء الرد فورياً من بغداد، إن هذا الخطأ يتعلق بأمر رئاسي ولا يمكن العدول عنه، وما بين هذه النون الساقطة أو النون الزائدة، ضاعت ملايين عراقية بحكمة القيادة أو بفعل شعورها بالعزة بالإثم.

مؤسسات عربية إعلامية كبرى ومثقفون من شتى المقاييس والأوزان. كانوا يحثون كلماهم حجيجاً نحو منابع المجد والعطاء تلك.، بيد أن أنوفهم لم تشمخ سوى برائحة دم الضحايا وخيوط المؤامرات التي تحاك ضد المهاجرين والمهجرين، وطبقة (البدون) المذعورة.

الإرث القاسي، من تركات هذه الأمكنة لا يمكن الفكاك منه بسهولة، إنه إرث عراقي آخر ثقيل، يتعدى الجغرافيا المكانية ليلازم العراقي حتى وهو خارج بلده، والعراقي الذي يعمل في هذه الأمكنة اليوم، لن يكون بمنأى عن وطأة هذه الأثقال، تحسين الصورة ليس هنا سوى شعار، فالواقع يقول إن ثمة معضلات كبرى تتعلق بكون أغلب العراقيين في الخارج هم نصف مواطنين فهم عراقيون بالتولد لكنهم ليسوا عراقيين بالمفهوم القانوني! فقانون الجنسية العراقية الذي تبنته جميع الحكومات العراقية المتعاقبة نص على أن اكتساب العراقي لجنسية بلد آخر يسقط عنه تلقائياً جنسية بلاده، واستمر هذا الأمر مثار قلق لسنوات عديدة بين العديد من العراقيين وهم يعيشون في الخارج، ويستحقون الحصول على جنسية البلد الذي أقاموا فيه بيد أن هذا القلق حسمه طول المدة وبُعْد الردة! وبدده تعب الجسد وكثرة الولد واستحالة البلد! فاندفع الأكثر منهم خلال السنوات الأخيرة للحصول على الجنسية أملاً بقانون جديد يبيح ازدواج

الجنسية، خاصة وإن أغلب أعضاء الحكومة المؤقتة الحالية هم من بين مزدوجي الجنسية وربما الولاء أيضاً.

هذا الإرث المركب من ترسبات عدة ليس نظام صدام إلا طبقتها الأكثر سماكة، لا يبدو من اليسيـــر الخلاص منه دفعة واحدة، وليس ثمة نبتة جديدة يمكن أن تزرع خارج هذه الترسبات كما هو واضح حتى الآن.

ربما من المفارقات أن تكون أول سفارة عراقية في الخارج يجـــري تسميتها والعراق بعد في طور الاحتلال هي البلد الذي قامت قواتـــه باحتلال العراق، أعني الولايات المتحدة، فكانت السيدة رند رحـــيم فرانكي، العراقية المولد الأميـــركية الجنسية، أول من يمثل البلد تمثيلاً دبلوماسياً في الخارج، ثم كرت المسبحة بأسماء السفراء المعيـــنين في الخارج، مع أن العديد من السفارات العراقية نفسها لم يجر افتتاحهـــا رسمياً بعد في البلدان المعنية.

ما يقرب من خمسين سفيـــراً جرت تسميتهم ليمثلوا الدبلوماسية العراقية الجديدة، لكن المعضلة بدأت بالظهور من جديـــد وبـــصيغة أخرى عندما بدا أن أكثرهم من مزدوجي الجنسية والولاء، ولعل هذا ما دعا أطرافاً سياسية عدة إلى الاعتراض على طريقة التعيين، متخذة من قضية الولاء لافتة عريضة تختفي تحتها صراعات المحاصصة الحزبية والطائفية والعلاقات الشخصية[1].

([1]) بقي هذا القرار قراراً مع وقف التنفيذ إذ إنه اصطدم بمعضلة تنفيذية تمثلـــت في كون الحكومات التي عين فيها هؤلاء السفراء لم تقرر بشكل نهـــائي اســـتقبالهم في بلدانها أو إرسال سفراء يمثلونها إلى العراق.

تجمع دراما السفارات العراقية أطراف الحكاية لتنتهي نهاية نوعية، ذات دلالة، فالدولة الشمولية التي أرادت أن تتحكم بمصائر العراقيين حتى في منافيهم، وتتدخل بشؤون البشر حتى وهم في بلدانهم، تواجه اليوم عدالة غيبية لافتة، حيث تنتهي دولتنا الشمولية بدولة تحكمها سفارة بلد آخر، فليس سراً أن السيد نغرو بونتي بأفراد سفارته الثلاثة آلاف وهي أكبر سفارة بالعالم، وبوجوده في القصر الجمهوري ببغداد، وبربع مليون جندي أجنبي على الأراضي العراقية من قوات (متعددة الجنسية) تخضع في الواقع لقيادة بلاده، هو الذي يستطيع أن يقول الكلمة الفصل في العراق اليوم، حتى وإن جاءت تلك الكلمة، تحت غطاء الدبلوماسية والعلاقات الثنائية بين بلدين بينهما بحار وسفارات!

القبـر أو شرقي عدن!
الحوارات والسجالات وما تورّثانه.

بـــما أنّ كثيـــراً من سجالات المثقفين في عصر الفتن الساهرة في ليل الكتّاب، قد خلصتْ إلى تغليب نـــزعة (العَداوات) على مجمـــل مشهد التساجل كراً وفراً! وحركت الضغائن بدل الرؤى في ســـياق ما كان ينبغي له أن يكون حواراً لو لم ينشأ في زمن الفتن متعـــددة الآباء. فإن البحث عن «حوار» ثقافي وسط هذه المعمعة والقعقـــة، سيبدو مضنياً حقاً وسيحيل إلى تقصي أبعاد شخـــصية ونـــــزعات كره بين المثقفين، أكثر مما يحيل إلى توصيف لواحد من طبائع العلاقة الملتبسة بين هذه أفراد هذه النخبة المفترضة، ربما كان التباس التنسيب الدلالي والتجذيـــر اللغوي في المعاجم العربية لمعنى العدو هـــو مـــا سيحيلنا إلى دلالات أبعد مما هو شخصي، ويجعل من الجدل حـــول هذه المفردة ــ طبيعة وتوصيفاً ــ مجدياً ومثمراً للخروج بيقين بعـــد كل هذا اللبس.

فالعدو في اللغة: ضد الولي، كما هو الحال لـــدى الجـــوهري في صحاحه، وهو بهذا المعنى توصيف لنـــزعة الخروج علـــى الطاعـــة، غيـــر أن ثمة بعداً آخر إضافياً له ويعني التباعـــد والغربـــة، ولعـــل الأخيـــرة هي ما أراده الشاعر ذو الرمة في بيته الأثيـــر:

وكائن ذعرنا من مهاة ورامح
بلاد العدا ليست له ببلاد

لكن ثـمَّة في النزوع إلى (العداوات) أيضاً ما يحيل هذه النزعة، إلى طبيعة إلغائية لا تخلو من عنف معنوي، وشطب ومحو مستمرين لا يتوقفان عند حدود توصيف بعينه.

وكغيرها من أوساط الجماعات والشرائح المجتمعية، ستبدو أوساط النخبة المثقفة رازحة تحت طائلة الوباء المنتشر في النفوس، دون تحديد أو تفريق، لتتجلى بأسوأ تجلياتها كما تتجلى (عداوات الكار) في المهن والحرف، أو عداوات سوق ومضاربات تعدُّ في الخفاء، لكأنَّ المثقفين والحالة هذه، ينتظمون كلُّهم في حشد غير واضح المعالم ليتزاحموا في مساحة ضيقة أو يخوضوا في بركة راكدة أو مستنقع واحد. لكن البحار أوسع من أن تتزاحم فيها الأجساد والسفن والمراكب، فلماذا يخوضون في الركود ولا يمخرون في العباب؟ ربما لهذا فإن حوادث البحار أقل بكثير من حوادث الطرقات السريعة الضيقة المكتظة بالمسرعين لأعمالهم ومللهم اليومي، والأجواء التي تتخبط فيها النسور وقذائف الحروب في الوقت نفسه.

المثقف كائن جدلي وسجالي وحواري في الوقت نفسه، لكنَّهُ لا يساجل من أجل إنكار الآخر، ولا يجادل من أجل دحضه، ولا يحاور من أجل توريث الحوار في سلسلة لا تنتهي من دوامات اليقينية، البحث والسؤال هما الغاية من السجال أو الجدال أو الحوار بمختلف توجهاتها.

وإذا ما بدت (العداوات) خارج حدود الوباء إياه ولا تتأطر بما هو شخصي بل تبتعد في ما هو ثقافي لتكتسب معنى كونها ضد التسليم الأعمى للولاء، وتتجسد في الغربة والتباعد والكهنوت الروحي الذي يخلق عزلة فاعلة فأهلاً بها، ومرحى لها، وطوبى لقديسيها، ولكن عندما تكون نوعاً من التعبير عن نزعات التباغض والتحاسد والكره، فإن مساحة البشاعة التي تتركها هذه الصفات لا تستحق إلا الهجران، وليكن هجراً بلا حنين أو ندم.

ما نراه شائعاً اليوم ويا للأسف، هو البعد الثاني، الشخصاني الذي يتجسد كرهاً، فيما يغيب الروحاني الذي يفقه ما يرد في الكتاب المقدس من أن (آخر عدو يبطل هو الموت لأنه أخضع كل شيء تحت قدميه)

ولكي لا نخلط مفهوم العداوة الشخصية بمفهوم الخصومة الأدبية وتداخل الآراء في مختبر الثقافة، قبل أن تخرج تلك الخصومات من ذلك المختبر لتدخل في أتون الشخصانية، نقول إن الخصومات الأدبية غير الشخصانية، تركت في تاريخ الثقافة العربية تراثاً جدلياً مهماً عندما كانت تعتمد على نوع من الموقف المتمثل في نتاجات ثقافة عضوية يمثل فيها المثقف جماعة ويشكل نخبة تدير سجالاً ساخناً مع خصومه على الطرف الآخر من المعادلة الجدلية.

ومنذ هجائيات حسان بن ثابت والهجائيات المضادة من شعراء قريش مروراً بنقائض جرير والأخطل، وتلاحمات جرير مع الفرزدق والراعي النميري وسواهما من شعراء عصره، وحتى أشعار التراشق الشخصي والقبلي وكذلك القومي، في العصرين الأموي والعباسي، وصولاً إلى نموذج « التهاجي الشعري الطائفي الذي

تجسد بوضوح أيام المتوكل بين دعبل الخزاعي وعلي بـــن الجهـــم» تشكلت صورة لطبيعة السجال الذي تنقله لنا كتب التراث بوصـــفه جانباً من صورة حياة في تلك العصور، صورة متداخلة من مفردات صعود المدنية نحو صيغ أخرى في خصائصِ العلاقة مع الآخر. كمـــا تحولت بالتدريج نحو القسوة، ومثلت ميلاً متصاعداً باتجاه التنكيـــل الشخصي، بفعل تطور نمط الصراع الذي يحكم العلاقة بين الفـــرد والمؤسسة التي بدأت تتعقد بنيتها حتى أضحت بنية قمعية غاشمة.

ووصولاً إلى عصر النهضة حيث تأججت المعارك الأدبية والفكرية بين أقطابها في مصر كزكي مبارك وطه حسين وعباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي وسواهم، ستنفتح أمامنا الآفاق الصعبة التي اجتازها الحوار العربي الداخلي قبل أن تنتقـــل ثقافتـــه إلى مرحلـــة جديدة.

ولنتذكر، كذلك، آراء ومواقف عبد المحسن الكاظمي والرصـــافي والزهاوي في العراق تلك الآراء التي خاضها غمارها هؤلاء، وتجلت عن معارك ساخنة دفعت بعض الخصوم إلى قطع الحـــوار الثقـــافي بتكفيـــر الزهاوي الذي صرخ عندها أمام هذا الخطر بقصيدة جـــاء في أحد أبياتها:

يا قـــومُ مَهْـــلاً مُـــسْلمٌ أنـــا مـــثلكمْ
الله ثم الله في تكفيـــــــــــــــري

لنتذكر محنة الرصافي التي لا تزال ماثلة حتى اليـــوم في كتابـــه « الشخصية المحمدية» ولنتذكر أيضاً المشكلات التي تعرض لها الدكتور

علي الوردي بسبب كتابه « وعّاظ السلاطين» على يد البعض مـــن مجايليه من الواعظين الجدد. حتى إنه تعرض لمحاولتي اغتيال في منطقة الكاظمية، قبل أن يفتح حواراً في أحد المنتديات الدينية يوضح فيـــه حقيقة ما بثه في كتابه من آراء، من أجـــل أن لا يـــسمح لوعّـــاظِ السلاطين بأن يهدروا دمه ويجعلوه « مندوباً ومطلوباً» مـــن قبـــلَ العامة!

ولعل الشاعر المتمرد حسين مردان، من أكثر أدباء الخمـــسينات دفعاً لثمن «الخصومات» الأدبية عندما حوكم على ديوانه الشعرية: قصائد عارية الصادر في العام 1949، ومنع من إصـــدار الكتـــب، وسجن لمدة سنة. حتى إنه اضطر في طبعة لاحقة إلى إهداء « قصائد عارية» إلى الزعيم عبد الكريم قاسم كي يجعل قـــصائده متاحـــة في الأسواق!

من نافل القول أن قضية حسين مردان بـــرمتها، لا تقف عنـــد حدود كونها مجرد قضية صراع بين المثقف والسلطة، وإنما لا بدَّ من البحث عن «أوراق قابيل» هذه المرَّة وليس نذور الحنطـــة الـــتي لم يتقبلها الربُّ منهُ فحقدَ الأخُ على أخيه.

إذن تحرَّكَ مفهومُ الخصومة الذي يعني الجدلَ الثقـــافي والتبـــاري بالحججِ، مع تطور المؤسسات والنظم المدنيـــة، ليـــصبح « عـــداء وتباغضاً» فبينما قال طرفة بن العبد وهو الْمُسرفُ في تمـــرُّدهِ علـــى نواميس الحياة الاجتماعية في عصره «الجاهلي»:

إلى أنْ تحَامَتني العَشيرةُ كُلُّها وأفْردْتُ إفْرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

تحوَّل هذا الإفراد والتحاشي، أو «العزلة الشاعرية» إذا شئت، إلى سجن ومنفى وحتى منصة إعدام في «العصر الحديث».

وفي حدود تجربتي الشخصية وجدت أن المنفى نفسه يخلق «عداواته» التي تختلف عن تلك التي يبتدعها الوجود في الوطن، فالمنفى العراقي في جانب مهم منه هو واحد من نتاجات « الشقاق» أو نزعات الكره والإنكار والإقصاء، فبينما يصطدم المثقف المقيم مع المؤسسات الثقافية في بلاده متمثلة برموزها، وهم على الأغلب من (المثقفين) الذين تحكمت عقلية الإقصاء في طبائعهم وكتاباهم على حد سواء. يتأسس الصدام بين المنفيين من شروط صراع «أخوي» داخل سلالة يفترض أن تكون واحدة، لكنَّها في الواقع سلالة منقسمة على نفسها منذ البدء، لعل مباركة السماء لقربان الأخ الراعي (قابيل) ورفضها لقربان الأخ المزارع (قابيل) هو صورة تقريبية مناسبة لتأصيل نزعات العداء الإلغائي لدى النفس البشري منذ القدم، كان القتل نصيب أحدهم والنفي إلى شرقي عدن نصيب الآخر كما تخبرنا الأساطير ونصوص الكتاب المقدس، لكن العقوبة في واقع المنفى العراقي هنا، مقلوبة أو بالأحرى مستعارة بجانب منها، فقد كان النفي كناية عن القتل، بينما لم ينعم الأخ الآخر بوجوده في الوطن الذي لا يتسع للجميع على ما يبدو.

ماذا إذن بعد شرقي عدن؟

لعل الكثيــرين من المثقفين العرب لا يعرفون أن العدد الأوفر من المثقفين العراقيين الذين ضجت بهم منافي الأرض وجهاتهــا خــلال العقود الأخيــرة قد تركوا البلاد بسبب وشايات من زملاء لهــم في البلاد. صحيحٌ أنهم كانوا رافضين بالأساس لما يجري في البلاد، لكن هذا الرفض تحول إلى جريمة فقط عندما أجرى عليه كتاب الــسلطة أقلامهم العنيفة في تقاريــر تدعو للبطش (بأعداء الحزب والثــورة.) وكان أن صعدَ عددٌ من ضحايا هذه الأقلام العنيفة المعبأة بــذاكرة الدم لا بالحبــر، منصَّاتِ الإعدام و لم تُكتبْ على قبــورهم حتَّــى شاهدة تشيــر إليهم، بينما هرب ضحايا آخرون إلى المنافي تحــت تأثيــر هاجس (شرقي عدن)

لكن هل انتهت هذه التقاليد البشعة من الوسط الثقافي العراقــي بعد سقوط الدكتاتورية؟ هل تجدد أبطال طقوسها أم تمــددوا مــن الماضي ووجدوا لهم مكاناً تحت الشمس الجديدة يعيدون من خلاله إحياء تلك الطقوس؟

يكفي هنا أن نشيــر فقط إلى نموذج واحد يتمثل في أحد ابــرز محرري وثائق الإدانة تلك ضد المثقفينِ العراقيين خلال الثمانينــات، والذي عمل سكرتيــراً صحفياً لصدام وقتها، فقــد ســارع بعــد الاحتلال مباشرة إلى العمل (سمسار ثقة) بين ســلطات الاحــتلال الأميــركي في العراق من جهة، ورؤساء تحريــر الــصحف الــتي تصدر في عهد الحرية الجديد من جهة مقابلة!

هذا «الكاتب» أحد النماذج التي كان ينبغي أن تتم أحالتهم إلى محكمة « ضميــر ثقافي» ليس فقط لأن إمكانياته الكتابية لم تتجــلَ إلا بكتاب واحد عن صدام أسماه (أيام مع شاغل الأرض) بــل لأنَّ

بصمات كتاباته الأوضح تركت آثاراً عميقة من خلال ما دبجه من شهادات (الوفيات) وفرمانات النفي ضد عدد من المثقفين العراقيين، لذلك فإن إحالته هو أو من على شاكلته إلى محكمة ثقافية «اعتبارية» وليس تنكيلية أو عقابية مباشرة، يفتح باب التسامح وسد باب القصاص، على الأقل كي تبطل الفاعلية الدموية لقلمه الذي كان أشبه بالسيف المسلط على رؤوس المثقفين العراقيين، بدل أن تكافئه السلطة البديلة، ويستقبله مسؤولو صحافة (الحرية) وكأنه شاهد على عصر الألم العراقي الطويل وليس أحد أدوات صناعته، الأمر الذي دفع الباحثين عن الثارات إلى وضع اسمه على لائحة المطلوبين للتصفية!

لا جدوى إذن، فالمصير هو ذاته منذ القربان الأول: وعليك أن تختار : إما القبر أو شرقي عدن!

يقاتلون وهم حفاة، دمٌ يجري ودمٌ يكتب.

1

البــرابــرة الذين يستبيحون مدن طفولتنا، ويــذبحون شــركاء ذكرياتنا الذين انتبذوا أمكنتهم فوق سجادة أو عند مسجد، أو تحت قناعة لم يجدوا غيــرها في زمن القسوة، أو الذين وقفوا كــضحايا ساكتة أمام دبابات المحتلين، البــرابــرة هؤلاء مباركون من منافينا المتعفنة، فليذبح الأميــركان، إذن، من شاءوا من أهلنا فلنا أن ندين قتلاهم والاعتداء علــى أجــسادهم المقدســة كجــسد هكتــور الطروادي!، ونجد المبــررات لهم دائماً وهم يقتلون أهلنــا في كــل المدن العراقية.

لم يعد في القوس منــزع، لكأن صوت غريب كربلاء يتجــدد اليوم في مدينة الثورة المستباحة من قبل فرسان روما الجديدة. وأخبار أهلنا ترشقنا بالدم قبل الكلام.

الذي يقرأ ما تنشره، مواقع الانترنيت العراقية، المواقــع ولــيس الصحف العراقية! يكتشف واقعاً مضحكاً مبكياً حقاً، فما كتب عن (جريمة الفلوجة) التي قتل فيها المارينــز والكوماندوز الأربعة الــذين لم تكفهم أوسمة القتل ونياشين الحروب والتدميــر بنيكاراغو وبنما وأفغانستان وكوسوفو، فجاءوا إلى العراق، لينتهوا نهاية بشعة بكــل

المقاييس، حظوا بأكبـــر تشييع أخلاقي عراقي، تطرد شبهة الوحشية والبـــربـــرية التي تلصق بها روما كل أعدائها بوصف نمطي صـــار جزءاً من الفولكلور الإعلامي المتحضر.

ولن يجد ضحايا النجف والكوفة وكربلاء، والثورة والشعلة وحي الأمين، والناصرية والكوت والعمارة والديوانية والفلوجة والموصـــل وكركوك وكل المدن العراقية تقريباً، أي هبة أخلاقية مماثلة، ألـــيس هذا من الواقع المضحك المبكي حقاً، في عصر يكون كل شيء فيـــه (وجهة نظر.)

ربما سيعيد أحد رواد عصر النهضة الأديب والمفكر الشامي أديب أسحق، فك الالتباس الحاصل حول وجهة النظر هذه بأبياتـــه الـــتي أضحت شعاراً:

قتل امرئ في غابة جريمةٌ لا تُغتفرْ

وقتل شعب آمنٍ مسألةٌ فيها نظَرْ.

بماذا سننمط أهلنا في مدينة الثورة، وسط حمى التنميطات المخيفة للمدن العراقية، هل هم معدان الحضارة! أم غوغاء آخرون، أم شذاذ الآفاق؟ لقد جرى وصمهم حقاً بذات التنميط الذي وصـــفهم بـــه صدام، في انتفاضة آذار / مارس عام 1991: غوغاء!

كان علي من وقعوا على بيان الشجب ضد «المسحولين»[1] في الفلوجة مثلاً، أن ينهضوا، قبل الجميع لإدانة ما يـــرتكبه المحتل ضد

(1) السحل مفردة عامية عراقية، تعني وضع حبل في رجل الـــضحية بعـــد قتلـــه، وسحبه في الشوارع، ورغم إن كتب التراث وبينها تاريخ الطبري تؤكد إن مـــسلم بن عقيل وهاني بن عروة قد ربطت أرجلهما بحبل وجرًا في سوق الكوفة، إلا إن=

مدن العراق، لكي نقتنع، ولو بوهم، أن الحياد والموضوعية والأخلاق الحضارية، متوفرة تجاه دمنا الذي يجري ولكن هل يضيف التوقيـــع الالكتروني ضد مجازر روما شيئاً جديداً أم هو مجرد إدانة إضافية.

قتلى الفلوجة، رجال الكوماندوز المسحولين الذين نالوا شـــارات وأوسمة القتل من جميع القارات، يثأرون اليوم لأنفسهم ولـــسحلهم، بسرفات الدبابات التي تدفن اللحم الحي وتخلطه بأسفلت شـــوارع المدن الفقيـــرة، بالطائرات التي تغيـــر على مدينة «الثورة داخـــل» و«الثورة جوادر» و«حي الشعلة».

إنه دمي وأنا أنتفض له، وهؤلاء الـــذين يقتلـــون لا يمكـــنني أن أختزلهم في أية صورة، لا في عمامة ولا شروال ولا دشداشة. جغرافيا الدم المسفوح ينبغي أن توحد خريطة الانتماء.

يبقى من المهم أن نشيـــر إلى أن مجازر المحتلين الجدد، تشبه مجازر المحتلين القدامي حتى بتوقيت مرابدها ونـــشاز أبواقهـــا في الـــداخل والخارج، فبينما كانت المرابد الغابـــرة تعقد تحت شـــعار (لماضـــينا نغني، لمستقبلنا نطلق الكلمة) فإن مربد اليوم الذي جرى تجديده تحت اسم مربد 2004 للهروب من العد السابق! يعقد تحت شعار (مـــن اجل عراق متعدد الرؤى والأطياف!) والواقع أن النار هي التي كانت

=فكرة »السحل« كدلالة عنفية مضاعفة، ارتبطت بالعقاب الـــسياسي في تـــاريخ العراق، حيث سحل أفراد العائلة الملكية بعد ثورة 14 تموز، كما سحل الخـــصوم السياسيون في الصراعات الدموية اللاحقة، ومعروف في هـــذا الـــسياق الـــشعار »الثوري« الذي ساد خلال« الثورة» بالتلويح بالحبال، وترديد شعار« مـــا كـــو مؤامرة تصير والحبال موجودة» حتى صار رمز الحبل، يرتبط بالسحل، أكثـــر مـــن ارتباطه بالإعدام نفسه.

تطلق على الماضي والحاضر والناس جميعاً تحت أناشيد الحماس من الشعراء العراقيين والعرب في المربد الغابر، واليوم، في مربد الحاضر، دم متعدد الأطياف يجري في العراق تحت أناشيد لا تقل حماسة عن الحرية التي جاء بها الغزاة.

أما فضائية الحرية (العراقية) فلا تزال تعلن أن العراق بخير وعلى طريق الديمقراطية الذي تفتحها الدبابات وهي تقتحم شوارع المدن على أجساد الأبرياء.

إنه دمي يراق اليوم في كل مدن العراق ويحق لي أن أنتفض له.

2

لذلك أكتب عن الذين يقاتلون وهم حفاة.

أنهم حفاة.

خلقوا حفاة وعاشوا حفاة وقطعوا درب الحياة حفـــاة وقـــاتلوا وقتلوا حفاةً حفاة!

نعم إنهم حفاة لم يلبسهم صدام أحذية، وعدهم بهـــا. أو طالمـــا تفاخر بها بوصفها أحد أهم إنجازاته للعراقيين بعد أن ورثهم حفاة.

إنهم حفاة يقاتلون في الوادي المقدس.

في مكالمة هاتفية يجيء صوت شقيقي بحشرجة مرة، وأنا أسأله عن الوضع: أمس جاءوا بثلاثة عشر شهيدا مـــن منطقتنـــا، ســـبعة في «الشارع الأصفر» وستة في «الشارع المشجر.»

أكثر من ثلاثين شهيداً وصلوا إلى «مدينة الثـــورة» عـــشرون في «الفضيلية» أكثر منهم في «العبيدي» قبل أن تعاد جثامينـــهم مـــرة أخرى في ذات الطريق إلى وادي السلام في النجف، حيث قاتلوا فيه وقُتلوا فيه وسيعادون له، لكن لا أظن أن ثمة سلاماً سيجدونه حـــتى وهم في القبـــر. ستدك عظامهم صواريخ الأباتشي وقذائف دبابات الإبـــرامز وما شئت من أسلحة أخرى.

قلت لشقيقي لكنهم يقولون أنهم من شذاذ الآفاق وعناصر فدائيي صدام والأمن والمخابـــرات؟

قال شقيقي: إنهم يواجهون الموت ولا يمتلكون غير الشجاعة، هل تلاحظ الخسائر في صفوفهم، هل يحتاج هذا إلى القول إنهم ليسوا من كتائب الكر والفر والاختباء.

لم يقتلوا المدنيين و لم يختطفوا أجنبياً و لم يفخخوا أنفسهم وسط الناس، إنهم لا يمتلكون سوى الشجاعة. أشهد أنهم شهداء وشاهدون.

التجار في النجف وكربلاء، الذين عرفناهم وهم يتسابقون حتى على حصة من جثة الميت، هؤلاء يريدون للنجف أن يدخلها المحتل، شرط أن لا تمس مصالحهم يريدون لها أن تبقى مكاناً آمناً للتجار، يردون للضريح أن يكون مجرد ضريح للسياحة وليس رمزاً ولا ذاكرة.

«فاتيكاناً» للصلوات، منفى آخر داخل الوطن وليس قطب رحى التاريخ.

التاجر والسوقي ثنائية كل العصور تتجدد اليوم، فلأيهما تنحاز.

إنهم يريدونه أن يكون مكان سياحة جميلاً، بينما تنشأ اليوم مقبرة جديدة في وادي السلام باسم (شهداء جيش المهدي)

كأن كل ما تعلمناه من ضريح علي والحسين والعباس وسائر الشهداء هو أن نقبل المعدن الذهبي الشاخص ونبلله بالدموع ونسجد على تربة يابسة.

ليس هذا ما أراده شهداء الطف وهم يواجهون الكتائب حاسرين إلا من أمل كلكامشي، تماماً مثل أولئك الذين يتراكضون اليـــوم في المقابـــر حفاة كما لو أنهم في يوم قيامة.

قال شقيقي: هل تعرف قريبنا فلان لقد استشهد ابناه فلان وفلان في معارك كربلاء، أحدهما كان جريحاً وكان ثمة أمل له في الحيـــاة، لكنَّهُ رفض الإخلاء إلى المستشفى لأن الأمريكان كـــان يـــداهمون المستشفيات بالأدلاء لاعتقال كل جريح ممن يقاتلهم، فضل المـــوت بجراح الحرب بدل الموت بيد مجندة تريد تجريب السادية على جسده أو ترفع شارة النصر عند جثته.

أنهم حفاة! يحرثون بأقدامهم المتصلبة من ملامسة التراب، أرضـــاً أخرى ستمشي عليها أحذية التجار، وحفاة آخرون يحرثون أرضـــاً أخرى.

3

في كل مرة أحاول فيها أن أدخل حواراً، أجد نفسي إزاء سجال يغلب عليه طابع التنابـز ونـزعة التهاتر وصفة التهارش، أكثر من كونه حواراً حقاً، أو ان الحوار ينقطع قبل أن يقطع خطوتـه الأولى الصحيحة، فأجد الزهد بالحوار على «هاتا أحجى» ومع هذا أحاول هذه المرة أن أدخل حواراً وليس سجالاً مع الـصديق أحمـد عبـد الحسين[1] وآمل أن يكون مفيداً، ذلك أنني ومنذ فترة أيضاً، أتبـادل معه بعض وجهات النظر وإن كانت متقطعة، ومتقاطعـة، عبـر

(1) أصل هذا الحوار، وشيء من المقال، بيانان كتبهما أحمد عبد الحسين وشـاركه في توقيعهما عدد من الأدباء العراقيين، الأول يدين ما سمي (قتل الأميركان الأبرياء في الفلوجة) والتمثيل بجثثهم، والدعوة للقصاص ممن قتلهم أو مثل بهم، وهي الحادثة التي أدت إلى أكبر جريمة يرتكبها الاحتلال ضد مدينة الفلوجة دون تمييز، ودون أن يقول إنه اقتص من »الفاعلين» واللافت أن يمسك بهذا البيان الذي نشر في العديـد من مواقع الانترنيت، شاكر النابلسي أحد فقهاء المارينـز، ليحيـي مـن خلالـه المثقفين الذي وقعوا على البيان بما يستحقونه من تحية بمقالة له تحت عنـوان (هـل تحول العرب من أُسد الغابة إلى ضباع الغابة؟) »موقع إيلاف، 2004/4/2 »
أما البيان الثاني فيتعلق بمعارك المقاومة في ربيع العام 2004، في كل مـن النجـف والفلوجة والعديد من محافظات العراق، والتي قتل فيه المئات من المدنيين العزل بنيران المحتلين، إضافة إلى العشرات من المقاتلين المدافعين عن تلك المدن. وهو بيان يـبين الرياء، إذا ما قورن بيان » حفلة الضباع»

البـــريد الالكتروني، وأعترف أنني اخترت هذه المرة أن يكون الحوار علنياً، ذلك أن لا خشية كما أرى من حوار كهذا لا تنقصه المودة، في مثل هذا الزمن الرمادي حقاً.

وما قد يجعل الحوار مفيداً لو امتد دون تلكؤ، أن أحمد نفسه، قد وجهه،ربما دون قصد، نحو وجهة إذا ما مضى نحوها تماماً ســيكون أكثر فائدة حقاً، فالقضية تدور بين الاحتلال والمقاومة، وهو ـــ أي الحوار ـــ سيخرج وربما للمرة الأولى من شبهة خلط الأوراق الــتي درجت عليها معظم إن لم أقل كل حوارات العراقيين منذ ســقوط الدكتاتور والاحتلال الأميــركي للعراق، كانت المعادلة السابقة هل أنت مع صدام أم مع أميــركا؟ لكنَّها اليوم، بعد أن أثبت الدكتاتور أنه لا يقاوم أسياده، أصبحت هل أنت مع الاحتلال أم مع المقاومة؟

ذلك أننا نعرف بعضنا منذ عشرين عاماً تقريباً ولا أحد يستطيع أن يتهم الآخر بغيــر ما يعرفه عن تاريخه هناك، نعم كلانــا كــان خارج السيــرك على الأقل، إن لم ندَّعِ بطولات أتى عليها الــبعض كلها و لم يتركوا نــزعة لمنازع عليها.

القضية إذن تتعلق بثنائية المقاومة / الاحتلال، والأولى تبدو ملتبسة اليوم ومتداخلة ومشتبكة الأصول والفروع، لكن الثانية كما أراها، أنا على الأقل، واضحة حتى قبل أن تبدأ الحرب، ووثقتــها بكتــابي النثري الذي صدر بالتزامن مع احتلال العراق (ربيع الجنــــرالات ونيــروز الحلاجين.)

ثقافياً وجدت في ثنائية الشاعر الفرنسي بــول إيلــوار والمعمــم النجفي العصي على التنميط محمد سعيد الحبوبي، ما يمكن أن يحمــل

تجسيداً لفكرة المقاومة، وسأقترحها ــ ثنائية إيلوار والحبوبي ــ مادة قادمة لتفعيل هذا الحوار، لا توجيهه نحو يقينية ما، أو مخاطبة طــرف بعينه[1].

لنعترف اعترافاً أضافياً هو أن المقاومة لا تــزال في عامهــا الأول فكرة رجراجة قابلة لأن تأخذ أكثر من صورة في هــذه المرحلــة،

(1) وبدلاً من أن يذهب الحوار إلى مناطق مفيدة، اكتفى أحمد عبد الحسين بإعلان انسحابه مما أسماه »سجالاً غير نــزيه« وعنون رده »كلمة أخيرة في سجال غــير نــزيه« لكنها لم تكن الكلمة الأخيرة حقاً بل عاد وكتب »مقالاً عاصفاً بالتهم « في جريدة »الصباح« الناطقة باسم »قوات الائتلاف في العراق« في عددها المــرقم 646 في 6 أيلول سبتمبر 2005، وتحت عنوان على (حائط ابن عياض) يــصف فيها عدداً من الكتاب والمثقفين العراقيين بأنهم نموذج لثقافــة الزرقــاوي لأنهــم مناهضون لأميركا، بعد أن يقرر بسذاجة واضحة:

انتهت الهويّة العروبية إلى حطامٍ، بعد قرنٍ من الهذر الموصول بالهذر، شعراً و»فكراً« وخطابات سياسيّة.

وإن التقوى صارت مآل هؤلاء الكتاب الذين يمسي بعضهم كــسعدي يوســف وكاتب هذه السطور وباقر الصراف ونوري المرادي، وأحمد فؤاد نجم.. يقــول في مقالته تلك »محمد مظلوم يخوّن زملاءه الذين يعملون في الصحف التي أُنــشئتْ في ظلّ الاحتلال، بِمَ يفكّر الشاعرُ المقاوِم وهو على حائط التقوى ذاته اليوم؟ أيــشفق على زملائه »الخونة« أم يفرح بالمكافآت التي يستجرّها فعله المقاوِم؟«

لكن الأخطر في »السجال غير النــزيه« الذي كان الكلام فيه فقط لأحمــد عبــد الحسين وحده، ولمرات عدة من خلال جريدة الصباح، ما كتبه يوم 9 آيار 2006، تحت عنوان الشعراء الذين فجروا الصباح، ويتهم فيه : محمد مظلوم وفاروق يوسف وسعدي يوسف، بأنهم مسؤولون عن التفجير الذي تعرضت له جريدة الصباح يوم 7 آيار 2006.

وبعض هذه الصور تبدو مخيفة للبعض، لكن كل من يقـــرأ تـــاريخ الشعوب يعرف أيضاً أن هذه الصورة سرعان ما تتهذب وتتجسد في مشروع وطني يوحد الاتجاهات في طريق متفق عليه إذا كانت تصدر عن واقع موضوعي.

كلنا يعرف اليوم أن مادة ما سمي الهبة الـــشيعية،أو الانتفاضـــة الشعبية، أو المقاومة المسلحة، أو ثورة عشرين أخرى تختلف راهنـــاً باتسامها بسمات العصر الجديد، الكل يعرف أن المادة الأساسية لهذا الفعل البشري الطافح هم الفقراء المهمشون ـــ يكفي هنا أن نشيـــر إلى مواطني الثورة والشعلة فقط لنعرف أننا نتحدث عن نصف نفوس بغداد، وما أن نذكر الكوت أو العمارة أو الناصرية مـــثلاً، حـــتى ترتسم سمات الفقر والتهميش مع إيقاع كل كلمـــة تـــسمي هـــذه المحافظات.

فلماذا يعيد (بيان للمثقفين العراقيين عن المجازر التي ترتكـــب في عراقنا) توصيف القضية وكأنها جريمة بلا فاعلين؟ لماذا يسند ارتكاب المجازر فعلاً مبيناً للمجهول! هل ان مرتكبهما مجهول إلى هذا الحـــد ليقوم كاتب البيان بتجهيل الفاعلين؟

ثم لماذا هذه الدبلوماسية في لغة البيان وهي التي لا يتمتع بها حـــتى أعضاء مجلس الحكم الذين يحملهم «جانباً» من المـــسؤولية، لمـــاذا تسمية الأطراف بقوات التحالف، وهم أنفسهم يسمون أنفسهم أمام العالم قوات الاحتلال وأمام العراقيين فقط قوات التحالف.

ما عرفته وأعرفه حتى الآن أن صوت المثقف يندفع إلى مسافات أسرع من الضوء أحياناً، ولا يكون ترجيعاً، في أي وقت، لخطاب سياسي مهما كان.

هل كان الأمل بالمحتل حقاً وخاب الآن فقط؟

لقد بارك الأميركان جرائم الدكتاتور عبر سنوات، وجعلوا من العراقيين ضيوفاً في حلبة الصراع الرومانية طعماً للوحوش، وقتلى في ما بينهم، ونزلاء مقابر جماعية، وربما يتسامرون اليوم معه في أحاديث عن تلك (الأحداث)

لذلك من الطبيعي أن «تبقى البندقية مرتفعة وليست سيدة الموقف فقط» طالما أن الاحتلال يقف على رؤوس العراقيين، قبل أرضهم.

وبغض النظر عن اختلافنا مع الأيدلوجيات التي تتصدر الصورة وترفع البندقية فلا أحد في الأرض يمكنه أن يعترض على حق جميع الكائنات، في الدفاع عن رؤوسها وكرامتها ومنازلها بالمعنى المباشر لهذه المنازل.

والشعراء أول من يرى بريق ذلك الدفاع، حتى قبل أن يندفع مثلما تشم الأرض رائحة المطر، سواء كان ذلك البريق بريقاً لأسنان الكلاب وهي تدافع عن جرائها أو بريق نيران البنادق حتى قبل أن تنطلق من فوهاتها.

كيف سنقرأ، في هذه الحالة، لمعان السيوف في شعر المتنبي وأبي تمام، أم هي مجرد تراث متوحش في تاريخنا الذي ينقصه كثير من الجمال؟ في هذا الشرق الذي نريد أن ننتزعه من جلده المخشوشن

الذي تجرب فيه الأسلحة والذي يقاتل بأظفاره التي لم تعد صـــالحة لأن يـــرى بها قلم على قول المتنبي.

لكن أحمد عبد الحسين يكتفي بتسمية أحـــد أطـــراف المجـــزرة (المتأسلمون الطامحون إلى الحكم) بينما الواقع العراقي اليوم، يقول إن هؤلاء هم الأغلبية الساحقة من شعبنا العراقي، فمن أين نأتي بشعب آخر نجري عليه اختبارات المدنية والحضارة المزعومة؟ قلت إننا قـــد نختلف مع الأيدلوجيات التي تتصدى اليوم للاحتلال ولكننا لا ينبغي أن نقف ضد حق الشعب في مقاومة الاحتلال، ولا أن نمارس يقينية ضد طيف بشري واسع من العراقيين لمحض هذه القناعة المختلفة.

فثمة من يـــردد كالملدوغ (التيار الصدري لا يمثل الشيعة) وهي جملة حق إضافية تطلق مرة أخرى لتشييد باطل، تماماً كمقولـــة أن محمد باقر الصدر لا يمثل الشيعة والصدر الثاني لا يمثلهم، وحـــزب الدعوة لا يمثلهم وأهل الثورة لا يمثلونهم وأهل الجنوب لا يمثلـــونهم، والمقيمون في النجف وكربلاء لا يمثلونهم، ليبقى الشيعة مجرد حالـــة سائلة لا تتكثف في صيغة ما، ولا يمكن أن تعبـــر عن انتماء عضوي أو اجتماعي أو نخبة داخل الجماعة، ليبقى من جاء مع الأميـــركان أو من يجيء مع غيـــرهم، هم فقط من يمثل الشيعة وذلك هو الباطل بعينه وفمه وأطرافه أيضاً.

ليخرج المحتلون أولاً ويـــرفعوا أسلحتهم المصوبة نحـــو صـــدور الناس، وبساطيلهم التي تدوس الرؤوس معممة وحاســـرة، حليقـــة وكثة الشعر على حد سواء، تماماً مثلما قال البعض ليسقط صـــدام أولاً، وبعد ذلك نديـــر خلافنا مع من نختلف، لنكتشف هل حقـــاً أننا لا نمتلك مقومات الشعب بل (مجرد كتلات بشرية لا تجمع بينها

جامعة ميالة للفوضى) كما وصفها فيصل الأول الهاشمي للإنكليز عند تكوين الدولة العراقية التي انهارت اليوم.

يقول أيضاً (أما من كان مع المقاومة فهو منشرح الفؤاد حتى في يوم عاشوراء الذي أحيته كلاب الزرقاوي المقاومة وبعض الطائفيين من السنّة العراقيين.) وهذه لعمري يقينية قاتلة حقاً، وسوق لاتهامات لا تطال أطرافها المسمين فحسب، بل وتسيء لكل من يحرص على توجيه فكرة المقاومة نحو مسارها المشروع، حتى بدا أحمد عبد الحسين كمن يريد أن يوحي وكأن كل من يقول بالمقاومة ينبغي أن يتحمل تبعات هذه الفعلة، وبالنسبة لي كتبت عن هذه المجزرة مقالاً في وقتها تحت عنوان (عاشوراء عراقية.. مواكب الذكريات وسرايا العنف) لكنني لم أكن بهذه اليقينية التي قدمها في عبارته تلك، بل برأتُ سنّة العراق الذين عرفتهم من هذه المجزرة، واعتبرت أن القضية لا تخرج عن دائرة تدبير خارجي بما فيهم الأمريكان أنفسهم، حتى وإن كان بعض العراقيين ـ من أي الطوائف ـ أدواته الشطرنجية.

وهنا أتساءل، لماذا لم يحدث في أربعينية الأمام الحسين ما حدث في عاشوراء؟ مع ملاحظة أن المحتلين ظلوا منذ شهر يؤكدون وجود مخطط لتفجيرات مماثلة، وقبل يومين فقط خرج وزير حروبهم رامسفيلد ليقول إن قواته لا تستطيع ضمان حياة زوار العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية، بينما نرى المواكب تمشي سيراً على الأقدام من كل محافظات العراق، ويبتسم الشباب والشيوخ على حد سواء أمام العدسات وهم يرددون بتلقائية ذات

دلالة (جئنا لزيارة الحسين على عناد الأميـــركان) نفس الجملة التي كنا نسمعها قبل سنوات مع استبدال الدكتاتور بالمحتل.

هذه المواكب الراجلة لم يحولها عن طريق سيد الأحرار الحـــسين، إلا رصاص المحتلين لتستديـــر نعوشهم هذه المرة نحو مقبـــرة النجف ضحايا رحلة أبدية نحو خلود عاشورائي وليس كلكامشياً هذه المرة.

هل أعيد التساؤل بصيغة أخرى، فأقول لماذا كلما لاحت مـــآذن كربلاء وذكرى الشهداء، لمعت نصال الدكتاتور بالأمس، ورصاص المحتل اليوم، وإشاعاته وشبهاته الموزعة في تدبيـــر غريب؟

وخاطبني بالقول (فلا تقعد على ناصية الدرب بانتظار القوافـــل تأتي إليك بأنباء الفواجع التي تؤكد لك وطنيتك وخيانتي....)

لكنني لم أقف عند ناصية الدرب كما يعلم، ولأنـــني لا أمتلـــك اليقين القاتل، فلن أجعل الأمر تأكيداً لوطنية أو وسماً بالخيانة، أنـــه حوار فحسب حوار يبحث عن اليقين ولا يدعي امتلاكه.

وأحمد عبد الحسين وسواه يعرف أنني لم أجلس على تلك الناصية التي افترضها، بل ذهبت إلى بغداد وهي لا تزال تحترق ـــ هل خمدت حرائقها اليوم؟ ـــ والجثث لا تزال متعفنة في الشوارع – هل انحسر رمي الجثث على الطرقات؟ - وخرجت بقناعة كنت متقيناً منـــها بشكل ما، لكنني اليوم أكثر قناعة بها وهي أن العراق كان محتلاً ولا يـــزال كذلك، وعنونت شهادتي تلك (العراق بين احتلالين).

لست على ناصية الدرب، بل ذهبت لمدينة الثورة لأماكن نشأتنا معاً، ورأيت أن اضطهاد الناس هناك هو من أسقط صـــدام ولـــيس الأميـــركان، وكتبت (ثغرة الضواحي الشرقية) ولا يمكن لي أن أنكر

أن هذا التيار الذي يقاوم اليوم هو من كان يديـــر تلك المؤسسات، يضمن أمن الناس ويجعل من مراكز القمع مستشفيات خيـــرية، ومن المساجد مكاناً لاستعادة المسروقات بعد الفوضى التي حلت بالبلاد، بينما لم يكن للأميـــركان من مهمة سوى الارتقاء على منـــصات مدرعاتهم وتوجيه بنادقهم نحو الجهات الأربع متحفـــزين لإطـــلاق النار، وقطع الطرق لحظة يشاءون ودونما ســـبب، إلا للاســـتعراض وإرهاب الناس كما كان يفعل من نعرفهم، ويمرون فوق سيارات لا مصادر لرزق أصحابها سواها، كأنهم يجدون تسلية وحيدة لهـــم في صيف بغداد الساخن.

يحق لأحمد أن يختار الانـــزواء خارج مدرجات الملعـــب وأن لا يكون مشجعاً لأحد الطرفين إذا كان الأمر بـــرأيه مجرد لعبة لكـــرة القدم (تحويل الساحة العراقية إلى ملعب لكرة القدم وكلّ منهم انتهى مشجعاً لأحد الفريقين: أميـــركا والمقاومة.) لكن الساحة العراقيـــة اليوم ليست ملعب كرة قدم بالتأكيد، ونحن لسنا مشجعين، فكـــرة المقاومة أبعد من ذلك مثلما هي فكرة الاحتلال.

فملعب كرة القدم الوحيد في الفلوجة صار مقبـــرة جماعيـــة للعشرات من أبناء المدينة و لم يعد صالحاً للعب إلا إذا كان هناك من يـــريد اللعب على رفات أبنائه.

ما يجري اليوم وغداً وإلى ما شاء الله ليست تسعين دقيقة أو هـــو وقت إضافي ضائع قد يـــرجح كفة أحد الفريقين، ونحن لـــسنا في شوط ثان، فالزمن أبعد من ذلك بكثيـــر.

نعم كان جانباً من كتابتي (عن الدم الذي يــراق) متوجهاً نحــو بيان أحمد الأول ومن وقعوا عليه، وكنت آمل فعلاً أن يكون بيانــه في إدانة المجازر الأميــركية في العراق، يحمل الحماس ذاته الذي حمله البيان الأول، بما حمله من (ميديا) واضحة التضخيم.

لكنَّهُ جاء بياناً باهتاً، لا يتناسب مع حجم ما جرى، ولا يكــاد يطال أذيال البيان الأول ضد قتل «الحراس الأمنيين الأميـــركان في الفلوجة» يكفي أن نشيــر هنا إلى طبيعة (الميديا) التحريــضية، في البيان السابق ومقارنتها بالبيان الحالي، إلى أن البيــان الأول ضــمَّن صورة البشاعة في التمثيل وتعليق بقايا جثث وكلاء الأمن، وصيادي المرتزقة في العراق، وكأنهم حلاج يصلب من جديد علــى جــسر الفلوجة[1].

([1]) جاء في ذلك البيان:» ونحن نرى مشاهد سحل الأميركان الأبريــاء وحــرق جثثهم وتعليقها، لا يسعنا الا التوقّف ملياً أمام هذا الانحطاط الإنساني الذي نحسب أن مجاهل أفريقيا التي كانت تقام فيها كرنفالات الشواء الآدميّ قد هجرته منذ زمن بعيد» علماً بأن المقاولين الأربعة التي ادعت إدارة بوش إنهم مدنيون، وجرى ترديد التوصيف نفسه في البيان المذكور هم في الواقع يعملون لصالح شركة (بلاك ووتــر للتعهدات الأمنية) وبينهم من ارتكب جرائم خلال فترة الحكم العنصري في جنوب أفريقيا. وللمزيد من المعلومات حول هذه الشركة يمكن مراجعة موقعها على شبكة الأنترنيت على الرابط:

www.blackwaterusa.com/securityconsulting

وكان (الجيش الإسلامي في العراق) قد أعلن مسؤوليته عن قتل الأميركيين الأربعة، في كمين داخل الفلوجة، وإن المقاتلين انسحبوا، بعد تنفيذ العملية بينما قام حــشد من المدنيين بالتمثيل بالجثث بعد ذلك.

طبعاً لا أحد على وجه الأرض يستطيع أن يبرر التمثيل البشع بأجساد هؤلاء، الذين وصفتهم وصفاً خاطئاً حينما سارع إلى نعتهم بالضحايا الأبرياء.

وطالب (قوات التحالف بتعقّب هؤلاء المتوحشين من القتلة ومن الذين مثّلوا بالجثث أو الذين احتفلوا في مهرجان الضباع هذا، وتقديمهم إلى العدالة بأقرب وقت ممكن.)

لكن البيان (الهادىء) عن مجازر المحتلين لم يتضمن مثل تلك الصور، ولا أي دعوة لتقديم مرتكبي المجازر لأية عدالة فأية عدالة مجتزأة هذه ولماذا مرة أخرى؟

تنميط المدن واحدة من صيغ تبرير الجرائم التي دأب صدام على انتهاجها وهو يستبيح المدن، كلنا يذكر حلبجة ونحن نرى اليوم آلاف العوائل تهجر من حلبجة الأميركان: الفلوجة! وها هو أحمد ينحت تنميطاً جديداً يسميه الفلوجيين، وكأن الفلوجة أصبحت هوية للعنف والتوحش، فيحاول التبرؤ من أفعالها؟ هل يعلم أن الفلوجيين، بينهم السنة والشيعة والأكراد المهجرون من مدن عدة، فيليين وغير فيليين وآشوريين وتركمان وحتى صابئة؟

إذن لماذا هذا التنميط الذي كان واحداً من يقينيات كتاب بيانات العار، عندما ينعت عراقيين في المدينة دون يقين بفلوجيين، هل يعلم أن معظم سكان منطقة حي الجولان الذي كان يعرف بحي المعدان هم من فقراء العراق، ومن القادمين من كل أنحاء العراق للعمل في مشروع الثرثار أو السكك الحديد أو غيرها من الأعمال، وهم من طيف كوزموبولوتي متشابك؟ وإن الشيعة مثلاً يشكلون ما نسبته

عشرة إلى أثني عشر بالمائة من الفلوجيين الذين نعتهم بتسمية تحمـل دلالة الكراهية.

ألم يقرأ هو ومن وقع البيان معه، شعر الرصافي عن الفلوجة، وهو من ساكنيها في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، وما حدث فيها من مجازر وقصف عشوائي من قبل البـريطانيين خـلال أحـداث معارف بحركة مايس / آيار عام 1941، هل يكفي أن نذكر بـان الناس في المدينة لا يـزالون يؤرخون لذلك بسنة (الهجـة) عنـدما جرى تهجيـر أعداد كبيـرة من العوائل في ذلك الوقـت، نتيجـة سقوط أكثر من مائتين من مدنييها، حينما لم يكن تعدادها يومـذاك يتجاوز الآلاف السبعة، وها نحن نشهد (هجة) جديـدة بعـد أن تضاعفت أعدادا نفوس المدينة وتضاعفت معها قـوة الفتـك مـن طائرات «الأف» بكل أرقامها وأبجدية قتلها.

لكن الفلوجة هي فلوجتان كما يشيـر صاحب معجم البلدان، فلوجة صغرى وأخرى كبـرى، إحداهما سواد بغـداد والأخـرى سواد الكوفة وكلتاهما تسمية تدل على خصب الأرض حيـث يمـر الفرات، تلك الفلوجة التي أعرفها، وليست مأوى القتلة ومناصـري صدام كما يحاول أن ينمطها، فإلى أي منهما ننحاز اليوم؟

المنفى المستمر

حسناً فعلت صحيفة كتابات حين أعادت نشر مقالة الكاتب عادل عبد الله (أدباؤنا في المنفى) التي يبدو من الإشارة التي ذيلت بها أنه نشرها في جريدة الصباح (الناطقة باسم قوات الائتلاف)[1] كما هو مثبت في ترويستها (ولا أدري إذا ما غيرت جلدها بعد ذلك) فعلى الأقل ذاك ما قرأته بعيني الاثنتين في زيارتي الأولى لبغداد بعد شهرين من احتلالها عقب سقوط نظام صدام.

مكمن الحسنة في إعادة النشر هنا أنها تتيح (لأدبائنا في المنفى) الذين شملهم العنوان دون استثناء أن يطلعوا عليها، أولاً. خاصة لمن هم أمثالي ممن لا يتابعون صحافة الاحتلال دائماً، كما أنها تتيح لمن

([1]) نشرت المقالة بالإساس في جريدة الصباح في 12 أب / أوغسطس 2005، وأعيد نشرها في صحيفة كتابات على الانترنيت في اليوم التالي. وجريدة الصباح هي جريدة الاحتلال الرسمية، رغم ما يحاوله البعض من تزييف، وهي الجريدة الوحيدة بالإضافة إلى جريدة (بغداد الآن) التي أصدرتها القوة المدرعة الأولى الأميركية في العراق، ووزعتها القوات الأميركية مجاناً كمنشور الحرية للجنرال مود. ذلك أنها تحمل فرمانات قادة الاحتلال، وعندما نتحدث عن المحتلين هنا فإننا لا نتحدث عن بوش ورامسفيلد ولا حتى مايرز، بل عن فرمانات الجنرالات الميدانيين خلال احتلال العراق كريكاردو سانشيز، وديفيد ماكيرنان وديفيد باتريوس.

يــريد مناقشتها، دون أن يضطر من يــريد ذلـــك، أن يُجـــر إلى الكتابة في صحافة تنطق باسم المحتلين، وأؤكد هنا أن ردي هذا يخص صحيفة «كتابات» وحدها وعادل عبد الله ولا شـــأن لي بجريـــدة الاحتلال[1].

يبدو أن لعادل عبد الله مشكلة مع بعض العـــراقيين الهـــاربين إلى عمان في التسعينات، لكنَّهُ يسحب عقابيل تلك المـــشكلة لتـــشمل

([1]) حاول البعض لعب دور المهرج بالادعاء أن جريدة الصباح انتقلت إلى العراقيين مع انتقال السيادة بموجب قانون وقرار مزعومين، وفي الواقع لا يوجد شيء اسمـــه القانون 65 أو القرار 66، في الواقع هناك أوامر بأرقام 14 و65 و66 تحدد عمـــل وسائل الإعلام في العراق، وتعرف دور ما سمـــي (الهيئـــة العراقيـــة للاتـــصالات والإعلام).. القراران أو القانونان المزعومان 65 و 66 هما في حقيقتـــهما المريـــرة (أمران) صدرا من بول بريمر في العشرين مـــن آذار / مـــارس 2004. أي قبـــل الانتقال المزعوم للسيادة، وبعد أكثر من عام على صدور جريدة الصباح وتأســـيس شبكة الإعلام العراقية. يمكن في هذا الصدد مراجعة نصوص تلك الأوامر على موقع سلطة الائتلاف تحت بند الأوامر الملزمة كما يمكن مراجعة الفقرة 6 من الأمـــر 65 تحت باب الغرض التي تتحدث بالنص عن (تقوية دور كلاب الحراسة الذي تقوم به أجهزة الإعلام لرعاية المصلحة العامة.. ألخ)

وقبل ذلك يمكن مراجعة الأمر رقم 14 في 10 تموز 2003 الخـــاص بالنـــشاطات الإعلامية المحظورة والذي يتضمن تحريم نشر أي مادة تحرض على مقاومة الاحتلال. وهو الأمر الذي تسبب في مقتل أكثر من ألف عراقي من أبناء المدن الفقيرة، خلال معارك النجف التي نشبت على خلفية تفاعلات هذا القرار بإغلاق جريدة الحـــوزة التابعة للتيار الصدري. جميع الأوامر والتعليمات والإشعارات والمـــذكرات تلـــك وقعها بول بريمر تحت ديباجة واحدة (بموجب قانون الحرب وقرار مجلـــس الأمـــن 1483.. الذي ينص على أن القوات الأمريكية قوات محتلة..) تماماً كقرارات صدام على مرجعية الصلاحيات التي منحها له مجلس قيادة الثورة.

(المنفى) كفكرة أبعد من الحدود الجغرافية فهو لا يستثني بعنوانه وبتفاصيل مقالته أياً من المثقفين الذي يعيشون في منافي متعددة الطبقات والمستويات.

وهو يقول أنه يريد أن يكون منصفاً، ويعني بإنصافه أن الذين عادوا إلى العراق وعملوا في المؤسسات الثقافية تحت نير الاحتلال، هم وحدهم الذين لا يشمله هجاءه الغريب هذا.

قد يصح شيء مما ورد في مقالته على أعداد كبيرة ممن يعرف وأعرف ممن أسماهم (الفارين بلا قضية) وهم كذلك فعلاً، ولكن الموضوعية والإنصاف اللذين لم يقترب منهما هو أن المنفى ليس هؤلاء بالتأكيد وبالتالي هجا جوهر المنفى الحسن، بمظهر سمج!

الإنصاف الذي لم أجده في مقالة عادل عبد الله هو أن يقول أن هناك طائفة من الأدباء العراقيين - لم يشر إليها مع الأسف - رفضوا العودة إلى البلاد أو لم يستقروا فيها، لان لهم موقفاً واضحاً في رفض الاحتلال، وآلوا على أنفسهم أن يواصلوا منافيهم غير السعيدة ولا السياحية بالتأكيد، على أن يعودوا إلى وطن لا يزال مستعبداً بعد أن كان كذلك، والمنفى العراقي ليس وليد الاحتلال ولا الدكتاتورية، إنه تاريخ من عناد المثقف العراقي وقوته إنه المنفى الممتد إلى ما قبل تأسيس الدولة العراقية، عندما اختار عبد المحسن الكاظمي أن تدور على حياته رحى المنافي منذ أواخر القرن التاسع عشر، ولا يخضع لسلطان المحتلين ولا لتبدل راياتهم بين عهدين.

من أجل هذا يستمر منفى هذه الطائفة التي أغفلتها تلك المقالة دون مبرر.

لو ان عادل عبد الله أشار إلى هذه الطائفة التي يعرفها بالتأكيـــد، لأمكنني أنا الذي أعرفه أن أفسر شيئاً منه، فما عدا مما بدا؟ ولماذا لم اقرأ في مقالته على قصرها، كلمة (احتلال) واحدة أو لمـــا يـــشيــر إليها أو يــرمز لها وإن على بعد؟

ولعل عادل يتذكر هجائيات سامي مهدي لشعراء المنفى، تلميحاً وتصريحاً، والعشرات من الكتابات والتقاريـــر والوشـــايات الـــتي كانت تتقرب من السلطة بهجائيات مماثلة لا أريد لكتابته هـــذه أن تبدو وكأنها تتمة لها! وإلا فإنه يعلم أن سامي مهدي، على ســبيل المثال، سيشعر اليوم أن منفى سعدي يوسف مثلاً لم يكن عبثاً وهـــا هو يتواصل بينما تموت قصيدته تلك في معناها الملفق.

ثم.. أتعلم أم أنت لا تعلم؟ على هدي قول أبي فرات الذي لم يعد إلى العراق هو الآخر حتى ولو رفات! بأن هناك مثقفين هربوا مـــن العراق للحفاظ على حياتهم ليس أكثر، وكانوا ملاحقـــين حقـــاً، وهناك آخرون اجتازوا حدوداً وانهاراً وحقول ألغام قبل أن يصلوا إلى الضفة الأخرى وليس بتأشيـــرة دعوة وجواز سفر، وهنـــاك أدبـــاء انتفضوا على صدام و لم يكن أمامهم إلا الصحراء.

ثمة من بين هؤلاء من لا يـــريد لأحلامه أن تنوس بين دكتـــاتور ومحتل، وأن لا ترهن هكذا لأول القادمين، وتبذل تصفيقاً وتبجـــيلاً بحمد الفاتحين، بل تلعنهم كما لعنت الذين من قبلهم، وتبقى وردية لا يمكن لرماد الحروب أن يشوهها، وإن حدث، فهي عنقاء الرمـــاد أخرى.

القضية إذن لا تتعلق «بدعوة كريمة» لوزارة الثقافة بتوفير فرص العمل لأدباء الخارج وكأنهم بقايا البعث، أو رموزه فهؤلاء الذين أعنيهم تفخر أهم الصحف والمجلات العربية بالنشر لهم، وهم غير معنيين بوظائف الوزارة التي لم تستطع تثقيف نفسها حتى الآن.

المنفى العراقي، ليس مقهى السنترال في عمان الذي انطلقت أحكام عادل عبد الله وانحصرت فيه ومنه لا أكثر، والذي لا أعرفه ولا يعرفه الكثير من المنفيين قبلي وبعدي، بل هو في جانب منه مقبرة الغرباء في السيدة زينب حيث قبر الجواهري الكبير وهادي العلوي ومصطفى جمال الدين وعلي كريم سعيد، وحيدر سعدي يوسف، وسفح قاسيون قرب ابن عربي حيث قبر البياتي وحيث مقابر غائب طعمة فرمان في موسكو وبلند الحيدري في لندن وآدم حاتم الذي تكفلت بلدية صيدا بدفنه في مقبرة الشهداء، والمقابر الباردة في الدول الإسكندنافية، وضريح القديس جان دمو في هبوب العالم الجديد، والعشرات من المقابر ليس في الأرض وحدها، بما وسعت، بل في البحار أيضاً وفي ما وراءها، منفى يؤرخ لتاريخ قاس من فكرة طلب الحرية التي لا يمكن اليوم استبدالها بدبابة أميركية تجوب شارع الرشيد وتتوقف عند ساحة التحرير.

ثقافة الأشباح: بهلوان في سيــرك الحرية

بعد الخبــر الذي أوردته وكالات الأنباء العالمية، حول توصــل علماء من الولايات المتحدة وبــريطانيا، إلى إضفاء حاسة اللمــس على المتراسلين عبــر الانترنيت، تكون تقانة المعلوماتية قد توصلت إلى إنجاز كبيــر نحو الإفصاح عن حرارة إنسانية بدت مفقــودة في هذا العصر النادر، أن تحس بملمس يد صاحبك وحرارتها حتى وهــو بعيد عنك، لأكثر من ثلاثة آلاف ميل! إنها خطوة أخرى نحو الحــد من نشاطات إرهابيي الفكر، المتسللين للمجال الحر الذي يمنحه عصر الانترنيت، وتسجيل بصمات المجرمين لإدانتهم، وعدم السماح لهــم بالهروب من جريــرة ما ارتكبوه، إنها أيضاً تمثل في جانب منها، إذا ما جرى تعميمها بالمستقبل، وقد اعتدنا أن يتم مثل ذلك، وســيلة لمقاومة نمط بدأ يستشري في أوساط النشر الإلكتروني مؤخراً وهــو نمط اسمحوا لي أن أسميه (ثقافة الأشباح)

ورغم أن مثل هذه الثقافة لها أسماء محدودة، لكن شبحيتها توحي للغافل، والطيب، وقليل الدراية، بأنها تيار واسع، فهي ثقافة لها جنود مجندة من شياطين وأرواح من شتى العصور.

ثم أن جورج أورويل بخياله الروائي الذي أبدع حكومة بها وزراء لنشر الكراهية والكذب والحب أيضاً، وأغاثــا كريتــسي بعوالمهــا البوليسية، وأعتقد أن لها رواية تهتم بالأشباح أيضاً إذا لم تخني ذاكرتي

الصبا، وباسميهما المستعارين، استطاعا تشييد مجد أدبي يصلح أن تتبناه ثقافة الأشباح هذه.

غير أن الفائدة الأهم التي تفرزها لنا هذه التجربة، هي التي ستنتج تقاليد جديدة، طالبنا بها منذ سنوات، قبل أن تخرج علينا هذه الأشباح من عوالمها، وتدعونا إلى تبنيها، وفي كل الأحوال، فنحن اليوم أمام نمط جديدة من الثقافة: (ثقافة الأشباح) وعلى أي مثقف أو شخص عادي أن يتصور، ما يندرج تحت هذه التسمية من مسميات، ومن أعراف جديدة، وبدع، ستحتاج إلى ناقد ما بعد بنيوي، لكي يقرأها بأساليب جديدة.

وحتى لا يكون الكلام جاداً، فثقافة الأشباح من سماتها أن لا تكون كذلك، وان تكون اتهامية ومسكونة بنزعة التدمير الذاتي، وتجهز على أصحابها، برسم صورة نمطية للشخصية العراقية، ولكل شخصية قومية وعولمية، بأنها تطارد هذا الشبح في ثقافته التي أراد الخروج بها، من العراق، وربما انتهاء بشبحستان! بحثاً عن الحرية التي قد تتلخص بالجنون أو الانتحار بوصفهما من الخيارات الأساسية لهذا المفهوم على رأي سيرون كيركغارد الذي يؤكد أن الحضارة لا ينبيها سوى السأم، وأيده في ذلك غيره من آباء الوجودية.

سمة أخرى من سمات ثقافة الأشباح، أنها لا تريح حتى الميت في موته، فتعيد تعذيبه من جديد، باستعارة اسمه ليكون في مواجهة من لا تقوى على مواجهتهم، حتى تتمرد هذه الشخصية عليهم، ولا تنصرف إلى نعمتها راضية مرضية، إلا وهي تضيق الخناق على المعذبين الجدد.

أداعب هذا الشبح رغم أن لي مشاغل أخرى، فأنا معني بك أيها الشبح عندما تموت ولا يـــرثك إلا الأشباح، ومعني بك أيها الشبح، عندما تخيف الصغار والطيبين والآمنين والغافلين، ومعني بك أنا أيها الشبح عندما تحزن وأنت تقرأ خبـــر مصافحة اليد عبـــر الانترنيت.

بقي سؤال أخيـــر يتعلق بثقافة الأشباح، أليس مما يثيـــر العجب أن أسماء من ينتصرون لثقافة الأشباح هذه هي أسماء لم نسمع بها في ثقافتنا، في حين أن أسماء تكتب في الجانب الآخر أسماء نعرفها ونقرأ لها. غريب أليس كذلك؟

ولا غريب إلا الشبح[1].

إذن أيها الشبح الجديد، إما أن تكون نكرة أو انك تتخفى خلف اسم مستعار. وفي الحالتين معاً، فكتابتك عن كبيـــر شعراء العراق: سعدي يوسف، هي كتابة مأجورة ومدفوعة.

---

(1) سادت خلال حرب »حرية العراق« إلى جانب طائرات الشبح التي شاركت في » صنع « تلك الحرية كتابات شبحية موازية نشرها عدد من الكتاب تحت أسمـــاء مستعارة سرعان ما تلاشت بعد الاحتلال، ومن بين تلك الكتابات التي لم تتوانَ عن كيل الشتائم »بحرية« لافتة لكل من له موقف ضد الاحتلال ومن بينها مـــا كتبـــه أحدهم عن أن » بسطال الجندي الأميركي، الذي حرر العراق، أشرف من سعدي يوسف وكلّ شعره« وهذا السجال مع هذه الأشباح، ليس نقاشاً كما هو الحال مع الآخرين، بقدر ما هو كشف لنمط »الثقافة« التي »ينتمي« لها هؤلاء.

ويبدو أن كتابات سعدي الأخيرة أفقدت العملاء والصيارفة الفاسدين والمزورين وسواهم ممن نعرف، توازهم وسيظهر عمق ذعرهم الداخلي مهما حاولوا إخفاءه.

متى يموت سعدي يوسف؟ سيبقى حياً لكن من أنت؟

لست شيوعياً، لكنني أتساءل لماذا يصب هذا الاسم المستعار الذي لن يطول تستره، غضباً إضافياً على الحزب الشيوعي العراقي؟

(سعدي يوسف طائفي) شلت اليد التي كتبت هذا، والعقل الذي فكر به، كائناً من كان، سعدي طائفي لأنه نبه إلى المصير الذي وصله عبد المجيد الخوئي، لكن هل كان قتلة الخوئي طائفيين أم هم عراقيون؟

سعدي يوسف: «شيعي سني كردي تركماني يزيدي آشوري صابئي» وأكثر «سومري أكدي بابلي كلداني» عراقي ممتد منذ الجذور حتى الانتماء ولا تتصور أيها الصغير أنك يستطيع أن تمرر سمومك وروائحك الكريهة.

ومادمت نكرة، كما تقول، فما شأنك بالسياب والبياتي وسعدي، وما شأنك بي وبالشعر، ما شأنك لكي تدلو بدلوك الفارغ في ما هو ليس من شأنك؟ فلعلك لم تقرأ سعدي وهو يسمى بلاد ما بين النهرين: بلاد ما بين سيفين، ولعله أراد سيف الطغاة وسيف الغزاة، هل قرأت (إعلان سياحي عن حاج عمران) القصيدة التي صرت موقناً اليوم إنها بحاجة إلى تحديث على ضوء ما يجري، هل قرأت عن:

(العراق الذي جمل المذبحة،

العراق المقاوم بالصمت والأضرحة؟)

هل قرأت القديم:

(وطني كان الحرف يهمس باسمك الغالي ويزأر)

لتعرف أن تراب العراق يطرى فيشف وهو يسمع صدى صوت سعدي مردَّداً على شفاه أجيال الثقافة العراقية، الأجيال التي كانت قمرب قصائد سعدي يوسف وتنسخها بأقلام الرصاص في الزمن الأسود.

فمن أنت ليتحفنا الزمن الهزيل وعصر الحرية الأوتوماتيكية بأمثالك، ما شأنك بتقييم الشعر العراقي بالأنترنيت؟

لا قول لدي لأمثالك، لكنني سأفترض أنك شبح ناحل لمهرجي الزمن الرديء الذي نعيشه، وسأجعل من هذه المقالة سيركاً وشيئاً منه لأستعرض فيه بعض بملوانياتك الصفراء المضحكة المبكية.

سعدي والبياتي و«من يقرأهما من شعراء العراق كذبة كبيرة في تاريخ العراق» أما الحقيقية الوحيدة التي تعرفها فهي حرية الماكدونالد، والعشرين دولار، وأحمد الجلبي، وسرقة التراث العراقي وحرائق بغداد، والجواسيس الإسرائيليون الذين يجوبون بغداد اليوم، والبحث المزعوم عن أسلحة الدمار الشامل في كل أنحاء الشرق، وحمداً للأوثان أنني هنا في زنزانتي الدمشقية.

أنا وثني أقدس الرموز، وهل كانت الحرب التي حررتكم بعد أن كنتم عبيداً، هل كانت إلا حرباً وثنية رمزية، تمثال صدام يسقط فتسقط بغداد، يا الله.

ترتفع صور الجلبي مع خط مسير الدبابة الأميركية لتصل بغداد ويرفرف علمه لكي يكون علم العراق.. تماماً كعلم صدام الذي جعله علم العراق، غير أن العراقيين يستقبلونه الآن باللغة التي يعرفها جيداً : **go go** جلبي، **no no** صدام **no no** جلبي

يا الله.

لكأن اللاوعي الجمعي لأبناء سومر وبابل هو الذي اختار لهم هذه المقاربة لرفض الدكتاتور والطغاة والعملاء على حد سواء.

هذه الحرب رمزية فلماذا يريدون منا أن نحطم رموزنا مع تماثيل الدكتاتور ؟

تراث العنف العراقي بالسحل، عاد لكن بصيغة رمزية أكثر تسامحاً في عصر الحرية فتمثال الطاغية وليس الطاغية هو الذي يسحل، الحرب رمزية لأن الأميركان يهدون التماثيل وثمة من يكمل فيها هد الرموز، أحرار تجار الأسلحة وشركات النفط، ينظمون نهباً من نوع آخر لمتاحف العراق، ويعرضونها في متاحف الحرية في باريس ولندن وبرلين، وربما في واشنطن التي صارت لها صلة اليوم بحضارة أور. وها هي دعوة جديدة للتحرر من الرموز العراقية، لأنها أصنام، وعلينا أن نستهدي بحشد من بوم النكرات وهم يدلونا إلى طريق الحرية.

شأنك أن تتحدث عن حماه وعبد الباري عطوان، والأنظمة الدكتاتورية وعالم الجاسوسية، وأفق الحرية التي يقدمها أسيادك على دبابة أبرامز حيث لا توقفها في الطريق إلى الحرية حتى

قاذفات الأر بي جي. ولكن لا شأن لك بالحديث عن تراث العـراق ورموزه الثقافية وتراثه الحضاري.

لقد ترك الشاعر سعدي يوسف وغيـره من العراقيين مبـدعين وبسطاء، تركوا ذكرى عراقية جميلة في دمشق وبيـروت وعمـان وباقي المدن العربية، وتركت أنت والبعض من أمثالك ما يخجل منه كل عراقي إلى أن يأذن الله بعصر آخر ليس فيه من هم أمثالك.

ما شأنك أنت لتؤلب على بلد عربي بعد أن وضعتم بلاد ما بـين النهرين تحت سرفات الدبابات الأميـركية والبـريطانية لتـسحق أبناءها وتراثها وحضارتها.

لقد سبقك من سبقك، في محاولة اللعب بطريقة مضحكة مبكيـة فانظر أين هو.

واليوم تحاول اللعب بطريقة أرخص ولن تجدي هذه المرة أيـضاً وسترى، ولا عجب بعد أن تطاولت على فخر الشعر العراقي سعدي يوسف أن تتطاول علي فأنت نكرة كما تقول بصدق:

ولو كـان عبـد الله مـولى هجوتـه
ولكـن عبـد الله مـولى مواليـا

و (على ما يسوؤك وينوؤك) على رأي جدنا الفرزدق قدس سره، فهو صنم آخر جميل من أصنامي.

إذن لي أصنامي التي تعرف ولك آلهتك التي ستقضي وقتاً سـعيداً في غسل فرو كلاب بوش، وكان الله في عون النكرات.

لماذا تلعب لعبة رخيصة معي أيها البهلوان؟

دمشق مقهى الروضة، واللاتيـــرنا، أو القنـــديل المنطفـــئ الآن بنجوم أربعة تشبه نجوم الجنـــرالات في ربيع بغداد، وبار فريـــدي، والقيمرية ومقهى النوفرة والجامع الأموي دمـــشق الـــتي امـــتلأت بذكريات العراقيين الأحرار قبل حرية بوش، وقبل أن يأتي القطـــار الأميـــركي بعملائه، وقبل نصف قرن، يومها خرج الجـــواهري — هل هو كذبة أيضاً أم صنم ؟ يومها خرج من غاشية الخنـــوع الـــتي تعود لبغداد هذه الأيام وجاء دمشق بأبياته:

خلفـــت غاشـــية الخنـــوع ورائـــي
وأتيـــت أقـــبس جمـــرة الـــشهداء

دمشق التي ما سألتني عن قوميتي ولا ديني ولا طائفتي، وملعون من ينكر ذلك، دمشق التي تعرفت فيها على الجواهري والبياتي وسعدي ومظفر وهادي العلوي ومصطفى جمال الدين وأبو حالوب، هـــؤلاء أوثاني إذن.

أولئـــك آبـــائي فجـــئني بمثلـــهم
إذا مـــا جمعتنـــا يـــا جريـــر المجـــامع

كما يقول الصنم، أرأيت : كل أصنامي تنطق فأين كلام آلهتك؟

فغـــض الطـــرف أنـــك مـــن نميـــرٍ
فـــلا كعبـــاً بلغـــت ولا كلابـــاً

(أي لا بوش ولا كلابه في التفسيـــر النقدي المعاصـــر لأبيـــات الصنم الآخر جريـــر)

دمشق التي قرت بها أسفار العراقيين وأرواحهم، دمشق الـــسيدة زينب (أم الغرباء) وما حولها من غرباء يلوذون بها وقبـــور تتبـــارك بجوارها، ودمشق فروع المخابـــرات التي تستدعيني بوشايات كتبـــة التقاريـــر وهم يمارسون مهنتهم في العـــراق ودمـــشق وهولنـــدة وأمريكا، في السجن والحرية وفي كل مكان لأنهم لا يمتلكون أخلاقاً غيـــرها. دمشق التي أكاد أنتفض بعد كل حادثة من هذا النـــوع، لكن شوارعها وناسها تعود لتحتضنني من جديد، فأحبها أكثر ويأتي من هم على شاكلتك ليحدثوا تلك التقاريـــر بألعن طرقها.

دمشق الصحف العراقية الخمـــسون وأكثـــر، الـــصادرة فيهـــا، والأحزاب العراقيـــة الكرديـــة والقوميـــة والإســـلامية الآشـــورية والتركمانية، بأسمائها ومسمياتها، بأعضائها وبالمتـــسترين بغطائهـــا، دمشق التي آوت الشعراء والصعاليك والهاربين من الخدمة العسكرية، وغادرها ممتناً لخصلة في الروح، أو حاقداً حقداً اسود وناكراً للجميل لقبح في النفس السيئة، أهذه دمشق التي تعيـــرني بها يا عار المنفى؟

تدعو سعدي يوسف للانتحار، فلربما مارست انتحاراً افتراضـــياً يوماً على الانترنيت وأنت في المنفى أم هو حريتك الأبدية؟

لقد دفعت ثمن بقائي كل هذه الفترة في دمشق غاليـــاً بـــسبب أمثالك، على طريقة كتابة التقاريـــر التي تجود بها من حريتك علـــى سجني هنا. وثمة من يعرف هذا ولست في بازار لأروي الحكاية.

أنتم أبواق المحتل الذي يروّع الناس والشعوب، دمشق التي احتضنت العراقيين في كلّ الأوقات اليوم يتصاعد صوتك ضد هذا البلد لتعبر عن معدنك، مثلما عبرت أنت وأمثالك عن معدنكم نحو العراق.لقد سقط الدكتاتور و لم يعد عملة رائجة للتداول والمزايدة، واليوم تحين ساعة الحقيقية لكن ليس على طريقة ربك بوش، سأطمئنك بأنني عائد للعراق، ربما لكي لا أدع النكرات يحصدون مجداً زائفاً بشتم رموز العراق، أجل نحن قوم وثنيون نحب الرموز، علي الأقل لأحصل على جواز سفر فأنا وصلت الأربعين و لم أحمل جوازا، و لم أزر بلدان الحرية لأفكر مثلك، أعرف قيمة أن يعيش الإنسان حراً كما تحررت وأنت النكرة كما تقول بصدق، من سجن الشرق، ربما سأزورك في هولندا، وأطلع على إنجازك في علم الحاسبات، فأنا فخور بكل عراقي يقدم شيئاً لنفسه في المنفى، أطمئنك بأنك إذا جئت ستعرف أن لدينا ديناً وثنياً في العراق الذي لم تعرفه، الدين الذي لا يقدس آلهة الحرية وكلاب بوش وسماسرة التهريب وتزوير العملة والجوازات.

جدل عربي أقلّ فتنة.

«فاجعة الجسر» والأكثرية المنشقّة!

يكتب عباس بيضون عن العراق، كما لو انه يكتب منـــه، مـــن يومياته المحجوبة، راوية أخرى غيـــر التي يـــسوقها إعـــلام التعبئـــة والتضليل، هذا ما اعتدناه من عباس طيلة العقدين الماضيين، وهذا ما يكاد يجمع عليه معظم المثقفين العراقيين، الـــذين تـــابعوا كتاباتـــه ويحتفظون في وجدانهم بتقديـــر عال لمواقفه، فهو ما كان يوماً مـــن أولئك الذين صفقوا للدكتاتور في مرابده، إنما انحـــاز دون كثيـــر تردد إلى ضحاياه، إلى الحقيقة الغريبة والصعبة في تلك السنوات.

من هذا المنحى أقول إن كتابة عباس بيضون عن العراق، مهمـــا حملت مظانها من آراء، في أي وقت وعلى أية حال، هي حـــق لـــه كمثقف عربي أولاً، وكمعني إلى الحد الذي يجعله جزءاً طبيعياً مـــن متن المناقشات الساخنة حول قضية العراق تالياً، ومن هذا المنحـــى أيضاً أناقش ما طرحه من قناعات في مقالته الأخيـــرة[1].

(1) مقالته في السفير الثقافي 2/ 9 / 2005 تحت عنوان (فاجعة جسر الأئمة. قدر الشيعة العراقيين) وأقول مناقشة لا ردَّ، لأن مثقفاً مثل عباس بيضون الذي لم يتردد في »الرد» على ثقافة الديكتاتورية ونقدها، في الحقبة التي كان عـــدد كـــبير مـــن المثقفين العرب يسوغها، يبدو جديراً أكثر بهذا المصطلح عندما يتعلق الأمر بقناعات قابلة للمراجعة والجدل.

بيد أني لا أسعى من خلال مناقشة الصديق عباس بيضون في مقاله ذاك، إلى وضع كتلة من الأفكار تعارض ما طرحه، ولن أسعى كذلك إلى التوازي مع أفكاره، بل لأعيد مساءلة القناعات، قناعاته وقناعاتي كذلك، إزاء ما يجري في العراق، خلال السنتين الماضيتين.

أفترض أن المتابع لمقالات عباس في الشأن العراقي، خلال السنتين الأخيرتين، يستشعر أنها ما عادت بذلك الصفاء الذي يرى الوقائع ويحللها بجذرها لا بظلها الباهت، من حق عباس أن ينظر إلى تلك الوقائع من أمكنة أخرى، تناسب فكرته عن العالم الجديد الذي نشأ بعد صدمة 11 سبتمبر، والتفاعل تناغماً أو استجابة لترددات اهتزازاتها في منطقتنا وفي عقولنا، من حقه أن يرد كل شيء إلى عصر الإرهاب، الذي يضعنا جميعاً في أتونه، لكن ثمة من يسأل أيضاً عن العقلية الخلاقة التي ابتكرته، وعما إذا سعى عباس إلى مراقبة بيضة النعامة وهي تفقس.

يتصدى عباس لتفسير أسباب ما حدث على جسر الأئمة، بعد أن (أعيا الجميع تفسير سقوط الألف) كما يقول، ويركن إلى الشائعة كتفسير وحيد وممكن لما جرى، لكنّها لن تبقى هكذا: إشاعة سائبة دون أن يعيدها إلى أبويها، وما دام الزرقاوي أسطورة فاعلة بسيفه الأعمى - المجاز هنا مختلف عن مقاربة حد السيف - وما دام التكفيريون واقعاً يومياً، وقذائف الهاون التي أطلقت، قبل وقت قصير وقتلت بعضاً من طلائع الزوار، قرينة قريبة، فمن السهل في حال كهذه رد الشائعة التي قتلت ألفاً من الناس في ساعة من النهار إلى هاجس مؤامرة، إلى تلك الأرومة الغامضة، لكن

المؤامرة هنا لم تعد هاجساً غامض المصدر، وهي ليست نظرية، إنها واقع حقيقي وممارسة متدرعة وجادة.

فاجعة جسر الأئمة، أو ما يعرف بجسر الكاظم، أو جسر الأعظمية تبعاً لإرث الثقافات المحلية في استيلاد التسميات، هي فجيعة حقاً، ومن المفجع الإضافي التعجل في تسييسها لإدانة أطراف معينة والتغاضي عن مجمل صناع هذه المأساة، فقد يكون بينهم أبطالها الحقيقيون.

ما لم يقله عباس في مقالته الأخيرة، على الرغم من أنه امتد بنظره خارج جغرافيا العراق لرصد تفاعلات أوزارها، وعلى الرغم من تركيزه على ملامح نمطية صار يعرفها من صناعها، أن من صنع الفاجعة يسعى إلى تسييس الفجيعة القديمة، واستثمار الفاجعة الجديدة أيضاً، المواكب نفسها تحمل رسائل وشعارات تتعلق بالدستور والفيدرالية تأييداً ورفضاً وتتصل بالاحتجاج على تردي الخدمات.

ما أنكره عباس من القضية برمتها أن العراق ليس (مجرد مصح معزول) ترك ليشفى من عنفه ذاتياً، فالأميركان حاضرون في ردهة العناية الفائقة بجرعاتهم الدائمة التي تجعل من هذا المصح حيوياً في عنفه وهياجه ولا أدري إذا ما كان يعتقد أنهم غير مكشوفين له كما هو الحال لأولئك الذين يقتلون المدنيين الأبرياء باسم المقاومة.

لم نقرأ عن تحميله جانباً من المسؤولية، كما فعل العشرات من شهود العيان، للأميركان المحتلين وللحكومة التي لا تهتم بأمن الناس، وبالطبقة الدينية التي سعت دائماً إلى تجييش مزيد من البسطاء

في حمى الهوس الديني والطائفي لتحقيق مآربها المرتبطة بالسياسية وليس بمبادئ العدالة الاجتماعية وإزاحة الظلم وكفالة حق الآخر المختلف، ولا عن الأكثرية المستباحة من بطارقتها، عن الجماعة المسخرة لجر عربات النخبة النوعية الصاعدة مع الاحتلال وتلك الحمى المتمثلة في تسيير عشرات القوافل المجانية التي تتولى الأحزاب الدينية تنظيمها لحشد هؤلاء البشر من فقراء الضواحي الذين لا يستطيعون عادة التحرك في العاصمة بسبب أزمات الوقود في بلد النفط.

لم ينتبه إلى أن المتأخرين عن عبور الجسر أعني في النصف الأول الشرقي منه القريب من الأعظمية، كانوا يتدفقون بلا تنظيم، فيما يقف على جانبه الغربي القريب من الكاظمية، مسلحو المؤسسات العسكرية المستنفرة لهذه المناسبة، وميلشيا الأحزاب الدينية ودوريات عسكرية أميركية تقنن العبور، ليس هذا إرهاباً بالتأكيد، على الأقل لم يشر إليه عباس وهو يرد الإشاعة إلى جذور سابقة تبدو كافية بالنسبة له في رد الإشاعة إلى مصدرها الوحيد (من يعرف ماذا جرى في عاشوراء الماضية لن يسأل ولن ينتظر حتى يصدقها) ومع هذا تنطلق الإشاعة من الجانب الآخر الجانب الذي ينكبس بشرُهُ، في موسم نضوج الرطب، في حمى الازدحام الذي يزداد في كل لحظة، في بلد تتجاوز درجة الحرارة فيه الخمسين مئوية في مثل هذا الوقت، مما يجعل إسفلت الشارع جحيماً حقيقياً، ربما لهذا رمى العشرات أنفسهم من على الجسر نحو دجلة، كالمستجير من الرمضاء بالماء، لكنَّهُ الماء القاتل هذه المرة.

ثمة من شهود العيان من أكد أن الشائعة في واحدة من صـــورها المتعددة، تحذيـــر أطلقته مكبـــرات الصوت التي يحملـــها جنـــود الحرس الوطني وقوات الشرطة، لإيقاف تدفق غيـــر مضمون النتائج من الجانب الآخر من الجسر، عوارض الخرسانات التي وضعت على الجسر كان من شأنها أن تجعل من هذا التدفق مشياً بالتـــدافع علـــى حجر، وليس على أسفلت فائر فحسب. إشاعة أخرى موسعة يمكن الركون إليها أكثر من تلك التي يطلقها صوت مفرد في جانب مـــن الزحام، الطلقات النارية التي أطلقها الحرس الوطني بدأت كأنها تفريق لمتظاهرين أو إيذاناً ببدء حملة الانتحار الجماعية.

ثقافة الإشاعة هذه ليست وليدة (عصر الزرقاوي وفتاوى إباحـــة قتل الرافضة) ونقطة على آخر السطر. يا صديقي عباس، أتذكر هنا أن رجال مخابـــرات صدام احتجوا دائماً، وهم يستنفرون كتائبـــهم على الجسور وفي الطرقات، وعند أبواب الأحياء وداخل الأضـــرحة أنهم كانوا في منعهم الشيعة من ممارسة مثل هذه الطقوس إنما يحمون الناس من عمليات التخريب التي تنشط في مثل هـــذه التجمعـــات الهائلة، ثم يقتادون في اليوم التالي كل من انقطع لممارسة تلك الشعائر حتى في بيته.

من نصدق إذن؟

قد يبدو من المفارقات أن مرقد موسى الكاظم يقـــع في جانـــب الكرخ الجانب الذي يعرف بأنه جغرافيا بشرية سنية على العمـــوم، بينما تشكل الرصافة الجانب الشيعي على العموم أيضاً، مع أن هـــذا التوصيف العام لا يمنع التداخل الذي لا يمكن معه حسم الجغرافيـــا الطائفية في بغداد تماماً. ألهذا رمى العشرات من شـــباب الأعظميـــة

(السنة) بأنفسهم في المياه كونهم سباحين ماهرين بحكم ولادتهم قرب دجلة، لإنقاذ الشيعة؟ ألهذا سرت شائعة موازية، أن الأطعمة والمياه الموزعة على الطريق في هكذا مناسبات مسمومة؟ هل تريد الفجيعة إعادة تشكيل بنيتها القديمة بكون الإمام موسى (كاظم الغيظ) نفسه وضعت جثته على الجسر بد أن مات مسموماً هو الآخر؟

لنتذكر أن أول زيارة جماعية للنجف بعد سقوط نظام صدام بلغت ضعف هذا العدد يومها لم تقع حادثة واحدة. كان الأميركان حاضرين بإشاعات من نوع آخر، وإشاعتهم الجديدة لم تجر صياغتها بعد، الإشاعات القديمة لم يعد بمقدورها أن تبدو فاعلة، وقتها كان صدام مختبئاً والزرقاوي لم ينشط بعد. وأمراء الطوائف لم يعدوا الرايات بما يكفي.

مرة أخرى من خلق الإشاعة؟ لو عرفنا ذلك لم يعد معنى لاسمها.

نعرف أن الشائعات أنزلت طائرات في هبوطات اضطرارية متعددة، أفرغت بنايات، ومحطات مترو في أوربا وأميركا، لكننا لم نعرف شائعة قتلت ألفاً من البشر في ساعة! هذا يقودنا إلى مراجعة تراث الشائعة في كل بلد وفقاً لثقافته، فالشائعة تحتاج إلى وقت أكثر لتفعل فعلها، لكنَّها في وقت قصير، على الجسر وبين زحام الناس، أوقعت هذا العدد من الضحايا، زمنها إذن لا يتصل بوقت إطلاقها، ولا يمتد إلى عاشوراء الماضية فحسب كما يقترح عباس، وإنما إلى تراث من الذعر تجري إدامته بمهارة سماسرة حقيقيين من قبل طبقة الثيوقراط الحاكمة في العراق اليوم باسم الطوائف.

وتحت هيمنة نوع من التحليل الموجه لمصدر الشائعة يصر عبـاس على أن (المقاومة) - هكذا يحرص دائماً على تقويسها: سنية ووجه من وجوه الإرهاب، تفسيـر متاح تماماً، يمارسه سيافو الزرقـاوي، وتروجه حكومة الطوائف وتتضامن معها وسائل الإعـلام العربيـة وتطمئن إلى يقينيتها، ربما الأمر ليس كذلك بالنسبة لوسائل الإعلام الغربية. لكن ونحن نسأل عن الألف الذين قضوا في موقعة الجسـر بإشاعة يـرجعها عباس إلى ثقافة القتل اليومي في العراق، نتـساءل كذلك عن الأكثر من الألف الذين قتلوا في معارك النجف وحـدها وهم شيعة كذلك، من الأحياء ذاتها تلك التي تدفق سـكانها علـى جسر الفجيعة الجديدة، لماذا نـرجح هؤلاء على أولئك أو نحجـب أولئك عن هؤلاء، أليس الموت واحداً وإن تعددت أسبابه؟

لكن عباس في تفسيـره المسبق كان يمضي إلى نقطـة مفـصلية حرص على تأكيدها في مقالاته الأخيـرة عن العراق: تجريم المقاومة بالمطلق، فكرة وممارسة، وهو رأي يجد له صدى طيباً لدى عدد من المثقفين العراقيين، وإن تراجع لدى عدد منهم، ذلك أنها بالنسبة لـه مقوسة وملتبسة (داخل هذين القوسين) فهـي مـشروع للحـرب الأهلية، فيما العملية السياسية التي يديـرها الاحتلال هي مـشروع للسلم الأهلي، مقترحاً بحزم (بـراءة كاملة من المقاومة وقطيعة نهائية معها) لأن أشاعتها قوضت جسر الأئمة وقتلت الألف.

هكذا يعيد عباس بيضون ترجيع المخاوف المريبة التي دأبت الطبقة السياسية في العراق اليوم على اجترارها، دون أن تتحمل مسؤوليتها إزاء يوم الجسر و لم يحملها عباس شيئاً من ذلك، مثلما يعمد إلى ربط ضحايا فاجعة الجسر، بضحايا المقابـر الجماعية، بيـد أن أضـحية

الشيعة ما بين الجسر والمقابـر، ما بين الشائعات والانتفاضة ليست واحدة، وإن كانت أضحية في كل الأحوال، على أن التسييس يجعل الأمر بـرمته يبدو وكأنه نوع من الترجيح لثقافة السلم الأهلي ضد الميـراث القديم (للعنف الثوري) متجاهلين أن مقاومة ما، لا تولـد إلا من رحم الاحتلال وعنفه، وإنْ هي إلا تصعيد نـوعي للعنـف الأول.

قتلى جسر الأئمة بهذا المعنى لا يمكن غسل دمائهم بميـاه دجلـة فحسب، وإن قضوا بقطرات دم قليلة هذه المرة. فهـذا الجـسر لم يتضرر في أي من الحربين اللتين شنتهما أميـركا ضد صدام 1991، و2003، ولم يقتل عليه بشر. كانت حربها لا تزال بصدد تقـويض الدولة القديمة متمثلة بدكتاتور يائس، ولم تبدأ حربها بعـد لإنـشاء الدولة الجديدة: دولة الطوائف والفيدراليات التي تستدعي أضـحية مختلفة وانهيارات متتالية ومتلاحقة قبل أن تظهر للوجود.

لعل تواصل تدفق الجماعة الشيعية بملايينها على أضرحة الأئمة في مناسبات ولاداتهم ورحيلهم، تجسيد لكابوس دائم علـى أن هـذه الجماعة لا تزال تحت الرحى الطاحنة لمظلوميتها، لم يأت الاحتلال بما يغيـر عناصر ذلك الكابوس جذرياً، ولم تنجح نخبها الـسياسية ولا معمموها حتى الآن في جعل الفجيعة القديمة تتحـول إلى رمـز ذي دلالة أخرى مناقضة لتاريخ الألم الموروث حتى الآن.

تحت وطأة هذا الكابوس، الذي يجري دفع الجماعة إلى أشـباحه باستمرار تنهار حواجز الجسر الذي يـربط مرقد أبي حنيفة النعمان بمرقد موسى بن جعفر وتتفكك مصداته الجانبيـة بفعـل طوفـان الأجساد، لتتساقط أجساد الشيعة يميناً وشمالاً، شباب الأعظمية الذين

سارعوا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه كانوا مأخوذين في الواقع بشيء مـــن الذعر المقابل، كأنهم لا يـــريدون أن يقرأ الآخرون صورهم قـــاتلين في المياه. مثلما كانوا يقاومون تجنب انهيار أكبـــر، انهيار اللحمة التي تبدو هشة هذه الأيام، فهم أيضاً لا يـــريدون أن يغرقوا لاحقاً عندما يتم إنكار الآخر، وتبدأ طقوس القتل في حرب أهلية أرى إنها قائمـــة حالياً، بشكل ما، على الرغم من توشيحها بما تبقى من تلك اللحمة الهشة.

من هنا خطورة أن ينهمك مثقف كعباس بيـــضون في تـــسييس الفجيعة وتطويفها لا داخل المكان الذي صنعت فيه، بل لُيعبـــر بهـــا نحو أماكن أخرى هذا ما يمكن تلمسه حـــين يـــرحل صـــورتها الكارثية، محذراً من انهيار جسر آخر في لبنان، ومنوهاً إلى أن الفجيعة تسلك جسوراً لا مرئية من بغداد إلى بيـــروت، ربما ثمة من يـــرى أن عباس يفعل حسناً حين يقارب ما يجري بين الشيعة في العراق، بما يمكن أن يجري لأشقائهم في لبنان، الواضح أن هذا هو الدرس الذي يسوقه من مقالته، محذراً ومنوهاً، لكنَّهُ لا ينظر بإمعان إلى واقع تلك الأكثرية المنشقة في العراق.

انهيار حاجز الجسر وسقوط البشر إلى دجلة مقدمة مبكرة لانهيار أعم واشمل وأخطر، لا نـــريد أن نبدو كالمبشرين بخراب آت، فهـــو واقع فعلاً، لكننا ننوه كما نوه عباس نفـــسه إلى ضـــرورة تفـــادي تفاعلاته المركبة.

لن تمنع فاجعة الجسر أو كارثة 31 من آب، سمها ما شئت، مـــن تجدد الحشود في شعائر تالية، الأحرى أنها ستكون حافزاً على إدامة زخمها لتجديد الفجيعة واستثمارها، تلك هي المسالة.

من هنا أرى أن شيعة العراق لا يــزالون مغيبين عن فعالية صياغة هوية العراق والدفاع عنها، كما يلمح عباس لخيارهم، ذلــك أنهــم سيظلون محاصرين، إلى أمد، في نمطية الهوية الضيقة، أو قل هويــات ضيقة متعددة وملفقة، عندما تتخذ تلك المحاصرة صيغة الحــشد في مواكب الأضحية وطوابيــر اللاطمين واللاطمات.

ولذلك فحين ينوه صديقنا عباس إلى المسافة بين (إذاعة البــشائر) وتلفزيون (المنار) في أهمية الحاجة إلى سجال شيعي في لبنــان فإنــه ينبغي أن يصغي أيضاً إلى أصوات أخرى في مجتمع شيعي عراقي ذي أكثرية تعاني من الانشقاق، ومن التنازع الداخلي، وليعرف أيضاً أن ثمة مسافة يجري خلقها حالياً بين شيعة الطقوس والشعائر والمواكب التي يجري تحشيدها تحت رايات أمراء الطوائف وعمامــاتهم، وبــين شيعة الرفض، الرفض لكل ما هو ضد العدالة والحرية وإلغاء فرديــة الإنسان تحت وصاية الطائفة.

أندلس أخرى لبغداد.

في مقال له بجريدة النهار البيـــروتية[1] يصرُّ الشاعر السوري عهد فاضل على الخوض في القضية العراقية وتفاعلاتها وهو خـــوض مـــن حقه، لكنَّهُ يتخذ من مرجعية التاريخ وسيلة لتغليف النوايا المـــضمرة من وراء مقالته تلك وهي الانحياز لسلطة غاشمة ضد ثقافة منفية، في مقالته المعنونة (بغداد وليس الأندلس) مثال واضح على طبيعة تلـــك النوايا المضمرة، إذ أنني على المستوى الشخصي لم أستطع أن أجـــد الحافز الذي دفع عهد فاضل لتقديم مقارنة تاريخية مفهومية بين بغداد والأندلس في مقاله المنشور في أدب وفكر وفن. إلا ما يشيـــر بنوايا مضمرة إلى قصيدتي الطويلة (أندلس لبغداد) التي صدرت في كتـــاب شعري عن دار المدى، وقد يـــرد الكاتب أو سواه بأنني أغـــالي في استنتاجي هذا، فأقول: إنني وفي كل الأحوال، لست بصدد المضمر، من النوايا هنا ومعني في كل الأحوال بمناقـــشة مـــا ورد في المقـــال المذكور، لأنه يتعلق بمدينتي التي ولدت فيه وغادرتها مكرهاً.

---

(1) صفحة أدب وفكر وفن(31 /8/ 2002) أي قبل احتلال العراق بأشهر، وبمـــا إن الكاتب لم ير إلا طرفاً واحداً من القضية، الهجوم الأميركي الوشيك، كان مـــن شان هذا الرد، أن يثبت موقفاً لا يذهب باتجاه واحد، خاصة وإن المقالة المنـــشورة في النهار بدت في هجائها للمنفى، وكأنها انحياز للسلطة وليس للبلاد المهددة.

المقارنة المفهومية ذات الدلالة بين الأندلس وبغداد في هذه المقال، تتجه في مجملها إلى الانحياز لمركزية السلطة ضد المقترحات الأخرى، للمكان الأول ضد المنفى، وبهذا المعنى فهي مقارنة تفوح منها روائح الأيدولوجية، ومن المهم الإشارة إلى أن الثقافة العربية لم تستطع حتى الآن هضم مفهوم المنفى بمعناه الذهني، وظل مجرد مفهوم مكاني، خاضع لمقايسات أيديولوجية غالباً، ورغم ما يكتب هنا وهناك عن فكرة منفى الوعي، إلا أن الوعي بهذه الفكرة، وهضمها كيانياً لم يتحقق بعد، لا يمكن لأي مثقف حقيقي إلا أن يكون منفياً حتى في المجتمعات الديمقراطية ذلك أنه، مفارق باستمرار، وخارجي بالمعنى التراثي لهذا المفهوم، لكن هذا المفهوم يغيب عن ذهن عهد فاضل، وهو لا ينسى أن يرجح شعر المشرق المحكوم بسلطة مركزية في الدولة العباسية، على شعر المنفى العربي الذي تمثله الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين مستعيناً بمقولات الكتاب الرسميين للتاريخ العربي.

لكن أخطر ما يوحي به المقال المذكور هو إعطاء هذه الدولة المركزية صفة الكافلة لحقوق الأقليات في كنفها، وعلى ما في مثل هذه الفكرة من إسقاط راهني، تصل إليه خاتمة المقال، فإن العديد من المجلدات لن تكون كافية لشرح ما قامت به الدولة العباسية في بغداد وحدها من اضطهاد لا يوصف للأقليات، حتى سقوط بغداد على يد المغول، في أواسط القرن السادس الهجري، اضطهاد لم تصله سابقتها الدولة الأموية. ولنتذكر أن من الأسباب المباشرة لسقوط بغداد تفشي القمع الطائفي والأثني.

وحين يوجز الجوانب السلبية التي أوردها المؤرخون عن بغداد، بعد أن يتجاوز موجات العنف الكبيرة التي مورست ضد الأثنيات العراقية في ذلك الوقت، يلجأ إلى تبني ما ورد عن هذه المدينة مما سماه ردود الفعل الإيجابية، ويدس بينها بتساؤل يستدعي بدوره تساؤلاً أكبر حين يقول: (هل تصدّقون أن بغداد أنتجت خليفة يأمر الناس ويرغمهم على القول بأن «القرآن مخلوق»، وهو الخليفة المعتصم؟) بالتأكيد أن هذا الخليفة طاغية يا عزيزي قتل رموزاً عدة ونبش مقابر ونفى شعراء وأهدر دماءهم ولا حاجة للتذكير بدعبل بن علي الخزاعي، أما كونه معتزلياً يسعى إلى تعميم فكره على مجتمع متداخل الأعراق والمعتقدات والمذاهب، فلا يجعله حتى (مستبدا عادلاً) ناهيك عن أن فكرة خلق القرآن بدأت أولاً في عهد المأمون قبل أن تصل إلى المعتصم ومعروفة محنة احمد بن حنبل في هذا السياق، وقد أودت « فتنة» خلق القرآن بخلق كثير من أهل بغداد، وكان من «الفتن البغدادية المبكرة» التي ستجرُّ من بعدها تاريخاً من ثقافة الإقصاء والألغاء والمحو، يجسدها بشكل سافر وأكثر وضوحاً في عهد ابنه المتوكل صاحب العصر الذي بلغت فيه حملات القمع والتمييز الديني والطائفي مبلغاً خطيراً أثر على الثقافة العربية الإسلامية بشكل عميق[1]، هل أذكره مرة أخرى بأن «ذوي القربى» أنفسهم لم يسلموا من بطش السلاطين من المنصور إياه الذي

---

(1) كان عصر المتوكل البداية الأوضح والأبرز في الانتقال من الثقافة المذهبية، والخلاف الفقهي، إلى بداية عصور الطوائف، والاختلاف الأكثر تعقيداً من مجرد تباين في الاجتهاد وفقه الأحكام، أو حول قضية الولاية.

فتك بعمه عبد الله بن علي، مروراً بأحفاده الأمين والمأمون والمتوكل وما حدث بين ابن المعتز والمقتدر.

إذن متى قتل الحلاج وابن الراوندي والشلمغاني وبشار بن برد والمقنع الخراساني وابن المقفع وعلي بن موسى الرضا ومحمد النفس الزكية، وإبراهيم الإمام، والعشرات من شيوخ الطوائف والملل والقوميات وأصحاب الرأي، الذين لا تجمعهم العشرات من كتب المقاتل والضحايا، ألم يقتلوا في تلك الدولة «الحاضنة لمهد الطائفية» الدولة التي يرى الكاتب أنها تمثل (التلاقح الحضاري، وهي الاندماج - العفوي والقسري - بين القوميات والأديان واللغات، وهي التي مثلت المختبر الثقافي الكوسموبوليتي لمدة تناهز الخمسمئة سنة.)

ولزيادة التأكيد على كمية محو حتى آثار القوميات الأخرى في بغداد ما يذكره مؤرخو المدن وبينهم ياقوت الحموي والخطيب البغدادي الذي أكثر الكاتب من إيراد أقواله عن بغداد، من أن (المنصور) عندما عزم على بناء بغداد احتاج للكثير من الآجر فاستشار عدد من المقربين منه في تقويض طاق كسرى في المدائن، والاستفادة من آجره لبناء بغداد، وكان بينهم من رأى أنها آثار أمم وسيكون من صالح المنصور أن تبقى ليباهي بأنه ينتمي إلى حضارة أخرى هزمتها، فما كان من المنصور إلا اتهامه بانحيازه لتراث أجداده، لأنه كان فارسياً، ولما شرع بتقويض بناء طاق كسرى في المدائن أكتشف أن ما ينفقه على هدم البناء أكثر مما سينفقه في صنع آجر جديد فعدل عن الفكرة وهنا جاءه مستشاره السابق ليقول له

لو انك أتممت الهدم لكان أجدى لأن الناس سيقولون من بعد بأنك (حاولت تقويض بناء شيده من هم قبلك ففشلت)

لقد أراد الكاتب في تمهيده الموجز لأهمية بغداد العباسية الحضارية، هجو المنفى بدلالة الأندلس عندما أشار إلى أنها أي بغـــداد(جـــسر اندماج الحضارات وليس الأندلس التي لم ينتج منها الاّ القليل مـــن الثقافة والكثيـــر من الهزيمة، وما لا يحصى من الكـــذب التـــاريخي والتناقض.) ويحاول تحريف الواقع التاريخي عندما يقول عن أبوابهـــا التي اغتصبت من زنده ورد وغيـــرها من المدينة الـــتي تم تقويـــضها (ومن الإشارات الموضحة لكوسموبوليتية هذه المدينة، أن أبوابها تجمع حضارات متعددة وأدياناً متعددة) متجاهلاً ربما أن تلـــك الأبـــواب كانت مفتوحة أمام خيول الغزاة التي تستدل بنقمة المـــضطهدين، أو ممراً سالكاً لهروب هؤلاء المضطهدين في كل العـــصور إلى أنـــدلس أخرى يشيدونها بعيداً عن الطغاة بشتى تجلياتهم، فهل كان كل ذلك من أجل (ثقافة عربية) تأسست في بغداد خلال تلك الفتـــرة كمـــا يقول الكاتب جزافاً؟

هل تمثل مقولة الكاتب الأخيـــرة (قم أيها الصنم ودافـــع عـــن أهلك) ما توصلت له طائفة من النخب العربية في نظرتهـــا إلى مـــا ستقدم عليه بغداد من تدميـــر، متمثلاً في التهديدات الأخيـــرة؟ أم أن على هذه النخب أن تنحاز في مقابل ذلك أيضاً، لقضية شـــعب شرد منه أكثر من أربعة ملايين بينهم الصفوة من أبنائه في مـــشارق الأرض ومغاربها هرباً من حكم شمولي لم يألُ جهداً في تمثل عـــصر الخلاقة العباسية ويتشبه حاكمه بالمنصور إياه؟

هل تعكس هذه المقولة التعليمية مدى تجاوب بعض الكتاب مع الخطاب الرسمي العربي الذي تحول فجأة إلى بكاء أسطوري على العراق بينما لم تبكه مأساة شعب لأكثر من ثلاثة عقود؟

لن نكون بحاجة إلى من يعلمنا كيف ندافع عن أهلنا نحن الهاربين من الطغيان، لأننا نعرف تماماً أن الصنم والربح الواسع الذي يعنيه بالصينية القديمة لأسم بغداد هو الذي قاد الغزاة وسيقودهم لتدمير البلاد وقتل العباد، وأهل مكة أدرى بشعابها، عندما يقررون أن يقاوموا المحتلين.

صور سائرة للمثقف العراقي.

ــ بين الاستبداد والاستعباد.1

إشكالية المثقف والسلطة، واحدة من الإشكاليات التي خاض فيها كثيـــر من المثقفين والمفكرين، وكانت واحدة من قـــضايا الثقافـــة الكبـــرى في العالم خلال القرن الماضي، ولا تزال وستبقى كـــذلك طالما بقيت إشكالية العالم في ثنائية الكلمة/ الموقف، ويكفي هنـــا أن نذكر أن الفرنسي ميشيل فوكو، نظّر لهذا الموضوع، وذهب بعيـــداً فيه ليؤكد أن مفهوم السلطة لا يقف عند حدود الأنظمة الـــشمولية والاستبداد السياسي، بانتباهه إلى قضية أخطر وهي سلطة الخطـــاب الثقافي، الذي قد يتحول إلى مرجعية عنفية أيضاً.

ولعل هذا هو فحوى مـــا اســـتعاره أدوارد ســـعيد في نظرتـــه للاستشراق بوصفه سلطة أخرى بانتقائية منهجية لتمريـــر أفكـــاره، التي قادته فيما بعد إلى مفهوم نقدي للخطاب الكولونيالي في كتابـــه الثقافة والإمبـــريالية.

المثقف بهذا المعنى مسؤول عن تشكيل خطاب السلطة وتبـــريـــر ممارستها من خلال خطابه الثقافي.

وحتى في أكثر المجتمعات دبمقراطية في العالم، فأن مهمة المثقف لا تكمن في قبول خطاب السلطة ولا في تأييده، أو تبـــريـــره، بـــل

بالاحتجاج عليه باستمرار، لأن مفهوم الحرية بـــالمعنى الوجـــودي يـــزداد إشكالاً وتعقيداً كلما حققت الأمم والمجتمعات مكاســـب ديمقراطية جديدة، بمعنى أن مفهوم الحرية يتطلب جهـــداً وجوديـــاً مضاعفاً لتمثله ولا نقول تحقيقه، بقدر ما تتحقق الديمقراطيـــة هنـــا وهناك.

وفي حالة المثقف العراقي، فأن الصراع مع السلطة السياسية، جعل من هذا المفهوم، أعني مفهوم الحرية، خاضـــعاً لخطـــاب أحـــادي سلطوي، ينحي الآخر باستمرار ولا يعترف باختلافه بل لا يـــرى له وجوداً خارج شروط خطاب السلطة ذاته.

الدعوات التي كنا نسمعها متصاعدة من دعاة المصالحة مع النظام السابق والتي ترسخت بممارسة عملية للبعض عبـــر (ندمهم وعودهم إلى الأحضان الدافئة للقائد) تعد واحدة من مراحـــل النكـــوص في الرؤية الثقافية أولاً وقبل كل شيء، وهي تمثل المدى الانهزامي الذي وصلت إليه نماذج من هذه الشريحة في طريق لم يعد ســـالكاً كمـــا تتصور نحو استكمال المشاريع القديمة.

تبدو مفاهيم من قبيل المصالحة والتسامح وضـــرورات المرحلـــة والحرص على سيادة البلاد وسواها من تبـــريـــرات هزيمة المثقـــف العراقي في تلك المرحلة، جزءاً من الآلية المستعارة من أجواء أخـــرى لفرضها في مناخ آخر، أو لنقل بصريح العبارة العربيـــة الأثيـــرة، كلام الحق الذي يـــراد به الباطل، فمع من تتم المصالحة؟ ولـــصالح من؟ وما هي شروطها؟ وكيف يجري تقييم توقيتها؟ فمثـــل هـــذه الأسئلة لا تنفصل عن النوايا التي قد تجعل من هذه المصالحة مشروعة

في الممارسة الثقافية للمثقف العراقي المنفي الـذي يمتلـك قـضية مشروعة، من المؤسف أن يتم التخلي عنها بهذا الشكل المحزن.

وعلى الجانب الآخر فثمة طريق للهروب إلى الأمام، التعويل على أن سلطات غاشمة أخرى، تمتلك آليات عنف أكبـر مـن الـسلطة الداخلية، قادرة على إنهاء الآلية القديمة بأخرى أكثر عنفاً منها، وفي طريق هذا الهروب فثمة تبـريـرات وأحلام افتراضـية لا تعـرف دوافعها ولا تمتلك شيئاً من المنطق، تـشيـر إلى أن تلـك الآليـة السلطوية الجديدة ستتوقف عن العمل بعد فتكها بسلطة النظام، ولا أدري إذا ما كانت شواهد التاريخ تسعف هؤلاء لتذكرهم أن دورة العنف إذا ما دارت فإنها لا يمكن أن تتوقف إلا باكتمـال الـدورة بمحيط واسع[1].

([1]) كتب الصحفي عامر بدر حسون وهو من بين الأكثر حماسة »للعراق الجديد« في ملحق نوافذ بجريدة المستقبل اللبنانية بتاريخ 5 نيسان 2003 أي خلال عمليات غزو العراق»....إنني متعب وأريد أن أعود إلى بيتي.. وقد تعبت مـن محاولـة أن أكون مفهوماً من شارع ومثقفين ووسائل إعلام لم تقترح علي يوماً سوى الخضوع والعودة نادماً!» واعداً بأنه عندما ينتخب رئيس بلديته سيكون أول مـن »يـشتم بوش بجدارة» لكنَّهُ لم يعد للعراق بعد ذلك، وإنما اكتفى بالمشاركة في انتخابـات رفض المشاركة فيها أكثر من 80 بالمائة من أترابه في المنفـى، ولم يـشتم بـوش »بجدارة» كما وعد وإنما استعار خطابه تماماً واصفاً يوم الانتخاب في الثلاثين مـن كانون الثاني 2005 بأنه بداية دخول العراق والعراقيين إلى العصر الحديث ومغادرة الدولة العثمانية» (جريدة المدى العدد 308 / 27 كانون الثاني 2005م)

الحال الذي وصل إليه خطاب المثقف العراقي ما بين مرحلة الدكتاتورية وصولاً إلى مرحلة الاحتلال، يمثل في واقع الأمر مشهداً محزناً، إذ كيف لهذا المثقف الذي يمتلك قضية عادلة ومشروعة، وتاريخاً لا يستهان به من النفي والالتزام بموقف الكلمة أو كلمة الموقف منذ عبد المحسن الكاظمي إلى اليوم، كيف له أن يبدد هذا التراث ذات اليمين وذات الشمال؟ لينقسم معسكرين بين الدكتاتور والجنرال القادم، هل لان مرحلة اليأس، والتباس الصورة، دفعت المشهد لمزيد من التداعي ودفعت معه الشاهد ليتخلى عن قضيته في تدوين شهادته عن المرحلة التي عاشها.

في لحظة المجابهة بين الدكتاتور والجنرال كنا نعيش مرحلة غاية في الالتباس والتداخل، هذا صحيح في حدود التوجهات العامة للمواطنين العراقيين في الداخل والخارج على حد سواء، لكن مهمة المثقف بوصفه رائياً وواعياً وشاهداً، لا يستلزم منه الاندفاع تحت وطأة ظروف وشروط واقعية لاختيار الهزيمة على أول يدين تلوحان من بين السراب، والموت على صدر الغريب أو صدر الحبيب. فالذين ذهبوا «ليعتذروا» للطاغية ويعيدوا تمجيده من جديد، عبروا في الواقع عن « ثقافة توبة» أكثر ما هي ثقافة اعتذار بالفارق النوعي بين المفهومين، بل ثمة من ألصق بهم تهماً تتصل بكيدية ما، بكونهم أفصحوا في اللحظة الأخيرة عن ارتباطات مشبوهة، لكنهم في مطلق الأحوال، مثلوا توجهاً مهزوماً ومأزوماً في واقع المنفى العراقي، كان علينا أن نحدد أسبابه من أجل تفادي مزيد من التداعي ليس في هذا السياق وحده، بل في السياق الآخر الذي يمضي نحو اتجاه آخر ويعبر عن «توبات» من نوع آخر، هؤلاء وأولئك يشكلون جزءاً

مهماً من مشهد هزيمة، هزيمة يكتمل طرفاها في مكـــانين يبـــدوان متناقضين لكنهم نشق واحد لفكرة الهزيمة الـــتي وإن لم تكـــن قـــد اتضحت معالمها بعد، قبل الاحتلال لكن إرهاصاتها كانت مخيفـــة، لذلك كان على المثقف وحده دون اتكاء على أحد أو وصاية مـــن أحد، أن يـــرى طريقه الفردي وكأنه الخلاص في غابة من المـــصائد والفخاخ في مرحلة مهمة من تاريخ الثقافة العراقية.

– مثقفون تحت الاحتلال.2

الإعلان المنشور لـــ «نخبة» من عراقي الأردن، أعني المقيمين فيه، أو المجتمعين في العاصمة عمان على حد ما جـــاء في بيـــان أسمـــوه (مشروع إعلان لميثاق وطني) ونشروه اليوم على مواقع الأنترنيت[1] هذا الإعلان ربما مثل في سياقه العام واحداً من هـــرولات متعـــددة الجهات نحو الغنائم المتبقية من الدكتاتورية المتهاوية.

لكننا لسنا بصدد هذا إذ أنَّ من الواضح أن أغلب الأسماء الموقعة على البيان (31 مثقفاً عراقياً) ليس لها من صفة النخبة شيء، ولا من الصفوة أو الخصوصية نصيب، ولا سواها مـــن النعـــوت الزائفـــة مصداقية.

شخصياً أعرف أن بعض الأسماء هي مـــن صـــفوف أخـــرى في الثقافة العراقية، وبعضها لم أسمع به مطلقاً، ربما لجهل مستديم مـــني بأعلام الثقافة العراقية ونخبها، وبعضها ربما وضع اسمه دون علمه أو على حياء كما يحدث في نفيـــر البيانات في هذه الأيام الملتبسة حد اللعنة، أو حد القسوة كما وصفها سعدي يوسف، وبعضها أعرفـــه فعلاً بل وأعرفه جيداً، لكن المهم في الإعلان أنهم جميعـــاً يعلنـــون

([1]) (كان ذلك يوم 14 نيسان 2003 وقد نشرت جريدة الزمان نص الإعـــلان في عددها ليوم 14 نيسان 2003.)

عزمهم على العودة إلى الوطن في عداد نفيــر (وطــني) يــــرفض العنف والغلو والتعصب، و.. فقط.

لماذا على المثقف أن يعود بالنفيــر والرهط، لا بنفسه فقط، بعزم الحشد والجماعة لا بعزيمته الفردية؟

لكنهم طليعة النفيــر وحُداة الركب يتقــدمون أولاً، ومــن ثم يدعون أقرانهم، كما تدعو النخبة بقية الأقران أو المدعوين إلى الحفل أو السيــرك أو الوليمة، لا فرق في عــراق اليــوم، يــدعونهم إلى التمسك بما يطرحونه من مبادئ، وما هي المبادئ؟

ثلاثة عشر من المبادئ ليس بينها من هذا الرقم المــشؤوم (مبــدأ واحد) يدين الاحتلال ولا حتى يشيــر إليه ولو من بعيد، أللهم إلا إشارة مبهمة حقاً، تحتاج إلى تفسيــر خبــراء في صياغة قــرارات الأمم المتحدة، والمشاريع الأميــركية المقدمة لمجلس الأمن، ولتأكيــد ما نقول ننقل نص الفقرة الرابعة كما وردت في الــصياغة الأصــلية راجين ممن وقعوها أن يدلونا على حل لمكمن اللغز فيها:

(أن حرية العراق ومستقبله تتجسد بإرادته الحــرة في اختيــار حكومته الوطنية المستقلة، والشروع فوراً ببناء مؤسسات المجتمع المدني، ورحيل «القوات» عن البلاد.)

اللغز البسيط لكنَّهُ المركب فعلاً!هو ما كان يفترض أن يلي كلمة القوات من توصيف، أو ما تعنيه هي بالذات، أو لعل المغزى مضمر على طريقة الكتابة الجفرية التي اضطر البعض إلى انتهاجها في زمــن (تمجيد القائد)

من هي القوات التي تقصدها (هذه النخبة) فعلاً؟ خاصة وأن تعدد جنسيات الجيوش التي تكأكأت على العراق يجعل الأمر بحاجة إلى تحديد حقاً، الجواب عند من صاغ البيان على ما يبدو، ومرره على بقايا أفراد النخبة.

لماذا لا ترد كلمة «الاحتلال» ولا «الأميركي» في أي مكان من هذا البيان؟ هل هي في سياق ما أعلنه البيان من نخبتنا في أنهم (سيقاومون) أية نزعة جديدة لتأليه الأفراد، تلك النزعة التي كان روادها سابقاً (البعض) ممن وقعوا هذا البيان؟

أنهم لا يسمون الاحتلال باسمه، ويريدون منا أن نقاوم نزعات التأليه الفردية!لكنهم لا يقولون لنا، نحن الذين لا نعلم، هل العراق اليوم محتل أم لا؟

اليوم ونحن نرى هذا المشهد الملتبس والمرير الذي يشكله من يتقافزون في مواقفهم مثل الكناغر الأسترالية ويريدون من الجميع أن يقتفوا آثارهم، نطمح من مثقفينا أن يروا المشهد كاملاً غير مجزأ ويرسموه بما أمكن من المقاربة، وأن لا يجعلوا الكلمات مجرد مداس في طريق الهروب إلى الأمام.

3. ما بعد الصدمة –

قبل ما يقرب من نصف القرن وفي أول لقاء رسمي بـــين أدبـــاء العراق بعد تأسيس أول اتحاد لهم، بقائد أول جمهورية في البلاد، كان التصادم الأول بين الزعيم والشاعر في الجمهوريـــة الأولى، تـــصادم جرى على خلفية اتهام كل طرف للآخر بأنه من بقايا العهد البائد، الشاعر الذي مدح الملك وعمل في بلاطه، والـــضابط الـــذي أدى التحية لصاحب الجلالة وللباشا السعيد قبل أن ينقلب عليهما دموياً. هذا كان الحال بين الجواهري وعبد الكريم قاسم.

غيـــر أن هذا التصادم ظل فريداً، لم يتكرر رغـــم أن الـــشاعر «الأكبـــر» وهو يتحدى الزعيم «الأوحد» لم يدفع الثمن عـــاجلاً، على أن تلك المواجهة أعلنت مبتدأ الرحلة الشاقة لكليهما.

كل ختم تحديه في مكان مختلف، وأنجز السيـــر به نحـــو طريـــق متباعد: الزعيم إلى عرس الدم، والشاعر إلى منفى سيـــربي أجيـــالاً لاحقة.

لكن حال اتحاد الأدباء في العراق لا تشبه مبتداه، لا في مساره ولا في مآله إذ ظل دائماً خضوعاً للسلطة ولوعاً بكرنفالاتها.

وما لم يعد اتحاد الأدباء في العراق صياغة علاقته بالقوة المهيمنـــة فلن يتحرر من عبء الماضي القريب وقسوته التي نعرف.

أحسب أن النفي بات أشبه بمصيـــر طبيعي للمثقف عموماً، ولن تنجح الأطر التنظيمية في استرجاعه من منفاه الأبدي على الأغلـــب،

أكثر من ذلك تحولت ثنائية المنفى / الوطن في الثقافة العراقية، بفعل حقبة الاضطهاد، إلى نوع من عقدة الارتياب لدى أدباء الداخل إزاء أدباء المنفى وهو ما انعكس على التشكيلة الجديدة للمجلس المركزي للاتحاد التي خلت تماماً من أي أدباء المنفى.

مع هذا تبقى الفكرة التي طرحها فاضل ثامر الرئيس الجديد للاتحاد، بإطلاق مشروع عودة «النص المنفي» من خلال أعادة نشر عدد من الأعمال ذات الأثر القوي التي صدرت في المنفى و لم يتسن لقراء الداخل الإطلاع عليها، واحدة من محاولات تجسير الهوة بين الضفتين قبل أن تتسع لتصبح هاوية.

هل ينجح الاتحاد منذ الآن في استعادة تلك البرهة الزمنية الصاخبة للانعتاق التاريخي من كل الأطر غير إطار الثقافة والمدنية، هل ينجح مثلاً في إيجاد مسافة نوعية مع مؤسسات الثقافية للحكومة كوزارة الثقافة التي يقودها اليوم ضابط سابق في الشرطة؟

لا شيء مهماً في الثقافة العراقية اليوم تحت دوران رحى لا يضبطها محور، اتحاد الأدباء واحد من تلك المفاصل الحائرة في بحثها عن كينونتها في ما يخلفه دوران تلك الرحى.

وإذا كانت التشكيلة السابقة قد عكست ثقافة الحزب الواحد، فإن التركيبة الجديدة هي تركيبة قلقة تعكس واقع المشهد السياسي الفئوي العام في راهن العراق، بهذا المعنى لم تخرج الثقافة العراقية إلى هويتها النقية لتتخفف من لوثة السياسي، سنلاحظ أيضاً غياب الشعراء عن عضوية المكتب التنفيذي بعد أن كانوا رؤساء! بل كان جل الأعضاء السابقين من الشعراء.

لننظر إلى الهيكلية التي شكلت صورة المجلس المركـــزي الجديـــد، سنجد أن مهمات الشؤون الثقافات الأثنية: الكرديـــة التركمانيـــة السريانية، واحدة من انعكاسات المرحلة السابقة في ما يتعلق بمركزية الثقافة، عندما أريد للاتحاد أن يعكس صورة مركزية السلطة، واليوم مع وجود اتحادات لثقافات (قومية وفيدرالية) مستقلة عـــن المركـــز نسأل عن جدوى إعادة تمثل هذه الأمانات وتمثيلها؟

واقع الأمر أن الجميع لا يـــزال تحت وطأة الـــصدمة، وســـيبدو الحديث مبكراً عن دور للمثقف، وعن موقع لنقاباته وتجمعاته في هذا الأتون الفائض، ففي زيارتي الأخيـــرة للعراق تساءلت بين عدد من الأصدقاء في ظهيـــرة بمبنى الإتحاد، حيث لا ليل في بغداد كلها! عما إذا أبدى الاتحاد موقفاً من الاحتلال الأميـــركي للبلاد، ببيان مثلاً، واجه تساؤلي استنكاراً من لدن الآخرين الذين يعتقدون أن علـــيهم إعطاء الفرصة للسياسيين وانتظار ما يحدث.

لكن الطبقة السياسية فشلت حتى الآن في تقريب صورة الحلم عن عراق جديد، الأمر منوط إذن بوجود أنتلجنسيا عراقية، تخرج ذلك الحلم من أسر الشعار، إلى فضاء النقد، إتحاد الأدباء لا ينبغي أن يبقى ورشة لترويج شعارات وتبـــريـــرات وقائع، عليه أن يدرك، ككيان ثقافي أن مثل هذا المشروع لا يمكن استهلاله إلا بخلق الفضاء المناسب لفعاليته، أن يدافع عن مشروع المثقف وحريته في مجتمع تكـــشفت صورته المضمرة عن وقائع مؤلمة حقاً تمثلت في هذه الظلامية الراكدة في النفوس، وكأن المثقف العراقي لم يـــرسخ خلال نصف قرن، ما يشف عن صورة أخرى خلف هذا الركود الآسن.

– عقدة الشرعية وشراك السياسي.4

لا يشبه خبـــر استقبال رئيس وزراء العراق إبـــراهيم الجعفـــري لرئيس وأعضاء اتحاد الأدباء والكتاب في العراق، غيـــره من أخبـــار استقبالات عديدة يقوم بها الجعفري، كتلك التي مع رؤساء القبائل، ووجهاء المحافظات على سبيل المثال، إنه حدث يعيد سؤالاً جوهرياً عن طبيعة علاقة المثقف بالسياسي في البلد الذي عاش أقسى حقبـــة دكتاتورية، وأوسع منفى ثقافي من أي بلد عربي آخر على الأقل.

لكننا في مثل هذا الخبـــر، نـــستعيد تمثيـــل المـــشهد التقليـــدي للمعضلة: الأدباء يقدمون منشوراتهم بإهداءات خاصة، للـــسياسي كما هو الشأن غالباً، والسياسي يذكرهم كما هو شأنه دائماً، بدور المثقف. وإلى هنا قد لا يبدو المشهد مستغرباً فتلك (شنشنة أعرفهـــا من أخزم) لكن العقوق ليس من (أخزم) هذه المرة، إنه عقوق ذاتي، أعني أن أدباء العراق عادوا من تلقائهم إلى تلمس الشرعية تحت جبة السياسي، وليس في أي جب آخر.

لا أدري فعلاً إذا ما تقدم الدكتور إبـــراهيم الجعفري، بطلـــب انضمام إلى إتحاد الأدباء والكتاب في العراقي كي يحمل وفد الاتحـــاد بطاقة العضوية ويسلمها لرئيس الوزراء خلال اللقاء، لا أدري إذا ما تقدم بذلك الطلب أصلاً، أم أن أعضاء المجلس المركزي تطوعوا نيابة عن أدباء العراق، لمنحه صفة الأديب ببطاقة تلك العضوية؟

ليس الأمر متعلقاً بالسؤال حول أهلية السيد الجعفري وكفاءته المهنية، وهو طبيب سابق، أو بأحقيته في عضوية اتحاد الأدباء، أعرف أن الاتحاد في مسيرته السابقة لم يدقق في شروط منحه العضوية لمن يرغب، حيث كان ضباط الجيش العراقي، وأصحاب البحوث العلمية المتعلقة بالتصنيع العسكري، ومحررو مؤلفات الدكتاتور، أعضاء فاعلين في الاتحاد خلال الثمانينات والتسعينات.

المعضلة لا تتعلق بالدكتور الجعفري نفسه إذن، ولا بأحقية العضوية وشروطها، وإنما بإعادة بعث تقاليد لا تمت لجوهر الثقافة بصلة، يدعي البعض من المبشرين بالعراق الجديد أنها غير قابلة للانبعاث، وكان يفترض بهؤلاء الذين عزموا على مقابلة رئيس الوزراء، أن يعووا خطورتها جيداً إلى الحد الذي كان يفترض أن يجنبهم تجديدها بهذا السرعة وعند أول فرصة سانحة.

ربما كان عليهم أن يتذكروا أن السياسي يقلب ممكنات المتاح بعقلية براغماتية قصوى، بينما على المثقف أن يتجرد عن أية منفعة ميكافيلية وهو يمعن بتقليب رؤاه في نيران لا تهدأ، هكذا يفترض التطلع إلى نشدان الصورة المثالية للمثقف، لكن واقع الحال، بعيداً عن المنشود، لا ينفك يؤشر إلى أن المثقف العربي في صورته المتحققة لا يزال أحد الممكنات المتاحة التي يقلبها السياسي لإنجاح مشروعه.

ومع هذا إلا يبدو مستغرباً حين يشدد الجعفري في كلمته بين زوراه من الأدباء على أن يكون المثقف (رديفاً للسياسي الناجح) عبارة نافرة لا تخلو من استفزاز يمكن تصنيفها دون تردد في مقاربة مع جملة أثيرة لصدام جرى تعميمها بوصفها شعاراً ثقافياً (المثقف والسياسي كلاهما يصنع الحياة بصيغ متقدمة) فيما كان المنفى

العراقي، يضيق بالذين يصنعون حياة أخرى غيـــر تلك التي صاغها الحاكم، لا نـــريد أن نقول إن الجعفري كـــصدام، أو نـــسعى إلى مقارنة غيـــر متاحة بين الشخصيتين، لكننا ننوه هنا إلى طبيعة فهـــم السياسي للثقافة، ونظرته إلى مستوى التفاعل بينهما، ولذلك فـــإن الجعفري حين يـــردف جملته الأولى بعبارة وعظية أخرى (نـــــريد للثقافة أن تتدفق عطاء مثلما يتدفق النفط كثروة) فإن مثـــل هـــذا التشبيه لن يبدو مستغرباً من رجل مفوَّه يتدفق دون تأمل كثيـــــر، وسياسي مولع ببلاغة شفاهية تنطوي على إنشاء لفظـــي مـــضبب، يغطي به زوغان الفكرة في ذهنه، على أن هذه الجملة تبدو أقل عنفاً بالتأكيد من مقولة صدام (للقلم والبندقية فوهة واحدة) ربما ثمة علاقة ما بين تدفق النفط والبندقية، لكن بالتأكيد وفي كلتا الحالتين لا يمكن للحبـــر أن يشبه الدم أو النفط.

الأدباء من جانبهم أبطأوا خطاهم (الطليعية) ليتضارعوا مع خطى السياسي، معززين فكرته عن (الرديف) بتأكيد (عهد الوفـــاء بـــأن يكونوا سنداً دائما لإنجاح التوجه الـــديمقراطي في حيـــاة العـــراق والعراقيين)

الممض في القضية بـــرمتها أن تطغى عقدة فقهاء السلطة، علـــى العقدة المركبة لكلكامش، في البحث عن وهم شرعية متبادلـــة، إزاء شرعية مفقودة في مكان آخر.

هل سيبدو من اللافت بعد ذلك، أن يمنح الأدباء رئيس الـــوزراء (وسام الجواهري) وهو وسام لم نعرف أنه قلد لأحد قبـــل رئـــيس الوزراء، ليصبح بذلك (الأديب الأول) الذي يمنح مثل هذا الوسام أو ليمسي (رئيس الشعراء) تنويعاً على لقب وزيـــر الـــشعراء الـــذي

أسبغه أحد الشعراء العرب، على وزيـــر الإعلام العراقـــي خـــلال الثمانينات.

أتساءل هنا عما إذا حرص أعضاء المجلس المركزي للاتحاد علـــى استذكار الجانب المدني في بنية الاتحاد بكونه منبـــر ضميـــر ولـــيس مؤسسة تبـــريـــر أم أنهم ن اندفعوا من جديد لتسيس هذا التجمـــع وربطه عبـــر هذه الزيارة وغيـــرها من الفعاليات الأخرى بالسلطة، متى يعرف هؤلاء أن الدولة لا تعني السلطة وأن مؤسساتها لا ينبغـــي أن تصب في مصب واحد وتنبع من منبع واحد وتجـــري في مجـــرى واحد؟

الواضح حتى الآن أن الأمر يعكس (أزمة شرعية) ذات مـــشابك متعددة أبـــرزها بين الأدباء العراقيين أنفسهم وهم الذين كانوا ولا يـــزالون منقسمين على كثيـــر من القضايا بفعل السياسة، وهـــي أزمة تتعلق (بشرعية) مفقودة أساساً في مسيـــرة الاتحـــاد خـــلال العقود الماضية عندما فقدها بفعل إدغام الـــصوت الثقـــافي، حـــد اضمحلاله، في الصوت السياسي.

مضافاً إليه أن الاتحاد نفسه محاصر عربياً بقرار من الأمانة العامـــة لاتحاد العام للكتاب العرب، التي علقت عضوية العراق بعد الاحتلال الأميـــركي، ولم تعده إلى (حظيـــرة الأمة) حتى الآن، شأن سياسي آخر يطغى على المشهد ويدفع باتجاه تسيس الثقافة دون ريب.

ولعل المذكرة الأخيـــرة التي وجهها اتحاد الأدباء والكتـــاب في العراق، إلى الأمانة العامة لاتحاد الأدباء العرب، تفصح عن جانب من ملامح هذا التهميش، أو قل التهامش والتهارش الذي يضع قـــضية

التجمعات الثقافية تحت رحى الصراعات السياسية، ووجهات النظر المتقاطعة حول المواقف من تفاعلاتها.

إن إشكالية العلاقة بين المثقف العراقي والسلطة، تعود هذه الأيام لتشكّل أسئلةً جديدةً تُعيد إلى الذاكرة تاريخاً لا ينطوي على شيء من المسرّة في طبيعة هذه العلاقة، فما إن وقّع الرئيس العراقي جلال الطالباني أمراً بتعيين الروائي فؤاد التكرلي مستشاراً له لشؤون الثقافة والآداب، حتى صدر بيانٌ في الجهة الأخرى وقعته مجموعة من (عراقيي المنفى) تطالب التكرلي، بلغة تأنيبية أن يسألَ رئيسه عن المجزرة التي حدثتْ في العام 1983في المناطق التي كانت واقعة تحت سيطرة قواته[1]، والسؤال هنا يتعلق بمقتل أكثر من مائة من الشيوعيين العراقيين، بينهم مثقفون، خلال فترة الكفاح المسلح ضد النظام السابق في شمال البلاد، وتحميل الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يرأسه الطالباني ارتكاب المجزرة التي وقعتْ في قرية بشتاشان بوادي قنديل في السليمانية، وللأمر هنا صلة بما اتصل، فالتكرلي نفسهُ حضر مؤتمر (تعليق العضوية) ممثلاً للأدباء العراقيين في الخارج، فكان كمن وُضعَ في مواجهة مع أعضاء الاتحاد الذين حضروا من بغداد لكنهم مُنعوا من المشاركة في ذلك المؤتمر، على خلفية عدم (شرعية) انتخابات جرت تحت الاحتلال.

لا شكَّ أن الاحتكاكَ بالسلطة لا يترك عادة تلك المسافة الضرورية التي تجعلُ من المثقف حراً وخارجياً دون قيودٍ، أو أعرافٍ

([1]) تصريح مشترك باسم (موقع بشتاشان والهيئة المشرفة على الجريمة) نشر على (موقع كتابات – على الانترنيت) ومواقع أخرى بينها موقع بشتاشان نفسه. 29 / 8 / 2005

قارَّة بفعل ذهنية الطاعة، إنهُ احتكاكٌ خطيـــر قد لا يُسفرُ عنـــه إلا تلاحمٌ يؤدي إلى نوع من التماهي في الخطاب، أو ينجمُ عنهُ تنـــافرٌ يؤدِّي إلي الإقصاء والنفي بمعناه الذهني، وليس المكاني فحسب، لهذا قد يكون قدر المثقف العربي خلال القرن الماضي، وإلى أمد غيـــــر منظور هو الاغتراب الثقافي في الثقافة نفسها، إننا نتحدَّثُ هنا عـــن (نخب) متنافرة ومتنازعة وليس عن (نخبة) متحاورة داخلياً.

فعندما رصد علي الوردي ظاهرة وعَّاظ الـــسلاطين في الثقافـــة العربية فإنه وضع هذه النخبة في قفص الاتهام ولم ينجح تاريخ الثقافة على العموم في مغادرة هذا القفص، إلا لماماً، ثمة أفـــراد ذوو رؤى ظلت مبعثرة، هم وحدهم من غردوا غربـــاء في بـــوادي الوحـــشة وبواطن العزلة، خارج قفص الطاعة الذهبي.

مرة أخرى لا يشبه الخبـــر الثقافي هنا غيـــــره مـــن الأخبـــار، الواردة من العراق، بل كأنه يضيع بينها، أللـــهم إلا إذا ســـلمنا أن المسألة بـــرمتها متصلة بخطة لإعادة ربط الثقافة العراقية بالـــسلطة، عبـــر وسام وإهداءات كتـــب مـــن الجانـــب الأول، ومـــواعظ وتوجيهات من الطرف الآخر، ربط يقوم علـــى وهـــم الـــشرعية المفقودة، بين السلطة التي فشلت حتى الآن في تحصيل تلك الـــشرعية تماماً، بل حتى في تعريف نفسها على أنها سلطة حقاً، والثقافة الـــتي تعاني من الصدمات والانشقاقات، وإرث لا يستهان به من التنكيـــل في حقبة الدكتاتورية، محاولة الربط (الحيوي) هذه بـــين الـــسياسة والثقافة، تتخذ الآن صيغة تواطؤ مزدوجـــة في كيـــانين جديـــدين يتبادلان الأوهام القديمة بحثاً عن شرعية قلقة.

خاتمة

العراق في طريق المتاهة

إذن الطريق الذي يسلكه العراق اليوم هو طريق المتاهة بامتياز.

قد لا تُشبهُ هذه المتاهة حتى تلك التي قامت عليها الدولة العراقية في القرن الماضي، على أنقاض العراق التاريخي، ذلك أن خطط بريطانيا التي خلقت تلك المتاهة عند صياغتها لنموذج الدولة العراقية أسفرت عن نموذج هش وقابل للانهيار بفعل نمط النزعة الاستشراقية، ومرجعية ثقافة الترحال والاستكشاف التي سادت الفكر الكولونيالي آنذاك، وامتزاجها غير الحيوي بمفاهيم القوة والمدنية مما أوجد فجوة عميقة في سياق تأهيل العراق ونقله من ثقافة الكيان التاريخي إلى فكرة الدولة الحديثة.

ثلاث مؤسسات تداخلت أعمالها، وتنازعت أفكارها في إدارة شؤون العراق بعد الاحتلال البريطاني للبلاد خلال الحرب العالمية الأولى، وهي: المؤسسة العسكرية ممثلة بقيادة الجيش البريطاني منذ الجنرال ستانلي مود، والبنية الاستخباراتية ممثلة بالمكتب العربي الجامع في عمله نزعة الاستشراق والتنقيب الآثاري بالعمل الاستخباراتي والذي رأسه الجنرال كلايتون وعمل فيه عدد من علماء الآثار الاكسفورديين بينهم دافيد هوغارث والمس بيل إضافة

إلى توماس ادوارد لورنس المعروف بلورنس العرب، أمـــا المؤســـسة الثالثة فمثلتها الطبقة السياسية ممثلة بالإدارة المدنية التابعة للخارجيـــة البـــريطانية الممثلة لحكومة التاج البـــريطاني: الـــسيـــر بيـــــرسي كوكس ومساعده السيـــر أرنولد ويلسون وكيل الحاكم المدني العام في عهد الاحتلال البـــريطاني للعراق.

على أن الملاحظ أن هذه النظرة متعددة الأبعاد للعراق، وللمنطقة العربية بشكل عام ولدت فكرة مشوشة عن نمط التعامل مع مجتمعات المنطقة بشكل عام والمجتمع العراقي بشكل خاص، وهو مـــا أدى إلى خلق متاهة قديمة لم تخرج منها بـــريطانيا إلا بخروجها من المنطقـــة وكأنه الخلاص فيما استطاعت البقاء أطول في أماكن أخـــرى مـــن العالم.

هذه المتاهة التي خلقها التنازع بين تلك المؤسسات، والتعـــارض بين فلسفاها، أحدث الصدمة الأولى للاحتلال البـــريطاني للعـــراق فيما عرف بالتاريخ السياسي للعراق بثورة العشرين، فيما لم يتعـــدَ وصفها في الوثائق البـــريطانية عن كونها « تمرداً وعصياناً» فيما بقي العراق نفسه، ككيان سياسي مغفلاً في عنوانات تلك الوثائق الـــتي صدرت في كتب، حملت فقط روح الاستشراق والمذكرات المبنيـــة على البعد الأسطوري لذلك البلد.

والواقع أن هذا البعد الأسطوري تجسد بشكل واضح في كتابات ومذكرات أعضاء المكتب العربي، وكذلك في سائر كتب ومذكرات الحكام العسكريين والمدنيين للعراق على حد سواء.

فالسيـــر ولسون نشر كتاباً في جزءين عن العراق الأول بعنـــوان :«الولاء في بلاد ما بين النهرين» والثاني «الولاء الملتـــبس في بـــلاد النهرين».

أما الجنـــرال إيلمر هولدين القائـــد العـــام للقـــوات المـــسلحة البـــريطانية في العراق عند نشوب ثورة العشرين فقد نشر كتاباً اسماه «التمرد في بلاد ما بين النهرين» على الرغم من أن الدولة العراقيـــة كانت قد ولدت بالفعل و لم تعد تسمية بلاد النهرين «ميـــسوتاميا» إلا تلك الأسطورة الراسخة في أذهان المستشرقين ومؤلفي الكتب عن تلك البلاد.

ومع أن كلاً من «التمرد والولاء» شكلا قطبا النظرة البـــريطانية للعراقيين، فإن الترجمات اللاحقة للكتب أصرَّتْ على عنونـــة تلـــك الكتب بعنوان « الثورة العراقية» أو الثورة العراقية الكبـــرى«(1).

والواقع أن كل واحد من الكتابين أعلاه، يـــرمي صاحبه اللـــوم على المؤسسة الأخرى التي أسهمت في تقويض دور مؤسسته وأدت إلى فشله في معالجة الأوضاع في العراق.

فالسيـــر أرنولد ويلسون يتحدث عـــن تقـــصيـــر الحكومـــة البـــريطانية في دعم الإدارة المدنيـــة في العـــراق، وعـــن محدوديـــة الإمكانيات التي وفرت لها، خاصة بعد انتهاء الحرب، في الوقت الذي يلقي فيه لوماً كبيـــراً علـــى القيـــادة العامـــة للقـــوات المـــسلحة

(1) كتاب الجنرال إيلمر the insurrection in Mesopotamia وكتاب السير أرنولد ويلسون Mesopotamia ، loyalties وA clash of loyalties الذي ترجم أجزاء منه جعفر الخياط تحت عنوان (الثورة العراقية)

البـريطانية في العراق، ويمضي أبعد من ذلك ليوجه نقده نحو إدارة الخارجية البـريطانية وطبيعة تعاملها مع أمر الولايات العراقيـة، ولا يستثني رجال الدين في البلاد، وبقايا الجيش التركي ورغبة البعض من أنصار «العثمنة» في عودة عهد الخلافة المدحورة بجيـوش الغـرب وبمؤازرة عرب الجزيـرة وعرب العراق والشام.

أكثر من ذلك يتعسف في تحليل أنماط الثقافة في المنطقة وما تولده من تفاعلات فيشيـر إلى الأثر السلبي للصيام الإسلامي وتفاعله مع طقس العراق القاسي وما يتركه من أثر علـى أمزجـة المـواطنين، مبـرراً تصاعد موجات التمرد خلال شهر رمضان.

لكن «لورنس» يذهب في تفسيـر تلك «الثورة» نحـو منطقـة أساسية لم يقاربهـا الحكـام البـريطانيون للعـراق « مـدنيون وعسكريون» ومع اتفاقه مع أسلافه في عنونة مقالته التي نشرها وقتها في الصنداي تايمز ونشرت لاحقاً في كتاب تضمن رسائله، بعنوان (بين النهرين) إلا أنه يشيـر إلى أن العراقيين عندما «قاتلونا» بحماسة قليلة فذلك ليس ترحيباً بفاتح جديد، لكنهم كانوا ينشدون الحرية، ولذلك لا يستغرب اندلاع العنف في العراق بعد ثلاث سنوات مـن الاحتلال البـريطاني.

هذه المقاربة التاريخية ستكون ذات فائدة لا تخفى عندما نصل إلى النظر إلى واقع الإخفاق الأميـركي في العراق وهو يتجاوز الربـع الأول من السنة الرابعة على الاحتلال.

فبعد كل ربيع يمضي، وهذا هو الربيع الرابع منذ احتلال العراق، يأتي صيف صعب ثم خريف أصعب فشتاء قاسٍ. الأمـر لا يتعلـق

بطقس المكان وفصول السنة، وإنما يتصل بطقوس أخرى وفصول مختلفة تجري صياغتها في أمكنة متعددة لإعادة رسم المناخ العراقي من جديد.

اليوم لم يعد الأمر متعلقاً بحرية منشودة من نير الاحتلال، وبناء الدولة العراقية من جديد على نقيض المفهوم القديم لـ «ميسبوتاميا»، فقد أدت فكرة الاعتزال الشيعي عن المشاركة في مشروع بناء الدولة العراقية في العشرينيات، إلى نشوء دولة هشة في طبيعة علاقتها بنسيج مجتمعي لم تحرص على ربط جميع خيوطه بدقة ومتانة، مثلما تؤدي الحماسة الزائدة لتلك الجماعة واندفاعها الشرس نحو السلطة اليوم إلى تحويل تلك الهشاشة إلى حطام مؤكد لفكرة الدولة القائمة على المشاركة والتسامح والتحرر من إرث القسوة، ومثلما تحوّل الاستئثار السني بالسلطة في تلك العقود إلى عصيان لا يمكن ضبطه في سياق البناء الجديد للعراق، أو ما سماه بول بريمر في مذكراته عن العراق: الكفاح من أجل بناء مستقبل منشود!

انتهى مشروع بناء الدولة العراقية من جديد إلى هذه المتاهة العقيمة التي لا تمر إلا بمخاض دموي يومي دون أن تسفر عن ولادات إلا هذا الموت المواظب الذي لم يعد فيه العدُّ ولا العدد ذا شأن كبير.

فشلت أفكار مكتب إعادة الأعمار، وكذلك الحكم العسكري المباشر، وفشلت فكرة الإدارة المدنية، وتفشل فكرة «المندوب السامي المدعمة بحكومة تدين بالولاء للمحتلين» وبقيت من هذا كله مذكرات وكتب ودراسات وشهادات وسجالات تبرر ذلك

الفشل أو على الأقل تؤرخ له بينما تقطع البلاد طريقاً داميـــة نحـــو المتاهة الأخطر.

وإلا ماذا نسمي نـــزوح ما قرابته مليون وثلاثمائة ألف عراقي في مناطق مختلفة تحت تأثيـــرات ما تحرض عليها الأدبيات الغربية وحتى الإعلامية العربية «بالعنف الطائفي» بحسب تقريـــر لبعثـــة الأمـــم المتحدة في العراق أي ما نسبته حوالي 6 بالمائة من أجمالي عدد نفوس العراق؟

وماذا نسمي نـــزوح عشرات الآلاف من المواطنين العراقيين من ربيع لا يمكن وصفه في بغداد والمحافظات المجاورة نحـــو الـــشمال (كردستان العراق) بعد أن ضاقت الدول المجاورة بمئات الآلاف منهم طيلة الفصول السابقة؟

ليس ثمة «ثورة» في العراق اليوم، ثمة فصول للعبة العنف يتقنـــها اللاعبون الماهرون ويمارسونها بين النهرين، الأميـــــركان وحـــدهم يتحملون المسؤولية وضع ما تشاء من أطراف أخرى بعد ذلك.

انتهى « حلم » المشروع الديمقراطي في العراق إلى حرب أهليـــة حقيقية لا يمكن نكرانها، بعد أن تم إنجاز سيناريو الإنكار المتبادل بين الأهالي بفصولها جميعاً.

وانتهى أمر الطبقة السياسية في البلاد إلى البحـــث عـــن حلـــول للمعضلة خارج الحدود، وانتهى أمر النخبة المثقفة إلى التأمل في مرآة الطائفة والعشيـــرة والجماعات المحلية والولاءات المتعددة، حتى غابت الحدود والفواصل بين ما يسمى منظمات المجتمع المدني، وتنظيمـــات

المافيات المتسقة في سياقها، وغاب دور الأفراد والجماعات والأهالي في ضجيج الهتافات والبيارق المرتفعة وسلطة الميلشيات المناطقية.

الأمر يــزداد تعقيداً إذن و لم تعد إعادة تقييم الستراتيجيات قادرة على العودة بالعراق إلى نقطة تبدأ منها بداية أخرى.

لقد ظل بعض المواطنين وحتى عصبة المــثقفين الــذين «تــأملوا خيــراً» بالمشروع الأميــركي في العراق يوجهون النقد في اتجــاه واحد، فهناك من ظل متمسكاً بفكرة أن « فلول: النظام السابق هم السبب في كل ما يجري، وثمــة مــن يــشيــر إلى أن « أخطــاء» الأميــركان هي السبب في ما جرى وهناك من يبــرئهم من حمــل وزر ما يجري بإلقاء اللوم على المتنفذين والمتــسلقين مــن الطبقــة السياسية.

لقد كانت معارضة نظام صدام وحلم إسقاطه، مشروعاً وطنيــاً بالتأكيد لكن الاستعانة بالدبابة الأمريكية لتنفيذ ذلك المشروع هو ما جعل الأمر موكلاً نهائياً إلى من حرّكوا تلك الدبابات، الأمر بــرمته إذن بيد الأمريكان الذي اختاروا صيغة حكم العراق بعد صدام، و لم يستفيدوا من الدراسات الجداة لطبيعة البنية الاجتماعيــة التاريخيــة للجماعات المحلية، فقدموا لهذه الطبقة السياسية كل ما تحتاجه مــن دعم ليسهل عليها الوصول إلى المنطقة الخضراء، حيث حكــم بــلا سلطة ولا مؤسسات وشعب يجري زجُّهُ في لعبة المــوت المموَّهــة بشعارات الديمقراطية.

تحت هذا الواقع المضطرب توصيفاً وتفاعلاً يأتي الكــشف عــن جريمة اغتصاب (المراهقة عبيــر) من قبــل جنــود أميــــركيين

لتخطف الأضواء من الحلقات الجديدة من مسلسل محاكمة صـدام، ليطيح بعمود أخلاقي آخر من أعمدة الستراتيجية الأمريكية الجديدة.

وتأتي مجزرة حي الجهاد في جانب الكرخ من بغداد، لتطيح بما سمي مشروع «المصالحة الوطنية» في العراق الذي أطلقته حكومة المالكي مؤخراً، وتأتي قرارات الحكومة المحلية لإقليم كردستان بضرورة الحصول على تصريح الإقامة وحتمية توفر كفيل كردي للنازح العربي إلى مناطق كردستان لترسم زخرفة جديدة غامضة في مفهوم الفيدرالية، وتجعل من وجود مئات الآلاف من الأكراد في المناطق العربية عرضة لانتهاكات جديدة في اللعبة الخطيرة التي تقوم دائماً على نـزعات الثأر وجر الأقدام نحو الوحل المتشكل في ساحات الدم.

ومع ذلك فإن تصاريح الإقامة في« كردستان» لا يحصل عليه بسهولة إلا عوائل العاملين في المراكز الحساسة في المنطقة الخضراء الذين يبحثون عن ضمانات أمنية للعمل في مراكز السلطة. فيما يبحث الأكراد عن ضمانات كي لا تتحول تلك الهجرة إلى خطط لتغييرات لديموغرافيا تاريخية قلقة.

ازدهر التكفير الطائفي على الجانبين كما ينبغي له، فإزاء ثقافة التأليب على «الرافضة» والحض على قتلهم وقتالهم، التي ما برحت حية منذ أن أحياها الزرقاوي و لم تمت معه، تناسلت عنها وباتجاه آخر فكرة تنظيف البلاد من «النواصب».

تتوفر شروط المتاهة بامتياز أمام الجميع في العراق، الداخلين إليه والخارجين منه والعالقين فيه على السواء.

النهايات المقفلة والطرق الحلزونية التي لا تقود سوى إلى نفـــسها وكذلك الفزع وكوابيس الليل وفجائع النهار، وهي فوق ذلك كلها سجن في كابوس لكنها ليست متاهة فردية إنها زحمة جماعية وتدافع بالمناكب نحو أبواب غامضة وكاذبة لا تقود إلى طريق جديد.

إنها متاهة بلا آلهة هذه المرة، وإذا كان كولن ولسن قد حـــاول الولوج في رواية« إله المتاهة» إلى عالم الجماعات السرية في بحثها عن أوثانها الغيبية، متخذاً من الأدب المكشوف واعترافاته بنية رئيـــسية لعمله، فإن الجماعات البشرية في عراق اليوم تبدو وكأنها تـــدور في محفل آخر أكثر ظلاماً وسرية وهي تتخبط في تلك المتاهة ويتخـــبط معها، حتى أولئك الذين ظننا يوماً أنهم صناعها.

المسلخ العراقي اليومي، ليس سوى زاوية في تلك المتاهة، وسقوط الرسالة التبشيـــرية لأميـــركا، ما بين أبي غريب وحديثة وصولاً إلى اغتصاب فتاة المحمودية، وقتل أفراد عائلتها نذراً للعـــرس الجمـــاعي لجنود الفرقة الأميـــركية 101 المحمولة جواً وفحلها الأشقر ســـتيفن غرين زاوية أخرى. فساد الطبقة السياسية العراقية، وفرق المـــوت، ووعاظ الفتنة من منابـــر الموت وفضائيات الطوائـــف والـــصحافة المداهنة وخطابات فقهاء المارينـــز، زوايا وكهوف مظلمة حقاً، إنها متاهة مرعبة يؤكل فيها من يؤكل ويقتل من يقتل ويختفي في ظلماتها من يختفي، ومع هذا ثمة من يحلم في تلك الظلمات بعـــراق جديـــد يخرج منها إلى ضوء لم يعد ما يبشر به، أو من يوقده على جبـــل أو سهل.

أضحت الخدمات الإنسانية الضرورية من كهرباء ومياه وطـــرق ووقود وحرية تجوُّل، من قبيل البطر وشدة المرح في وقـــت التـــرح!

وأمست الألفة بين الناس من الرفاهية الزائدة، بعد أن أصبحت الحياة نفسها امتيازاً يومياً يبارك العراقي به نفسه كل يوم.

حتى الهروب من البلاد لم يعد مأموناً فطرق الموت تحيط الـــبلاد شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، وطريق المطار لمـــن يــــريد أن يـــسافر بالطائرة محفوفة بالمخاطر هي الأخرى.

ضغط الهجرات الجماعية على دول الجوار أضحى معضلة أخرى، مئات الآلاف ما بين سوريا والأردن يـــرفعون أســـعار الإيجـــارات وأسعار كلّ شيء، يضربون الأرقام القياسية لهجرة العراقيين خـــلال العقود الثلاثة الماضية من حكم نظام صدام، مما جعل العراقي ضـــيفاً ثقيلاً على البلدان التي ضاقت لكثرة الويلات التي يتعرض لهـــا هـــذا البلد وما ينعكس منها على تلك البلدان.

العراقيون يعيشون حصاراً جديداً في تلك المتاهة التي سميـــت أولاً بلاد ما بين النهرين، ثم أسطرتها الحكايات فصارت بلاد ألف ليلـــة وليلة، وسماها العرب وهم يقصدونها من الجزيـــرة « لتحريـــــرها» أرض السواد، لكن اسماً آخر استدركه لها العرب بعد تحريـــــرها، اسماً يقترب من الكنية المضمرة والملتبسة والمستلة من ويلات أهلـــها العصاة على كل تفسيـــر إنها بلاد : أهل الشقاق.

لكن أهل الشقاق صفة أضحت محلّ شقاق من نوع آخر، فهـــي تجسد علاقة العراقيين بحكامهم، وبين بعضهم البعض في الوقت ذاته، لذلك ثمة من منظري العهد الجديد من توهم أن صفة الشقاق هي من مثالب الطغاة فحسب، ألحقت بالمحكومين قسراً لتـــدمغهم بـــصورة نمطية زائفة، فجرى ربطها بالحجاج بن يوسف الثقفـــي، لكنـــها في

الواقع صفة تتصل بتراث سابق لرمز العنف التاريخي في البلاد، قبل أن يوظفها الحجاج في خطبته المشهورة. فقد أثبتها تراث الضحايا أنفسهم إذ جاءت فكرة ذمّ «أهل الشقاق» في دعاء زيارة الأربعين للإمام الحسين الذي نقله الشيخ الطوسي عن الإمام الصادق مرتبطة بأهل العراق ملتصقة بهم، كما ذكرها الشيخ الصدوق كذلك[1] فيما ينقل المؤرخون بتواتر، أن ابني الزبير: عبد الله ومصعب استخدماها لهجو أهل العراق حتى قبل أن يقتلا، حتى الجاحظ الذي يتمسك البعض بتفسيره لدوافع الشقاق عند العراقيين «بسبب ميلهم للفطنة والتنقيب والترجيح بين الرجال والأمراء وميلهم إلى الطعن والقدح» يقرُّ أن العراق ما زال موصوفا أهله بقلة الطاعة، وبالشقاق على أولي الرئاسة[2].

إنها زاوية أضافية في تلك المتاهة إذن... تاريخية؟ أجل لكنها فاعلة أيضاً، ومتسعة إلى الدرجة التي تستطيع أن تخلق زواياها المظلمة كذلك، وتعيد ابتكار التسمية الحالية للعراق : « أرض المتاهة»

---

(1) أبو جعفر الطوسي (محمد بن الحسن بن علي الطوسي 385 – 460 هجرية - كتاب مصباح المتهجد) والشيخ الصدوق (محمد بن علي بن الحسين بن موسى بابويه القمي 306 – 381 هجرية - كتاب الأمالي)

(2) ابن أبي الحديد المعتزلي أبو حامد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد 586 – 656 هجرية – كتاب شرح نهج البلاغة.

ملحـــــــق:
جلادون وضحايا[1]

[1] هذا الملحق هو النص الأصليّ لسيناريو لفيلم وثائقي عن تاريخ العنف والإعدامات السياسية في العراق أخرجه باسم عبد القهار وعرض بالإسم نفسه على قناة الجزيرة الإخبارية وعلى جزءين. وهو هنا مزاد على الطبعة الثانية حيث كتب بعد أكثر من عام على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب

ـــ 1 ـــ

عاصمة الآباء وصراع الأبناء

بغداد، دار السلام وعاصمة الرشيد.

خاصرة بلاد الرافدين، وسرَّة الدنيا كما يسميها المؤرخون، ودار الخلافة في التاريخ الوسيط. لكنها في التاريخ السياسي الحديث تمثـل بؤرة العنف ومهبٌّ الجائحات التي لا تبقي ولا تذر، وحاضنة الحرائق التي تأتي على البشر والأمكنة والذكريات على حدٍّ سواء.

تغدو دار السلام اسماً على غير مسمى، حين يتـدخل الـصراع الدامي على السلطة في صناعة اسم آخر لبغداد، غـير كونها دارا للسلام، وليست «عاصمة» لحاكم من بطش منافسيه به أو تنكيلـه بهم.

لكن عاصمة «هارون الرشيد» خامس خلفاء بني العباس لم تتسع لأبنيه الأمين والمأمون في الاقتناع بموعد ولاية العهد من بعـده. ولم تعد مركزاً للخلافة مع تولي ابنه الثالث «المعتصم» مقاليد الحكم، لم تتسع لأخوين يتنازعان على السلطة في بغداد وبينما دخلها المـأمون فاتحاً من جهة الشرق فرَّ منها الأمين هارباً من جهة الغرب ليقتل عند بابها الغربي على الضفة الأخرى من النهر قبل أن يكمل هروبه نحـو أندلس جديدة.

قاتلون وقتلى، جلادون وضحايا، أخوة أعداء، في الصراع من أجل السلطة. صراع تداخلت فيه، على الأقل بين أبناء هارون، ولاءات تركية وفارسية وعربية، خؤولة لا عمومة ليظهر للمرة الأولى، وعلى هذا الشكل الدامي، أثر صراع الأمم في سفك دماء الأخوة.

غدا أحدُهما هالكاً وأضحى الآخرُ مالكاً.

ولأنّ الْمُلكَ عقيمٌ، فإن جثة الحلاج التي علقت على أحد طرفي جسر بغداد قبل أن تحرق ويرمى رمادها بالنهر،كانت صورة تقريبية من تاريخ القسوة، لنموذج دموي متوالد من ذلك الملك العقيم! إنه الصراع القاسي الذي يتفنن أبطاله في التنكيل والتمثيل والفتك والفتك المضاد.

تلك حكاية ليست قديمةً تماماً، عن بغداد العباسية المنقسمة على ضفتين وعلى عرش ونعش، وعلى عيد ومأتم، عرس وعزاء، وعلى أكثر من ولاء.

هذه الذاكرة العنفية ترسبت عبر الزمن لتسكن في اللاوعي الجماعي للعراقيين وتجعل من كمية العنف المعبر عنها لديهم ذات منحى عميق وبعيد الأغوار.

— 2 —

بنادق ومشانق

ما بين الموت على أعمدة المشانق بحبل يلتف حول الرقبة كربطة عنق في بروتوكول القتل المدني، وبين القصاص رمياً بالرصاص المنهمر على أزرار البدلات العسكرية، كانت حفلات الإعدام تقام بمواسم متعددة، بينما كان الجميع، حكامُ العراق وكذلك الحالمون بحكمه، يواجهون موتاً واحداً وإن تعددت أسبابه، يواجهون مصائرهم السوداء القائمة بحيرة الذي رأى كل شيء، بلا أقنعة ولا عصائب تشد عيونهم قبل الإعدام.

كأنهم كانوا دائماً يستعدون تلك اللحظة وكأنها قصة الخلود في طريق معكوس.

— 3 —

الجذور

تبدو طروحات الدكتور علي الوردي في دراسته للشخصية العراقية تفسيراً معقولاً لثنائية الجلاد والضحية التي تحكم الشخصية العراقية وتشطرها إلى: قاتل وقتيل، ضحية وجلادا، ظالماً ومظلوماً.

ففي حديثه عن ازدواج الشخصية وقلقها بين البداوة والتحضر بين الانفتاح والانغلاق بين التمدن والتريف وصراعها الذاتي بين الصحراء والمدينة، يؤكد أن كل عنصر من هذه العناصر غير قابل على الاندماج في الآخر تماماً، لأن ما يسميه «التناشز الاجتماعي» يميز علاقة الفرد العراقي بمظاهر التحديث الوافدة وتأصل القيم الراسخة.

— 4 —

في البدء أُعدمَ الجنرالات

جاء الإعلانُ عن قيام الدولة العراقية كمحاولـــة مـــن بريطانيـــا لاستيعاب العنف الداخلي المتولد نتيجة ثورة العشرين ضد الاحتلال، وجاء تشكيل الجيش، لاستيعاب عدد من ضباط العهد العثماني الذين انخرط بعضهم في الثورة العربية ضد العثمانيين، ولتحقيق نوع مـــن النفوذ البريطاني غير المباشر للتحكم في صراعات القوى الأساسية في العراق من ولاءات عشائرية ومرجعيات دينية.

غير أن محاولة الاستيعاب هذه سرعان مـــا تحولـــت إلى مركـــز استقطاب للصراعات واشتباك الولاء وتداخل الخنـــادق وتنـــاقض المصالح.

عام 1936 .. حدث أول انقلاب عسكري في تاريخ المنطقة التي لم يكن معظم دولها قد دخلت ما كان يعرف بعصبة الأمم المتحـــدة كدول مستقلة.

وبينما تولى الملك غازي عرش العراق، تنـــاوب علـــى رئاســـة الحكومة عدد من الضباط الذين تخرجوا من المدارس الحربية التركيـــة في الاستانة ممن خدموا في الجيش العثماني وتحولوا مـــع الاحـــتلال البريطاني إلى «قادة جدد» للجيش العراقي الذي أسسه البريطانيون في السادس من كانون الثاني / يناير عام 1920.

وفي خضمِّ المنافسة بين رفاق السلاح لتولي المناصب العليا ولمـا كانت مسألة تغيير النظام الملكي لا تتعلق بإرادة هؤلاء الـضباط ولا بقدراهم، وإنما بإرادة التاج البريطاني وموظفي إرادة مـستعمراته في بغداد، حدث انقلاب الفريق الركن بكر صدقي لإزاحـة حكومـة ياسين الهاشمي.

لم يكن لطريق الانقلاب أن يمرَّ، على ما يبدو، إلا بتصفية وزيـر الدفاع جعفر العسكري الذي كان صهره رجل بريطانيـا القـوي نوري السعيد.

في الواقع وجدت طبقة العسكريين المتحدرين من مدرسة الاستانة نفسها في أتون حرب تصفيات داخلية تأخذ مرة شـكل القـسوة المباشرة وتارة شكل الإزاحة والتنحية.. بيد أن انقلاب بكر صـدقي كان بداية لمرحلة من القسوة بين رفاق السلاح بالأمس والمتنافـسين على الزعامات في عهد الولاء المشتبك، غير البعيد عن شروط لعبـة الأمم.

خطط بكر صدقي لتصفية جعفر العسكري الذي رأس الحكومـة العراقية مرتين في عامي 1924 و1927، فجـرى إعـدام جعفـر العسكري وهو مجرَّدٌ من سلاحه، جعفر العسكري أول وزير للدفاع في تاريخ الدولة وأحد اكبر ضباط الجيش العراقي يقتل برصاص أحد مراتب هذا الجيش الذي ساهم في تأسيسه.

يمثل بكر صدقي واحداً من نماذج الزعامات العراقية التي مارست العنف بوصفه وسيلة لضبط الأوضاع الداخليـة وتحـصيل الـولاء وإخضاع الجمهور، ورغم أنه ينحدر من أبوين كـرديين إلا إنـه

ركب موجات التوجهات القومية العربية الـــتي راجـــت آنـــذاك، وسرعان ما استدرجته في لعبة الولاء.

إلا أن التحدر العرقي والتوجه القومي، لم يمنعانه كلاهمـــا أو أي منهما من التنكيل والبطش غير الخاضع لاعتبارات التحدر ولا التوجه فكان قمعه لانتفاضة عشائر الفرات الأوسط العربيـــة إلى انتفاضـــة الآشوريين في شمال البلاد وصولاً إلى ســـحقه لانتفاضـــة الأكـــراد البارزانيين في مناطق بهدنان.

وبينما بدأ انقلاب بكر صدقي بتصفية وزير الدفاع، فأنه انتـــهى بتصفية بكر صدقي نفسه وبطريقة تبدو مـــشابهة لإعـــدام جعفـــر العسكري حينما أطلق أحد مراتب الجيش النار عليه وهو في حدائق دار الضيافة بمطار الموصل قبل سفره تركيا.. قتل بكـــر صـــدقي في الحادي عشر من آب / أغسطس 1937 ومعه قائد القـــوة الجويـــة محمد علي جواد.

— 5 —

حقيبة الملك «السوداء»

بعد مقتل بكر صدقي جاء مــدير الاســتخبارات في الــسفارة البريطانية بغداد، بالحقيبة اليدوية الخاصة التي كانت بحــوزة بكــر صدقي وسلمها للملك غازي الذي أدرك أن الإنكليز قرروا التخلص منه، فالحقيبة التي وقعت بأيديهم كانت تحتوي على رسائل لأدولف هتلر تخول الفريق بكر صدقي بتوقيع اتفاقيات مع ألمانيا لتزويد الجيش العراقي بطائرات ومعدات عسكرية من خلف ظهر بريطانيا.

ولهذا فإن حادث السيارة الذي أودى بحياة الملك غازي في الرابع من نيسان /إبريل عام 1939 أي بعد سنة ونصف السنة من اغتيال بكر صدقي، شكل نوعاً من الاغتيال السياسي والقــصاص المبيــت أكثر من كونه حادث اصطدام سيارة الملــك بعمــود كهربــاء في منتصف ليلة 3 / 4 نيسان / إبريل عام 1939.

— 6 —

المربع الذهبي

«لاحـــــت رؤوس الحــــــراب
تلمـــــح بـــــين الــــــروابي..»

***

«يا تــراب الــوطن ومقــام الجــدود
ها نحن جينا مــا دعينــا إلى الخلــود»

كانت أحداث مايس/ مايو عام 1941 نتاج لحالــة التجــاذب والاستقطاب العالمي خلال الحرب العالمية الثانية وفي أشــدِّ مراحلــه ضراوةً خاصة بعد دخول إيطاليا الحرب إلى جانــب ألمانيــا ضــد بريطانيا وفرنسا وحلفائهما.

ففيما كان العراق مرتبطاً بمعاهدات مع بريطانيا عقدها مع حليفها الأبرز«نوري السعيد» بما يقضي بتقديم نوع من الدعم اللوجــستي للقوات البريطانية خلال الحروب، ظهر تيار آخر يــدعو إلى إبعــاد العراق عن الهيمنة البريطانية، بل إنه مضى بعيداً نحو تشكيل محــور يستند على علاقة مع الطرف الآخر (ألمانيا النازية بقيادة هتلر) مـــن أجل الخروج من الهيمنة البريطانية.

تحت هذه الظروف نشأت حركة رشيد عالي الكيلاني، وبتحالف الكيلاني مع عدد من أبرز قادة الجيش، أو ما عرف «بالعقداء الأربعة» وإعلانه حكومة الإنقاذ الوطني وعزل الوصي عبد الإله الهاشمي، أصبح الوضع في العراق صعباً على خلفاء بريطانيا الذين فروا إلى الأردن ليستعينوا من هناك بالقوات البريطانية التي كانت لا تزال تحتفظ بعدد من القواعد العسكرية في العراق وبشكل خاص قاعدة الشعيبة في البصرة وقاعدة الحبانية القريبة من الفلوجة غربي بغداد.

وبالنظر للفارق الستراتيجي بين قدرة القوات البريطانية وإمكانية الجيش العراقي المحدودة استطاعت بريطانيا وبفضل تفوقها الجوي سحق الحركة بسرعة واعتقلت عدداً من قادتها، وبينما لجأ رشيد عالي الكيلاني إلى المملكة العربية السعودية. فإن العقيد صلاح الدين الصباغ فرَّ إلى تركيا التي قامت بتسليمه ليجري إعدامه بعد فشل الحركة بأربع سنوات وذلك في 16 تشرين الأول 1945، وتعليقه لساعات أمام مبنى وزارة الدفاع في محاولة لإرسال رسالة واضحة لقيادة الجيش الجديدة.

ويبدو أن حضور الوصي عبد الإله خلال التنفيذ كان استفزازياً للضحية حيث بصق بوجه الصباغ قبل إعدامه فكانت مناسبة للأخير لتسجيل موقف في الثبات في مواجهة المشنقة التي ناداها أمام الجميع: «مرحباً يا أرجوحة الأبطال» ثمَّ ردَّدَ أبياتاً من الشعر استعارها صدام في إحدى جلسات محاكمته التي سبقت إعدامه.

لا تأس من غدر الزمان فطالما
رقصت على جثث الأسود كلابُ

تبقى الأســـود مخيفـــة في موتهـــا
فالأسد أسدٌ و الكلاب كـــلابُ

أما الضباط الآخرون ومعهم يونس السبعاوي فكانوا قد سبقوا الصباغ إلى مشنقة الموت أو أرجوحة الأبطال. فتم تنفيذ حكم الإعدام بثلاثة من العقداء الأربعة وهم العقيد فهمي سعيد والعقيد كامل شبيب والعقيد محمود سلمان. إضافة إلى يونس السبعاوي الذي كان وزيراً في حكومة الإنقاذ الوطني ومن دعاة تحرير الثروة النفطية من هيمنة الشركات البريطانية.

وكانت والدة يونس السبعاوي استجارت بوالدة الوصي عبد الإله مستصرخة فيها الأم، من أجل أن تنقذ ولدها الوحيد من حبل المشنقة، ولما عجزت عن إقناع الأميرة الهاشمية التي خاطبتها بتركية تنطوي على خشونة خرجت الوالدة الثكلى وهي تصرخ بوجه والدة الوصي : أسأل الله أن يكون مصير ولدك كمصير ولدي..

أعدم «العقداء الأربعة» أو «المربع الذهبي» أو «فرسان العروبة» وهو العنوان الذي حملته مذكرات العقيد صلاح الدين الصباغ التي صدرت بعد إعدامه.. وعاد الوصي عبد الإله ونوري السعيد وانتصر التيار الموالي لبريطانيا مثلما انتصرت بريطانيا لاحقاً في أوربا وسائر أنحاء العالم بحربها ضد ألمانيا وحلفائها.

يقول حنا بطاطو في توثيق المزاج العراقي الذي أعقب العنف الهاشمي في العراق بقوله:

«ولم يمح الزمن من ذاكرة العراقيين أبداً أن البيت الهاشمي وقف في ساعة الشدة إلى جانب أعدائهم. وسادت بين ذوي الحياة المتواضعة خصوصاً روحية لم يكونوا قد عرفوها منذ ثورة 1920. وفي هذه الأجواء بدا كل تصرف يقوم به عبد الإله خيانة. وعلى كل حال، فمنذ هذه اللحظة وما بعدها تحرك القوميون والهاشميون في خطين مختلفين في الأفكار والمشاعر. وفقدت الملكية ملامحها القومية، وامتلأت قلوب القوميين بكراهية الملكية ومعارضتها.»

-7-

الأرجوحة تهتزُّ في فجر آخر!

فجر الرابع عشر من شباط / فبراير عام 1949، وبينما كانـــت النكبة العربية في فلسطين تتفاعل ترددالها في شتى أنحاء الوطن العربي، كانت «أرجوحة الأبطال» في بغداد على موعد مختلف بعض الشيء عما سبقه، فطقوس العنف هذه المرة لا تتعلق بأحد الضباط الـــذين يخططون لانقلاب أو ثورة أو تمرد، وإنما بشخص مدني هو مؤســـس الحزب الشيوعي العراقي.. يوسف سلمان يوسف « فهـــد» الـــذي أدين بتهمة الاتصال بدول خارجية، وهي التهمة التقليدية التي كـــان تواجه بها الشيوعية خلال المراحل الأولى من الحرب البـــاردة، الـــتي كانت لسخونتها في بلاد الرافدين بلاغة البنادق والمشانق. أصبح هذا «العميل للأجنبي» شهيداً للشعب بقرار من الحكومة العراقية بعـــد ثورة تموز/يوليو 1958، وأصبح ما قام به من أعمال الكفاح الـــتي تستحق التقدير.

حين وقّع «فهد» نهايته أمام المشنقة بعبارته التي ظل الـــشيوعيون يرددونها طويلاً: الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من المشانق« فـــإن ميراث العنف في الصراع السياسي لم يعد محـــدداً بطبقـــة الـــضباط المتحدرين من الاستانة القديمة وإنما نشأت مراكز جديدة لتخـــريج المتصارعين على السلطة جلادين وضحايا.

كان فهد أول زعيم سياسي عراقي مدني يمثل تنظيماً له حـــضور قوي في الشارع يجري إعدامه ليأخذ الصراع شكلاً أكثر اتساعاً منذ تلك اللحظة.

8

طقوس تموزية في صيف بغدادي

ما بين تموز الأسطورة في الزمن المثيولوجي للتـــراث الحـــضاري لوادي النهرين، وتموز الشهر الساخن، في الزمن الـــسياسي للدولـــة العراقية أكثر من صلة، ليس بالضرورة صلة تفاعلية متحاورة، بـــل صلة تنازع قوية تظهر تجلياهَا في مجاورة النقائض لبعـــضها أحيانـــا، ودحضها إلى زمنها الآخر غالباً.

فتموز المثيولوجيا يمثل واحداً من ابرز طقوس الخصب والموت في حضارات المنطقة، فأسطورة موته وانبعاثه واحدة من أقدم المعتقدات التي تمثل نموذجاً بدئياً لحركة الطبيعة والإنسان وتجـــددهما، بيـــد أن تسرب هذه الطقوس إلى البنية السياسية في العراق ربما حمل المزيد من موارد التأويل الراهن في قضية الخصوبة والعنف من جهة، والمـــوت وجائحاته والتراعات متعددة المآرب في الجهـــة المقابلـــة في دائـــرة متحركة ومثيرة وقاسية حقاً.

صباح الرابع عشر من تموز/يوليو عام 1958، استيقظ البغداديون على طقس تموزي جديد، قتل فيه جميع أفراد العائلة الملكية، رجـــالاً ونساء، ملكاً ووصياً حيث لم يكن ثمة ولي عهد أخر في ذلك الحين!

وفي زحمة النقاش عن سبب تصفية العائلة المالكة في العراق وما إذا كان ثمة قرار من الضباط الأحرار بتصفيتهم يجيب علـــى التـــساؤل الضابط الذي بدأ بإطلاق النار على العائلة المالكة خـــلال اقتحـــام القصر الملكي، إذ أنه تذكر فرار عبد الإله بعد حركة رشيد عـــالي

الكيلاني وعودته ليعلق الضباط المتمردين على أعواد المشانق ويبـدو أنه خشي تكرار هذا المشهد فقام بتصفية الحساب القـديم بنفسـه وقطع الطريق على تكرار سيناريو الدم القديم بـسيناريو دم ملكـي أكثر عنفاً.

أمراء وخدم قضوا في قصر الرحاب الذي لم يعد يتـسع للملـك وجنرالات، إضافة إلى رجل بريطانيا القوي ورئيس الوزراء لمـرات عدة نوري السعيد الذي صفي في الشارع متنكراً بثيـاب امـرأة، وسحلت جثثهم في شوارع العاصمة وعبرت ضفتي نهر دجلة ذهابـاً وإياباً في طقس تموزي مرعب، سيؤرخ له بوصفه بدايـة لطقـوس نوعية من العنف الذي ستتكرر كالشعائر التموزية القديمـة في وادي الرافدين. والسحل مفردة عامية عراقية، تعني وضع حبل في رجـل الضحية بعد قتله، وسحبه في الشوارع، ورغم إن كتـب التـراث وبينها تاريخ الطبري تؤكد إن مسلم بن عقيل سفير الإمام الحـسين إلى الكوفة وصديقه هاني بن عروة قد ربطت أرجلهما بحبل وجرّا في سوق الكوفة، إلا إن فكرة «السحل» كدلالـة عنفيـة مـضاعفة، ارتبطت بالعقاب السياسي في تاريخ العراق، حيث سـحل أفـراد العائلة الملكية بعد ثورة 14 تموز، كما سحل الخصوم السياسيون في الصراعات الدموية اللاحقة، وحتى في أدق اللحظـات الـتي مـن المفترض أن تكون ذات رهبة خاصة فإن العنف اللفظي والتنـابز في لحظات رهبة الموت كان عنواناً للتنافس بين الضحية والجلاد فهـذا سعيد قزّاز وزير الداخلية في العهد الملكي يخاطب فاضـل عبـاس المهدواي الذي تلا حكم الإعدام بحقه وهو لا يملك ما يخسره قـائلا (سأصعد إلى المشنقة وأرى تحت أقدامي أناساً لا يستحقون الحياة)

— 9 —

وريث العرش القاتل.

وجد فيصل الثاني نفسه ملكاً على العراق، قبلَ أن يعرف معـــنى كلمة« ملك» وحتى قبل أن يعرف حدود العراق. فيوم قتل والـــده الملك غازي كان الابن الوحيد «فيصل الثاني» في الرابعة من عمره. إلا أن السنوات والأيام من يوم الرابع من نيسان /إبريل عام 1939 إلى يوم الرابع عشر من تموز/ يوليو 1958 وهما تاريخ مقتل كل من الملك الأب والملك الابن، كانـــت مـــسافة مكتظـــة بالأحـــداث والصراعات بين الأجنحة والولاءات، حول العراق وحول العـــرش الملكي الذي كان يدار بوصاية الشريف عبد الإله بن علـــي خـــال الملك.

وحتى عام 1953، عندما جرى تتويج فيصل الثاني ليمارس مهامه الدستورية ملكاً على العراق بعد بلوغه سن الرشد المؤهلـــة لتـــولي العرش، وفيما كان فيصل الثاني ملكاً غير متوج خلال فترة الوصاية التي قضاها متنقلاً بين الجامعات البريطانية، وحلقات الدراسة الخاصة في بغداد. فإن الوصيَّ على العرش كان يدير الـــصراعات الداخليـــة أكثر مما يهيئ الساحة للملك القادم.

وكانت اللاعب الأساسي في تلك الصراعات، وتوجيه السياسات العامة للدولة هو رئيس الوزراء نوري السعيد، احد أبرز الشخصيات في التاريخ السياسي للدولة العراقية في عهدها الملكي.

وهناك من يرى أن فيصل الثاني دفع بمقتله ثمناً لصراعات لم يكن طرفاً فيها، حتى أنّ عبد الكريم قاسم نفسه قائد ثورة تموز/يوليو 1958، طلب من الأطباء في المستشفى الذي نقل إليه الملك الشاب، وكان به رمق، أن يبذلوا جهداً استثنائياً لإنقاذه، كما أن الوثائق الخاصة باجتماعات الضباط الأحرار الذين نفذوا الثورة، أشارت بوضوح إلى وجود خلاف على قرار تصفية العائلة المالكة وخاصة في ما يتعلق بالملك فيصل الثاني.

— 10 —

قلعة الأسود..

بغداد يا قلعة الأسود
يا كعبة المجد والخلود

عندما غنت أم كلثوم هذه الأغنية تيمناً بعهد الجمهورية فكأنها كانت تؤرخ في الواقع لإيقاع جديد في وثبات الأسود التالية وافتراسها لبعضها في أقسى مراحل الصراع الداخلي.

ومع الجنرال عبد الكريم قاسم اكتسبت الزعامة معنى جديداً والبطولة شحنة مضافة، وجرى هذا التجديد والاكتساب على كل من مفهومي الضحية والجلاد في الصراع السياسي أو التنافس من أجل السلطة والخصومة السياسية الدموية.

وبينما ظلت ملامح العنف والتصفية الدموية مرتبطة برجال التكنات العسكرية من كبار الضباط وبالقصور الملكية والأميرية وأروقة السفارات والقنصليات الأجنبية في بغداد التي تدبر فصول القتل بعناية، وصولاً إلى بيوت الأعيان والطبقة السياسية من أفندية ما بعد قيام الدولة الملكية، انتقلت في عهد الثورة والجمهورية الأولى إلى حيث تنتشر جماهير الثورة وأبناء الجمهورية، وهنا نشأ مفهوم العنف الثوري في حاضنته الأرحب: الجماهير، وأضحى وسيلتها لمجابهة السلطات القائمة ووسيلتها للمجابهة الداخلية تحت مقولة مجابهة خصومها من جماهير العقيدة الثورية الأخرى، لتتسع ملامح العنف

خارج الحدود التقليدية وتخرج إلى الشارع الذي بدأ حراكاً تنافسياً عالي الوتيرة بعد أن ترسخت في العقول أفكـــار القوميـــة والأممـــة وانتشرت في الشارع نزعات إحياء ما في القلب من مشاعر ومـــا في العقل من خواطر وتحويلها إلى طقس حي، ستكون تعبيراتـــه أكثـــر قسوة من أي وقت مضى.

بدأ الطقس العنفي في التنفيس عن هذا التراكم من مشاعر البغض تجاه الطبقة الحاكمة التي عبرت عن انفصالها العضوي عـــن البنيـــة المجتمعية. وأوجدت الطبقة المعارضة مقولات اشد فتكاً تتعلق بإعلان الكفاح المسلح في صراعها على السلطة أو لتحقيق أهدافها، وإعلان الثورة الكردية المسلحة.

تحول العنف من مجرد غريزة مترسبة ونزوع مضمر إلى طقـــوس عقائدية يجري الترويج لها في الشارع السياسي، فولـــدت شـــعارات تلك المرحلة من قبيل:

(اعدم.. لا تكول ما عندي وكت.. اعدمهم الليلة) و (مـــاكو مؤامرة تصير والحبال موجودة) والحبال في هذه الأهزوجة هي تلويح بعقوبة «السحل» وليس مجرد الشنق، حتى صار رمز الحبـــال الـــتي كانت تحمل خلال التظاهرات ترتبط بالسحل، أكثر من ارتباطهـــا بالإعدام نفسه.

وبين شاعر يصرخ:

بعـــــث تـــــشيده الجمـــــاجم والـــــدم
تتهـــــدم الـــــدنيا ولا يتهـــــدم..

وشاعر آخر يرى للجماجم وظيفة أخرى بقوله: ســـنجعل مـــن جماجمهم منافض للسجائر، تمضي فصول العنف في الخطاب والثقافة والممارسة.

— 11 —

عنف الثوار

كانت ميول عبد الكريم قاسم تنحو منحى قطرياً على صعيد بناء الدولة، وتنحاز إلى المنظومات الدولية التي نشأت خلال تلك الفتــرة وبينها منظومة عدم الانحياز، وسعى إلى تمتين العلاقات مــع الكتلــة الاشتراكية، وهو ما دفعه إلى تعزيز دور الحزب الشيوعي العراقي في الحياة السياسية الداخلية للبلاد.

وبالمقابل فإن خيارات عبد الرحمن عارف الشخص الثاني في ثورة تموز/يوليو 1958،كانت تمضي نحو اتجاه آخر.. فنمــوذج الدولــة القطرية لم يكن يناسب عارف المتأثر بالناصرية الصاعدة وتطلعاتهــا المنشودة، وطبيعته الدينية المحافظة لم تكن تتقبل تنامي نفــوذ الــدور الشيوعي، في الساحة الداخلية..واتسعت الفجوة الأساسية الناشــئة من طبيعة كل من الشخصيتين، بعد قيام الوحدة بين مصر وســوريا وتصاعد دعوات الالتحاق بالوليد الجديد، من جهة، ومــن جهــة أخرى كان تمركز السلطة بيد قاسم، واضمحلال دور مجلس السيادة الثلاثي، عاملاً آخر في اتساع تلك الفجوة بما حولهــا إلى مــسافة خلاف، ومن ثم مساحة صراع.

فقد كانت الترويكا الرئاسية الثلاثية التي أنشأها الضباط الأحرار بعد نجاح الثورة تحت تسمية «مجلس السيادة » هــي الواجهــة الــشكلية الخارجية للدولة، وكان يرأسها الفريق محمد نجيب الربيعي وهو عــربي سني، وتضم كلاً من محمد مهدي كبة وهو عربي شــيعي، وخالــد

النقشبندي وهو كردي سني.وهي تشير في تكوينها إلى أنَّ المسألةَ الطائفيةَ كانت جزءاً من الحسابات التي خَطرت في ذهن الضباط الأحرار.

كما أن تكوين «مجلس السيادة» يعبر عن خلاف مضمر حول التدرج القيادي للسلطة وإدارتها بين الضباط الأحرار.

والواقع إن الخلافات بين الضباط تعود في جذورها إلى طبيعة الطبقات الاجتماعية التي ينتمي لها هؤلاء الضباط، فبينما التفَّ حول قاسم الضباط من ذوي التحدُّر الاجتماعي من المناطق التي عانت من وطأة الإقطاع فنشأت على حس طبقي، كان خلفاء عارف من أصحاب الميول القومية، ومن ذوي الرتب الرفيعة، والذين ينحدرون من عوائل ذات تراتبيات اجتماعية متوارثة.

لقد تحولت الاختلافات الفكرية والاجتماعية، إلى خلافات، وتحولت الفجوات في القناعات، إلى هاوية متسعة، وهكذا انفتحت بوابة العنف على ساحات جديدة.

ومرة أخرى يؤرخ العراق لحقبة جديدة من العنف تحت تأثير استحقاق التنازع بين الضباط الأحرار بين مشروع الأممية العالمية والقومية العربية، أو بين مشروع الوطن والأمة، أنتج هذا التنازع وجبة جديدة من الضباط الأحرار ذوي التوجه القومي جرى إعدامهم في ساحة أم الطبول ببغداد برصاص رفاقهم في السلاح والأحلام والثورة، وبينهم العميد الركن ناظم الطبقجلي والعقيد رفعت الحاج سري وأحد عشر ضابطاً آخرين وذلك يوم 20/أيلول/ سبتمبر 1959.

— 12 —

قطار السلام ورحلة الموت

كان مشكلة «قطار السلام» بداية لعهد جديد من العنف المتجول في شوارع المدن العراقية، و«قطار السلام» كان في الواقع تعبيراً عن رحلة شبابية لحضور مهرجان السلام العالمي الذي يقام في الموصل، كانت الموصل مدينة ذات توجهات قومية ناصرية، وهي مدينة محافظة اجتماعياً، وكانت هناك مخاوف من انعقاد المهرجان في الموصل لهذه الأسباب حملها شيوخ عشائر الموصل للزعيم قاسم (بعد أن اتشحت مدينتهم، بيافطات تعلن انعقاد مؤتمر الشبيبة العالمي في الموصل) كانت عبارة الشبيبة العالمية تحمل استفزازاً اجتماعيا للمدينة العروبية المحافظة) لكن قاسم أصرَّ على عقد المؤتمر في الموصل فاتجه القطار إلى الشمال مكتظاً بالشباب «الثوري» المتحمس، ليواجه في المدينة شباباً ذوي توجهات أخرى، وفي خضمِّ المهرجان، ثارت موجات العنف لتملأ شوارع الموصل. شباب سحلوا في طرقات المدينة، ونساء قتلن وعلقن في الساحات، وقتال شوارع حقيقي، أوعز قاسم لقيادات الجيش في الموصل للتدخل والسيطرة على الوضع، غير أن الساحة كانت صعبة الترويض، والولاءات صعبة التمييز، فكان التمرد الذي قاده العقيد عبد الوهاب الشواف واضم إليه العميد ناظم الطبقجلي، وغيرهما، أول إعلان مكتوب بالدم، عن انشقاق جذري في صفوف قيادة الضباط الأحرار، والجيش العراقي بشكل عام.

ومن تلك المحطة الفاصلة تحوَّل «قطار السلام» إلى نقيض اسمــه ليعلنَ بداية رحلة عنف جديدة، رحلة داميــة، لم تعــد حــدودها متمركزة في العاصمة بغداد، بل اتسع محيطها نحو بقيــة المحافظــات شمالاً وجنوباً.

تلك المحطة كانت أيضاً النقطة الأساســية لتــشكيل الميلــشيات الحزبية، فكان لدور ما يعرف بالمقاومة الشعبية القريبة من الحــزب الشيوعي العراقي أثر في تفكير حزب البعث في وقت لاحق بالمقابــل بإيجاد تنظيمات مدنية مسلحة، فكان تشكيل الحرس القــومي بعــد انقلاب 1963، ليتولى تصفية الحسابات القديمــة مــع خــصومه السياسيين، على طريقة الثأر من ميليشيا المقاومة الشعبية.

وكنوع من التهيئة النفسية لقبول فكرة «الثأر الثوري» كــان أول فيلم عرض إلى جانب فيلم إعدام عبد الكريم قاسم، هو لقطات من أحداث الموصل والتأكيد على دور ميليشيا »المقاومة الشعبية« فيها.

-13-
أضرحة وتماثيل

تحت هاجس الثأر لقتلى أم الطبول سرَّع عدد من البعثيين خطتهم لاغتيال عبد الكريم قاسم في منطقة رأس القرية بوسط شارع الرشيد يوم السابع من تشرين الأول / أكتوبر 1959، وخلال تلك المحاولة الفاشلة سقط لهم ضحية ترك في ساحة المواجهة فيما فـر رفاقـه، وبينهم صدام حسين وطه ياسين رمضان، متفـرقين في الـشوارع الفرعية، وبينما أرخ مؤيدو الزعيم لذلك اليوم بأنه يـوم النجـاة، وأطلقت الكثير من العوائل على مواليدها في ذلك اليوم ذكوراً وإناثاً اسم «نجاة» تيمناً بنجاة الزعيم، فإن جثـة الغريـري المتروكـة في الساحة ستتحول بعد استيلاء البعثيين المطلق علـى الـسلطة في 17 تموز/ يوليو عام 1958، إلى اسم ساحة الغريري، أما الجثة المتروكة فستنهض تمثالاً للغريري المقتول. وتختفي ذكرى الزعيم.

تمر السنوات.. والزعيم بلا ضريح والضحية منتصب في واحد من أهم شوارع العاصمة، ليأتي مؤيدي الزعيم بعد الاحتلال الأمريكـي وسقوط هيبة البعثيين بتمثال ساحة الفردوس لتبدأ حرب تماثيل وثأر الرموز من بعضها حيث يعود الزعيم عبد الكريم قاسم منتصباً ببدلته العسكرية التي قتل فيها إلى ساحة الغريري التي أصبح اسمها سـاحة قاسم.. الرموز والأسماء والتماثيل تثأر من بعضها وتقتص لتاريخها هي أيضاً في بلاد الرافدين.

— 14 —

رصاص في غرفة الموسيقى.

في الطريق إلى مبنى الإذاعة حيث اقتيد عبد الكريم قاســم تحــت ذريعة التفاهم مع الانقلابيين، لطمه أحد المتواجدين عند باب الإذاعة وكان عسكرياً برتبة عريف فسقطت سدارته العسكرية، وحين انحنى لالتقاطها قال له العريف: هذه من أجل نــاظم الطبقجلــي.. أمــا المهدواي الذي أصدر أحكام الإعدام الشهيرة، وكذلك العقيد الركن ماجد محمد أمين المدعي العام للمحكمة العسكرية العليا الخاصة التي كانت الموالون يطلقون عليها اسم: [محكمة الشعب] وكذلك طــه الشيخ أحمد فقد استغرقت محاكمتهم خمس عشرة دقيقــة لا غــير وأعدموا في المكان نفسه وهو للمفارقة غرفة الموسيقى الــشرقية في مبنى الإذاعة ببغداد!

اعترف عدد من الذين شاركوا في الانقلاب ضد قاسم وبينــهم طالب شبيب وزير الخارجية الأسبق والجنرال المتقاعد عبد الكــريم فرحان إن جثة الزعيم، شكلت مشكلة بعد إعدامه، لأن شعبية قاسم كانت تؤرق الجميع، ولذلك فأن قراراً اتخذ بأن لا يكون لقاسم قبر كي لا يتحول إلى رمز، لكن هذه الخطوة كانت هي شعاع الغموض الذي سيحيط بالرجل، وسيجعل من الرمز أكثر لمعاناً، فبعد أن جرى نقل جثته من القبر بعد أقل من أربع وعشرين ساعة مــن إعدامــه، حملت الجثة وربطت بالسلاسل والأثقال وألقيت في نهر دجلة، لكن دجلة الخير وماءها الجاري ستروي قصصاً خرافيــة في المعتقــدات الشعبية العراقية، وسيكون الزعيم القتيل بطلاً في وجدان المقهورين،

ففي لحظاته الأخيرة هتف قاسم هتافاً أخيراً أمام لعلة الرصاص المتجه إليه في حفلة الإعدام تلك، لكنه كان هتافاً مقطوعاً لم يكتمل، أي من الذين حضروا تلك الحفلة لم يستطع أن يحسم الجملة الأخيرة، و لم يميزوا سوى الكلمة الأولى: (تحيا أو يحيا) ثمة من يقول كان الشعار تحيا الجمهورية العراقية لكنه لم يكمله فسكت أمام كثافة الرصاص الموجه إليه وثمة من قال كان الشعار يحيا الشعب العراقي و لم يكمله أيضاً! لكن الأكيد إن ثمة ما يحيى الآن حقاً في الذاكرة العراقية وثمة من يحيا أيضاً!

ومع أن التلفزيون العراقي أظهر لقطة سريعة تظهر رجلاً بلا ملامح ينحني على جثة الزعيم المقتول ويرفع رأسه المكبوب على وجهه من شعره ويوجهه نحو الكاميرا ويبصق عليه، فإن هذه الصورة تحولت إلى خيط أضافي جعل اللمعان الآخر لصورة الزعيم يتجه باتجاه آخر، لم يدخل في تصور البعض، ومن تحت هذه اللمعان نهضت جثة الزعيم الشعبي لتسكن القمر، ولا يزال عدد لا بأس به من العراقيين، يعتقدون أن صورته تظهر في القمر العراقي الحزين!

وإذا كانت جثة قاسم قد شغلت الجميع في مصيرها، فإنها كانت بداية الشقاق بين رجال العهد الجديد، حيث تشير بعض المصادر إلى أن عبد السلام عارف كان يعارض إعدام قاسم لكنه خضع لقرار الجناح المتشدد في حزب البعث الذي كان عنصراً فاعلاً في انقلاب 8 شباط /فبراير 1963.

15

ثورة العريف الأعزل

لم تكد تمضي خمسة أشهر على إعدام «الزعيم الأوحد» ببنـــادق رفاق السلاح، حتى حدثت في معسكر الرشيد الذي يشكل الحامية الأساسية لبغدادية، بداية حركة انقلابية مثيرة في طريقتها وتوقيتـــها وطبيعة قيادته، فلم يكن ثمة ضابط بين من أشعلوا شرارة الحركة التي عرفت بحركة الثالث من تموز/يوليو أو حركة حسن السريع.

وحسن السريع جندي برتبة عريف في كتيبة الهندســـة بمعـــسكر الرشيد ينتمي للحزب الشيوعي أقدم على تلك الحركة بنـــوع مـــن المغامرة حيث لم يكن في يديه أي سلاح عندما سيطر على كتيبـــة الهندسة في المعسكر، وسعى إلى السيطرة على سجن الثكنة لإطلاق سراح أكثر من خمسمائة ضابط بينهم الطيارون وقـــادة الكتائـــب المدرعة والصنوف الأخرى.

لكن هذا التحرك سرعان ما تم سحقه من قبـــل عبـــد الـــسلام عارف، الذي وجد فيه مناسبة إضافية للتفكير في سرعة التخلص من حلفائه البعثيين من قادة الحرس القومي الذين وقعوا أسرى في قبـــضة عريف بمعسكر الرشيد. ومن هنا سارع عارف بعد بضعة أشهر إلى الانقلاب داخل الانقلاب وإبعاد البعثيين والاستيلاء علـــى الـــسلطة وذلك في 18 تشرين الثاني.

واجه العريف حسن السريع وعدد من الجنود رصاص الإعـــدام بالبذلة العسكرية بعد جعلوا استخدام العنف المسلح في الصراع على

السلطة متاحاً للجميع وليس حكراً على جنرالات الجيش، وقادة الأحزاب والمتحدرين من بيوتات سياسية عريقة.

في تلك الظروف دفع الشيوعيين ثمناً باهظاً لنزعة الثأر المترسخة لدى الطرف الآخر، جراء أحداث الموصل وكركوك وسائر المدن العراقية.

سلام عادل واسمه الحقيقي «حسين الرضي» سكرتير الحزب الشيوعي العراقي خلال انقلاب 8 شباط/فبراير 1963، اعتقل بعد الانقلاب وأعلن عن إعدامه في التاسع من آذار / مارس من العام نفسه لكنه في الواقع مات تحت التعذيب فقد فقئت عيناه وكانت الدماء تنزف منهما ومن أذنيه ويتدلى اللحم من يديه المقطوعتين وكُسرت عظامه وقطعت بآلة جارحة عضلات ساقيه وأصابع يديه.

وفي تلك الظروف لحق بالعبثيين تنكيل من قبل حليفهم السابق عبد السلام عارف، وحين جرى إعدام الطالب البعثي ممتاز قصيرة، أمام مبنى كلية الطب في جامعة الموصل ردد وهو يصعد إلى المشنقة بيتاً من الشعر يقول :

لما سلكنا الدرب كنا نعلم

أن المشانق للعقيدة سلم.

وبحسب شهادة الكاتب حسن العلوي فإن ممتاز قصيرة حين كان في المعتقل خلال فترة حكم عبد الكريم قاسم، كان يقوم خلال جلسات الترويح والممازحة داخل السجن بدور الجلاد الذي ينفذ حكم الإعدام بقاسم ويطلب الإفراج عن عبد السلام عارف، غير أن سخرية القدر ستجمعه مع قاسم في مصير مشترك هو الضحية، بينما يكون عارف هو الجلاد.

— 16 —

في ظروف غامضة!

في ظروف «غامضة» لقيَ الرئيس عبد السلام عارف حتفه، يوم الثالث عشر من نيسان / إبريل عام 1966، بعد أن سقطت المروحية التي كانت تقله في منطقة «القرنة» بمحافظة البصرة.

كان عارف أوَّلَ من حمل رسمياً صفةَ «ئيس الجمهورية» في تاريخ العراق، والظروف الغامضة التي سقطت فيها الطائرة، تحمل في تاريخ القتل والقتل المضاد في الصراع السياسي في البلاد أكثر من دلالـــة، خاصة وإن لجنة التحقيق الروسية التي استقدمت بعد الحادث، أجرتْ كشفاً على سلامة الطائرة استبعدت في خلاصته وجود أيٍّ خلل فني في الطائرة، كما أن سقوطها جاء بعد أنْ احترقت بالتدريج قبل أن تهوي إلى الأرض.

وكان عبد السلام عارف قد نجا من حكم بالإعدام خلال عهـــد حليفه عبد الكريم قاسم عندما أدين بتهمة التخطيط للإطاحة بقاسم غير أن الأخير أصدر عفواً عن صديقه «اللدود» الذي أصبح وريثـــه في ما بعد.

كان عبد السلام عارف ناصريَّ الميول لكنهُ كان أميل إلى تـــبني نموذج ذي نكهة إسلامية للدولة في العراق، وكان ذلك واحداً مـــن خلافاته العميقة مع قاسم الذي قرب الشيوعيين كثيراً، بيد أن الحس الإسلامي يبدو أنه طغى على الميل القومي حتى أنه تدخل لدى عبد الناصر لإطلاق سراح سيد قطب في اعتقاله الأول عام 1964، ولم يمض عارف بعيداً في هذا التفكير فسقط بطائرته في ذات العام الذي اعدم فيه سيد قطب.

— 17 —

الضعيف من لا يقتل!

قد تكون فترة العامين التي قضاها عبد الرحمن عارف في وراثة شقيقه، في أول وراثة في جمهورية حديثة، قد تكون أهدأ فترة في تاريخ العراق، لناحية سكون الدم، وتوقف سفكه.

فهو أول رئيس لم يلعب دور الجلاد لسلفه لكي يخلفه، وهو لم يصبح ضحية للاحق قبل أن يسلم له ما لا يملك.

لم يقتل أخاه الأقرب بغريزة «المُلْك العقيم» و لم يقاتل أخوةً له في طريق التنافس على الكرسي، فلم يخلف دماً على يديه وهو ينفضهما عند باب القصر مغادراً إلى المنفى هذه المرة، وليس إلى حبل المشنقة.

لعله الرئيس الوحيد الذي لم يطلق رصاصة ليصل إلى الرئاسة، و لم يطلق رصاصة على رأس أحد، و لم يعدم أحداً لأسباب سياسية، رغم تكرار المحاولات الانقلابية ضدَّه.

في الأدبيات السياسية العراقية يذكر عهد عبد الرحمن عارف على إنه معادل للضعف والانفلات في توصيف تلك الفترة، مثلما يوصف تسليمه العرش للانقلابين خيانة،وكأنما عليه أن يثبت عدم خيانته «لأمانة مزعومة» بدمه، وأن يعمد عصر قوته بدماء الآخرين!

— 18 —

الأبيض والأحمر! والعودة إلى قصر النهاية

عشرُ سنوات مرت على تموز قاسم وضباطه الأحــــرار، لم تهـــدأ خلالها مواسم العنف، ليحين تموز البعث في الـــسابع عـــشر مـــن تموز/يوليو 1968 والذي أطلق عليه الإنقلابيـــون أســـم «الثـــورة البيضاء» توهماً بتميزها عن سير «الثورات والثوار» بعدم إراقة الدماء للمرة الأولى في طريق الانتقال من عهد إلى عهد. بيد أن هذا البياض سيغدو مجالاً حيوياً لسكب مزيد من الدماء، فلم تمض سوى ثلاثـــة عشر يوماً فقط، حتى قام صدام بنفسه، بتنفيذ الفصل الذي لم يكن موقعه يؤهله لتنفيذه في انقلاب 1963.

كان أكثر الناس تأثيراً في نجاح انقلاب البعث والدخول إلى القصر الجمهوري بأسرع ما يمكن (مدير الاستخبارات عبد الرزاق النايف، وأمر الحرس الجمهوري إبراهيم الداوود) وكانا هما وجبة الابـــتلاع الأولى، فخيرا بين الهرب بجلديهما أو سلخهما عند بوابة القصر الذي دخلوه بيسر، لكن اختيارهما السلامة في المنفى، خلف أثراً من الندامة في القصر، فأرسل صدام من يقتل أحدهما (عبد الرزاق النايف) في لندن، ليلزم الداود الصمت الطويل قبل أن يتحـــدث بعـــد خمـــسة وثلاثين عاماً من تلك الحادثة، وعلى وجه التحديد بعد سقوط الصنم في ساحة الفردوس.

في «قصر النهاية» الذي هو في الواقع «القصر الملكي» الذي شهد نهاية العائلة المالكة - ومنه أخذ هذا الاسم - كانت تجـــري أبـــشع فصول الدم في مشاهد التعذيب والتصفية والعنـــف الثـــوري بـــين

الخصوم السياسيين، سبعة وخمسون ضحية جرى إعدامهم في ليلـــة واحدة سميت بـــ «ليلة الهرير» وهو العنوان الذي أختـــاره الـــذي السياسي العراقي احمد الحبوبي لكتابه الذي أصدره لاحقاً وسجّل فيه مشاهداته لتلك الليلة الرهيبة التي كان أحد شهودها، وكـــان طـــه ياسين رمضان يرأس «محكمتها الخاصة» التي تصدر الأحكام وتطلق النار على المقتلين في وقت واحد تقريباً.

ــ 19 ــ

فارس على كتيبة من الجثث، وراية على تلال القتلى

في 16 تموز/يوليو 1979 تولى صدام السلطة، دون أن يقتـــل في طريق توليه المنصب الأول سلفه الرئيس أحمد حسن البكر! الـــذي أعلن في خطاب غير متوقع استقالته لأسباب صحية مفسحاً الطريق «لفارس البعث» صدام ليكون «خير خلف لخـــير ســـلف» لكـــنَّ «فارس» البعث قتل في يوم واحد أكثر من عشرين من أبرز أعـــضاء القيادة والكادر المتقدم، إضافة إلى العشرات من الكادر الوســـط في حزب البعث في طقس تموزي آخر.

فبعد مسرحية بدت أكثر إحكاماً من مسرحية محاكمته الأخيرة، جمع صدام رفاق الدرب في يوم تسلمه السلطة في 16 تموز/يوليو عام 1979، ليعلن عن مؤامرة يقودها الرفاق ضده، ومن بـــين مـــسيل دموعه بصمت على خيانة الرفاق، وبجهش بالبكاء علانية في مشهد لافت، رفع صدام عينية ليشير إلى اقتيادهم نحو منصة الإعدام، لم تقف حدود القصاص عند حدود الاجتماع الموسع في قاعة الخلد ببغداد، وإنما اقتيد القيادي البعثي عبد الخالق السامرائي من سجنه ليعدم مـــع رفاقه الذين أدانوه في وقت سابق بمحكمة خاصة. وانتدب عدداً ممن انضموا إلى مسيرة تموز لاحقاً لكي يقيموا طقوس العنف وأعـــراس الدم بتوجيه بنادقهم نحو صدور رفاقهم.

أنجز صدام حفلة تصفية العشرات من تموزييه، ليلقي في اليوم التالي خطابه الرئاسي الأول، ويقول فيه: (سأكون فارساً بين الفرســان وليس الفارس الوحيد، وراية بين الرايات وليس الراية الوحيدة!)

— 20 —

مفارقة

قد يكون لافتاً أن صدام نقل العنف الدموي في العراق من صراع النخبة في مابينها على السلطة، إلى نوع من صراع النخبة الـداخلي ممزوجاً بتنكيل بالجماعة، وقد يكون لافتاً بالمقابـل أن صـدام أول رئيس يتسلم السلطة وإلى جواره في الحياة رئيـسان همـا الـسابق والأسبق، فقد تسلم صدام السلطة في العام 1979، وكان الـرئيس السابق أحمد حسن البكر حياً والرئيس الأسبق عبد الرحمن عـارف حياً كذلك، لكن صدام الذي تحاشى إرسـال أسـلافه أصـحاب الفخامة إلى حبل المشنقة لم ينجح في تجنيب نفسه حلقتها الرهيبـة، فكانت المفارقة اللافتة هنا أن يجري إعدام صدام بينما الرئيس الأسبق عبد الرحمن عارف لا يزال على قيد الحياة.

21

الثورة التي أتمت أكْلَ أبنائها

سيبدو تتبع أسماء من طحنتهم رحى تموز الأخير، كالبحث في ذاريات الرمل عن ملامحهم، فدوران الرحى كان مستمراً وقطبها دائباً لا يتوقف، لكن يكفي هنا أن نشير إلا إن من بين أربعة عشر عضواً من أعضاء (مجلس قيادة الثورة) الذين أعلنت أسماؤهم بعد انقلاب 17 تموز/يوليو 1968 ونقحت بزيادة عدد من الأعضاء بعد أقل من شهرين، لم يبق من هؤلاء يوم التاسع من نيسان/ أبريل 2003 إلا ثلاثة هم صدام، وعزت الدوري وطه الجزراوي، كان الدوري والجزراوي يترأسان المحاكم الخاصة التي تصدر أحكام الإعدام على البعثيين بتهمة التآمر.. بينما يصادق صدام على الإحكام التي تصدر خلال ساعات وتنفذ خلال أيام.

أما البقية من أعضاء مجلس قيادة الثورة فقضوا، إما بتصفية مباشرة، أو بعزلهم حتى الموت، أو جرت تصفيتهم في صراعات داخلية. ناهيك عن العديد من الوزراء وأعضاء القيادة الآخرين وهم بالعشرات، قتل أغلبهم بأيدي رفاقهم، في حفلات إعدام جماعية، في ما يمكن وصفه بجلاد الضد النوعي من داخل الحلقة الحاكمة، أو القتل برصاص العشيرة كما يسميها الكاتب حسن العلوي، فالبعثي السامرائي يقتله بعثي سامرائي ويرتقي درجة حزبية على جسده، والبعثي الكبيسي يقتله بعثي كبيسي آخر ويحل محله، وتمتد قائمة الإحلال والحلول.

الإعدام اغتيالاً داخل السجون أضحى بلاغة نوعية جديدة في لغة العنف السياسي، فقد اغتيل فؤاد الركابي، أو أمين قطـــري لحـــزب البعث العربي الاشتراكي وأول وزير بعثي في العهد الجمهـــوري في سجن بعقوبة في تشرين الثاني 1971 بعد أن دست له المخـــابرات أحد عملائها ليفتعل مشاجرة معه وبدل أن يلتف الحبل حول عنقـــه طعنه بسكين ظلت مغروسة في رقبته وهو يمشي إلى المستشفى علـــى رجليه كمن «يسحل» و ظل يترف حتى الموت.

عبد الخالق السامرائي كان من أوائل البعثيين، وفي فترة ما كـــان المسؤول الحزبي المباشر لصدام حسين. اعتقل بعد مؤامرة ناظم كزار عام في الثلاثين من حزيران / يونيو 1973 لأن الأخير طلب خـــلال اتصال هاتفي في اللحظة الأخيرة قبل استسلامه أن يتم لقاء تفاهم في منزل السامرائي، وكان ذلك مبرراً كافياً لصدام لتصفيته تحت ذريعة اشتراكه في المحاولة، فحكم بالإعدام لكن توســـط زعمـــاء عـــرب وشخصيات قومية أدى إلى استبدال الحكم بالمؤبد.. وخـــلال مـــا عرف بمؤامرة محمد عايش ورد باعترافات محيي عبد الحسين في قاعة الخلد ذكر لعبد الخالق السامرائي على أنه مرشح ليكـــون الأمـــين القطري البديل، فهتف علي حسن المجيد كأنه كـــان ينتظـــر تلـــك اللحظة وصاح بوجه صدام: سيدي لن يعرف العراق الراحة طالمـــا هذا الأفعى في السجن، فأجابه صدام وقد مد يده إلى شاربه: «خذها من هذا الشارب» فاقتيد السامرائي من سجنه وأعدم.

كان اللواء ناظم كزار مدير الأمن العام يخطط لاغتيـــال البكـــر وصدام في لحظة واحدة، وذلك عند عودة رئيس الجمهورية أحمـــد حسن البكر من زيارة لبلغاريا وفي اللحظة التي يتقدم فيهـــا النائـــب

صدام حسين لمعانقة البكر تكون لحظة الصفر التي نشر لأجلها قناصة تابعين لجهاز الأمن العام الذي كان يرأسه في أماكن عديـــدة مـــن المطار، وفي الوقت نفسه كان قد أستبق أي تحرك مـــضاد محتمـــل باعتقال كل من وزير الدفاع الفريق الركن حماد شـــهاب ووزيـــر الداخلية الفريق الركن سعدون غيدان بعد أن استدرجهما إلى مقـــره تحت ذريعة الإطلاع على المنشآت الجديدة للأمن العام. أعدم نـــاظم كزار مع خمسة وثلاثين آخرين من البعثيين والعسكريين في 18 آب 1973 بعد إدانته من قبل محكمة خاصة رأسها عزت الدوري.

وبين المحاكم الخاصة التي كانت تشكل لإعدام رفـــاق الـــدرب، وبين محكمة الثورة التي دائمة الانعقاد لتصفية المعارضين والقـــصاص من المجرمين على حد سواء تحركت رحى العنـــف العراقـــي ســـنيناً وسنيناً.

ـــ 22 ـــ

العمامة في المشنقة

السمة الجديدة الأخرى في عهد البعث أنه فتح التناحر السياسي الداخلي على آفاق جديدة، حين أضاف إلى سجل الضحايا مجموعات سياسية جديدة، ووسَّعَ حلقة المشنقة من إطاحتها برؤوس الضباط التي تعتمر السدرات العسكرية ورؤوس الأفندية الحاسرة، لتشمل رؤوساً تعتمر العمامات، وتمثلت هذه الإضافة في إعدام وملاحقة عدد من رموز التيارات السياسية الدينية السنية والشيعية، فأعدم الشيخ عبد العزيز البدري رجل الدين السني والسيد محمد باقر الصدر المرجع الشيعي والمؤسس الفعلي لحزب الدعوة.. ومن تفاعلات هذه السعة للمشنقة استحدث عنوان جديد في نمط العلاقة بين السلطة وحزب الدعوة المعارض، عنوان طرفاها من دم هما العنف الجهادي من جهة والإعدام بأثر رجعي وبمروحة شمول واسعة من جهة مقابلة.

— 23 —

طرائد المنفى

إذ كان المنفى مهرباً طبيعياً من تلك الطواحين الرهيبة والمراوح الضخمة، فإن دائرة العنف العراقي اتسعت إلى خارج الحدود هذه المرة من خلال أوكار السفارات ولغة كاتم الصوت في شوارع المدن العربية.

عادل وصفي (خالد العراقي) وزهير كمال الدين (فهد العراقي) وآية الله حسن الشيرازي، وتمتد قائمة من اغتيلوا في بيروت بتدبير وتنفيذ من السفارة العراقية، خلال السبعينات والثمانينات قبل أن تتوقف اللائحة في التسعينات بقطع العلاقات الدبلوماسية بين لبنان والعراق إثر عملية اغتيال الشيخ طالب السهيل في بيروت بتدبير ومشاركة من أعضاء السفارة العراقية.

لا يكاد يوجد بلد (عربي خصوصاً) لم تسفك عليه الدماء العراقية (بكاتم الصوت الدبلوماسي) ففي السودان تم اغتيال مهدي الحكيم خلال مشاركته في أحد المؤتمرات الإسلامية، وفي اليمن اغتيل الدكتور توفيق رشدي، كما اغتيل العالم النووي مؤيد الجنابي في الأردن وتتسع القائمة باتساع الخريطة الدبلوماسية!

وإذا كانت بيروت خلال الحرب من أخصب الساحات وأصلحها لتدبير المصائر السود، فإن سفارة العراق في الكويت، شهدت بواكير النشاط في ملاحقة المعارضين للنظام، و لم تكن الكويت ساحة لملاحقة ورصد الخصوم السياسيين للنظام فقط، بل تحولت في وقت

مبكر إلى مسرح إغريقي لاستدراج من كان ينشط في مكان آخـــر تمهيداً لتنفيذ حكم الإعدام به في تلك الساحة، وتعد عملية اغتيـــال الجنرال حردان عبد الغفار التكريتي أحد أبرز قادة الانقلاب البعثي في العراق عام 1968، واحدة من أهم تلك العمليات.

استدرج حردان من الجزائر للكويت واغتيل من قبل وكر السفارة العراقية في الكويت وجرى نعيه في بغداد بتسيير جنازته بوصفه أحد مناضلي الحزب!

تمت عملية اغتيال حردان تحت إشراف وزير الخارجية آنذاك عبد الكريم الشيخلي الذي قتل هو الآخر في وضح النهار في أحد شوارع بغداد!

24

القتل العائلي والمصير الجماعي

سقطت طائرة عدنان خير الله في ظروف غامضة، أو في حـــادث مدبر لم تكشف التحقيقات شيئاً بشأنه، فقتل صهر الرئيس الـــسابق أحمد حسن البكر وأبن خال صدام وشقيق زوجته، وهو في طريقـــه للالتحاق بصدام في نزهة رئاسية عائلية في شمال العراق وذلك يوم 5 مايس / مايو 1989، قتل حسين كامل وشقيقه صدام كامل صهرا صدام بأمر منه بعد عفو منه أيضاً لكن عفو صدام كان رئاسياً أمـــا ثأره فجاء عشائرياً غير مشمول بالعفو ، قتل راجي التكريتي مـــدير الأمور الطبية في الجيش العراقي، وقتل آخرون وآخرون من تكريت ومن العوجة من عشيرة البوناصر وصولاً إلى بيت المجيد نفسه، صار القتل يتسع ويضيق كأنه يلخص طاحونة الدم العراقي.

بعد هذا كله وحين يقاد صدام إلى المشنقة وقد رأى بعينيه مصير أبنائه وأصهاره وأنسابه وأبناء عمومته وعشيرته، تلك المصائر الـــتي خلقها لهم فهو لن يكون الفادي الأخير لإغلاق دائـــرة العنـــف في العراق، تلك الدائرة التي بدأت مع طبقات ونخب لتتسع اليوم بطريقة جهنمية ولتغدو جهنماً أرضية حقيقية تحتـــرق في أتونهـــا الفئـــات والشرائح المختلفة ضحايا جماعية لجلاد غامض يلبس أقنعـــة شـــتى ويجول في بلاد ما بين النهرين بغريزة متوحشة تمتد على طول النهرين ولا تصب معهما ولا تتوقف.

— 25 —

أحمد حسن البكر.. طموح بين الجنرالات والرفاق

يعدُّ الجنرال البعثي أحمد حسن البكر المتحدِّر من مدينة تكريت، أول رئيس بعثي يحكم العراق، وهو يتسم بكونه صاحب طموح متزايد وذا نزعة انقلابية من أجل تحقيق هذا الطموح، فقد ترك وظيفته المدنية، بعد بضع سنوات من العمل في سلك التعليم، ليلتزم نهجاً مسلكياً آخر من أجل تحقيق ذلك الطموح، ليلتحق بالكلية العسكرية ويصبح ضابطاً في الجيش العراقي.

وخلال حركة مايس/مايو 1941 انحاز البكر إلى جانب رشيد عالي الكيلاني، رغم أنه كان ضابطاً صغيراً في الجيش الملكي، فأحيل على التقاعد، ولكن طموحه بقي في تصاعده ولم يذهب أدراج الرياح.

وما إن أعيد إلى الجيش، في العام 1957 حتى انظم إلى حركة الضباط الأحرار التي كانت على وشك تنفيذ حركتها بتغيير النظام الملكي.

وبعد ثورة تموز/يوليو عاد طموح البكر ليتحرَّك في مناطق الخطر، فمال في ذروة الصراع الداخلي بين الضباط الأحرار، إلى جانب الاتجاه القومي، فأحيل على التقاعد مرة أخرى بعد اتهامه بالضلوع في حركة الشواف بالموصل.

كلّ رهانات البكر على سلوك طريق الجنرالات من أجل تحقيق طموحه، لم تصل به إلى أيٍّ منصب رفيع في الدولة، بل كانت تقودُهُ

في كل مرة أما إلى السجن، أو إلى البيت محالاً على التقاعد. لكــن دخوله إلى حزب البعث قاده إلى مدرج الطموح بقوة فقطع شــوطاً كبيراً باتجاه تحقيق ذلك، عندما حجز له موقع رئيس الــوزراء بعــد انقلاب شباط/فبراير 1963، الذي أطاح برفيق سلاحه الجنرال عبد الكريم قاسم، ولأول مرة يستبدل البكر تحالفــه مــع الجنــرالات بتحالفات جديدة مع »الرفاق« غير أن هذا التحالف جذبه ثانية من مواقع الطموح إلى قضبان السجن، وفراغ التقاعد، إثر انقلاب عبد السلام عارف على البعثيين.

ومع هذا ظلّ البكر مراهناً على الطموح الذي قاده مع البعث إلى أول مركز رفيع في الدولة، وكان له ذلك عنــدما تــولى رئاســة الجمهورية بعد انقلاب 17 تموز/يوليو 1968 الذي أطاح حــزب البعث من خلاله بحكم عبد الرحمن عارف وتولى السلطة في العراق.

ظلّ البكر أحدَ عشرَ عاماً على كرسيٍّ طموحه، لكــنَّ الحــزبَ الذي أغراهُ بترك الجنرالات والانحياز إلى الرفاق، أعاده مرة أخــرى إلى منــزله، ودون أدنى طموح هذه المرة، عندما أجبر يوم السادس عشر من تموز/يوليو عام 1979 على إعلان استقالته بصورة مفاجئة تحت ذريعة الأسباب الصحية، وليذهب إلى بيته مخلياً لصدام طريقــاً جديداً لرحلة طموح آخر.

غادر البكر تحالفات الجنرالات ومصاحبة الرفاق إلى بيته، وبينما كان الطموح لا يفارقه طيلة تلك الرحلة الطويلــة، إلا أن صــدام وضعه تحت الإقامة الجبرية في منزله، بلا تحالفــات ولا ولاءات ولا طموحات هذه المرة، حتى وفاته يوم الرابع من تشرين الثاني 1982.

— 26 —

رسائل العنف والحرب.

عندما هزم الخميني نظام الشاه بالرسائل الصوتية المسجلة التي كان يطلقها من العراق ومن النجف تحديداً عبر أشرطة الكاسيت التي يجري تداولها في إيران، فإن انتصار موعظة الفقيه لم يكن سوى إيذان بولادة خطر جديد في المنطقة يتمثل في «الفقيه الثائر»

وكان الخميني قد أجبر على ترك العراق بسبب تلك الرسائل، إذ احتج نظام الشاه، لدى العراق، على رسائل التحريض تلك ورأى فيها أعمالاً عدائية تنطلق من العراق، للتحريض على الثورة ضد نظام قائم.

رفض الخميني الرضوخ لمطلب الصمت وفضل الرحيل بصوته وثورته الوشيكة إلى فرنسا، ومن هناك، أسهمت خطاباته «الباريسية» في إسقاط نظام الشاه المتداعي.

لكنَّ رحيل الخميني من العراق بتلك الصورة، لم يكن إلا بداية لتاريخ دام بين العراق وإيران. ولأن فكرة تصدير الثورة، كانت إحدى الستراتيجيات الأساسية للثورة الإيرانية آنذاك. فقد تنبه نظام صدام، إلى الخطر المتمثل في فقهاء النجف.

كان السيد محمد باقر الصدر من بين أولئك الذي مثلوا خطراً وشيكاً إلى درجة أنه اعتبر الجناح الآخر للثورة الإسلامية الممتد في العراق، وهو الذي سارع إلى التعبير عن مناصرته لقيام الثورة في

رسالة التهنئة التي بعثها إلى الخميني، متمنياً أن تكون الثورة مقدمة لتحرير فلسطين.

وإذا كانت رسالة الخميني في الجواب على رسالة صدام المهنئة بالثورة، قد ختمت بعبارة «السلام على من أتبع الهدى» التي رأى فيها صدام استفزازاً يعبر عن عقيدة تستخدم التحذير الديني، كونها مخصصة في العادة لمخاطبة غير المسلم، فإن عبارة «تحرير فلسطين» كانت كافية لاستفزاز نظام قام على عقيدة أخرى، لا ترى سوا نفسها وعداً وحلماً قومياً بتحرير فلسطين.

كانت تلك البداية لوضع الصدر تحت الإقامة الجبرية، وحين أحس بالخطر الحقيقي يتهدده، كتب إلى «الخميني» يستأذنه بالخروج من العراق، إلا إن الأخير رأى في رسالته الجوابية إن وعد الثورة الإسلامية آت..

لكن ما كان آت حقاً، هو مرحلة أخرى من العنف، فقد أعدم السيد محمد باقر الصدر وشقيقته السيدة بنت الهدى في التاسع من نيسان/إبريل عام 1980 بعد عشرة أشهر من الإقامة الجبرية، وما هي إلا اشهر أخرى حتى بدأت أطول حرب في تاريخ المنطقة معلنة عهداً جديداً من الدم الذي يسور بلاد النهرين، وينافس أنهارها.

— 27 —

إعدام الأناشيد الوطنية

مثلما كانت مشانق الإعدام وميادين الرمي بالرصاص، تعلن عن علاقة عنفية بين الجلاد والضحية، فإن إيقاع تلك العلاقة كان يـــتمّ تحت أعلام مختلفة وموسيقى ذات إيقاع معـــين، وأناشـــيد تـــشتدُّ حماستها على إيقاع الدم، وصوت الرصاص والحروب.

كان كلُّ عهد لا يكتفي بإعدام رموز العهد الذي ســبقه مـــن الخصوم السياسيين، وإنما يوسع مفهوم الرمـــوز ليـــشملَ الأعـــلام والأناشيد الوطنية.

كان النشيد الوطني للعراق بعد استلام حزب البعـــث للـــسلطة، مأخوذاً من أغنية أم كلثوم التي غنتها ضدَّ العدوان الثلاثي على مصر، وحين قام مشروع الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسوريا، خلال عهد عبد السلام عارف، تحوَّل النشيد إلى رمز لتلك الوحدة الموعودة حيث صار يعزف في البلدان، الثلاثة، وبقي العراقيون لأكثـــر مـــن عشرين سنة يسمعون موسيقى (السلام الجمهوري العراقي) تلـــك، على حلم الوحدة الموعودة، لكن القليلينَ كانوا يعرفـــون إن هـــذا النشيد هو لحن لأغنية أم كلثوم: والله زمان يا سلاحي.

خلال الحرب العراقية الإيرانية، جرى اتخاذ قرار بكتابة وتلحـــين نشيد وطني جديد للعراق، خاصة بعد أن هجـــرت دول الوحـــدة

المفترضة هذا النشيد، حتى في مصر نفسها التي عادت إلى حقبة ما قبل عبد الناصر إلى أغنية سيد درويش: بلادي، بلادي.

كان شاعر البعث الأبرز في العراق آنذاك هو شفيق الكمالي فعهد له بكتابة النشيد الوطني الذي لحنه الموسيقار اللبناني وليد غلمية.

لكن إيقاع هذا النشيد كان ذا أثر سيء على كاتبه، إذ اعتقل الكمالي بعد ذلك بقليل بتهمة التآمر على الوطن، ثم أخرج من السجن كالميت، فرحل و لم يكن ثمة نشيد وطني يشيعه إلى القبر، رحل الشاعر تحت ذريعة خيانة الوطن، بينما بقي نشيده بغني به كل الوطن.

اليوم إذ يجري القصاص من عهد صدام بإعدامه وإعدام النشيد الذي كتبه ضحيته في الوقت نفسه فإن الدراما الموسيقى تشتدّ هي أيضاً وتتداخل مع مشهد العنف المتداخل في العراق.

— 28 —

العنف في صورة تذكارية

وصل العنف إلى حدود العائلة، بعد أنْ دارَ طويلاً، على رقـــاب النخبة السياسية، وصدور الجنرالات، وأرجل الثوار شنقاً حتى الموت أو رمياً بالرصاص أو اغتيالاً وسحلاً في شوارع المدن.

وصل إلى العائلة، فحسين كامل وشقيقه وشقيقته، حصلوا علــى العفو الرئاسي والحزبي، لكن العشيرة كانت لهم بالمرصاد، وفي لحظة ما بعد أن قطعت الرؤوس، حصولا على صفة جديدة شهداء الغضب!

تحت هذا العنف النازل إلى صميم العائلة، كـــان مقتـــل عـــدي وقصي، حتى وإن كان بأسلحة أمريكية فتاكة، فالمنـــزل الذي كان من المفترض أن يؤويهم من الخطر، كان في الواقع فخاً لهم فخاً قاتلاً ينهال عليهم رصاصاً قاتلاً وحجراً يرسم صورة التنكيل.

ينهار المنـــزل المأوى ليصبح قبراً مؤقتاً بينما تنـــهال الـــذكريات دفعة واحدة، لترسم صور الفاجعة التي رسمها الجـــلاد للـــضحية في وقت سابق واليوم غدا هو الضحية تحت ركام وذكريات، وكـــأن المشهد صار نوعاً من استعادة الماضي معكوساً في صـــورة عائليـــة، صورة للذكرى في مناسبة ما، صورة كثر ت قرابينـــها، ضـــحاياها وجلادوها في صراع دموي داخلي انتقامي ثأري، أو في صورة عنف لا يمكن تحديد هويته على وجه الدقة.

— 29 —

إمبراطورية العنف

ليس للعنف هوية في العراق كله اليوم، إنه فسيفساء الهويات الغامضة والقلقة تعبر عن حضورها في اختبارات عنفية متعددة.

فالانفلات غير المنضبط لدوامة العنف جعل العنف نفسه في حاجة حقيقية إلى إعادة تعريف، ليس من حيث التصنيف النوعي، فحسب، وإنما في تعريف هويته الغامضة العصية على التعريف.

لم يعد «العنف الجهادي» وحده قادراً على حمل كل هذه الأحمال الثقيلة من الدم المقدس والمدنس على حد سواء.

لا أصول القسوة «التاريخية» ولا «الوطنية» أو «البيئية» بكل ميراثها الثقيل، تصلح لاختزال الأمر بعنف «أهلي عراقي» حتى بإحالته إلى تلك الحاضنة التاريخية التي تغذيه باستمرار من موارد خرافية.

إنها «إمبراطورية العنف» التي لا تنجو من بطشها حتى «الإمبراطوريات العنيفة» نفسها.

فما عاد بمستطاع أحد اليوم أن يُرجِع موجات العنف القادمة على العراق من شتى جهات الأرض، ولا طقوس التنكيل والتمثيل ذات الأصول الغريبة والرموز الغامضة، إلى أصول محددة في تاريخ العراق، ولا لأي بلد محدد، قد تكون هذه الحفلة العنفية التنكرية هي المناخ الذي هيأ هذه الخلاصة العصية على التعريف وهذه البذرة اللعينة ذات الجرعات العالية من جنون التنكيل.

أنه عنف بلا هوية في أرض أصبحت امبراطورية جاذبة للعنف.

— 30 —

ولا تزال المشنقة تهتز..

ثمرة سفاح بين الثأر والعدالة، وجنيٌّ مشحون ومتوترٌ لتلك الثمرة أدخلها في شبهة الجناية، فكان الالتباسُ بين المجرم والبطل، والتداخل حدَّ تبادل الأمكنة بين الضحية والجلاد،

صورة ليست نهائية تماماً شكلتها هذه الثنائيات في انتقائية جذبها كل فريق باتجاهه في المجتمع العربي وفي العالم، وشكلت في الوقـــت نفسه كل هذه الأسئلة المتناسلة لــ«جريمـــة مموهـــة» أو «عدالـــة مشبوهة» أو «حكمة إلهية».

ولو كان الأمر يتعلق بنهاية مكللة برأس صـــدام لوجـــد مـــن يستحسنه، لكن الأمر على ما ظهر يتصل بالانتقـــال مـــن مرحلـــة القسوة في زمن المشانق إلى مرحلة الانتقام والثأر والتصفية.

مرحلة رسمت معالمها تلك المسافة بين الاستهجان والابتهاج، بين الهياج الغرائزي والبرود الإنساني إزاء القتل وجعلتنا نعيد التـــساؤل بعمق عن معنى أن يَقتلَ هذا ذاك.. أو أن يُقتل ذا هنا

الخلاصة المهمة التي تركها مرور صدام في غرفة الإعدام تـــتلخص في سؤال يمثل خياراً حائراً ويستدعي مراجعة ووقفة.. فإما أن تستمر

المشنقة بالاهتزاز بعد صدام وتسكن وحدها أو تظل تهتز ولا تسكن إلا على أعناق أخرى؟

لكن الجواب جاء سريعاً بعد أيام حين هـــوى جـــسد بـــرزان التكريتي بلا رأس، وظهر حبل المشنقة خالياً من الجسد والرأس معاً، وهو يتأرجح في الهواء فارغاً، غير أن هذا المشهد لم يكن يعني انتهاء المهمَّة إلى الأبد، لكنه كان يرسم في تأرجحه سؤالاً لا يخلــو مـــن تشفٍّ وبطش، عمَّن سيكون التالي.

لكأن الحبل كان جذلاً وقد تفنَّنَ في عنفه حتى غدا« مقـــصلة» فَصَلت رأس برزان عن جسده و لم تكتف بكسره كما كان الحـــال مع صدام! كأنَّ مقصلة الثورة الفرنسية التقت بحبل «العدالة المدنية» البريطاني، للمرة الأولى في العراق لتعزيز تاريخ التنكيل وابتكار مشهد جديد للقسوة.

صدر له..
في الشعر:

غير منصوص عليه ـ ارتكابات

(دار الحضارة الجديدة ـــ بيـــروت 1992)

المتأخِّر ـ عابراً بين مرايا الشبهات

(دار الكنوز الأدبية ـــ بيـــروت 1994)

محمَّد والذين معهُ

(منشورات كراس ـــ بيـــروت 1996)

النائم وسيـــرتُـــهُ معارك

(دار الكنوز الأدبية ـــ بيـــروت 1998)

المدلسّ لبغداد

(دار المدى ـــ دمشق ـــ 2002)

اسكندرُ البـــرابرة

(دار نينوى – دمشق – 2004)

بازي النّسوان ـــ تضوُّر زير نساءٍ في حربٍ أهلية

(دار التكوين ـــ دمشق 2008)

في النّشـــر والدّراسات:

عبد الوهاب البياتي /كتاب المختارات «مقدمة في تجربته ومنتخبات من أشعاره»

(دار الكنوز الأدبية ـــ بيـــروت 1998)

ربيعُ الجنرالات ونيـــروز الحلاّجين

(دار نينوى – دمشق – 2003)

عراق الكولونيالية الجديدة ـــ من ملحمة كلكامش إلى خرائط كولومبس

(دار رياض الريس – بيـــروت – 2005)

الفتـــن البغدادية ـــ فقهاء الْمَاريـنـــز وأهلُ الشقاق

(دار التكوين ـــ دمشق 2006)

حطب إبراهيم أو الجيل البدوي ـــ شعر الثمانينات وأجيال الدولة العراقية

(دار التكوين ـــ دمشق 2007)



ابوعلي الكردي

يتحدث الكتاب عن العراق في أتون الفتنة محاولاً رصد الوقائع التي أعادت تهييجها بعد سقوط الدكتاتورية.

وإذ أضعُ حدّي « الفتنة» بين ما جاء به «المارينز» وما اهتاج من كوامن « الطوائف» فلا مسافة نوعية بين «فقهاء المارينز» و«أهل الشقاق» في «الأساطير الجديدة» مثلما لا مسافة ما بين فتن بغداد بتاريخها.

فتاريخ المارينز، هو نفسه تاريخ التوسع «للإمبراطورية الأميركية» في رحلة، تحتاج إلى فقهاء وكشافة يعرفون الأرض الأخرى جيداً وفي عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، أضحى المارينز عنواناً لمرحلة جديدة من إدارة الصراع، وأسس «لثقافة»لم يعد فيها «الكشافة» مجرد دلائل استطلاع، بل أصبحوا فقهاء العقيدة الجديدة.

إنها الثقافة التي تجعل من الخطاب الطائفي في المنطقة وكأنَّهُ المتن المضمر من تاريخها، وهي الثقافة التي تؤدي اليوم إلى ظهور «المثقف الطائفي» الذي يلوذ بالطائفة كجماعة بشرية، ليحقق حضوره داخل الهويات الضيقة، وليست الطائفة هنا سوى امتداد لثقافات الهويات الضيقة: القبلية، والحزبية والمناطقية.

هذه الفصول المبثوثة في عناوين متعددة، ما هي إلا ذاكرة لا تريد أن تبقى محايدة، ولكي لا يبدو تاريخ العراق في المستقبل مشوشاً بضجيج أبواق الكشافة، تنزع هذه الذاكرة إلى العلانية والمواجهة عندما يكون كل شيء مائلاً نحو الانزواء والكتمان.

الفتن البغدادية

التكوين

www.attakwin.com
ISBN 978-9933-429-15-7